

فيصل عبد الحسن

الرحلة العجائبية

2021

رواية



الترقيم الدولي:

ISBN 978-9933-543-91-4

© جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى : 2022

تصميم الغلاف للفنان العالمي : رائد خليل

توزيع: مكتبة التحرير

بغداد - شارع السعدون



دار الصحيفه العربيه

بغداد - العراق - شارع السعدون

هاتف - 0096477077887944

E-MAIL: nadia.tv1972@gmail.com



دار العرب

دمشق - سوريا - حلبوني الجادة الرئيسيه

هاتف: 00963112247432

جوال: 00963940455593

E-MAIL: daralaraab@yahoo.com

الإهداء

(إلى روح أبي.. معلمي الأول، الذي لا أنسى أبداً نظرات الفرح في عينيه، وهو يراني أتقدم لأول مرة بقدمين حافيتين متعثرتين لأمسك بالقمر.)

"التاريخ لا يقول الحقيقة دائماً.. الروائي وحده مَنْ يجدها متلائمة بين سطورهِ الممحوة"

- 1 -

"القلمُ أشدُّ مَضَاءً من السَّيْفِ والكلمةُ خالدةٌ بعد هلاكِ الأجسادِ"

الهفهاف الراسبي

(10- 61 هجرية)

(632 - 683) م

الرحلة العجائبية

(1)

"ما أكبر الحب وأصغر الكراهية بميزان الأخلاق"

الهفهاف الراسبي

رتبت أنا الهفهاف بن المهند الراسبي حصيرتي اليمانية، ووضعت رقيقة الجلد مع الدواة، وقصبة الخط في مكانها عند معفر الرقوق، ورقائق الرسائل المكتوبة لي، وقصائد كتبتها أيام الشباب، و"برجماني" الذي اسجل فيه، ما يحدث لي في يومي من أحداث. وما اعتقده من أحوال الناس، والحياة وسير وتواريخ بني الأعمش، ومن حولهم من أهل العزم، والصولة في منطقة "الداكر" شمالي الأبله.

نظرت متأملاً مدورة غسل أكف الضيوف النحاسية، وفكرت، أنه لم يعد يوم بيتنا الضيوف، منذ أسر والدي الشيخ المهند الراسبي الأعمش في معركة صفين التي وقعت بين جيش الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان وجيش الخليفة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. وتذكرت رد الأمويين حول افتداء خليفة المسلمين علي بن أبي طالب لأسرى الكوفة لديهم وأغلبهم من الجرحى، الذين وقعوا في أسرهم بعد خديعة المصاحف. وانتهاء المعركة بإنشاق جيش علي بين جيش موال له وخوارج عليه. كانوا من قبل قد رفضوا التوقف عن قتال أهل الشام بعد رفعهم للمصاحف فوق الرؤوس وطلبهم التحكيم.

كان المهند كبير قبائل الأعمشة، وأكرم من عرفت الأخماس من رجالها بشهادة أعدائه قبل أصحابه. وأنفصت عني القبيلة - أنا ابنه الوحيد - وبايعت ابن عمي "مروان الأزرق" بالزعامة عليهم.

قال حكماء بيت الأعمش عني " أن هذا الولد ليس سر أبيه " فهو لا يصلح لتدليس أو مناورة لشيوخ، ورجال القبائل الأخرى من بدو الصحراء، الذين أقاموا حول الدساكر، فهو لا يجيد المناورة مثلهم، لتصريف أمور قومنا ويضمن حقوقهم في الأرض وواحات وآبارالمياه وخيرات حراسة مرور القبائل، وأن يجعلنا في عز ورفاه، كما كان أبوه يفعل.

فهو لاه بأشعاره وبرجماتات الأولين ولا يصلح لمشيخة هذه الأيام، ولا إلى إمارة مضاربنا، وذكروا متهمين بأنه لا يصلح حتى لرعاية قطع ماعز. وتنادوا بينهم ضاحكين "دعوه لأشعاره وتواريخه، التي يسجلها عن خلق الله. ولا ينال عنها حلالاً ولا حراماً. دعوه لأحلامه بالعودة إلى مصاحبة الأولياء الصالحين، الذين قضوا في الفتن، والعصبيات وحروب الجهاد.

" أتذكر ذلك وأنا أعيد المحاولة بإذكاء نار طبيخي بأبعاد الأثافيّ الثلاث عن بعضها للسماح، لكفي بوضع المزيد من الحطب، لإذكاء أوار النار لتصير كافية لطبخ طعامي.. والآن تفرغت لجمع رقوق برجماتي، وهي عندي خير ما في هذه الدنيا من جاه، ومناصب وعز كاذب. فأصفت على رق من جلد غزال الآتي: "هذا ما جاء في "الأبلة" جوؤ المدن، المطلة على نهر الخير، وعلى بعد عدة فراسخ من موقع مدينة"الخريبة" إحدى جهات الدساكر، التي سميت بالأخماس عند الفتح الإسلامي، والواقعة على أطراف الصحراء. التي يعيش حالياً أهلها على التجارة والرعي والصيد في عهدا الزاهر أثناء خلافة الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب. أقول وكرر هنا إن لا حول ولا قوة إلا بالله، أنا الهفهاف بن المهند الراسبي كبير مشايخ آل الأعمش. أقرر الرحيل في هذه الساعة عن بطاح أجدادي وأهلي في " الأخماس " للعيش مع الحضر في مدينة "الأبلة" حتى يأذن الله تعالى لي بإطلاق سراح أبي من أسره بالشام أو معرفة مصيره إن كان ميتاً أو حياً لإستعادة ملكنا، ومكانتنا بين الأعمشة، وحتى يحدث هذا الأمر وهو حادث بإذن الله وقدرته، قررت العيش بين قوم أكثر حكمة ممن أفارقهم اليوم، وأكثر إيماناً ونخوة منهم. انتقالي من هنا إلى هناك، للتمهيد لرحلة إلى الشام لإطلاق أسر والدي من أسر الأمويين بأي ثمن، ولن يصاحبني في سعبي هذا سوى خادمي مسعود، فله في قلبي محبة، ولي عنده

منزلة. وهذه بصمتي على ورقي هذا. وقعتها في فاتح شوال من السنة الثامنة والثلاثين للهجرة النبوية المشرفة. (وذكر أن للهفاهف بصمة، ممحوة لكفه بعد أن بللها بحبر دواته على الرقيقة أسفل بيانه هذا. كما جاء في عبارات من سبق، ولم تظهر أي بصمة في المخطوط، الذي وصلني.)

مرت شهور على قراري للرحيل عن "الأخماس" حتى أعدَّ العُدَّةَ لانتقالي إلى "الأبلة" يساعدي في ذلك خادمي مسعود ومنها الاستعداد للسفر إلى الشام حيث أبي المهند الأسير لدى الأمويين، وقد أعددنا أنا ومسعود الركائب التي ستصاحبنا في رحلتنا، والظهر الذي سيحمل على الركائب، وسألني مسعود عن الوجهة، فلم أجبه، فظن أن في الأمر سرا لا أريد البوح به لأحد. فصمت احتراما لرغبتني.

-2- سِفْر الصُّعُودِ

الأبلة

1 ذو القعدة 38 هجرية

"الحرُّ ينفي نفسه، ليفوز ببدنه سليماً وحرّيته."
الهفاهف الراسبي

خرجنا في قافلة ذاهبة إلى الأبلة، وذاك ما قررته بعد تفكير طويل. كانت ركائب القافلة تسلك الطريق المحاذي للصحراء، وتمرُّ في طريقها بعدة مراحل، وكل مرحلة تقطع فيها عدة فراسخ. لم تكن الطريق آمنة في كل مراحلها. فقد انتشر في بعض مراحلها قطاع الطرق، مستغلين الأوضاع السياسية القلقة بين عاصمتي الدولة الإسلامية: دمشق والكوفة.

وإن كانت السفارات لا زالت مستمرة بين الطرفين، والي دمشق؛ والخليفة الراشد علي في الكوفة. لكنها في حقيقة الأمر سفارات زائفة - كما أظن - الغرض منها كسب الوقت، لتحشيد الجيوش؛ وطلب الأنصار من قبائل الجزيرة العربية؛ وكسب القلوب بالعطايا والمناصب من جهة والي دمشق، والوعظ والإرشاد من جهة خليفة المسلمين في الكوفة.

الجميع في الكوفة ودمشق يعرفون أنّ المعركة الفاصلة بين الطرفين قادمة لا محالة وأن "صفين" ليست سوى معركة من بين معارك كثيرة قادمة بين الطرفين، ومهما فعل الأخير لحقن دماء المسلمين، فهي واقعة لا ريب في هذا. كانت تمرُّ بقافلتنا - في مراحلها الأخيرة - "تختروانات" أصحاب الأراضي، وأغنياء "الأبلة" وهي تجوب الطُّرُق المؤدية إلى مجرى نهري دجلة والفرات بعد التقائهما في نهر الجيد العريض، حاملة أصحابها. ويجر كل "تخترون"

منها حصانان. ويبدو على الأحصنة إنها جُلبت من خيول أنطاكيا، لسعة الردفين، وعلو قامة كل حصان وضخامته، فحركة التجارة بين بيزنطية، والدولة الإسلامية، لم تنقطع عبر الأراضي الخصبة في الشمال، وانتهاء بأرض السواد.

ومشاهدتنا للتختروانات توقفت بعد أن ابتعدنا فرسخين عن النهر، ولم نلاحظ لها أثراً، وبلغنا خاناً من خانات الطريق، فتوقفت عنده القافلة، لأخذ قسط من الراحة. وتجديد تموينها بالماء، ودقيق الحنطة والشعير والفواكه الطازجة والجافة، فالقافلة سائرة بعد مرورها بالأبلة إلى خرسان، حتى تبلغ بلخ، وبعد ذلك مرو، وتعبر نهر جيحون، وتبلغ نهاية سفرها في مدينة سمرقند.

كان الوجود يبدو على وجهي، وكلما حاول مسعود الاقتراب مني للتسرية عني صدّدتُهُ، وأملت وجهي عنه، فيعرف من تلك الحركة أنني لا أحب أن يواسيني أحد فيما فقدته. من زعامة وأرض، ونفوذ في أرض أجدادي وأهلي، والذي فقدته كثير وكثير، والله يعلم بحالي. فقد تحولت من سيد ابن سيد في قومي. إلى عابر سبيل في أرض الله الواسعة، لا اعرف مصيري ولا مستقري. اعانني الله تعالى على بلائي. واعانني على تقديسه وشكره، والتهوين، عما فقدته من متاع الدنيا، وما أصابني من تقلبات الأحوال.

حل وقت صلاة المغرب، فلمحني مسعود أبكي بدموع غزيرة؛ وأنا ادعو الله السّداد؛ وأطلب منه اللطف بنا، وتذليل صعوبات غربتنا. وقد أدمت دموعي قلبه، أقول هذا، وأنا واثق مما أقول. لكنه أنصرف عني، ليهييء لي فرصة لمناجاة ربي. ورأيت أهل الخان بطرف عينيّ يستعدون لتقديم العشاء لمسافري قافلتنا. وكانت توجد في الخان قافلة صغيرة سبقتنا بليلة واحدة. قدمت فيما يبدو من بلوجستان، قاصدة بلاد الشام. وقد جهزوا العشاء للجميع على مائدة مستطيلة في أوعية نحاسية مُلئت بالحساء الساخن مع قطع من اللحم المسلوق وثرید الخبز. ولمن لا يرغب بهذا الطعام، فقد جهزوا حساءً آخر من حب اليقطين المسلوق مع لحم الدجاج المسفود على نار التتور، وهذا ما كنت أرغب فيه. وقد همس "مسعود" بأذن مولى مطبخ الخان بالطعام الذي أرغبه، وكان الرجل "أذرياً" لا يفقه إلا كلمات قليلة من العربية، كما أنه كان يعاني من ثقل في سمعه، وقد تهدّل كرشه، أمامه؛ وهو الشكل العادي لهيئة من يقوم بإعداد الطعام في الخانات على طول الطريق؛ لما تتطلبه مهنتهم، من تذوق دائم للطعام، وولع بإعداد أنواع الحلوى، والأكلات السمينية، التي يتناولونها، يومياً،

فطعامهم جزء من أجرتهم من صاحب الخان، فلذلك فهم لا يتهاونون في ملء بطونهم بما لذ وطاب من الأطعمة بشراهة المفجوعين بالجوع طيلة حياتهم، فتبرز كروشهم بعد فترة قصيرة من خدمتهم في خانات الطرق.

وقد أكدت على "مسعود" بضرورة شراء ما نحتاجه من دقيق الحنطة، والشعير والقديد، ففي ضواحي "الأبلة" الأسعار أقل بكثير من أسعارها في المدينة، بما سلمته إياه من دراهم فضية، ودنانير ذهبية بيزنطية، أما الدنانير الذهبية المكيّة، التي سكت مؤخرًا، فهي شحيحة، بسبب نذر الفتنة، التي لا تزال مستمرة، التي وقعت، وقتل خلالها سيدنا عثمان، فمنع والي دمشق سكّ الدنانير المكيّة، وسكّ بدلها دنانير رفع عنها اسم الخليفة الراشد الرابع، وانحصر التعامل بها بين جزيرة الفرنجة في البحر العميق، وبيزنطة، والتجار الرومان.

وما أن أكملت صلاتي، حتى شاهدت "مسعود" قادمًا باتجاهي، فأفرغت له مكانًا على طاولة الطعام، وحالما رأى طاهي الخان جلوسنا في المكان، الذي أعدّ لتناول الطعام، فهرع صوبنا، حاملاً طنجرة ينثال منها البخار، وقدم لنا طعامنا "حساء من حبة اليقطين" مع دجاجتين مسفودتين. ومعهما خبز رومي، مداف بزيت الزيتون، وميزته المهمة، أنه عمل من القمح النقي، ولم يضاف إليه دقيق الذرة أو الشعير، فهو لين لا يتعب من يطعمه بصعوبة مضغه.

حدثني "مسعود" عما اشتراه من غلة، وما وجده من أنسجة صوفية بغاية الجمال والدقة، لدرعيات يمكن ارتداؤها تحت الملابس. وطلبت منه بعد أن عاينت بعضها واعجبني شكلها، ولمسها تحميلها على الركبية، التي إعدناها لما نتاجر به في رحلتنا، لتغطية مصاريف الرحلة، وتوفير بعض احتياجاتنا الضرورية في مدينة "الأبلة"، فهي مدينة غالية جدًا، لا يسكنها إلا أصحاب إقطاعيات الأرض الكبار، وتجار الرقيق، وتجار التوابل، وحرير الصين.

لم أنبس ببنت شفة. كان "مسعود" يعرف أنني لا أهتم كثيرًا بالمال، وأن سبب انتقالنا إلى "الأبلة" يعود لسبب آخر غير التجارة "أنه النفي الذاتي، والرفض، لما هو موجود، ومفروض على الناس بشتى الذرائع والحجج، فالحرُّ ينفي نفسه من قوم لا يطيقهم ولا يطيقونه". ولكنه كان مؤمنًا بأن الخادم المخلص عليه أن يحافظ على أموال سيده، ويصونها، ويعمل كل ما من شأنه أن يحفظه في غيابه وحضوره. ويفكر له في بعض الأحيان بما يجب عليه فعله.

استيقظنا مرعوبين بعد منتصف الليل على صراخ شديد وسط الخان، وعرفنا من أحد الذين هرعوا لمعرفة السبب " إن أفعى لدغت أحد المسافرين " عندما كان نائماً، ويبدو أنه كان نائماً قرب مخبأ لها يضم أحناشها. أسرع إليه حلاق الخان ليفصد السمّ مع الدم. وخفّ الألم عنه بعد قليل، وانخفض صراخه، وتحول إلى ولولة خفيضة. وطمأننا صاحب الخان، وهو يحمل في كفيه عشياً، وأخذ يردد على إسماعنا، بضعة كلمات مطمئنة، وأخبرنا أنه سيضع نثار عشبة البطنج، التي يحملها بين كفيه في زوايا الخان، وأحافيره، لطرده الأفاعي. وأن ما حدث، فهو أول حادث من هذا النوع يحدث في خانه منذ سنوات.

وأكد قائلاً: ربما جاءت الأفعى في ملابس الرجل أو متاعه من خارج الخان من الصحراء التي قدم منها. "

فعاد " مسعود " للنوم وبقيت مستيقظاً. فأنا من الذين إذا استيقظوا أثناء نومهم جافاهم النوم، ولن يعودوا إليه البتة، حتى الليلة التالية. وقلت في نفسي ساخراً " هذه من صفات الملوك والأمراء " وابتسمت، ويبدو أنني من نسل (الفرع الفقير من هؤلاء المحظوظين).

- 3 -

الأخماس

4 شوال 38 هجرية

"أنزني الدهرُ على حُكْمِهِ
من شامخ عالٍ إلي خَفْضِ
وغالني أدهرُ بوفْرِ الغنى
فليس لي مالٌ سوى عِرْضِي
أبكاني الدهرُ، ويا رَبِّمَا
أضحكني الدهرُ بما يُرْضِي."

حِطَّانُ بْنُ الْمُعَلَّى

ذكر صاحبني الشاعر حِطَّانُ بْنُ الْمُعَلَّى في مطلع قصيدته المذكور أعلى الرقيقة في حق نفسه ما طاب لي ذكره، وأرى قوله في حقي أيضاً، حين بلغه حالي وما آل إليه أمري. فحِطَّانُ افتقر بعد غنى وذلٍّ من أهله وقومه بعد عزٍّ وجاه في يثرب مثلي تماماً، فأرسل لي يقول أنما مطلع قصيدتي هاته، عما جرى عليَّ وعليك يا صاحبني وعلى والدك المهند، فطب نفساً أنما الدهر يومان، ويومك القادم ويومي أفضل من الذي مضى بإذن الله.

لم يكن لي في طفولتي من الأصدقاء في "الأخماس" إلا عدداً قليلاً من أولاد الصحابة، ومن جاء مع قبيلتي، ووالدي يرحمه الله عند دخول أرض السواد، وتخليصها من حكم الفرس. ومن صداقاتي القديمة، صداقتي مع أبي علي الحسين سر أبيه وموضع محبة ذويه. وكنت أزوره بين الحين والآخر، حين يخرج في شهر شعبان إلى تخوم "يثرب" مع أترابه، وآل بيته للتعبد والتهجد استقبالاً لشهر رمضان بالطاعات، والتوسل إلى الله تعالى والاستغفار. وكان يقصد خيمته في ذلك العراء على بعد فرسخين شمال الأبله.

ومن ذكرياتي عنه أنه كتب لوالي الشام "معاوية بن أبي سفيان" يلومه على ما بلغ أهل مدينة الرسول من فحش وسوء خلق أبنه يزيد. وكنا وقتها كلنا لا نحشر أنوفنا في السياسة، لكنه أبى إلا أن يكتب له على أمل إصلاح ولد الوالي. ووصل كتابه إلى معاوية، وهو بين جمع من حاشيته. فأنكر بعضهم جرأة أبي علي الحسين عليه في الخطاب، وأشاروا عليه أن يكتب له كتاباً له يصغر إليه نفسه، فقال معاوية لهم "وما عسيت أن أعيبه؟ والله ما أرى فيه للعب موضعاً." ولم يكتب إليه، وطلب من أبنه إن يكف عما فيه من لهو وسفه. فكبر بعيوننا جميعاً، لأنه لا يقبل في دين الله منقصة، خصوصاً إذا جاءت في من في يده أمور رعية من رعايا المسلمين.

وفي جلسة طويلة شملها بعنايته، ولطفه وجوده علينا. وقد جلس بين جمع من أهله، وأصحابه، كالشمس المضيئة، ومن حوله إخوته كالأقمار المنيرة. ويليهم في الجلسة أبناء إخوته، وأبناء عمومته وأصحابه. قالوا فيما كان يجري في تلك الأيام من خروج علي خليفة المسلمين. فهز رأسه أبو علي الحسين، وقال مبتسماً. وما أجمل ابتسامته، فإنها تسلب جماع الروح، وتجعل محدثه أسيره لا يلتفت يميناً ولا يساراً لئلا يفلت شيء من بركات قوله.

- يا ابن المهند الراسبي أن الأمر قديم، وليس جديداً. أتدري، أن موضوعه بدأ منذ تنافس (هاشم وأمية) على الزعامة في مكة، ففاز بها هاشم قبل أن يولد معاوية؛ فخرج أمية ناقماً إلى الشام، وبقي هاشم منفرداً بزعامة بني عبد مناف، فكان هذا أول انقسام بين الأمويين والهاشميين؛ هؤلاء يعتصمون بالشام؛ وهؤلاء يعتصمون بالحجاز!!
فقلت:

- الإسلام جاء بخلق جديد، وروح أخوة بين المسلمين تمنع الفتنة.
- ذلك واقع لا مهرب منه وسنبقى أعراباً تفرقنا بداوتنا، وعاداتنا وعصبياتنا، ولن نغادرها أبداً، لا في هذا الزمان، ولا في الذي يليه إلا من رحم ربي، ممن آمن واتقى، حتى يرث الله تعالى الأرض.

فاز من فاز وخسر من خسر، هي الدنيا، فيها من اعتزل زخرفها، وفيها من اشترى وباع!! فلا تغرنك الأيام التي تعيشها، مهما ازدانت وكملت، فهي إلى نقصان وأقول.

وما أن التقى أبا علي في مجلس أو في طريقه من طرق "يثرب" عندما كنا صبياناً لم تخط شواربنا بعد، فكان يسحرني بخطابه ورجاحة فكره، ودمائة

خلقه؛ ولم يكن هذا وحده ما يسحر به رفاقه، بل ما يحيط به من رؤية وانبهار عجيب أم أر مثيلاً له لدى جميع أولاد الصحابة من الأنصار والمهاجرين !!
كنت أكبر منه بسنتين أو ثلاث سنوات، ولكن أين أنا المسكين من ذلك القمر المنير؛ المهذب بالفصاحة والعلم، والورع والصدق، حتى أنني كنت أقول له مازحاً "يا مَوْلَاي!!" فيبتسم، ولم أر في حياتي أجمل من ابتسامته، ولا أعمق من الفرح، الذي تشيعه، في كل من يراها على شفثيه.

ولا زلت إلى اليوم أتذكر حسن بيانه في وداع الشيخ أبي ذر الغفاري، الذي نفاه معاوية والي الشام إلى المدينة، ومنها نفاه الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان، إلى الرملة بفلسطين في وادٍ غير ذي زرع، لأنه كان لا يقبل غير قول الحق، مهما بلغ شأن من يواجهه، فلم يطق أهل المدينة من الأنصار، والمهاجرين حدثه في مواجهة كل من يقع في معصية أو شبهة معصية!!
وكان الزمن وقتها، زمن غنائم ومناصب وجرايات وأموال تغدق وأخلاق تسوء يوماً بعد آخر !! وبدا الغفاري بينهم وكأنه من عصر آخر غير عصر يثرب، الذي عُرِفَتْ به مع بداية الدعوة الإسلامية واحتضانها للمهاجرين والدعوة المحمدية؛ وهذا موضوع يطول شرحه في هذا "البرجمان" وقد اعرج عليه يوماً حين استقر بالأبلة، مدينة الفكر والفصاحة، والشعر، فأدونه بما يفيد من يأتي بعدنا من أبناء وأحفاد. فقد سمعت أبا علي الحسين يودع الشيخ الغفاري الماضي بمركوبته ومعه غلامه وعائلته ومعهم متاع قليل إلى تخوم المنفى ببيان لا ينسى، قال فيه:

" يا عماه أن الله قادر أن يغير ما قد ترى، والله كل يوم في شأن؛ وقد منعك القوم دنياهم، ومنعتهم دينك؛ وما أغناك عما منعوك، وأحوجهم إلى ما منعهم؛ فأسأل الله الصبر والنصر، واستعدّ به من الجشع والجزع، فإن الصبر من الدين والكرم، وأن الجشع لا يقدم رزقاً والجزع لا يؤخر أجلاً!!"
أي بيان عالي المقام هذا يا أبا علي؟ وأي فهم للإيمان لم نكن نعرفه نحن، الذين كنا بعمره من أبناء الصحابة؟ والله ليكثر علي حزني، لمفارقة صحبتك، وبيان صفاتك، والنزول من علمك، منزل الفاهمين !! ولكن هي الأقدار ... شاءت أن أكره ما يفعله أهلي، وأخاف أن يعوزني الصبر، فيضيق صدري، فاقع فيما يكرهه الله تعالى، ورسوله، وتكرهه النفوس الكريمة، فقتال الأهل والأصحاب من أجل المنصب أو الجاه، وهي عوراض حياة زائلة، وليس من شيمة أبي ولا شيمتي ان أكون كما يريدون !!

أنا شبل أب ترك الدنيا وراء ظهره، لكي يري أعداءه أنه زاهد بدنياهم
ودنائاتها. ويوم أخبرتك يا أبا علي تركي "الأخماس" والسير إلى "الأبلة"
مددتُ كفك، وقبضت على أصابعي، وقلت "ومن ينصرني أن ذهبتي يا
هفهاف؟!!" فدهشتُ، فلست في معركة، وأنت بين أهلك وأصحابك، وعرفت
سر دهشتي، فابتسمت ابتسامتك الساحرة " كل الذي تراه زائل، وسأكون
وحدتي مع نفر قليل من أصحابي وخلصائي من أهل بيتي!!" ألم يقل عيسى
على رسولنا وعليه السلام " ستتكروني جميعاً، وأولهم أنت يا يهوذا؟"
وظننته يمزح أو يرمي لي بحكمة الحياة، وأسرار دورات الزمن، واختلاف
الأوقات والمصائر، وأظنه كان يحكي عن نفسه في زمن تسود فيه لغة الدينار
والدرهم، وقد بدأ هذا الزمن يسود بالفعل!!

- 4 -

الأبلة

3 ذو القعدة 38 هجرية

"تَمَلَّكَتِ الْفَوَادَ بِدُونِ عِلْمِي
فَمَا أَزْهَى الْفَوَادَ وَأَنْتِ فِيهِ
وَأَحْكَمْتَ الْقِيُودَ عَلَيَّ حُبًّا
فَلَا حَقَّ لِيَّ لِأَدْعِيهِ.."

"مسعود الأعمشي"

من وقائع رحلتنا الميمونة، أننا استيقظنا قبل الفجر بقليل لتأدية صلاة الصبح، فالיום آخر يوم سفر لنا، لندخل " الأبلة " وبها نستقر حتى يأذن الله تعالى. كان الفجر مغبشاً بالقليل من الضباب بمستوى مراوح النخيل، وأعلى طرق البساتين النيسمية بين أشجار الرمان وداليات الغناب.
وما أن أكمل المسافرون صلاة الفجر، حتى هرعوا إلى ركائبهم يشدون متاعهم، ويتفقدون ما تركوه ليلة أمس تحت حراسة عسس الخان. وما أن صليت حتى غيرت ثوبي بآخر، وعمامتي بأخرى من قماش قطني. وعند مدخل المدينة واجهنا موقفاً لن أنساه طيلة حياتي. كان أحد تجار الرقيق يصطحب معه جاريات صغيرات السن، هلعات، ويبدو أنهن فارسيات من جبال بلوجستان تم سبيهن. وقد بدت على وجوههن آثار نعمة سابقة، ورقة لا مثيل لها إلا لدى بنات الذوات. وبدون لي أنهن قد تم سبيهن من بيوت مرموقة من بيوت الحكم الفارسي، الذي هزمته جيوش المسلمين. الذين فتحوا خراسان وبلوجستان، وتوغلوا عميقاً في أرض البلوش والمجوس.

كان التاجر يعرضهن للبيع على القوافل القادمة من الشرق، والمتجهة إلى الأبلّة. ويدل على رقيقه بأرق العبارات والأوصاف، قائلاً:

" لو سئلت الحاظنا عن قلوبنا

إذن لاشتكت مما بها وتبرمت

وما هكذا إلا عيون ذوي الهوى

إذا خافت الأعداء يوماً تكلمت."

كانت أصغرهن تبكي بكاء المثكولة؛ ودموعها الغزيرة تبلل وجهها، وأمست بذراعي حالما شاهدتني، وأمطرته بالقبلات، ورجتني أن أخلصها، وأخواتها الثلاث من هذا السبّي الظالم!!

كلمتني باللسان الأعجمي، وأنا أفهم الكثير من هذا اللسان. فرق قلبي لها، واشتريتها وأخواتها السبّيات بثلاثين ديناراً ذهبياً من التاجر، وذهبت ومسعود والتاجر، والسبّيات إلى مسجل الرقيق، القريب من الخان، وسجلنا عقدي البيع والشراء، واستلمت رقوقهن السابقة. وأطلقتهن لوجه الله!! وسمعت بعض المسافرين يسخرون مني ومن وطيبة قلبي، وإنفاقي دنائيري الذهبية بلا جدوى، وأخذوا يلومونني، لأنني فرطت بثلاث فتيات فائقات الجمال والعذوبة بلا مبرر!!

وبدت الفتيات مفتونات بكرمي ورجولتي ونخوتي، وكنّ طيلة انتظار كتابة صك عتقهن من وضعهن كجاريات مملوكات للغير يرمقني بعيون ممتنة. وسمعت أحد الحاذقين يقول، ممن حضروا البيع والشراء والتسجيل:

- " لو كان هذا المخبول ذا خبرة لاحتفظ بهن حتى يصل الأبلّة، وهناك سيبيعهن بأضعاف ثمن الشراء، فالجوارى الفارسيات مفضلات على الروميات والشركسيات، والكركيات، لعذوبة معاشرتهن، وانقيادهن لمن يملكهن وإخلاصهن لمالكهن!!

وصادف أن قدمت قافلة ذاهبة إلى خرسان، فأوصيت بهن خيراً، وأعطيت كل واحدة منهن صك عتقها، ومنحت كبيرتهن صرة فيها دراهم ودنانير لنفقتهن في الطريق، حتى يبلغن مدينتهن وأهلهن. وأنقذت حملتدار القافلة الفارسي أجرّة مضاعفة عن تأجير ركائب له كانت خاوية، لتقل الأخوات الثلاث، لتذليل صعوبات سفرهن.

دمعت عينا مسعود، وهو ينظر هذه الرأفة والشهامة في عملي. وما أن اطأنت عليهن، وغادرت قافلتهم، حتى رأينا أصغرهن، وهي تبعث تحياتها

بكفها الصغيرة البيضاء من فوق هودجها، وتؤشر إلى السماء، كأنها تقول لي
أن عملك حفظه الله لك، وأنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً!!

دخلنا سوق الأبله الكبير، قبل صلاة الظهر بقليل، وياله من سوق عظيم!!
لم نر مثله في عموم المدن التي مررنا بها من قبل. امتد السوق متعامداً مع
نهر عظيم عذب المياه، واسع، وله ضفتان مرتفعتان. يهبط إليهما أصحاب
الزوارق، والجبائش بسلام من الحجر، وأخرى من الخشب والحبال.
وفي النهر رست الفلك العظيمة والأبوام مرتفعة الأشرعة، والقوارب
المتوسطة بأعمدتها المنتصبة، وجبائش قصب البردي، المحملة بالغلال،
ومرصصات تمر الأبله وأثمارها وخضروات قادمة من الشمال جاءت من مدن
ومداشر، وديساكر تقع على ضفاف نهري دجلة والفرات.

وما أن تركنا القافلة، حتى قصدنا حمّام المدينة بعد أن وضعنا متاعنا في خان
حفظ البضائع، وأخذنا صكاً ممهوراً بما أودعنا، وتخلصنا في الحمّام الساخن
من وعشاء سفرنا. وما أن خرجنا من الحمّام، وجلسنا في استراحة قصيرة
بانتظار حلول وقت صلاة العصر في غرفة المجلس في النزل، الذي أكثريناه من
صاحب عقارات للكراء، حتى علت الأصوات.

فخرجنا من النزل نستطلع الأمر، فشهدنا على رأس الطريق ثلة من الفرسان
يحيط بهم جمع من أهل المدينة، وصبيانها، وقد ارتدى الفرسان ملابس غريبة
ملونة، واعتَمروا عمامات ملونة هندية، وأمسكوا سيوفاً لا هي بالكرجية ولا
الفارسية ولا اليمانية، فهي طويلة تصل إلى الأرض، محنية على شكل نصف
دائرة، مغمدة في أعمادها.

وقد كان على رأس هذه الثلة من الفرسان فارس طويل القامة متوشحاً
بعمامة ضخمة زرقاء اللون، متوّجة بكركوشة صفراء، متناثرة على نصف
قطر العمامة.

وعرفنا من الناس الذين تجمعوا حولهم. إن هؤلاء يقومون بدور الوسطاء
بين التجار، وصعاليك الصحراء، الذين ينتشرون في بادية الجزيرة، ويفرضون
إتاوات على القوافل المارة، وهؤلاء ينالون ما يشبه الحسنة من التجار،
لتوسطهم بين الصعاليك والتجار؛ لأجل تأمين سفر القوافل في كل مراحلها عبر
بادية الجزيرة.

رقص هؤلاء الفرسان أمام الجميع، وعزفوا بنايات من القصب، فيها العديد
من الثقوب الجانبية، المزففة بالقيير. وكان أمامهم رجل قصير القامة طويل

الذقن، هو أميرهم بلا شك ينفث من فمه النفوط، فتخرج من فمه كرة نار هائلة تدهش الحاضرين.

وكان حاديهم يروي قصة "عنتره وعبله" ويردد أشعار عنتره، حسب وقع أنغام الناي، فأدهشنا برقة سرده، وخفة رقصه، وتناغم الصفير الحزين مع الكلام المقفى، فلم نملك إلا أن نقول لهم بين فترة وأخرى: تبارك الله... تبارك الله. ونرمي لهم ببعض الدراهم، فيهزون رؤوسهم شاكرين، ويزدادون نشاطاً ومرحاً.

وعرفنا بعد ذلك من أهل الأبله، أن هؤلاء من "أهل الكدية" يعيشون في هذه المدينة الكبيرة ويرتزقون بهذا طريقة. واستبشرنا خيراً بسكننا الجديد، فقد تعلمت من أبي، أن وقوف "أهل الكدية" بباب سكنك الجديد، هي بشارة خير: بسكن مريح ورزق وفير وسلامة وآمن وصحة وسعادة قادمة لك بإذن الله تعالى.

6 ذو القعدة 38 هجرية

"كل من سلك طريقاً لا يؤدي إلى تعلة يرضاه الله ينتهي إلى التيه !! "

الهفاهف الراسبي

لم نبقَ طويلاً في الأبله، فهي دار استقرار دائم لمن رضوا بمصيرهم، وما قسمته لهم الأيام، وأنا ليس من هؤلاء !! وبعد أيام على بلوغنا الأبله، رأى مسعود على وجهي ما ينبىء عن الكدر، فحاول التسرية عني بمختلف السبل، لكنه لم يستطع، وفي اليوم السابع طلبت من صاحبي مسعود أن يشتري لنا الدار التي أكثريناها من صاحبها، ويسجل صك ملكيتها عند قاضي الأبله في الجانب الآخر من النهر عند جامعها الكبير، ويبحث لنا في ساحة القوافل عن قافلة مغادرة البصرة، ومتجهة إلى بلاد الشام لأحقق ما خرجت من الأحماس لأجله، إطلاق أبي من أسر الأمويين !! مهما بلغت المخاطر، فقد جرح والدي المهند الراسبي في معركة صفين في الأيام الأولى من شهر صفر في السنة الماضية 37 هجرية وأسر هناك، وأشيع وقتها أن الله توفاه !! لكنني لم أكن مصداقاً لما سمعت من أخبار موته.

لم يناقشني " مسعود " فيما طلبته منه، فهو يعرف كراحتي لمن يحاول ثني عن قرار اتخذه. وفعل ما أمرته به، وفي اليوم التالي كنا في القافلة التي تغد السير متجهة إلى شمال البصرة صوب بلاد الشام !!

أنشغلت في الفترات التي تتوقف فيها القافلة عند أحد الخانات بتدوين ما يحدث لنا أو نصادفه في طريقنا، أو ما يحدث من أحداث تصلنا أخبارها من هنا وهناك، وكنت أنشغل أي إنشغال بما أدون حتى أن قصعة الطعام التي تعد لنا في الخان الذي نبلغه تبرد قبل أن أمد يدي إليها، ولم يشأ " مسعود " حثي على تناول الطعام، إن كنت مشغولاً بالتدوين لنلا يضيع علي تسلسل أفكارني في كتابة ما يعن لي من مشاهدات وأحوال الدنيا حولنا، وأصبحنا - وقتها -

قريبين من قرية "ابطريوس"، وكان على القافلة أن تخيم في أقرب خان على الطريق المحاذي لنهر الفرات حين دعانا قس، ورهبانه إلى دير قريب. وعرضوا على المسافرين العشاء والمبيت في الدير، وهذه عادة كبير القساوسة في هذا الدير مع المسافرين القادمين من الشام أو المغادرين صوب الكوفة عاصمة الخلافة، ومنها إلى الشام.

كان كبير القساوسة مهيب الطلعة عليه وقار عجيب يلحظه كل من رآه، وهذا ما شعر به رفيقي، وجميع من كانوا في القافلة حتى ذلك الشاب الأبرص، الذي يتصرف كأمر وينفق مالاً كثيراً في كل صادرة وواردة من دون أن يرف له جفن.

عرفت اسمه مصادفة كان حملتدار القافلة يكنيه بأبي الهيجاء، وهو قليل الكلام كثير التدقيق في الوجوه. وفي الدير وجدنا أن الرهبان فرشوا لنا الطنافس والزرابي الفارسية والمرسومات الرومية، وعلى الجدران علقت الصلبان بمختلف الأحجام.

وأخذ كبير القساوسة ويدعي مرسيل يرحب بنا بعربية ثقيلة تشوبها عجمة رومية، وكان الرهبان من أجناس مختلفة من العرب والقفجاق والكرج والارمن والترکمان والاحباش.

كان العالم جميعه أرسل ممثليه إلى هذا الدير، وبالفعل فقد كان قسمهم الأكبر له مهابة الزعيم الروحي، وقد كانت له نظرات ثاقبة؛ وحالما رأني شعر أنه أمام مسافر غير الذين يلتقيهم في كل مرة، وبالرغم من أنني أشحت بوجهي عنه إلا أنه ابتسم. وقال :

"كلنا من تراب وكل تراب من أرض الله، فلا تعجب من كثرة أصولنا في هذا الدير نحن منذ زمن طويل ننتظر قافلة بعينها تحمل لنا خبراً عظيماً وحدثاً جلاً، وهنا نحن عبيد الله في أرضه ننتظر القادم البعيد . سألته متعجباً. من تنتظرون يا سيد الدير؟ قال وابتسامة لا تفارق ثغره ؛ ننتظر من عاهدتوه وخذلتوه، ومن فرطتوا به. ننتظر من أعطى الله تعالى كل شيء ولم يستبق لنفسه شيئاً، ولم يبخل في العطاء طيلة حياته. ننتظر ما ستأتي به الأيام من هذا الطريق.

الكوفة تبعد عن ديرنا زهاء 600 مرحلة، وكل مرحلة تقطع بسبعة أيام، والقادم سيأتي من هناك بعد سنوات. لم أفهم من كلامه شيئاً، لكنني جاملته بهز رأسي موافقاً. فقال مبتسماً بطيبة:

— "اعتبروا أنفسكم مع أهلکم"

وقدم لنا الرهبان الطعام والفاكهة؛ وكان للتوابل الهندية أثرها في جعل مذاق الطعام مختلفاً عن كل الأطعمة الساخنة التي تناولناها على طول مراحل الرحلة. وقدم لنا بعد الطعام اللذيذ، الفالونج، وهي حلوى الميسرين من الروم والفرس المصنوع من العسل ودقيق الذرة.

وفي المساء حدثنا الأب مرسيل عن أخوة المعتقد بين المسيحيين والمسلمين، ورسم إشارة الصليب، وهو يحدثنا عن العالم المليء بالشرور، والله تعالى خلق الأرض واسعة واختار لعبيده استعمارها؛ ليصنعوا فيها جنة مشابهة لجنة أبينا آدم بالتعاون، والمحبة، والآيثار، وهكذا علمنا معلمنا عيسى، ولا أظن أن رسالة محمد إلا تكملة، وخاتمة لما لم يكمله سيدنا المسيح. ومن جديد رسم إشارة الصليب في الهواء.

وعندما رأى دهشتنا من كرم ما وفرته مائدته لضيوفه من أصناف الطعام، والحلوى والفواكه، أخذ بيد سيدي الهفهاف فتبعته، وهو يقود سيدي إلى مستودع أطعمة الدير، وقال، الراهب:

- " كل هذه الخيرات من الحبوب وصلتنا من خليفة الزمان في الكوفة، وهي من معاش أهل الأديرة، التي خصصها لنا الخليفة علي بن أبي طالب. وهي تصلنا في السنة مرتين. بُعثت ماهرة بختم، وطابع خازن مخازن الكوفة، ووصلت لديرنا مع قافلة الحكومة، المتضمنة البريد والمعاش، وصدقات المحسنين، إلى المحتاجين، وجرايات الجنود في تخوم الدولة في بلاد السند والهند، وإلى أقصى الجنوب، حيثما يوجد ثغر للمسلمين. فلاتدهش من كثرة وألوان الأطعمة، التي قدمناها لكم، فهذا الجود من جود دولة المسلمين. "

- " وألفت نظرك أن في هذه البعثية وضع الخازن شذرات من القصائد الوعظية، التي قالها الخليفة الراشد علي بن أبي طالب. "

ورأيته يخرج من قراب جلدي. كان يخفيه عند صدره ورقة مطوية من أوراق عجين القصب المجفف، الذي تم تثقيفه، وبعد أن فتحها قبلها وشم عطرها، وقرأ على سيدي بصوت متهدج، وهو يوشك على البكاء، وكان سيدي الهفهاف يستمع إليه بمنتهى الانتباه.

وتتحنح قبل أن يقرأ بصوت حزين:

" النفس تبكى على الدنيا وقد علمت * أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها * إلا التي كان قبل الموت يبنيها

فان بناها بخير طاب مسكنها * وان بناها بشر خاب بانيتها
أين الملوك التي كانت مسلطنه * حتى سقاها بكأس الموت ساقياها
أموالنا: لذوى الميراث نجمعها * ودورنا: لخراب الدهر نبنيها
كم من مدائن في الآفاق قد بليت * أمست خراباً وافنى الموت أهليها"
كان الراهب يفرد كفيه وهو يقرأ، متأسياً بحال من سهى عن هذه الدنيا
ومهالكها، للخلق، وظلال الكفين تقع على جدار غرفة المعيشة.
وفي تلك الليلة بعد العشاء أخذني الأب مرسيلاً إلى جانب الحوش. كان القمر
منيراً والرياح ساكنة، وثمة نسمات لطيفة البرودة تهب علينا من نهر الفرات.
وكنا نرى لصفة نور القمر فوق موجاته من باحة الحوش لارتفاع الأرض،
التي أقيم عليها الدير. وكان يبدو عليه، وكأنه يسرني بسر خطير.

"ما أكثر عدد قبور الأموات وقلة عبرة الأحياء،
تقول لنا ما نعيشه لله باق، وما نعيشه لأنفسنا محض تراب"
الهفاهف الراسبي

- وددتُ أن أخبرك سيدي الهفاهف - ثم رسم علامة الصليب في الهواء - اني
أقيم منذ سنوات في هذا الدير قريباً من صحراء الفرات العظيمة، بانتظار تحقق
نبوءة وردت في كتابنا المقدس ذكر فيها " إنَّ هناك ذبيحاً على شاطئ نهر
الفرات، وكنت اتساءل كلما قرأت النص من يكون هذا الذبيح؟ وما اسم المكان
الذي تحدث فيه هذه المصيبة؟ وبقيت لسنوات وأنا أتفكر في هذا النص الغريب،
وسألت الكثيرين من الأباء والقساوسة الكبار، وراجعت كتباً لا تينية كثيرة تعود
إلى القرن الرابع الميلادي، ولكن الجميع لم يعلموني بسر هذا النص أو ما يعني
بالذبيح المقدس، وجاء في يوم من الأيام القس مرقىوس كبير قساوسة الشام،
قاصداً منطقة النواويس القريبة من بابل، فرأى الحزن واليأس في وجهي،
وشعر ببرودة تعاملتي معه. فسألني إن كنت مريضاً، فقلت له " أن نعم ولا في
الوقت ذاته ". قال وما مرضك ولدي مرسيل؟ قلت أريد معرفة نص ورد في
الكتاب المقدس، وقد اتعبني البحث حول سره، وأظن أني قريباً سأمرض
بمرض لا شفاء منه إن لم اعرف تفسيره.

ابتسم الأب مرقىوس وقال:

- عرفت هذا منذ زمن.. وجئت لكي اعلمك ما في هذا النص من أسرار.

وأكمل بعد لحظات، بينما كنت غارقاً بدهشتي من معرفته وسألته:

- وهل عرفت أي نص في الكتاب المقدس أقصد؟

فأشار برأسه " أن نعم اعرف ما يحيرك ". وأردف:

- " ألسنت حائراً بمن يكون "الذبيح المقدس" على ضفة نهر الفرات؟ وفي
أي مكان بالضبط من نهر الفرات سيذبح، والفرات يمتد من منبعه، وحتى

مروره في صحراء شاسعة حتى مصبه مسافات طويلة، ويمر بمدن ومداشركثيرة؟

– نعم ذلك ما اوقعني في الحيرة. ولكن ليس طوله فقط ما حيرني بل أن معارك كثيرة وقعت على شاطئيه وقريباً منه منذ ميلاد سيدنا المسيح – ورسم إشارة الصليب في الهواء – إلى يومنا الحالي، وقد مرت ستة قرون كاملة يا الله كم بذلت من الجهود، وأنا أبحث في كتب الأولين، وتفاسيرهم للأجيل لكي أحدد بالضبط الأماكن المحتملة لحدوث هذا الأمر العظيم.

صمت قليلاً، لیتلتقط أنفاسه ورسم إشارة الصليب في الهواء من جديد وأكمل:
– وتمكنت من حصر موقع الحدث في صحراء قاحلة تقع في العراق بالقرب من ضاحية خرائب بابل.

نظر إلى لمعان أمواج نهر الفرات تحت نور القمر وقال:

– ونبشت في البرجماتات قديمة التواريخ المحفوظة في دير متي القريب من بعلبك حيث كنت أعيش في فترة شبابي المبكر، محاولاً العثور على حادثة قتل لرجل مقدس على شاطئ الفرات. ولم أجد طول بحثي منذ نزول هذه النبوءة وحتى يومنا الحالي ما يشير إلى تحقق حدوث النبوءة.
وسأل الهفهاف مضيفه:

– وهل هناك وصف ما لهذا الرجل المقدس في كتبكم؟

نظر إليه القس مرسيل، ورسم إشارة الصليب في الهواء، وشعر أن همه القديم بالبحث عن قتيل الفرات المقدس انتقل إلى الهفهاف، وقال في نفسه " ولم لا؟ فليبحث عنه أيضاً، أرى في هذا العربي مخايل النبيل والشرف والكرم والقداسة.

– النبوءة أيها المُكْرِم تتحدث عن شخص مقدس جاء من صلب نبي، وهو سيد عظيم، مقدس، عالم بأمور الدنيا والآخرة، طيب وكريم، لا يقول: " لا " لطالب حاجة، ولا يذكرها إلا في تشهده للصلاة، واسمه أبي أبلله إله سين.
وأكمل:

– نبوءة تتعلق بابن نبي مقدس، سيكون سيداً في السماء، ومن هذه النقطة بحثت، وتعمقت في البحث، لعلي احظي بإطلالة كافية وافية تنير لي الطريق مع أن النص واضح، لأنه يشير إلى معركة مصيرية تقع بجانب شط الفرات في أرض يقال لها " كركميش " يخوضها شخص يرتبط بالله تعالى من أجل إرجاع خلافة مغتصبة، لأن النص يقول في مكان آخر أن هذا السيد ذهب ليرد سلطته.

وتتحنح وأكمل:

— وعندما بحثت في البرجماتان القديمة، وجدت أن كركميش قريبة من بابل بالفعل... فمن هذا السيد الذي سيذبح بجانب شط الفرات في هذه الفلاة الممتدة إلى ما لانهاية؟

— ولماذا يصف الكتاب المقدس هذه الواقعة بهذا الوصف المخيف كأن مصير البشرية يتوقف عليها؟

صمت الأب مرسل قليلاً ثم أكمل:

— صحيح إنني اطلعت على أحاديث، وملاحظات وأشياء أخرى تدل على هذه الواقعة، لكن كلها كانت افتراضات. لأنني لست من داخل الحدث الإسلامي، ولكن هذا الشيء موجود على شكل نبوءة، لم يستطع أحد أن يغيرها أو يتلاعب بها وأن أصابها بعض التشويش، فمنذ كتابتها منذ قرون لم تتحقق هذه النبوءة والجزيرة العربية اليوم في عصر الإسلام، من حيث المكان والشخص المقتول، كما قال العارف بالكتب السماوية كعب الأحبار "بن مادح".

وأكمل بعد صمت قصير:

— وقد جاءت في سفر إرميا الإصحاح 46 النبوءة التالية، وهي تحكي عن المستقبل البعيد، حيث كان وصف إرميا النبي صحيحاً مائة بالمائة، وكان الوصف مهيباً، رهيباً، كأنك ترى المصروع والجيوش تدور حول جسده الطاهر ثم ماذا تقول النبوءة عن أسباب ذهاب هذا السيد إلى ذلك المكان؟ صمت قليلاً قبل أن يجيب نفسه:

— تقول ذهاب السيد إلى كركميش ليسترد سلطته، فهو سيحارب عند الفرات في الصحراء العظيمة التي يقال لها (رعاعي عند الفرات) عرفت بعد ذلك أن كلمة رعاعي تعني (جربلس) الصحراء الواسعة. الممتدة من حدود بابل إلى منطقة عرعر، والتي يسميها الكتاب المقدس رعاعي، وهي بالقرب من مدفن مقدس، لأهل الكتاب اسمه (النواويس).

وحدق الأب بوجه الهفاهف، وقال:

— ولا يُعرف بالضبط السر في وجود دور عبادة كثيرة لأهل الكتاب في هذا المكان. مكانهم تحيط به المقابر من كل جانب، ويقول القس "تطوان الفرياني" عنه، أن أكثر أهل الكتاب دفنوا في هذا المكان، لأنهم كانوا ينتظرون ذلك السيد، الذي سيذبح في هذا المكان لينصروه، لأنه رجل مقدس جداً، ولكن

قدومه تأخر، وماتوا وهم ينتظرونه، كما كان نصارى نجران ينتظرون مقدساً آخر.

— لن يقتل مع هذا المقدس سوى نصرانيين اثنين يقال أنهما اعتنقا دين هذا المقدس، ولم يصف أحد من شخصيات الأديان نفسه بأنه ذلك المذبوح.
— هناك غيره ذكر إنه سيقول واصفاً نفسه بقوله (بأنه المذبوح بجانب الفرات، وأنه ابن الذبيحين وهذا ما قاله أيضاً كعب الأحبار، المتضلع بالتواراة عندما مر بالفرات في منطقة كركميش).

— عندما يذبح ذلك المقدس، فيقول عنه هذا هو المذبوح، لأننا سمعنا أن ابن نبي يذبح في هذا المكان. وكان كعب الأحبار قد قال هذا أمام حشد من الصحابة، وغيرهم، كما في الرواية المُحَقَّقة التالية :

" لما أسلم كعب الأحبار جعل أهل المدينة يسألونه عن الملاحم التي تكون في آخر الزمان، فكان يخبرهم بأنواع الملاحم، والفتن، ثم قال: أعظمها فتنة وملحمة لاتتسى أبداً وهي ما يمثل فساد الدهر، الذي ذكره الله تعالى في الكتب، وكتابكم ذكر ذلك بقوله (ظهر الفساد في البر والبحر).

وسمع الههههاف صوت الأب مرسيل يتهدج، وكأنه على وشك البكاء معترفاً بسبب وجوده في هذا الدير الصحراوي:

— وها أنا اعيش في هذا الدير القريب من ضواحي بابل بمراحل قليلة، لأشارك في تلك المعركة العظيمة بين الحق والباطل. عسى أن أنال رضى الله، وأصير أحد النصرانيين، الفائزين بنصرة السيد المقدس، ونيل السعادة الأبدية !
استمعت إلى حديث الأب مرسيل في ذلك الظلام، وسمعت تهدجات صوته، وانفعالاته، وهو يحدثني عن أملة بلقاء ذلك الرجل المقدس ؟

ولا أدري مرت بخاطري صورة أبي عبدالله وشعرت بخوف شديد، وتساءلت " أكون عصرنا هو عصر هذه الفتنة ؟ وماذا عساي أن افعل إن صادف وجودي حدوثها ؟ وأنا الكاره لكل فعل شنيع، والمبتعد إلى أطراف الأرض على أمل أن لا أزع نفسي في صراع من أجل متاع الدنيا، وبعيداً عن من ينفسون عن غلهم وأحقادهم بظلم غيرهم، ولا أريد في حياتي سوى الستر ورضا الله."

لكنني ابعدت كل الهواجس، المخيفة، فصاحبني أبي عبدالله يعيش كالأمير وسط أهله وأحبابه، راض بما قسم الله له، عابداً شاكراً، لا تعنيه السلطة أبداً، كما أنه من أكثر خلق الله كرها للكبكية والصعود على رقاب الناس، والإدعاء بالقداسة أو ركوب أمواج السياسة والطمع بالحكم.

يكفيه في دنياه ماتعلمه من فقه وعلوم الدين، وما استطاع إلى فعل الخير والعبادة والعيش على الكفاف في ضواحي الكوفة، في بيت متواضع لا ترف فيه، ولا متاع كثير. وما جاء ذكره في التوراة والأنجيل يخص ابن نبي، كما قال الأب مرسيل، ويحمل اسماً غريباً " إله سين " وكأنه اسم يعود لحقبة الأجداد، أو ليهود من فترة السبي البابلي، أو لسلاقتهم الباقية في بابل وأطرافها.

.. وسمعت الأب مرسيل ينشج باكياً في الظلام. فانسلت بهدوء صوب صاحبي مسعود، لئلا أنقص على القس استغراقه بحزنه المقدس العميق، الذي لا يسعنا مشاركته فيه.

القتلة

"من فضائل أقدارك أنها توضح غاية وجودك "

الهفاهف الراسبي

ما أن تركنا الدير متجهين صوب الخان حتى وجدت في باب الخان من يسأل عني، وحالما رأني سلمني رسالة قادمة من الأخماس من ابن عمي "بشر بن المفيد" ويبدو أن صاحب البريد سلمها لصاحب أول خان مكثنا عنده، وبعد ذلك تتابع إرسال الرسالة من خان إلى آخر، وهذه ما جرت عليه العادة، منذ تولى الخليفة الراشد الرابع الخلافة وتنظيمه البريد. فقد اشترط الخليفة، أن تنقل الرسائل بواسطة القافلة التي تلي القافلة المرسل لمن فيها، حتى تصل إليهم في إحدى مراحل الطريق، خصوصاً إذا تأخرت قافلة في إحدى مراحلها، لهذا السبب أو ذاك.

وقد كان ولا يزال ابن عمي بشر من أهل الصلاح والإسلام الصحيح. خالف أباه وأخوته وأعمامه لأجلي، لمعرفته الأكيدة بصلاحي وسلامة طويتي وكرمي ونخوتي، وإيمانه بأن لا يصلح أمر قومنا غيري. ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، وتغلبت الكثرة الظالمة على القلة الصالحة، وازاحوني عن مشيختي، ووضعوا من يظنونه أهلاً لها.

ساعدهم على هذا ما وجدوه في من تقاعس في طلبها وزهداً بها، فسهلت إزاحتي، فأليت على نفسي إن لا أبقى ذليلاً في قبيلة كان أجدادي شيوخها، وأصحاب الأمر فيها، وخلفوا أمرها مع ما خلفوا لأبي، وأبي تركها لي. وهو لا يعلم أن معرفة أبي عبد الله، وفهم حقيقة ما في هذه الحياة، وما ستؤول إليه جميع أمورنا إلى ما نندم عليه في آخرتنا جعلني أزهد في كل ما تشتاقت له العين وترغب به النفس.

نزعت عمامتي. وقربت شعلة النار من فراشي؛ لكي اقرأ خطاب ابن عمي، وأنا اسمع غطيظ صاحب مسعود، الذي ما أن وضع رأسه على الوسادة بعد أن لف رأسه بمنديل، وهي عادته عند النوم حتى غط بنوم ثقيل. أرجعت نومه الثقيل للعشاء الفاخر الذي تناولناه في الدير.

فضضت ختم الخطاب، وقرأت السطور، التي دبجها بشر بخطه الأعسر المائل قليلاً إلى يمين الورقة:

(بسمه تعالى ... اشتقت لك كثيراً يا ابن العم، وليس لي إلا أن أبتّ الرسالة أشواقي إليك، ودعائي لك بسلامة الوصول. وأود هنا أن استكمل ما حاورناه معاً خلال وجودك معنا، ولكن لا وقت ولا مجال لهذا. وقبل كل هذا أود أن أرسل لك تحذيري بأن أهل المكائد في قبيلتنا من رعاك الأعامشة اجتمعوا مرتابين من خروجك تاركاً أرضك للعبيد بالصورة التي خرجت بها، وهيامك على وجهك بالبرية من غير هدف معروف لهم، لذلك وصل بهم خيالهم المريض إلى أنك ذاهب إلى دمشق، لتستعدي الأمويين عليهم، لينجدوك بالمال والمرزقة كي تستعيد مشيختك منهم. ذاكرين صداقتك للكثيرين من أبناء عم معاوية وأولادهم، ومعرفتك الشخصية بمعاوية قبل أن يولى الشام، وحين كان والدك في مدينة الرسول، وقد أرسلوا ثلاثة من أفراد القبيلة لم اطلع على اسمائهم، فقد تم الأمر بشكل سري، وجهزوهم بالمال والسلاح. وغايتهم قتلك غيلة في إحدى مراحل سفرك. اللهم أشهد اني قد بلغت .

أن العلة في عصيان أهلك على إمرائهم ان أهلنا أهل دينار ودرهم، لا يهتمهم الصلاح والفلاح، بالرغم من أنهم ذوو نظر وفتن ثاقبة، ومع فطنتهم ونظرهم، فهم ينقبون ويبحثون، عما يرجح بين الرجال والتميز بين الرؤساء وإظهار عيوبهم، وتبيان من منهم أكثر فائدة لسادتهم ورؤسائهم. فهم سيتبعون من يظنون أنه سيكون سبباً في حصولهم على المال حتى لو كان مالا مشبوهاً أو حراماً.

ولي أن أضيف أن الخليفة الراشد الرابع، قد أفسد رعيته بعدالته، فكل مال يأتي من الخراج أو من غنائم الجهاد أو من خمس الزكاة إلى مال بيت المسلمين يوزعه بينهم بالتساوي والقسطاس؛ ولا يستبقي لنفسه وحاشيته شيئاً يذكر، كما كان ولاية الكوفة والبصرة يفعلون قبله بالاستفادة من الفيء دون العامة؛ وهذا العطاء الكثير للعامة جعل مناديه في الأسواق ينادي عصر كل جمعة إن كان في المدينة محتاجاً ليعطه من صدقات الفقراء، والناس لفرط غناهم صاروا يستعففون أخذ الصدقات من المنادي. وصاروا يحلمون بالثروات الطائلة، ولم يكفهم كفافهم. حتى أن الخليفة في إحدى خطب الجمعة تساءل إن كان أحداً ما في أطراف اليمن يأكل أدامه من غير لحم، واعتبر هذا غاية الغايات في الكفاف. وأن نيل الطعام والشراب يكفي النفوس الطامعة، التي لم

يكتمل إيمانها بعد وتسربت بشعائرية الإسلام من دون مضمونه وخلقه، وكأنا
الأنفس غير طامحة بما هو أكثر من ذلك الكفاف، وما يلزم للعيش الكريم.
وهذا لعمرى نهاية الفقر في أرض السّواد، والحجاز، وانتقالهم إلى مرحلة
البطر، والنظر إلى الغنى الفاحش حتى لو كان من حرام، ولغاية آخر أمصار
الدولة الإسلامية. فالنفس لا تعف حين تعاد البطر. لقد صار أهلنا يا أخي
الهفاهف عبداً للذهب، ولا تملأ عيونهم خيرات الحلال القليلة. وصاروا يولون
أمرهم من يستطيع أن يوفر لهم ما يبغون بأرذل الطرق واسوأها .

والسلام عليكم ابن عمي الهفاف بن المهند الراسبي ورحمة الله تعالى .
وما أن قرأت رسالة ابن عمي وفهمت معانيها، حتى رحلت أقلب بصري باحثاً
في الخان عمن بعثته قبيلتي لقتلي. يا للأسف لست خائفاً من الموت على أيدي
أهلي وقبيلي. ولكن أسفي أن تبلغ الخسة والدناءة برؤساء قبيلتي هذا الحد.
فأنا ما رميت الكعبة بخرق الحيض، ولا عقرت ناقة صالح، ولا سلحت في بئر
زمزم. وكل ذنبي اني ابن شيخهم الأكبر، الأحق بخلافته في القبيلة، والأرجح
إيماناً وعقلاً وكرامة من كثيرين ممن تولوا الزعامة فيهم، وعندما ينست من
مروءاتهم فضلت أن أنفي نفسي باحثاً عن أبي على أن أرى فتنة ودماء تسيل
من أهلي وأبناء رحمي بسبب حقي في المشيخة.

وحتى لا أشهد كل نهار على خستهم وانحدار أخلاقهم. لست طالباً زعامة
لأقصد بني أمية أستجدي جاههم وذهبهم، فقد طلقت دنياهم، وملت الدينار
والدرهم، وعافت نفسي تكالبهم على المغام والسطة وإسالة دماء المسلمين
في فتنة لا أول لها ولا آخر. ستحرق إن بقيت بين ظهرا نبيهم الأخضر واليابس
وتخلط الغث بالسمين. والله ما بغيت من دنياي سوى الإصغاء إلى فتى من بني
هاشم، صيغ وجهه من أنوار الجنّة بشاشة وطيبة تنسيني همي وغمي
وتعجبني ألفاظه، فهي جود يفيض من غير عطاء، وأنفاس من نسائم الجنّات.
حرموني من هذا كله، فإن كان عفو الله المقصد، فالمطلوب، وإن صعب مناله،
فلنا أن نروح، ونغدو كل يوم وليلة؛ وعمّا قليل لا نروح ولا نغدو !!

قلت وأنا اتابع ما مر علي من حوادث بعد قراءة رسالة "بشر" أن الله قادر
أن يرفع للمتقين تقواهم إلى موضع لا يحتاجون فيه إلى أن يقولوا شيئاً. لكنه
سبحانه جعل كل هذا عليهم حتى يعلموا التقوى.

سأذهب بعيداً ربما إلى أبعد من مالطه الروم؛ باحثاً في تلك الغربية ما يرد
عني وساوس الدنيا ومنغصاتهما.

فجأة استيقظ مسعود من نومه، وقال "يا سيدي ألم تتم بعد؟" لكنه لم ينتظر الإجابة، وعاد من فوره إلى نومه العميق وشخيره. ولم يمض وقت طويل حتى سمعنا آذان صلاة الصبح، فاستيقظ من في الخان لتأدية الصلاة في الجامع القريب من الخان.

فهرعت يتبعني مسعود، والنعاس في عينيه إلى مدورة الماء في باحة الخان، قريباً من مهجع الخيل والنياق، وأكداس الأحمال، فتوضأت وتوضأ مسعود، وغيرت قميصي، وجبتي. ووضعت على عاتقي وشاحي الكشميري، وأخرجت عمامة نظيفة ادخرها لصلاة يوم الجمعة. ودهنت وجهي وكفي بعنبر شامي له رائحة طيبة. وتوجهنا انا وصاحبي إلى الجامع ولم أشأ أن أخبر مسعود بما جاء في رسالة ابن عمي من تحذير لي من متابعة إجراء الاغتيال لنا، فليس من المروءة أن أخيفه بما لم أتأكد من صحته بعد.

ووجدت في الجامع عدداً قليلاً من المصلين وأمامهم يعتمر عمامة من نوع السقلاطون، التي ينسجها نفر خاص في أطراف الكوفة، ونسجها من أغلى ما يباع في الكوفة، وأطرافها. واعرّف أن بيت مال المسلمين يتكفل بكسوة أئمة الجوامع، وعملت الحكومة جرايات شهرية لهم في مشارق البلاد ومغاربها، وهم بأحسن حال، فهم في نظر الجميع حامو الشريعة والأخلاق.

وفي صلاتي التي من المفروض أن أجعلها إلى وجه الله تعالى وحده أخذتني حشود من المواجيد والخواطر، والتنزلات ولم أستطع تدبر أمري للهروب من زمام أحدها حتى يمسك بزمامي فيض آخر، حتى انتهت الصلاة وسلم الأمام بتحياته للملائكة عن يمينه وشماله.

وقتها قادتني تلك الخواطر إلى أبي عبد الله، فتذكرت حادثة قديمة يوم أصاب المدينة السيل العرم، الذي خرب الدور والخانات في أطراف يثرب، وارتفع الماء في بعض الحارات قدر قامة. ففي ذلك اليوم رأيت بالمرغم من صغر سنه يقوم بإغاثة الناس ومساعدتهم؛ وتطمينهم في أن الغوث قادم. وأن إخوانهم لن يتركوهم؛ وكنت ومن بسنه ومن هم أكبر منا تصطك أسناننا من الخوف والخشية من أن نهلك مع من هلك غرقاً في مياه السيل.

ولم يتبادر إلى ذهن أحد منا أن نغيث من إصابته نكبة السيل، وأضرته الريح العاتية، وأغرقت المياه ماشيته، فنفتت. لحظتها استمديتُ شجاعة من شجاعته، وباشرتُ معه مساعدة من يحتاج المساعدة.

تلك الأيام لا تنسى مما عشناه في مدينة الرسول، ليتها عادت تلك الأيام، وعدت طفلاً، وضيئ الوجه، محبوباً من أبي وأمي، تجدل لي شعري الكثيف بجداول وتعطره بالعنبر، وأبي يدريني على النيشان بالنشاب، وركوب المهرة "جعدة"، والتقاط أعواد السبق من الأرض.

وكنت اتعلم من أبي عبد الله الأثرية، وأفرح بملاقاته والحديث معه. وأتعلم المبارزة بالسيوف الخشبية، والطعن بالعيدان وصد العدو بالدروع الخشبية، مع أبناء الصحابة الآخرين، وكل ذلك لكي نتعلم الجهاد في سبيل الله حين نكبر، وقتها قال لي أبو عبد الله:

– " قبل أن تجاهد في سبيل الله عليك أن تعرف تحت أي راية ستقاتل، فربما كنت في ظل راية ضلال " وتساءلت:

– " وهناك راية ضلال في الجهاد؟؟ "

فابتسم لي بثغر منير بأجمل ابتسامة شاهدهتها في حياتي:

– " وما أكثر مانعتوا حروبهم الخاصة بتعلة الجهاد في سبيل الله يا هفاهف!! "

– وسيكون أصحابها في النار؟ "

– " نعم وأصحابها في النار يا ابن المهند، هذا ما سمعته من رسول الله، فكم من حق جعلوا له منظر الباطل، وكم من باطل زينوه، فبدا كالحق في جماله ووضوحه. "

شمال سهل الفرات

12 ذو القعدة 38 هجرية

" الله .. الله .. هو غاية ووسيلة المذنبين، فأطلبوا العفو منه وحده."
مسعود الأعمش

توقف الفرسان الثلاثة المثلثون قريباً من ساقية إحدى المزارع؛ وترجلوا من خيولهم المتعبة، فقد قطعوا في نهارهم أكثر من مرحلة، سائلين في طريقهم أصحاب الخانات "إن مرت بهم قافلة الشام، التي يصحبها تاجر من الكوفة يدعى أبو المحاسن؛ وهو من التجار الفضلاء، المعروفين بكرمهم وجودهم. وكان من واجبات أصحاب الخانات في طرق القوافل، القاصدة الشام أو الأنضول أو القاصدة خراسان أو بحر الهند أو الصين، التدقيق بأسماء الموجودين في القافلة ومعرفة بطون قبائلهم، وغاياتهم من السفر، وعنوانات من تركوا من أهاليهم في مدنهم التي غادروها، وتسجيل كل ذلك في صحيفة ماهرة، وإرسالها بنظام دقيق إلى قسم الشرطة القريب من الخان. وتبعث الطوامير فيما بعد إلى مراكز الشرطة في كل ولاية من الولايات بنظام دقيق، ويشرف عليها رجال حسبة، وظيفتهم تسجيل الموارد، والبضائع القادمة والمغادرة، وتسجيل عدد النفوس، لمعرفة حجم تجارة البلاد، وتأمين استقطاع الخمس على التجار لبيت المسلمين، وحماية البلاد من جواسيس البلدان المعادية، ومتابعة اللصوص والصعاليك الذين يسيئون للأمن ولحركة السفر والتجارة في البلاد.

وأهم من كل هؤلاء الدساسون من الدول التي في حرب وعداء للبلاد، الذين يعبثون بالأمن لإثارة القلاقل بدخلوهم من دون أن تعرف الشرطة؛ وكان ذلك النظام سارياً من عهد قديم يعود إلى عهد الإسكندر المقدوني، الذي ملك بابل، وأرض العراق، وما جاورها من قبل.

وقد تم تعليم مراحل الطرق بين المدن بحجارة كبيرة كشواهد القبور وعلى طول طرق القوافل نقش على تلك الشواهد الحجرية التي لا يتجاوز ارتفاعها

الذراع عن قاعدتها عدد المراحل المتبقية، لبلوغ هذه المدينة أو تلك. وقد حفرت تلك العلامات بلغة لاتينية يعرفها أصحاب القوافل وأدلاؤها. وقد سأل الرجال الثلاثة في كل خان مروا به عن إسمي رجلين يبحثان عنهما، وقادهم بحثهم إلى ما بشرهم بوصولهم إلى طلبتهم قريباً، لينفذوا ما طلب منهم. لينالوا بقية الدنانير الذهبية التي وعدوا بها، ويحقق كل واحد منهم بالمال الذي سيكسبه كل ما حلم بتحقيقه.

رئيسهم كان يماني نفسه بشراء بستان في ظاهر الأحماس، والآخر كان يماني نفسه بتقديم المهر المطلوب لعمه البخيل ليحظى بموافقته على الزواج من ابنة عمه؛ أما أصغرهم، فقد كان يحلم بأن يصير تاجراً. ويملك رأسماً يمكنه من السفر إلى البلدان كافة، ويتاجر بكل ما غلا ثمنه وخف وزنه؛ لينعم في شيخوخته بالقصور والأملاك الكثيرة، وينال الحضوة لدى الولاة، وأصحاب الشرطة وتجار المدينة.

قال كبيرهم، المكنى " أبو العقارب " وهو يشير لصاحبيه بتحضير ثلاثة أثافي ليقموا عليها مشواهم، وكانوا قد مالوا فجراً على قطيع أحد الرعاة، وسلبوا منه حملاً صغيراً وفروا به؛ وحالما ترجلوا عن خيولهم ذبح صغيرهم الحمل قرب الساقية، وأخذ ينظفه من الاحشاء بعد أن أزال الجلد، فظهرت ضلوع الحمل، ولحمه الأبيض البض في الأفخاذ وعند الكتفين.

كان " عنبر " أصغرهم سناً، وهو لا يحب إراقة دماء عباد الله؛ فقد أشار على أبو العقارب الأكتفاء بسرقة الحمل من دون قتل الراعي، فضحك من قوله، وقال لصاحبهما الثالث، ويدعى أبو الهوائل :

- صاحبنا لا يزال ناعماً، كأنه من مرافقي الجواري وخدمهن. فهو لا يحب رؤية الدم، ولا يستطيع جز رقبة طفل !! نظر أبو الهوائل إلى تابعهما وقال:
- لم أكن أرغب باصطحابه في مهمتنا. لولا أراحه، وقسمه أن يصحبنا وإلا فلق رأسه بحجر الرحي!! !! فرق قلبي له وطلبت منك أن تقبله في مهمتنا!
ضحك عنبر وقال:

- أظننا فعلاً أنني رهيف القلب لا أقوى على قتل أحد؛ ستريان في الساعة الموعودة ماذا سأفعل!! أضحكا الآن ما تشاءان من الضحك، والغد لناظره قريب .

غسل خنجره من دم الحمل في الساقية؛ وبدأ يعد الذبيحة للشئ. أخرج أبو العقارب "حجرا الزند" من متاعه، وهما حجران من الرخام ربطا بحبل من

الليف، وأخذ يقدح الحجر الأول بالآخر، ويقرب الشرارات الناتجة من القدح من جذور العاقول، الذي جمعه، وأطراف شجر الغرب، وبقايا خشخاش، وعشب يابس تخلف على الأرض. وأخذ ينفخ بقوة عليه حتى تصاعد الدخان الحريف من الأعشاب، واشتعلت النار في الحطب.

كان أبو العقارب قليل الكلام، ولا يتدخل في نقاشات صاحبيه إلا فيما ندر، ولم تكن هذه مهمته الأولى، فهو معروف لدى الكثير من رؤوس القبائل المنتشرة بين صحراء الجزيرة وسهل الفرات؛ وقد استخدمه الكثيرون من شيوخ القبائل في قتل خصومهم من أفراد قبائلهم أو من قبائل أخرى، لقاء أعطيات من ذهب ومال وحلال وجواري وعبيد.

وهم يقدرون بأسه، وقدرته على متابعة الضحية، واحتراز رأسها، واصطحابه معه جراب أعده لتلك المهمة ليرى صاحب الطلبة طلبته، ويتأكد من مفارقة صاحبها الحياة !!

كان قبل أيام قليلة أبو العقارب يستعد للسفر الى الشام؛ فقد شحت الطلبات عليه في مناطق أرض السواد، لصيد الرجال وقبض الجوائز.

وكاد أن يتضور جوعاً وهو ينتظر أن يطلب منه أن يؤدي مهمة ما. وسمع من مسافرين أن في الشام وضواحي دمشق الكثير من الثراء.

وهناك ستكون خدماته مطلوبة، والأثرياء الجدد من أهل الحكم في تنافس شديد، كما أن صيد الرجال مطلوب هناك وأن الإنفاق على أمثاله من صيادي الرجال كثير، ولكن ما أن قرر الرحيل الى الشام حتى وصل إليه من يبلغه أن شيوخ بني الأعمش يطلبونه لتكليفه بمهمة صعبة، وسيكون عطاؤه كبيراً لم يفز بمثله من قبل.

وما أن اتفق معهم على صيد طلبتهم؛ حتى بدأ يشحذ خنجره بالسهم، وهو يسمى خنجره بـ "الكافر". وأخذ يحد أخدوداً في وسطه، ويعمقه، لينال من خصمه مقتلاً حتى لو بمجرد خدشه خدشاً بسيطاً.

هذا ما رواه لي "عنبر" عما دار بينهم وهم يتابعون قافلتنا بعد سنوات، وحين أحسن له سيدي الهفهاف بالعطاء، بالرغم من معرفته ما كان يدبر له مع أصحابه قبل سنوات وسألني وقتها :

- يا مسعود هل يغفر لي الله ما اجترحت من جرائم وهل ينسى الهفهاف سيئتي.

فقلت: " الله .. الله .. هو غاية المذنبين، فأطلب العفو منه."

- 9 -
العاشقة

- التاريخ تعرض للمحو -

"أنا معك حيث تكون
حتى وإن لم نكن معاً
حتى ولو للحظة أو ليوم"
شهنزاد اسفندياري

لم تسر القافلة المتوجهة إلى خرسان سوى مراحل قليلة، حتى لا حظت الأخت الكبيرة الحزن الشديد على وجه أختها الصغيرة شهنزاد، وهي إحدى الجواري الثلاث اللواتي عتقهن سيدي الهفهاف الراسبي، وأكرمهن وأعطاهن المال لكي يعدن إلى أهلن معززات مكرمات.

وقد لاحظت أختها الحزن على وجهها منذ الليلة الأولى، التي فارق فيها الركب الخان، ولم تعباً الشقيقتان بادية ذي بدء "سهنزاد" و"شيرزاد" بحزن أختهن، ظناً منهن أنها ربما كانت مستاءة مما حصل لهن، ولكن الشقيقتين كانتا مسرورتين بحريتهن، وكل واحدة منهن كانت تمنى نفسها بالوصول إلى الأهل والأقارب في خرسان.

وكل واحدة تمنى نفسها بزواج لها من أقاربها لكي تكون كل واحدة منهن عائلتها لتتعم بسعادة مع الزوج والأولاد والعمر الطويل، ولكن أختها شهنزاد كانت طوال الرحلة تسترجع صورة ذلك العربي الشهم، الذي أنقذها وأختها من العبودية وحررها من بشاعة البيع، والانتقال من مهجع سيد إلى سيد آخر.

والله وحده يعلم ما سيحل بهن، وفي أي ماخور سيخدمن. حفظت قسمات الهفهاف، وهيأته ولم تمر ليلة إلا وهي تحلم به، فتراه يبتسم لها، ويمد لها يداً لكي تترجل من هودجها، وتذكر ما كانت تقوله له في حلمها: "يا أميري أني قادمة إليك".

فتستيقظ من نومها وبقايا فرحة غامرة في نفسها، لكن الفيافي من حولها تفاجئها بأنها وأختيها، وبقية القافلة في مكان بعيد. ويبعد كل يوم عن ذلك الأمير الوسيم الذي شغفها حباً.

تتخيله يعمل بمختلف المهن، التي تعرفها كالعصار والنداف والقصاب، الذي يثقف القصب، ويعمل منه أثاثاً والنجار والجزار، لكن جميع تلك المهن في خيالها لم ترق لحبيب روحها؛ ولا تستطيع أن تتخيل مهنة تليق به غير الإمارة. فتراه في خيالها مرتدياً قميصاً من حرير كشميري، ووشاحاً كوفياً، وعمامة موشاة بلؤلؤ بحريني، وتردد في نفسها " "أمير بلا شك، لا يفعل ما فعله معنا غير الأمراء. إن أدركته فزت بأفضل حظوظ الدنيا بين شقيقتي. وإن لم أحظ به، فأنا هالكة حزناً وكمداً لمفارقته دون شك. " ثم تهمل دموعها غزيرة.

منذ عرفت شقيقاتها سر بكاءها وأيامهن مضت حزينة، ونغص عليهن الحزن فرحهن بالعتق من العبودية. بكاء شقيقتهن الصغيرة وكانت دموعها مثل سهام تنغز قلوبهما. في البدء حاولت الشقيقتان التسرية عن شقيقتهن شهزاد بمختلف الحيل والأحاديث عن المستقبل السعيد الذي ينتظرهن عند أهلن.

وما يمكن أن يلقنه من السعادة في الأيام القادمة، ولكن كل ذلك لم يجد مع الجميلة شهزاد، التي أخذ جمالها يزوي وامتنعت عن تناول الطعام، بعد أن قلت شهيتها للطعام يوماً بعد آخر، حتى صارت ترد الطعام المقدم لها من دون أن تمسه.

همست الأخت الوسطى لأختها الكبيرة : أن لم نتدارك الأمر، فأختنا هالكة لا ريب في هذا، وحالتها تسوء منذ ثلاثة أيام. " كانت شهزاد تكتفي بالقليل من عصير قصب السكر كلما ظمأت، فأصفر وجهها، ولم تعد تقوى على الوقوف. أكدت شيرزاد :

" أن لم نجد حلاً لمشكلتها، فهي هالكة ..هالكة. مجنونة هذه البنت. " - وما العمل ؟

سألتهما شهزاد. فكرت شيرزاد طويلاً، ولم تجب أختها. كانت تريد أن تصل مع نفسها إلى قرار صعب، ولكن لا بد منه لإنقاذ أختهن من هلاك محتم. فقررت الأخت الكبرى قطع رحلتهم إلى خرسان، وأن ينزلن في أول خان يصادفهن على الطريق، وعنده سينتظرن القافلة القادمة من خرسان، والمتجهة

إلى بلاد الشام، ورحلتهم هذه المرة بالرغم من المخاطر التي ستواجههم، ستكون غايتها أن يبلغن قافلة الأمير العربي الهفاهف الراسبي. وهن لا يعرفن ما ستقولانه له عند اللقاء به، ولكن المهم بالنسبة للأخت الكبرى كان عليها أن تنقذ أختها من الهلاك.

وحالما عرفت أختهم شهنزاد بقرار أختها حتى عاد الدم يورد وجنتيها، وتناولت الطعام الذي قدم إليها بشهية!! وفرحت أختها بزوال سقم أختهم السريع، واستعادتها للابتسامة التي أفتقدتها منذ أيام، ولشد ما افرحتهم تلك اللمة في عينيها التي تنبىء عن فرحها وأملها بالحياة من جديد. كل هذا الحديث ومادار روته لي زوجتي شهنزاد في ليلة عرسنا الأولى، حين سألتها عن عودتهم الغربية بعد أن ودعنا قافلتهن الذاهبة إلى خرسان، وقالت لي ضاحكة:

- يا مسعود لولا جنون شهنزاد بأميرك الوسيم الهفاهف، لما صرت زوجتك.

- التاريخ غير واضح -

"شخص ما يمشي على رماد أجنحتي.
يد ما تتمسح بجبيبي، تحولتُ إلى ظل:
شهنزاد.. أهذه أنت ؟"
الهفاهف الراسبي

ما أن حل الصباح بنوره، وسطعت الشمس بضياؤها حتى قصدتُ حكمقدار القافلة، وهو المتصرف الوحيد في أمورها المالية والإدارية والأمنية فهو مسؤول عن كل من في القافلة من مسافرين أرواحهم وأموالهم وأعراضهم. وأخبرته أنني ومسعود الأعمش تابعي باقيان في الخان، وقررنا تغيير وجهة سفرنا من دمشق إلى حلب.

وسننتظر قافلة حلب التي ستمر بالخان بعد أيام قليلة لنصحابها في مسيرها، وكانت خطتي التمويه على المرتزقة الثلاثة، الذين بعثوا في أثرنا من قبل أعمامي المتنفذين في قبيلة بني الأعمش، لتضيق أثارنا على القتلة!! سألني الحكمقدار عن سبب توقفنا المفاجيء هذا؟! فأخبرته أن تابعي يعاني من الدازنتري، وبالفعل كان مسعود يعاني من نوبات دازنتري مؤذية عانى منها في الأيام الأخيرة من سفرنا، وأن مواصلة السفر سيؤذيه، ولذلك قررنا البقاء حتى يتعافى مسعود من دائه.

ودفعتُ للحكمقدار باقي أجرة الرحلة، فشطب أسمينا من قائمة الأسماء الخاصة بقافلته، وتمنى لي ولصاحبي إقامة سعيدة وشفاء سريعاً لتابعي، وسفراً ميموناً إلى حلب. وسألني الدعاء لمسافري القافلة بالوصول إلى دمشق سالمين معافين، وودعني. فيما كان القائمون على الركائب يربطون الهودج على ظهور الجمال والرحال استعداداً للسفر.

وعلا صوت النفير ينبه المسافرين الاستعداد للسفر، فقد دنى موعد الرحيل، وتهيأ حادي القافلة بصوته الجهوري العذب، لاستنهاض همم الركائب، ومركوبة القيادة، التي تتقدم القافلة.

وأعلن صاحب الخان بصوت أجش وصول إعلان الحكمقدار من دار الشرطة في قرية الفخور، وهي بيوت قليلة من الطين صغيرة المساحات تعلق ضفتي الفرات من الجانبين، وتمتد القرية لمسافة فرسخين، وقد أقيمت لسكن أصحاب خراج الأرض، وشرطة الطرق، وأصحاب الخمس، وأمام جامع قرية الفخور.

كانت قرية الفخور فيما مضى في العهد الساساني مكاناً لطوامير السجن للذين يُشك في ولائهم الإمبراطور الفارسي يزدجرد من أهل البلاد، وكل من تمرد على حكمه. لكنها تحولت في العصر الإسلامي الجديد إلى دور للدولة الإسلامية يجمع فيها الخراج ويعيش في أبنية الحراس السابقة عمال الدولة، وشرطتها أما المساجين السابقين، فقد تمت أبادتهم من قبل الجيش الفارسي المنسحب بعد هزيمته في معركة الزاب الأسفل، وتركت جثثهم في العراء.

ورد الإعلان بأن الجسر المتحرك فوق نهر الفرات صار سالكاً، وأن مياه الشماشير قد خف أوارها وتوقف فيضانها وأن المياه أخذت بالنزول منذ ليلة أمس، ولم يعد هناك خطر من عبور القوافل على جسر القوارب ذاك. وأن العاصفة الترابية التي أعقبت الفيضان، قد مرت بسلام ولم تقع ضحايا من القوافل ولا من سكان القرية، ولا خوف من فيضان النهر، والنهر في الوقت الحالي يسير بسرّيان هادئاً أمن وأن اعترت مياهه كدرة غامقة من الأتربة، وماحمله من مرتفع أرض فارس من أعشاب وأوحال.

ودعت الحكمقدار وعدت إلى الخان فوجدت مسعود الأعمش عند حلاق الخان يُحسن له شاربه ويهدب لحيته، ويحدثه عن الكوفة وأحوالها في هذه الأيام، ويروي له ما فعله أمير المؤمنين الشيخ الرابع للمسلمين علي بن أبي طالب مع عشرة آلاف من الخوارج.

وسمعته يقص له عن جدالهم معه وردّه على حججهم، الذي استمر من بعد صلاة الفجر إلى قبل صلاة الظهر بقليل وهو لا يني يرد عليهم لغوهم وتخرصاتهم، ويدحضها بآيات من القرآن الكريم، وأحاديث الرسول الكريم، ويوضح لهم ما غمض عليهم، فأزال اللبس وعدم وضوح الرؤيا لدى كثيرين منهم.

وتركوا صفوف الخوارج والتحقوا ببقية المسلمين، ولم يبق من الخوارج إلا رهط قليل يقدر بخمسمائة رجل من دهماء القوم وجهالهم بسبب عجمتهم، وكونهم لا يعرفون أسرار اللغة العربية، لذلك لم يفهموا شروح خليفة

المسلمين، وردوده عليهم، كما أنهم لم يفقهوا شيئاً كثيراً من تفسيره لآيات القرآن.

وجلست صامتاً أستمع لحواريهما، واستفسارات المُرّين وإجابات مسعود الأعمش عليها، وهو في عجب، متسائلاً كيف عرف مسعود الأعمش ما دار في تلك الندوة الضاجة بالناس، ومعهم عدد من صحابة الرسول والفقهاء وأصحاب الرأي للرد على فريات الخوارج، ودحض حججهم وإلزامهم بالحق، فكبر مقام مسعود الأعمش في عيني كثيراً، وعندما انتبه مسعود لوجودي قال لي : - أخبرني أعوان الحكمقدار بضرورة الاستعداد للسفر قريباً. فأجبتة:

- نعم أخبرني الحكمقدار بنفسه ولكنني أخبرته، أني أجلت سفرتنا إلى دمشق إلى حين، وقد عزمت والأمر بيني وبينك أن نساغر إلى مكان آخر، وبذلك سنغير قافلنا ومنتظر قافلة أخرى ستمر حتماً بالخان بعد أيام قليلة!! .

صمت مسعود وعرف أني سأغير القافلة واتجاه السير بسبب الرسالة التي تلقيتها من ابن عمي في الأحماس.

وعرف بحدسه أن سبباً وجيهاً لديّ لتغيير قافلنا ووجهة سيرنا، وهو ليس له من الأمر غير الذي آراه، والأمر لله من قبل ومن بعد !!

لم يمر سوى يومين على مكوثنا في الخان حتى وصلت قافلة قاصدة حلب، فأسرعت إلى حكمقدار القافلة وأدرجت أسمين غير أسميننا في قائمة المسافرين، وقد أطلقت على نفسي أسم يوسف الأزدي وصاحبي عدنان الكوفي وأخبرته بقرارنا مصاحبة قافلته، وقد كان كهلاً في الخمسين من عمره، لوحث شمس الصحراء وجهه فغدا لونه أقرب إلى السواد، فأخبرني، أنهم سيواصلون رحلتهم فجر اليوم التالي، وعلينا الاستعداد للسفر، وتهيئة لوازم سفرنا، فأخبرته بأننا جاهزان وعدة سفرنا جاهزة، وعلى بركة الله.

ومرر الحكمقدار نسخة من برجمة السفر إلى حلب إلى عين الشرطة في الخان حتى لا يضطر إلى إيقاظه من النوم في ساعة متأخرة من الليل عند ساعة إنطلاق قافلته.

وفي الخان دارت الأحاديث بين المسافرين القادمين من دمشق حول إصابة المدينة بالسيل العرم، الذي خرب دور الناس وخانات الطرق. وارتفعت المياه في بعض مناطق دمشق وحراراتها كما روى أن المياه وصلت إلى ارتفاع قدره قامة ونصف !!

وكان أمل المسافرين إلى دمشق أن يجدوا السيل قد ارتد، وجفت الطرقات وعادت الحياة إلى مجاريها وأخذ الناس يتسوقون من أسواقها ومغازاتها، وقد وضعوا خلف ظهورهم، ذلك البلاء الذي مرَّ بمدينتهم.

وروى مسافر في الخان وهو أحد العائدين من هناك وقت حدوث السيل العرم، أن تاجراً من السودان كان في ذروة السيل قد نقل بضاعته إلى علو الدار التي يستأجرها، وكانت بضاعته أكياس مملوءة بالسندروس الأفريقي، وهو من أرقى وأثمن أنواع الصمغ الشجري الصلب !! الذي يستخدم في شتى الصناعات المطلوبة في دمشق.

وكانت الدار تشرف على السوق من ارتفاع عظيم، وتحاذي شجرة نبق عالية، وما أن بلغت مياه السيل أساس الدار ودخلت حجراتها حتى بدأت الجدران تنهار، ومع انهيار السقف ابتلعت مياه السيل بضاعة الرجل، ولم ينجُ التاجر السوداني من الغرق إلا بالقفز من علو سطح الدار إلى شجرة النبق العالية، وبقي معلقاً بأغصانها ثلاثة أيام، وهو ينوح على نفسه وتجارته !!

ولم يجروُ أحد على مد يد العون له أو نجدته خوفاً من أن تجرف المنقذ المياه !! حتى أذابت مياه السيل أتربة جذور الشجرة، وسحلتها معها كما لو كانت قشة صغيرة وفوقها الرجل السوداني، ينادي أمة الإسلام والمسلمين أن ينقذوه، فلا يستجيب له أحد لشدة اندفاع السيل وشدة الأمطار الهائلة، وخوف الناس من مصير مشابه لمصيره إن هرعوا لإنقاذه !!

وتأسف السامعون في الخان، لما حل بدمشق من خراب، وعزوا كل ذلك البلاء إلى أعمال البشر، وظلمهم وتقصيرهم في دينهم وأعمالهم الرديئة في دنياهم، فحل عليهم غضب الله وغضبه مدعاة لجميع الكوارث. واخذ الحاضرون يستغفرون الله بصوت خفيض.

قافلة "بني أبي"

- التاريخ بالسنة الجلالية الفارسية.. غير واضح -

"كل من ترجوه منحتة ثقتك، وكل من تطلب منه سلمت أمرك له !!"

شهنزاد اسفندياري

ووجدتُ وشقيقتي ساهنزاد وشيرزاد قافلة متوجهة إلى دمشق في أول يوم حللنا فيه في خان النصف، بعد تركنا للقافلة الذاهبة إلى خرسان على أمل أن نلحق بقافلة الأمير العربي الهفهاف الراسبي، منقذنا من النخاسين، وصاحبه. وكان معظم المسافرين، في هذه القافلة من عرب يسمونهم بـ "بني أبي" وعرفنا من رجل فارسي أسلم مؤخراً في هذه القافلة، وهو يحاول حفظ القرآن عن ظهر قلب طيلة الوقت، وعاش في الخان منذ سنوات كما عرفت، وكان ولا يزال يلتقط رزقه من مبادلة القوافل بضائعها، فالقادمة من الشام يشتري منها الرجل، ويبيع لها ما لديه من بضائع العراق، وكذلك يبيع بضاعته على القوافل الذاهبة إلى الشام أو الأنضول أو إلى خرسان أو بحر الظلمات.

أن هؤلاء الأعراب من "بني أبي" يعودون إلى قبيلة طيء كما عرفنا من إحدى نسائهم، اللاتي تصاحب زوجها في تلك القافلة وأبنتها الشابة، ومن عاداتهم، حماية الملتجئ إليهم، والذود عن المظلوم حتى يحصلوا له على ظلامته من ظالمه.

ومما أدهشني في عاداتهم أنهم لا يأكلون إلا الميتة !! فهم يمجون قتل الحيوانات لأكلها، معتبرين أن ليس من الشيم الحميدة، وهم أكرم العرب كما ينعتون أنفسهم، وأحسنهم خلقاً وأخلاقاً أن يقتلوا مخلوقاً أحياه الله، وأحسن في خلقه ورعاه في رزقه وسعيه !! فمن العار كما يعتقدون أن يجعلوه وسيلة للانتفاع بلحمه وشحمه، وأصوافه ووبره وجلده، فهم يتفاخرون في قصائدهم ومجالسهم بأكلهم الحيوانات النافقة !!

ويدللون على صحة فعلهم، أنه لا يوجد بينهم أبرص أو أعمى أو مجذوم، أو مصدور، أو مبطون أو مسقوم!! ويقولون أن تلك الصحة، التي هم فيها هبة من الخالق، لأنهم احترمو حياة غيرهم وفضلوا بقاء حياتها على حياتهم، مما خلق الله !! فمنحوا صحة الأبدان والعمر الطويل، والذكر الطيب بين العرب فنعثوهم بالكرم، والغريب أنهم في العادة يطعمون ضيوفهم من غير قبيلتهم من لحم الحيوانات المذبوحة!! ويكرمونها غاية الكرم، لكنهم يحرمون على أنفسهم الأكل من طعام ضيوفهم. وضحك الرجل الفارسي بوجهنا لأننا من بنات بلده، وهش وبش لنا، ونعتنا بالمحظوظات لمصادفتنا قافلة لهؤلاء الأعراب الكرام لنصاحبهم في سفرنا.

واستقبلونا في قافلتهم، وحمونا، كما كما لو كنا من أهلهم، وعرفوا أننا نبحت عن سيد من قبيلة الأعمش تركناه في خان قرية القطوف، فقال أكبرهم وهو المحترم بينهم، وكلمته مسموعة من الجميع، كما بدا لنا بما فيهم حكمقدار القافلة، فوعدنا أنه سيوصلنا إلى بغيتنا ولا يفارقنا الركب إلا وقد اطمئنا جميعاً علينا بوصولنا إلى بغيتنا وأقسموا أن لا يفارقونا إلا ونحن في مأمن عند سيدنا!!

ولم يسألنا أحد عن سبب مفارقتنا لسيدنا، أو لماذا لا يبحث عنا، كما هو مألوف، وهذا عفاف منهم!! وهم المشهورون بعفافهم، كما أخبرهن ابن أرومتهن!!

وأخذت منذ أول أيام رحلتنا الجديدة أنسج الأحلام والآمال بلقاء منقذنا، وكنت أمني نفسي أن أكون خادمة في صحبته، ولم أكن أحلم بأكثر من ذلك!! ومن ذلك الخلاء الموحش والتلال الصخرية الجرداء، التي كانت تمر بها القافلة، ويقطع ذلك الصمت عواء الذئاب ونباح الكلاب عند مرور القافلة بقرية أو مدشر من مداشر الطريق. كنت املأ صدري برائحة شواء الخبز ورائحة العشب المحروق الحريفة، في أفران الخبز، ويملاً ناظري مرأى النساء العربيات الموشحات بالسواد، وهن يعدن خبز العائلة وينظرن واضعات أكفهن على جباههن لحجب أشعة الشمس، ناظرات إلى قافلتنا وكل واحدة منهن تأمل في يوم من الأيام أن تغادر مكانها وتغدو في مدينة أخرى غير قريتها تلك!! وبلوغ أهل بعيدين أو بانتظار قدوم عزيز ذهب إلى الحج أو الجهاد في ثغر من ثغور البلاد الإسلامية، وأنا وحدي اتهد حسرة على فقداني وأختائي هذا الأمان والعيش بسلام كهاته النساء؛ اللاتي ستضجع كل واحدة منهن بعد ساعات في

حُضن زوج أو أولاد وبنات، لتنام هادئة مطمئنة البال في بيوت دافئة يسودها
السلام والأمان والحب وسط الأهل والجيران بانتظار غد آخر فيه من وعود
الأمل بأرزاق وأفراح جديدة !!

الخصيان

- التاريخ محو -

" ما أخفي الحق إلا لشدة ظهوره .. سبحان الله.. الله قادر على إظهار المخفي

ولو بعد حين !! "

" مسعود الأعمش "

وما أن غطَّ سيدي الهفهاف بالنوم وكنت على وشك الأغفاء حتى هبَّنا مرعوبين على صوت منادٍ ينادي مسافري الخان أن يحذروا من قطاع طرق تمكنوا من قافلة سابقة، فسبوها، وأخذوا نساءها وسرقوا ما حملت الركائب من أمتعة وبضائع وأموال، ولأذوا في بادية "انطرسوس" التي يسيطر عليها جيش الشام، ولم يبقَ لشرطة خليفة المسلمين علي بن أبي طالب وحراس الطرق من سبيل لتتبعهم، لكي لا يتسببوا بحرب جديدة، كما حدث في واقعة صفين، فسالت دماء المسلمين وشمت بهم الروم والفرس !!

سمعنا إشاعات كثيرة أكدت أن تلك المجموعات من الصعاليك وقطاع الطرق، يهاجمون القوافل القادمة من العراق بتوجيه من بعض قيادات جيش الشام من الأمويين المتعصبين لوالي دمشق؛ والغرض من كل ذلك الأجرام إشاعة الفوضى في مناطق مختلفة من مدن الخلافة وبواديها، لجعل الرعية تضج بالشكوى من ضعف الخليفة، وقلة حيلته في حفظ أرواح وأموال رعيته!! وكان المنادي يصطحب معه مجموعة من الخصيان؛ الخائفين الذين نجوا من المذبحة التي حصلت في القافلة المسلوبة.

وهم يحكون لكل من يصادفونه، مما لاقوا من الأهوال في تلك الغارة غير المتوقعة على قافلتهم، ومالكهم تملكه الغضب، لأنهم لم يقاتلوا قطاع الطرق، وهم أقوياء وفي سن الشباب !! وكان بإمكانهم أن يغيروا نتيجة المعركة مع قطاع الطرق، فقال الخصي الأسن في المجموعة:

- نحن كما ترون لا ولد لنا ولا تلد !! فعلى أي شيء نصبر على قتال قطاع الطرق؟! وما عسى أن نطمح أن نصير إليه؟! لا شيء!! هل سيعطوننا قيادة أو وجهة؟! ونحن حرمت علينا السلطة والقيادة وارتياح مناير القضاء أو الاجتهاد في أمور الدين؟! فنحن منذ الولادة بمنزلة المتاع!! من اشترانا استمتع بنا، ومن باعنا فعل مثله حتى مل منا ورغب بشراء غيرنا!! ونحن كأبي

رزق يرزقه المرء أن كان سيداً أو قاطع طريق. وشعارنا الدائم إن سلمت بروحك في الشدائد ، فما في الكون أوجه وأحسن منك !!
فأسقط بيدي من حاجبه وطلب منه موقفاً عنيفاً لا يستطيعه الخصي، وهو غير مهياً له منذ طفولته. قال الخصي الأكبر الحقيقة، وأجزل في بيانها وألقى الحجة على من صيره خصياً، ليخدم النساء في المطابخ ويستأنه الرجال على أعراضهم. وضرب الهفهاف كفاً بكف لاضطراب أحوال المسلمين، وبلوغ أحوالهم هذا المبلغ من التفكك والاحتراب وأن يستأجر الوالي المتمرد قطاع الطرق ليعيثوا في الأرض فساداً !! لغاية تافهة هي الحصول على كرسي الحكم.. وتبوء أمر المسلمين كرهاً وإكراهاً، أي درجة من الانحطاط بلغ بعض أهل الحل والربط في بلداننا للأسف !!؟

وردد الهفهاف بصوتٍ مسموعٍ ما كان يردده أبو علي الحسين في مجلسه " ما خفي الحق إلا لشدة ظهوره .. سبحان الله، هو القادر على خلقه !! " ما أصدق ما قاله ثم تمت بصوت غير مفهوم مع نفسه " انا بشوق لك يا أبا علي. شرقت بنا الدنيا أو غربت، فأنت في قلبي، وكلماتك تسير في عروقي. " ما أن حل الفجر حتى سمعنا صوت الناعي ينعي حملتدار قافلة حلب !! الذي كان ينوي الرحيل بقافلته في ذات فجر موته، ولكن تجري الأقدار بما لا نشتهي، وما أن عرفنا المنعى تألمنا كثيراً لهذا الحدث الجلل، فهمسنا بصوت واحد: " إنا لله وإليه راجعون !! " وتمتم سيدي الهفهاف بصوت تخنقه العبرة " بالأمس حين قابلته لأدرج أسمينا في مضبطة قافلته. كان بادي الصحة، متورد الوجنتين، وهو في عز كهولته، يطفح بالحيوية، ومازحه غلام له، بأن هناك جارية في قافلته تتنهد كلما رآته يمرُّ حذاء راحلتها !! وسيدها ينوي بيعها لأول من يسأله شراءها، ولو بمن من التمر !! وتوسلت به، أن يبلغ سيده الحملتدار أن كان يبغي شراء جارية ستكون له نعم الخادمة، إن خلصها من مالكا البخيل، الذي لم تعرف منه غير المعاملة الخشنة، والجلافة، وسوء الخلق، حتى فيما حل له الله فيها من مفاتن، فهو لا يكتفي منها بما هو شرعي بل يطمع بما هو غير شرعي، فتبعده عنها وتقول له: " أتق الله يا رجل. أتق الله.. فيتوعدها ببيع سريع لأول طارق يرغب بشرائها وبأبخس الأثمان !! " رجل لا يعرف أن يحمد الله على ما رزقه من الأنعام، ولا يحفظ ما رزق بحسن المعاملة وحسن التدبير. " وكان سيده لا يوليه الاهتمام فيما يعرض عليه بغير

الابتسام رحمه الله. وتمتم مسعود" إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ !!"

وهرعنا إلى القافلة التي جاء منها صوت النعي، ووجدنا حمالي القافلة وبعض المشيعين يحملون جثة الهالك بعد أن لفت الجثة بعباءة صوف، ووضعت عمامة الهالك على وسطه، وكانوا يتجهون في مسيرهم باتجاه مغتسل جامع القرية الكبير، ومن لغط المعزين عرفنا. أن مساعد الحملتدار كتب لابن الهالك في مدينة الكوفة، أن يقدم على وجه السرعة إلى قرية "القطوف" لغرض استلام شؤون حملتدار القافلة خلفاً لوالده، وليرث تركة أبيه، من بضاعة وجمال وخيل وبغال.

ولم يعرف أحد سبب هلاك الحملتدار إلا أن غلامه قال أن سيده يعاني من مرض تدفق العسل، فربما كان ذلك سبباً في هلاكه. لكن كاتب الرسالة لم يذكر في رسالته سبب هلاك المرحوم، وأودعوا الرسالة المستعجلة، لدى صاحب الطير الزاجل، وهذا بريد أسهل وأسرع وأكثر أماناً من بريد القوافل البطيء، وأن غلا سعر الرسالة المرسله بواسطته، ففي العادة يُدفع لصاحب البريد عن كل ملفوفة يحملها طير من طيوره عشرة دنانير ذهبية، لكل عشرة مراحل من السفر، وبين قرية القطوف ومركز مدينة الكوفة حيث تقع دار الإمارة، مركز الخلافة، القريب من إقامة خليفة المسلمين بحدود خمس عشرة مرحلة، وقد خفض صاحب البريد تكلفة الإرسال لأن الرسالة لا تحمل خبراً مفرحاً على أية حال !!

وبالطبع ليس من الشهامة أن يحمل ورثة الهالك وزراً يضاف إلى مصيبة الموت التي أبتلوا بها. وقد اكتفى صاحب البريد بثمانية دنانير ذهبية. وكما هو معتاد أن الطير الزاجل المكلف بنقل الرسالة سيحملها إلى صاحب بريد زاجل آخر مقره في مركز الكوفة .

وهناك سيقراً صاحب البريد الرسالة ويعرف منها اسم وعنوان المرسل إليه، ولديه من الأعوان لتوزيع الرسائل وهو في العادة يأخذ أجرته من مستلم الرسالة، والمبلغ لا يتعدى الدينار، ولذلك بقيت القافلة في مكانها، ولم تغادر إلى حلب وبقينا ننتظر مجيء ابن الحملتدار المتوفي ليواصل المسير إلى حلب، وقد شاركنا في تشييع الهالك إلى جبانة القرية الصغيرة، وانتدب مقررء للقرآن الكريم على روح الهالك، وطبخ متعهد طعام المسافرين رزاً مع جدي مشوي ووزع الطعام وقت الظهر على المشيعين في ظل سور الجبانة.

وهرع فقراء قرية القطوف وأطفالها إلى موزع الطعام ونالوا حصصهم من
الطعام وبعضهم لم يكن يملك جرة لحمل الأرز واللحم فوضعه في كم ثوبه وعاد
به إلى بيته وامائر الفرخ والحبور ظاهرة على وجهه !!

15 ذو القعدة 38 هجرية
التاريخ الفارسي 10 بهمن ما 27 سنة جلالية

"أنا في منزلك ولن أرحل
حتى لو طلبت مني هذا
أنا معك لنبلغ كعبة القلوب،
ما يفرحك به القدرُ لا يُترك ولا يُعار."
"شهنزاد اسفندياري"

ما أن أشرقت شمس الخامس عشر من ذي القعدة حتى دخلت قرية القطوف
قافلة عرب بن أبي التي أقلتنا بين مسافريها، وهرعت شقيقتي الكبرى فور
وصولنا إلى الخان تسأل عن الهفاهف الأعمش.

كان وقتها مسعود وحده في الخان مع مجموعة من المسافرين من عرب
الشام يتناقشون حول حرمة شتم خليفة المسلمين علي بن أبي طالب من على
منابر الشام في جميع جوامع الولاية بأمر الوالي المتمرد، وعد الشاميون الأمر
إلى سياسة الوالي لتحريض الجند على القتال إلى جانبه !!

وكان مسعود في نقاشه معهم معارضاً شديداً لهذه السياسة، التي يمكن أن
تجعل من يفعلها يفوز في الدنيا، لكنه يخسر آخرته ويجعل الرعية معه تخسر،
خصوصاً وأن الخليفة ابن عم الرسول وزوج أبنته، ومن صحابة الرسول
الأجلاء !!

وفي أوج نقاشه مع الشاميين تعرفت أختي شيرزاد على مسعود، فهرعت
إليه، وكأنها وجدت المنقذ الذي تبحث عنه، ورأى مسعود الالهفة والدموع في
عيني أختي، وسمعتها تقول له متممة بعربية فيها عجمة:

— سيدي الهفاهف، جننا نطلبه !!

أصيب مسعود بالذهول وهب واقفاً معتقداً أن مكروهاً أصاب سيده. فسأل أختي:
— ماذا حدث يا امرأة ؟

— هل عرفتني؟ أنا شيرزاد إحدى الشقيقات الفارسيات الثلاث اللاتي حررهن الهفهاف من العبودية، وعتقهن لوجه الله؟
نظر إليها وإلى جهتنا أنا وأختي، لم يكن قد رأى وجه شيرزاد من قبل، فقد كانت تغطي وجهها بالخمار، أما الآن بعد أن كشفت وجهها رأى وجهاً جميلاً مدوراً وأنفاً أقيماً، وعينين متسعيتين وفودين مرتفعتين بأنفة وكبرياء، بنظرات منكسرة خذلت صاحبها ظروف حياة جديدة لم تعهدها من قبل، وكان لها حاجبان مرسومين كل واحد كالهلال. فقال متلعثماً:
— نعم عرفتك ولكن أخبريني ماذا حدث!!؟
تهدت أختي وقالت:

— نحن تائهات يا سيدي بلا أهل!! ولم نجد أمامنا إلا العودة إلى سيدنا الهفهاف، الذي اشترانا من سيدنا السابق، وليس لنا إلا الله وهو بعده، نحن في ذمتكما الآن!!

— اعتقد سيدي أنك وصلتني إلى أهلكن في خرسان، ماذا حدث!!؟
قالت أختي باكية، وكانت أكثرنا إجادة لتمثيل هيئة الحزينة المظلومة منذ كانت طفلة!! كما أنها تستطيع ذرف الدموع في أي وقت تشاء بسبب وبلا سبب!! وكنا نحسدها على هذه القدرات العجيبة، فقالت وهي تمسح دموعها بشالها:
— لم نجد أحداً من أهلنا!! لقد غادروا جميعاً إلى مكان لا نعرفه!! وسمعنا من يقول أن كسرى الفرس نهانيد يزدجرد الجديد بعد زوال ملك أبيه في خرسان انشأ إمارة جديدة له على أطرافها، وأن أهلنا لجأوا إلى إمارته، ولكنه لا يقبل فيها من صار مسلماً مثلنا، وقد عدنا أدراجنا إلى سيدنا الهفهاف، ليغيثنا من غربتنا ووحدتنا ويحمينا!!
فتأسف مسعود لها قائلاً:

— لا حول ولا قوة إلا بالله، سيدي على وشك العودة، فقد خرج منذ الصباح إلى النهر ليستحم، وأراد أن يمضي وقتاً في خلوة للعبادة والتفكير والتدبير في أمور الحياة!!

وطلب من شيرزاد الجلوس في متكأ الخان، فأومأت لنا، فقدمنا نحوهما، وسلمنا على مسعود، وجلسنا إلى جوارها، ورحب بنا مسعود، وطلب من مشرف الخان طعاماً لنا، فحملوا لنا بعد قليل عصيدة عدس وخبز شعير وحساء رز باللحم، وما جادت به الأرض من خضروات وفواكه في وعاء آخر.

15 ذو القعدة 38 هجرية

" رسائل وصلتني واحتفظ ببعضها دون قراءة لوقت تشح فيه الأخبار وتشتد
فيه الغربة فتصير الرسائل مثل الطعام وقت المجاعة!!"
"الهفاهف الراسبي"

تحت شجرة سدر ضخمة قريبة من جرف النهر التقيت بذلك الرجل الشامي
الأشهب الذي لاحظت وجوده في الخان مع غيره من المسافرين المنتظرين
السفر إلى دمشق، وكان يبدو عليه الثراء، فهو ينفق بلا حساب، دناير ذهب
رومية حولها لدى صراف الخان إلى دنانير كوفيه ذهبية، وكان للرجل الشامي
هيبة الأمراء، وقد ارتدى أفخر الأثواب الكرجية بزر كشة رومية، ورأيت في
عيني الشامي نظرة حب استطلاع. سلم عليّ سلام المسافر على المسافر، ولكن
بودٍ ممزوج برغبة على التعرف. وبادرني الشامي، قائلاً :

— عرفتك فأنت الرجل الشهم، الذي عتق الجواري الثلاث من ذلك السمسار
الوضيع. ولو لم تسبقني إلى هذا الفعل النبيل لعملت ما عملته !!
ابتسمت له ابتسامة باهتة، فتابع الشامي قائلاً :
— أنا سبهان الأزدي الأموي القرشي، من تجار الشام ووجهائه.
فرددت عليه بخجل:

— أخي الشامي أنا الهفاهف الراسبي الأعمش من عرب الأخماس.
— لا بل أنت من شيوخها ووجهائها !!
ابتسمت مجاملاً وشكرته:

— شكراً لك لحسن ظنك بي يا أبا العرب !!
ودعوته للجلوس ليتأمل معي جمال خلق الله تعالى، فيما أشاهده من بديع صنعه
في نهر الفرات، وما حوله من مناظر خلابة للبصر، مفرحة للنفس، ومدعاة
للتفكير بما خلق الله وأنبأ حول صفته من مختلف الأشجار والنباتات، ابتداءً
من داليات الكروم والنخيل الباسقات وأشجار البمبر المعرشة أغصانها وهي
تستقي من جريان النهر وتكتحل بغرينه اللزج، وتترين بموجاته المتلألئة

بضوء الشمس كتمائم الفضة، وحتى أشنات وطحالب مياهه الملونة السابحة في وسطه وأطرافه مزدانة بالمياه الجارية. ابتسمت بوجه الشامي، وقلت مازحاً:

— أنتم أهل الشام أهل مدينة وغرس وجمال، فقد أزلت عنكم مدن الشام بدعوة الجزيرة، وطباع أهلها الغليظة، وأني أعجب كيف يستخدمكم حاكم كعاقبة في حروبه وغزواته، وأنتم أهل استقرار ومحبة للحياة ورخائها؟ ضحك سبهان ملء فيه، وقال:

— سألتُ قبلك هذا السؤال في ديوان معاوية والوحيد الذي رد عليّ معاوية ذاته من بين مجالسيه من حكماء الشام وقواد جيشه وأهل الخبرة والحل والربط من الأمويين. وكان جوابه أطل الله في عمره، وقد انحنى اتجاهي بجسده الضخم عن متكأ منبره المتلألئ بالذهب وشذر الياقوت والزمرد قليلاً وقال:

— " أنه المال أيها الأزدي!! ورب صرة منه تجعلك على غير عاداتك وشؤونك التي عرفها الناس عنك!! "

— لقد صدق ابن أبي سفيان ... لقد صدق لقد فهم الدنيا وما يريد معظم أهلها، أنها دنائير الذهب الرنانة!!

— كان لنا ابن عم لنا من الأمويين الصالحين يحضر مجلس الحكم الأموي بدمشق بشكل دائم، وكان يعترض على معاوية كلما هم بأمر، فيه ما يظنه توزيع غير عادل لأموال بيت أموال المسلمين على المسلمين، فالتفت إليه معاوية بابتسامته المناكدة المعروفة لنا، ونصحه بلطف قائلاً:

— " هي السلطة يا ابن عوف، فأما أن ترضع معنا أو تتصرف عنا سالماً على نفسك ودينك!! "

فضج جميع من في المجلس بالضحك، واستحسنوا ما قال، فقد قال حقيقة ما يجري، فأنصرف الرجل كسيراً، ولم نره بعد يومنا ذاك في مجلس معاوية، حتى وافاه الأجل، وحضرنا دفنه وأولنا معاوية، فكشف عن وجهه فرأينا على ثغره ابتسامة على شفثيه عريضة وساخرة، فعلق معاوية مولولاً:

— " خسر الرجل الدنيا وفاز بأخرته، فهنيئاً لك يا ابن عوف بربحك. " لم أقل شيئاً، واسترسل سبهان قائلاً:

— منذ يومين أيها السيد المبجل، وأنا في حيرة من أمري، اتساءل إن كان الشرع يجيز خدمة السلطان الجائر؟ فقد عرفت من شيوخ في دمشق، أنه يجوز ذلك!

وبرروا ذلك بقولهم " أن لا يخفى على ذي كل عقل أنه لو امتنع أهل العلم والفضل والدين في مداخلة الملوك لتعطلت الشريعة المطهرة، لعدم وجود من يقوم بها، وأن من شاء إقحام العالم والفاهم والحصيف نفسه في العمل مع السلطان أن يفوت بذلك الفرصة على الملوك للتخلص من واجباتهم الشرعية!! خصوصاً أنهم لا يفعلون ذلك إلا مخافة على ملكهم أن يُسلب وعلى دولتهم أن تذهب!! وحتى لا يتذرعوا قائلين جهلنا، ولم نجد من يعلمنا!! " وما أن انقطع الشامي عن الكلام، حتى قلت متعجباً:

— أنت تاجر يا سبهان أم تشتغل بالقضاء!!؟ فهذا صداع لا يلغ فيه التجار، وإن كنت قاضياً، فاعلم أخي الشامي أن الناس - كما قال سيدي أبو علي الحسين - صنفان الأول جماعة زهدوا بالدنيا ومتاعها بغير علم، وعبدوا الله تعالى بغير فهم، وأما الصنف الثاني فهم جماعة لهم أهلية في هذا الضرب من الفكر والعلم، وأرادوا ان يكون لهم من المناصب التي آلت إلى غيرهم، فانتفعوا بها في دنياهم، فشق عليهم ذلك، وتصنعوا عدم الحاجة إليها، وأنهم تركوها اختياراً وتنزهاً عن الدنيا وملازمها، من أجل آخرة قيمة قادمة.. خالدة . ومن هؤلاء جماعات كثيرة صارت أحوالهم إلى مصائب ونكبات ونهايات بائسة، ومنهم من ظفر بمنصب، مستشار أو وال أو قاض أو بمنصب من مناصب الدولة، فكان أشد أهل زمانه وضرب بشره في كل محفل، ولم يوق نفسه شر النميمة، فصار ناماً، وعيناً لكل ظالم، وحاسداً لكل ذي نعمة!! تتحنحت ونظرت إلى الشامي، الذي قال مبتسماً:

— أنا لا من هؤلاء ولا من هؤلاء!!

— وما ظنك في الصنفين؟!!

فكر لحظات وإجاب:

— أن الجماعة الأولى يدعو حالها إلى الرثاء لجهلها، والثانية فعلى المرء أن يتوخي الحذر منها، فهؤلاء منافقون، حاسدون وأهل نميمة، ولذا أرى أن إتصال المصلح بالسلطين مبرراً بل واجباً، لأنهم القوة على الأرض في زمانهم، ولا يتم أنفاذ أمر الله وحكمه في الملة وإشاعة المعروف بين الناس إلا بواسطتهم!!

أطرت قليلاً ثم قلت:

— أن المبرر للعمل مع السلطان الظالم هو ما ذكرته، وهو السائد منذ القدم، وأدعى بعض المقربين من الحكام " أن كفارة العمل مع السلطان قضاء حوائج الأخوان !! "

ضحك سبهان حتى بانت نواجذه، وقال مازحاً:

— كفارة العمل مع السلاطين، هي مغامرتهم المحفوفة بالمخاطر، والخوف الدائم من إنقلاب السلطان عليهم، فالعامل مع السلطان كالراكب فوق ظهر الأسد لا يدري متى يتلفت إليه ليفترسه !!

نظرت إليه ثم حولت عينيّ باتجاه النهر، وقلت له بصوت واطيء فيه نبرة لوم:

— أتدري أخي الشامي لماذا نقول في الكوفة والعراق عن الخليفة الراشد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ؟ لا أظن أنك تعرف، فهو منذ سنوات يُشتم فوق المنابر في دمشق وحواليها بأمر من واليها !!

أنصت الشامي، ثم قال بعد أن أمسك بقبضة تراب رطب من جرف النهر:

— بلى هذا ما يفعلون عقب كل صلاة، والناس على دين ملوكها !!

— التسمية حديثة يا أخي الشامي انتشرت بعد معركة صفين في السنة الماضية في صفر 37 هجرية .

وأكمل عندما لم ينبس الشامي بكلمة:

— أتعرف لم يقول أصحاب علي عنه ذلك ؟ يقولونه، لأنه نزه نفسه عن رؤية عورة أي إنسان، فلم ينكشف وجهه على عورة أحد. وبذلك كان لوجهه التكريم، لإشاحته وجهه إذا انكشفت له عورة ما، ولعلي في حياته شواهد كثيرة على هذا الحال، من ذلك أن في معركة صفين نزل "عمر بن العاص" إلى علي بن أبي طالب لمنازلته، فعلاه بالسيف، فخاف عمر على نفسه، ورمى نفسه على الأرض، وكشف عن سوءته، فاعرض علي عنه، فقال عورة المرء حمى، فقال شاعر حضر المعركة:

ولا خير في دفع الردى بمذلة — كما ردها يوماً بسوئته عمر

وفي حكاية مشابهة أرويها لك، أن بشر بن أرطاة كان مع معاوية في حرب صفين، فأمره معاوية أن يلقي علياً، وقال له سمعتك تتمنى لقاءه، فلو أظفرك الله به حصلت لك الدنيا والآخرة، ولم يزل معاوية يشجعه ويمنيه، حتى نزل بن أرطاة للقاء علي، فلما التقيا صرعه علي، فكشف بن أرطاة عن سوئته !!

فتركه علي، وفي ذلك قال الحارث بن مضر السهمي، معرضاً بعمر بن العاص وبيشربن أرطاة:

" أفي كل يوم فارس ذو كريهة — له عورة وسط العجاجة بادية
يكف له عنها علي سنانه — ويضحك منها في الخلاء معاوية
فقولا لعمر ولأبن أرطاة — أبصرا سبيليكما لا تلقيا الليث ثانية
ولا تحمدا إلا الحياء وخصاكما — هما كانتا والله للنفس واقية !!"
وأكد الأزدي ذلك قائلاً:

- وقيل أن عمر بن العاص رأى معاوية يضحك، فقال له مما تضحك يا أمير المؤمنين، قال اضحك من حضور ذهنك عند ابدائك سوءتك يوم لقاء علي بن أبي طالب، أما والله لقد وجدته كريماً، ولو شاء لخرق رقعتك !! فقال عمر، أما والله كنت إلى يمينك حين دعاك إلى البراز !! فأريدت فرائصك، ومال شذقك، وحوّلت عيناك، وربما سحرك، وبدا من أسفلك ما أكره ذكره لك !! فمن نفسك فأضحك يا ابن حرب!!

فضحكنا معاً حتى استلقينا على ظهرينا من شدة الضحك، وقال وسط قهقهاته :
— لقد سلح ابن العاص على رأس معاوية بما قاله !! لقد كان فصيحاً غشوماً، لا تمر على أنفه ذبابة أو كلمة عابرة. لقد رده رداً ستتذكره العرب إلى آخر الزمان !!

لم أضحك كما ضحكت اليوم. وكانت موجات نهر الفرات المتلاطمة تبدو كظهور الحيات.

وما أن عدت إلى الخان فاستقبلتني الجاريات الثلاث في بابه ووقعت كبيرتهن على قدمي ترجوني وتتوسل بي أن أغيثها وأختيها !! لم أفهم ماذا جرى لها ولأختيها، حتى أسرع صوبي مسعود فوضح لي ما حدث لهن بعد مغادرتهن إلى خرسان، بعد أن حررتهن من الرّق. فقلت مهدناً للمرأة المستجيرة:

- لا تثريب عليك وعلى أختيك، حللتن أهلاً وسهلاً، فأنتن في حمانا بإذن الله. أمنكن الله من الهلع !! وجعل الله لكن مستقراً طيباً. منذ هذا اليوم أنتن في حمانا فلا تخفن ولا تحزن بعون الله ولطفه.

فأسرعت الكبيرة لتخبر أختيها بالخبر السعيد !! وطلبت منهن توديع قافلة بني أب، ففعلن وهن شاكرات لهم، حسن صنيعهم معهن، ونقلن سفظاً لهن كان فوق ظهر أحد الجمال، احتفظن فيه بأدواتهن وثيابهن، ووظاء وحلي وغير ذلك وعدن صوبنا، فاستقبلهن مسعود، وأرشدهن، إلى قباء خصصته لهن.

"مضت الأفعال والأقوال في صفين مع دوامات سف الرمال، وقيظ الصحراء
!!!"

الهفاهف الراسبي

الخير والشر الحق والعدل بمواجهة الباطل والظلم، هذه الثنائية ستبقى فيما
أظن تدور حول نفسها، في أيامنا وأيام أولادنا وأحفادنا. حرب الأصفار مع القيم
مستمرة، وستستمر طويلاً، وكل الألام التي سيعاني منها البشر هي مفردات
قليلة في سفر عظيم من نتائج هذا التضاد والأخونة الأبدية بينهما.

لم تكن أيام صفين أيام حرب بالمعنى الصحيح، حتى الخسائر العظيمة التي
حدثت في الأرواح بين الطرفين، وكان الطرف الأول فيها، أهل الشام وعلي
رأسهم معاوية بن أبي سفيان وعمر بن العاص، والكثير من أمراء بني أمية
ووجهاء أهل الشام، والطرف الثاني أهل الكوفة وأنصار خليفة المسلمين علي
بن أبي طالب، ومعهم من كان من صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. "
حرب صفين كلما تذكرتها رأيت أنها لا تشبه حروبنا السابقة مع الروم
والفرس. كان خليفة المسلمين علي بن أبي طالب يأمر بحرب طائفة صغيرة من
المسلمين لمواجهة طائفة صغيرة من أهل الشام. كانت غايته من ذلك أن لا تقع
خسائر كبيرة بين الطرفين، وكان بعض الغلاة في جيشنا يريد أن يكفر من جاء
في جيش الشام لقتالنا، ولكن الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب قال علي
رؤوس الأشهاد " أن لا تكفير لهؤلاء.. هؤلاء أخوة لنا بغوا علينا !!". وعندما
سمع جماعة من أصحابه يسبون أهل الشام، فقال لهم، وكنت حاضراً هذه
الواقعة :

- "إني أكره أن تكونوا سبّابين، ولكنكم لو وصفتهم أعمالهم وذكرتم حالهم كان
أصوب في القول، وأبلغ في العذر وقلتم مكان سبكم أيّاهم: "اللهم احقن دماءنا
ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من
جهله، ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به !!"

تواترت صور معارك صفين في ذاكرتي، ومشاركاتي في جيش الخليفة علي بن أبي طالب وهي لم تغب عن بالي لحظة لا في نهار ولا في ليل !! كان ترتيب الجيش خلال المعارك يخضع لنظام، أصفه كما يلي:

- "كان ترتيب المعركة يقوم على نظام خماسي. يتقدم الجيش، جند المشاة ووحدات الفرسان الخفيفة، وحمالة القسي، والرماة، ويرتبون في الجناحين. ويتكون القلب من وحدات الفرسان الثقيلة، وهي التي كان لها القول الفصل في المعارك، وعلى رأسها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. وكانت قوات المؤخرة، أو القوات الاحتياطية يقودها مالك الأشتر أو قائد شاب في أغلب المرات هو "العباس ابن علي بن أبي طالب". وكان يقود الخيالة في حركات التفاف سريعة على ميسرة جيش العدو أو ميمنته، وتتألف قوته من صفوة الجند، وقوى الحرس من المتطوعين النصارى، وأصحاب الكتاب وقراء الكتاب. وكان لكل قسم من القوات المقاتلة قائده الخاص."

وإذا ما استقر الرأي على خوض غمار المعركة في اليوم التالي. استعرض أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الجيش في الصباح الباكر بعد الصلاة، والدعاء لله بالنصر السريع، واشترك في ترتيبه، ثم تضرب له قبته الخضراء، ويخفق عليها مرفراً علمه الأبيض، وقد ارتدى ملابس القتال، ولفّ عمامته الخضراء، فعدت كما عمامة رسول الله في جلالها وهيبتها في معاركه ضد كفار قريش، وامتطى بغله !! فهو لا يقاتل على فرس بل على بغل، فهو لا نية له بالفرار من معركة قط، ولا نية له بمتابعة من يفر أمامه من فرسان العدو الخائفين !!

يقبض على سيفه المسلول بفلقتيه المخيفتين بإحدى يديه، ويحمل المصحف الشريف في يده الأخرى، وكان ذلك إيذاناً بقرب نشوب المعركة، ويكون وقتها أشبه الخلق والأخلاق برسول الله أثناء معارك المسلمين ضد كفار قريش !!".

أذكر قسوة ووحشية معارك صفين بعجيجها، وصهيل خيلها، وصراخ جرحاها، وكثرة قتلها!! كانت الجثث في نهاية كل نهار يُصلى عليها من الطرفين. كنا ننظر إليهم ونسمع تكبيرهم، ويسمعون تكبيرنا، ويكون على قتلهم، كما كنا نبكي على قتلنا. وسقط في تلك الحرب - الفتنة - سبعون ألف قتيل من الطرفين. وثكلت فيها سبعون ألف أم وسبعون ألف أخت وزوجة، وجرح فيها أكثر من مائة ألف، نصفهم توفاه الله بعد آلام ومكابدة، والنصف الآخر عاش عليلاً، وقد بترت له ساق أو يد أو كف أو فقد عيناً أو عينين،

وصار أكثرهم في بلاد الشام ممن يتكفف الناس في الأسواق والجوامع، وصاروا ممن تحق عليهم النفقة والشفقة، بينما ضمن بيت مال المسلمين في الكوفة نفقات من يعيلهم الشهيد وورثته طوال حياتهم .

كان لأصوات الأبواق، ونفير القرون، وقرع الطبل المستدير منها، والمربع والنحاسي دورها في شحذ همم المحاربين وبعث نخوتهم.

وكان يتعاون حملة الأسلحة المختلفة كالرماح والاقواس وجعب النشاب، والقنا الطويلة، و القسي والدروع، يسبقهم ممهدو الطرق، وأهل السيوف الهندية، والسقاة ممن يحملون قرب الماء لتزويد المقاتلين بالماء عند نفاذ قربهم، وحاملو تجهيزات الجيش والعشابون لمداواة الجرحى وأصحاب الضمادات وأدوات بتر الأطراف للمصابين، الذين تدعو حالاتهم إلى بتر طرف مصاب من أطرافهم الأربعة !!

وإلى الجانب الآخر كتاب التجهيز الإداري لمحلات الجنود، وجنود السقاية، وحماة المصلين وقت الصلاة أثناء المعركة، وكفاة الأطعمة، وأهل الحراسات الليلية، ولفيف من معاونين وناقلي الرسائل بين الجيشين، وعيون الجيش، وفرق المتوغلة بين صفوف العدو، ووحدات الفرسان الخفيفة والثقيلة، وبريد الجيش، الذي ينقل أخبار المعارك من مختلف الأجنحة إلى أمراء الأجنحة المختلفة.

كنت أحد جنود هذه المعركة والذين حضروها، منذ أول أيامها إلى آخر أيامها إلى جوار أبي المهند الراسبي، الذي كان يقود جناحاً من أجنحة الميمنة لجيش أهل الكوفة ضمن أحد أفواج مالك الاشر القائد الصحابي، وهو من قادة جيش علي بن أبي طالب خليفة المسلمين المعروفين، وكان صاحبه وصاحب أبي منذ كنا نعيش في الطيبة مع رسول الله وأصحابه.

وقد كلفت في نهاية كل يوم من أيام الحرب بالبحث بين جنود الكوفة، ممن يجودون بذمائمهم، فأسقيهم؛ وأتشهد بوجوههم!!

وكنت أتأمل الموت العظيم، الذي غزا المعسكرين، وهاهي كوابيسه لا تفارقني إلى يومي الحالي !! أربعون ألفاً قتلوا من معسكر أهل الشام وثلاثون ألفاً قتلوا من جيش أهل الكوفة، الذين جاءوا مع خليفة المسلمين علي بن أبي طالب.

أي خسارة فادحة للمسلمين تلك، التي حدثت تحت عيوننا؛ وبما نحتته سيوفنا في تلك الأيام الرديئة، التي أدمت الأرواح قبل الأجساد وخلقت الأحقاد، وستبقيها كذلك إلى آخر الزمان !!

سيدفع ثمن كل هذه الأحقاد من لم يشب بعد، وسيلحق العذاب والفقد والسوء حتى للجنين الذي لا يزال في ظلماته الأربع ببطن أمه !! لم يكن الخليفة علي بن أبي طالب من محبي الدنيا، فقد طلقها بالثلاث، حتى أنه رفض الإقامة في قصر الإمارة بالكوفة، الذي يدار الحكم من أووينه، حين وفد إلى العراق بعد مبايعته بعد مقتل عثمان بن عفان، وقال لمن استقبله " مالي وهذه الدار . فهي دار مفسدة ودار الخبل. لا هي لي ولا أنا لها !! . "

وعندما أصر على رفض الإقامة فيها تبرع له "جدة الكوفي" وهو ابن أخت الإمام علي بن أبي طالب بأرض له في الكوفة . فبنى عليها بيتاً بسيطاً سكنه مع عائلته لكي يحكم الدولة الإسلامية المترامية الأطراف من ذلك البيت البسيط.

أما كان الأولى بنا أن نطيع الأمام علي ابن أبي طالب في زهده ونتمثل دينه؛ ونمتنع عن إراقة دماء بعضنا البعض؟ !! كان لا يزال هذا السؤال يتردد في ذهني وسيبقى إلى زمن قادم بعيد!! وتراه هو بالذات ما خلق في قرارة نفسي كرهاً لمشيخة ورياسة قبائل الأعامشة، بعد أسر أبي المهند الراسبي كبير مشايخ الأعامشة في أيام صفين، وانقطاع أخباره، وهجري الأهل والأوطان باحثاً عنه، وأنا أردد في نفسي " إذا كانت دار الإمارة دار خبل، فما قيمة رياسة مشيخة في الأخماس؟! وما جدواها لرجل مثلي اكتفى بالقليل من خيرات الدنيا، ورضي من يومه ببضعة أبيات من الشعر يسمعها فيستحسنها!! وتمضي كلماته مع دوامات سف الرمال، وقيظ الصحراء !! . "

كنا في تلك المحنة من أيام صفين نضع كل مائة قتيل وهم بملابس حربهم المعفرة بمزيج من التراب والدم، وبخط مواز فيتم حفر مائة حفرة، وكل حفرة عمقها زهاء أربعة أذرع. ونلحد الجميع بعد أن يقيم الإمام أربع تكبيرات، وكذلك كان يفعل أهل الشام بقتلاهم، ونسمع تكبيراتهم، وهم بالتأكيد يسمعون تكبيراتنا، كما كنا نسمع نحن !!

ونهيل رمال الصحراء على الأجساد. فيعلو القبر فوق الأرض المستوية، لكن سرعان ما تختفي معالم هذه القبور حين تشتد الرياح، ويعلو سف الرمال كل شيء، ولن نستطيع في اليوم التالي من الاهتداء إلى من لحدوا !!

فقد ذابت أجسادهم في الأوكيانوس العظيم !! كأنهم لم يأتوا ولم يمشوا على الأرض من قبل. يا لحكمة الموت وحكمة دفن الميت تحت الأرض !! هذا يعني أن الإنسان الذي كان لم يعد له وجود، هو مجرد كتلة هوت واندرت ولم تترك

أثراً!! ولن تسمع عنه بعد موته إلا ما فعل من خير أو شر، والترحم عليه بعد الممات وتقاسم ما ترك، فالسيف يوهب لمن كُسر سيفه في المعركة، ودرعه لمن فقد درعه وجواده يسلم إلى جماعة التجهيز في الجيش ليعاد توزيعه ليكون من حصّة فارس آخر أصيب فرسه في المعركة وتعاد صرة ملابسه وسفط لوازمه الشخصية إلى أهله بعد انتهاء المعركة والعودة إلى الكوفة عند ماسك زمام وكاتب طوامير من هلكوا في أرض المعركة!!

ونمضي في عصر يوم آخر من القتال لدفن مائة أخرى قضوا في نهار من أيام صفين. يالها من حرب، ويا للحرب من همجية تقوم على فكرة أن نقتل بعضنا البعض من أجل أطماع وأحقاد ورثت عهداً بعد عهد تعززها أمراض الغل والحقد والتكبر وغرائز الانتقام والتسلط على الفيء لتوزيعه على الأهل والأقارب من دون وجه حق!!

ما ضر معاوية لو بايع خليفة المسلمين علي بن أبي طالب وحقن دماء المسلمين!! ما ضره لو نظر إلى مصالح الناس بالسلام والمصالحة!! ما ضره لو ترك لخليفة المسلمين الاقتصاص من قتلة الخليفة الثالث، وترك ما ليس من شأنه لغيره لتدبير الأمر!!

لعن الله كل من نافقه ونصحه بشق عصا المسلمين وتفريق شملهم وتبديد قواهم، وكل من شجعه ليقف بوجه خليفة المسلمين علي بن أبي طالب.

وأغرب ما عرفته أنه لم يكن بين رأي معاوية في الاقتصاص من قتلة الخليفة عثمان بن عفان ورأي خليفة المسلمين علي بن أبي طالب سوى شعرة!! كان خليفة المسلمين علي بن أبي طالب يرى ضرورة التحري عن الأسباب التي دفعت القتلة لفعل فعلتهم، لئلا يعاقب برىء بتهمة مذنب. وكان معاوية يريد أن يعاقب فلاناً وفلاناً على الشبهة ومن دون تحري المذنب الحقيقي!!

وكانت تلك ذرائعه لأجل أن لا يبايع الخليفة الرابع، ويبقى يحكم ولاية الشام مهما كلفه الأمر بعد ان أمر الخيفة علي بن أبي طالب بسحب يد جميع ولاية الأقاليم الذين ولوا في زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفان، فقد ضج الناس من عدم عدلهم وهيمنتهم على الفيء ومناصب القيادة لأقاربهم وأهلهم واستشراء الفساد وشراء الذمم في ولاياتهم وهذا أحد الأسباب في ثورة الناس على عثمان بن عفان التي أنتهت بمصرعه بتلك الصورة البشعة. ولم يهتم معاوية أن يقع المسلمون في فتنة سيتحمل اعباءها الأبناء والأحفاد إلى ما شاء الله من السنوات وربما إلى نهاية الدهر وقيام الساعة!!

ومما لا يُنسى وعشته في حرب صفين أن معاوية أمر فرقة من خياله وفرقة أخرى من الراجلة باحتلال موقع على نهر الفرات كان جنودنا يستقون منه، وكذلك ركائبنا تطفيء ظمأها منه، لصفاء مائه، وتوفر معدات السقاية فيه من دلاء ومرسى مشيد.

وكان الموقع يقع في جبهة هضبة يستطيع المتمكنون عليها من قطع الطريق بالنشاب، ورماة الرماح الماهرين من الشاميين على أي قادم من تلك الجهات. فبلغت قوات الشاميين المسقى، ومنعت جنودنا من وروده وبقي الجيش بلا ماء فترة يومين، فلم يكن للخليفة علي ابن أبي طالب، الذي كان لا يرغب بتوسيع المعركة، وزيادة عدد قتلاها وجرحاها غير العكوف والتفكير في أن يحل المشكلة من دون توسيع مساحة الحرب بين الطرفين !! فجاء الأشعث بن قيس شيخ كندة وكان من الطامحين بالرئاسة بعد وفاة الرسول الكريم، وارتد وقتها مع المرتدين في خلافة أبي بكر، ولكن بعد أن قُتل جميع مريديه في حصنه أعطاه أبو بكر الأمان مع عشرة ممن يختارهم من أعوانه، فأبدى توبته وقبّلها أبو بكر وزوجه أخته أم فروة، ولم يكن الرجل بعد ذلك ممن يمكن أن يعتمد عليهم في نصيحة أو فعل، ولكنه كان من المفروضين على جيش علي بن أبي طالب، فقد كان يطمح إلى حدوث صراع مرير بين الرجلين معاوية وعلي لكي يتخلص في النهاية من أحدهما، ليواجه الآخر طامحاً بالرئاسة !! فكان الأشعث أول المندفعين إلى القتال حين سدّ أهل الشام طريق الماء، فجاء علياً يقول له: "يا أمير المؤمنين، أيمنعنا القوم الماء وأنت فينا ومعنا سيوفنا ؟ !! ولني الزحف إليهم !! .. فوالله لا أرجع أو أموت !!" فكان علي مضطراً إلى إرسال فرقة بقيادة مالك الأشتر النخعي لطردهم جنود معاوية من ذلك المكان !! وكان قبل هذا أمير المؤمنين يحجم عن أي قتال، عسى ولعل أن يهتدي معاوية إلى صوت العقل ويطلب السلام ويرجع عن ظلمه لنفسه وللمسلمين ويحقن دماءهم ودماء من تبعه، وهو يعرف بتجربة المجرب للحروب أن زج أعداداً كبيرة من الجنود من الجانبين في منطقة محصورة يفضي إلى هلاكات كبيرة من الطرفين، وكان لا يريد هذا، ولا يرغب به، حفاظاً على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولكن الجانب الآخر لم يرد هذا ولا يهمه أن تقع مقتلة عظيمة بين الطرفين، وقد أعماه طلب السلطة وطمع الدنيا، وما فيها من متع قصيرة ومغريات زائلة !!

وآه ثم آه.. فأنا لا أزال حتى هذه اللحظة التي أدون بها هذا السفر عن تلك الأيام اسمع أصوات المحاربين وصراخهم وحممة خيولهم، وأشاهدهم وهم يخوضون في مياه الفرات إلى ركب الراجلين، وصليل السيوف، وقدح شرارات ارتطام النصول بالنصول بين المتحاربين، والدماء تصبغ مياه الفرات. كم سقط من القتلى والجرحى في ذلك النهار؟ وحده الله يعلم!!

كان صوت الجمعين يعلو بالتكبير، والتوحيد، والاستغفار، وكان من قتل في ذلك النهار أخذته مياه الفرات الجارية، فلا يصدده شيء غير سكون البحر المالح في الجنوب، ولم تترك فيه أحياء النهر، وشوكة وقصبه غير خرق أثواب مدماة يعلوها الذباب، وخنافس الماء السوداء التي تصرُّ ليلاً ونهاراً صرير الموت والخراب!!

وما أن انقضى ذلك النهار حتى كانت الغلبة لجنود مالك الأشتر النخعي وانهزام جنود معاوية شر هزيمة مخلفين وراءهم أكثر من ألف قتيل وألفي جريح جرفتهم مياه الفرات بعيداً عن أرض المعركة!!

وما أن عاد الأمر وصارت السقاية لجنود الأشتر، حتى جاءت الأوامر من خليفة المسلمين علي بن أبي طالب بالسماح للجميع بإيراد الماء من النهر والسقاية للجميع من دون استثناء، جنود معاوية وجنودنا!! فجاءت جنود السقاية في جيش معاوية عصر ذلك اليوم وسقوا لجيشهم من دون أن يعترضهم جنود مالك الأشتر.

وهذا مبدأ جديد في الحروب استنّه الخليفة أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب، مفاده أن الماء مباح للمتحاربين، ولا يجدر بالخصم منعه عن خصمه في أي حرب!! وكنا من قبل في حروبنا القبلية، نسعى لقتل أعدائنا بأي وسيلة نستطيعها، فجاء وصي النبي ليعلمنا الرحمة حتى بأعدائنا!!

ولن أنسى ما حبيت صوت منادي المعركة وهو يعلن نفيده، وينادي على جيش الطرف الآخر، ويعلمه بالسماح لهم بالسقاية، وقتما يشاءون فرادى أو جماعات مع دوابهم أو من دونها، راجلين أو راكبين، فعمت الفرحة بين جنود معاوية، وقد ظنوا قبل هذا أنهم سيتركون في هذه الرمضاء ليموتوا عطشاً، كما كانوا يريدون أن يفعلوا هذا بخصومهم من جيش أمير المؤمنين علي بن أبي طالب!!

كيف لي أن أنسى عصر ذلك اليوم، وأنا أشاهد جنود معاوية قربي يملأون القرب، ويرتوون من ماء الفرات، ولا أحد يمنع الآخر من إيراد الماء، ورأيت

المقاتلين الذين كان بعضهم يقتل البعض الآخر قبل ساعات قليلة، وهم يمرون قريباً من بعضهم البعض ويسمون باسم الله ويأخذون ملء أكفهم من ماء الفرات ليشربوا أو يقربوا أفواه قربهم من موجة النهر الصافية لينالوا منها ما يملأ قربهم، ولم أشاهد أعرب من ذلك في كل الحروب التي شاركت فيها !! وربما أكثر الأشياء مدعاة للتفكير ما كان يحدث وقت الصلاة، فقد كان الجيشان يعطلان الاقتتال لإداء صلاة الظهر أو العصر، ولا يحذر الطرفان أن يغدر أحدهما بالآخر، وكان يدور في أذهان الجميع سؤال مرير مشترك " لماذا نتقاتل ؟ ولأجل ماذا نقتل ونجرح ؟!! " " وما ضير أهل الشام إن حكم وصي النبي علي بن أبي طالب ما دام على سنة رسوله ولم يعاملنا إلا بكل خير وحكمة ؟!! ويرد كل واحد منهم في العن والسر " يا لطمع نفوس البعض وصغرها أمام أهواء ومطامح الدنيا !! "

وقد قرأت تاريخ الأمم التي سبقتنا فعلمت أن دولتي فارس والروم اقتتلتا لمدة 700 سنة ودارت بينهما أكثر من ألف معركة ولم تهزم أي منهما الأخرى، حتى جاء المسلمون الحفاة، المؤمنون بالله ورسوله، وكانت كلمتهم واحدة، ففضوا على الأمبراطوريتين في أربع سنوات !!

هزموا الفرس في 15 معركة والروم في 9 معارك، فاتّحدت الامبراطوريتان بعد ذلك للقضاء على المسلمين وحشدتا 200 ألف مقاتل في جبهتين واسعتين، فهزمتاهما المسلمون بخمسة عشر ألف مقاتل !! أيام مجد لا تنسى تلك الأيام !! لأن الكلمة كانت واحدة والهدف نصره الدين وإقامة العدل بين الناس.

وأذكر في ليلة الهرير من معركة صفين وقد بان نصر جيشنا على جيش أهل الشام، وبدأت الهزيمة تُشاهد واضحة على صفوف جيش معاوية، فعمدوا إلى الخديعة برفعهم المصاحف فوق الرؤوس !! ومن جديد برز دور "الأشعث بن قيس" المريب !!

فخطب في قومه من كندة قائلاً : "قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان في يومكم هذا الماضي، وما قد فني فيه من العُرب!! فوالله لقد بلغت من السنّ ما شاء الله أن أبلغ، فما رأيت مثل هذا اليوم قط !!

ألا فليبلغ الشّاهد الغائب أنا إن توافقنا غداً إذن لفنيت العرب وضُيِّعت الحرّمات، أما والله ما أقول هذه المقالة خوفاً من الحرب، ولكني رجل مسن أخاف على النساء والذّراري غداً إذا فنيّا !! "

وما قاله الأشعث واضح، فهو يوصي قومه وبقية جيش علي بالمسالمة والتوقف عن الحرب التي صار فيها جيشنا قاب قوسين من النصر، وكادت مقدمة جيشنا أن تشتت أهل الشام وتأسر معاوية ومن معه من قاداته !! ولم يكتف بهذه المقالة وهو يرى النصر القادم لجيشنا، فما أن رفعت المصاحف، تلك الخدعة التي اخترعها عمر بن العاص لوقف هزيمة جيش معاوية، حتى ذهب إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وقال له " ما أرى الناس إلا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن، فإن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد فنظرت ما يسأل !!؟ ".
وفعل ذلك ولقى معاوية، فسأله:

- "يا معاوية لأي شيء رفعت المصاحف؟" فقال "لنرجع نحن وأنتم إلى أمر الله عز وجل في كتابه، تبعثون منكم رجلاً ترضون به، ونبعث منا رجلاً ثم نأخذ عليهما أن يعملما بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما أتفقا عليه !!"
فقال له الأشعث: " هذا الحق !! ".

وعاد الأشعث إلى علي بن أبي طالب ينادي بالتحكيم، ويختار له هو وأنصاره رجلاً ينوب عن علي، وعلي لا يرضى عن اختاروه ليمثله !!
وكان أنصار التحكيم قد تكاثروا واجترعوا على أمير المؤمنين، ولم يبالوا أن يواجهوه بالقول السيء مُنذرين متوَعِدِينَ:

- "يا عليّ أجب إلى كتاب الله عز وجل إذا دعيت إليه، وإلا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان، إنه عرض علينا أن نعمل بما في كتاب الله عز وجل فقبلناه، والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك !!"

والحوا عليه أن يردّ قائده الأشتر النخعي من ساحة الحرب وإلا اعتزلوه أو قتلوه !! فقبل علي بن أبي طالب التحكيم وهو كاره، واختار أهل الشام عمرو بن العاص، فقال الأشعث:

- "فإننا رضيينا بأبي موسى الأشعري"
فقال عليّ:

- "إنه ليس لي بثقة !! قد فارقتني وخذل الناس عني، ثم هرب مني حتى أمّنته بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس نوليّه ذلك."

قالوا: " لا نريد إلا رجلاً هو منك ومن معاوية سواء، ليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخر." قال علي: "فإني أجعل الأشتر." قال الأشعث وهو ينفس

على الأشتر مكانته وبلاءه من قبل " وهل سَعَّرَ الأرضَ غيرَ الأشتر؟! فلما رأي عليُّ بنَ أبي طالبٍ إصرارهم وقلة أنصاره على رأيه بينهم، قال: - " فقد أبيتم إلا أبا موسى؟! " -

قالوا :

- نعم !!

فقال بلا مبالاة، كالذي أسقط في يده من نصحهم:

- " فاصنعوا ما بدا لكم !! " -

القليلون من في جيش علي بن أبي طالب كانوا يرتابون بقيس بن الأشعث بالرغم من أنه من القواد المطاعين في الجيش، لأنه كان سيد كندة وزعيمها، وقد بذل ما بذل من الجهد لتغليب حزب معاوية على حزبه، واستكثر على علي بن أبي طالب أن يكون الحكم الذي يختاره نصيراً مؤمناً بحقه وصحة رأيه !! لقد خذل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب خذلاناً شديداً، وما فعله لم يستطع أن يفعله أشر المنافقين مع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في أغلب معارك المسلمين في بداية الدعوة.

وكنت اتساءل بيني وبين نفسي لماذا يفعل الأشعث الكندي هذا؟ هل هو الطمع في الملك بعد أن يفشل علي بن أبي طالب في قيادة الأمة، أم بسبب نقمته على مالك الأشتر النخعي لمكانته لدى علي وبلائه في كل أمر يختاره له علي بن أبي طالب، أم لتواطؤ بينه وبين معاوية على منفعة مؤجلة ومكافأة موعودة له من معاوية؟!!

وأي حصيف في جيش علي يمكنه أن يحدس النية الخبيثة الظاهرة في كل تصرف يتصرفه وكل رأي يطرحه الأشعث !! وإن اختفت العلة مما صنع في تلك الأيام، وأياً كانت الأسباب، فقد بذل ما يستطيع لغلبة حزب معاوية وخذلان حزب علي بن أبي طالب، الذي هو قائد بارز فيه !!

مما جعل علي بن أبي طالب يصف أنصاره المنافقين يوماً بخطبة مريرة لا زلت أحفظ كل كلمة منها، فقد قال، وهو خير المتكلمين والخطباء:

- " أيها الناسُ المجتمعةُ أبدانهم، المختلفةُ أهواؤهم، كلامكم يوهي الصمَّ الصلابَ وفعلكم يطمع فيكم الأعداء، ما عزت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم. أعاليل بأضاليل دفاع ذي الدين المطول. أي دار بعد داركم تمنعون؟ ومع أي إمام بعدي تُقاتلون؟ المغرورُ والله من غررتموه، ومن فاز بكم فقد فاز بالسهم الأخبب، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل (الأفوق هو السهم

المكسور في موضع الوتر، والناصل العاري من النصل) أصبحت والله لا أصدق قولكم ولا أطمع في نصركم، ولا أوعد العدو بكم، ما بالكم؟ وما دواؤكم؟ ما طبكم؟ القوم رجال أمثالكم، أقوالاً بغير علم؟ وغفلة من غير ورع؟ وطمعاً في غير حق؟!!

واتساءل، هل الوصي وأصحابه كانوا على طيبة متناهية؟ أم هي رسالة الإسلام العظيمة التي عفى من خلالها رسولنا الكريم عن إجرام وكفر أبي سفيان بعد إسلامه وعين ولده معاوية كاتباً خاصاً للوحي في معيته؟!! حقاً أنه لدرس عظيم أن جيشاً محارباً لجيشك يا أمير المؤمنين تتقذه من الهلاك عطشاً، وقد أراد هو قبل نهار واحد أن يفعل بك ذات الفعل، فترد عليه بهذه الإنسانية والروح المتسامحة الكريمة؟!! وليس لي إلا أن أذكر أن الله تعالى يعرف أين يضع رسالته، ومن يجعل وصياً لنبيه سبحانه يا رب العالمين!!

ويالها من دروس تعلمناها في حرب صفين. تعلمنا أن الماء متاح للمتحاربين من كلا الجيشين، وأن كشف السوءة منجاة لمن غلب فكشفها للخصم، فهذا الفعل ينقذ من القتل من كل ذي مروءة ويستحي أن يظهر على عورات البشر!!

ولكن كيف كافأ المنافقون هذه الإنسانية العالية؟ فقد اجتمع الحكمان أبو موسى الأشعري وعمر بن العاص بدومة الجندل، التي وقع عليها الاختيار لتكون وسطاً بين العراق والشام، وقد جاء اختيار أبي موسى الأشعري يدل على الخبث فرأيه معروف بما يدور حوله، فهو لم يكتف قط أن السلامة في اجتناب الفريقين وترك القتال، والقعود في منأى عما يدور بين الطرفين!! وليس أيسر من اقناعه بخلع صاحبه وخلع معاوية على السواء، ثم يبادر عمر بن العاص فيثبث صاحبه معاوية ويخلع علياً بعد أخذ ورد!!

وفي يوم إعلان نتيجة المداولات بين الطرفين، وكنت حاضراً استمع لما اتفق عليه الرجلان، وكان الجيشان، جيش معاوية وجيش أمير المؤمنين علي بن أبي طالب متقابلان والجميع أنصتوا لسماع ما تم الاتفاق عليه، فأعطى عمر بن العاص الأذن للأشعري ليقول كلمته للناس، لأنه أكبر منه سناً، وهذا كان جزءاً من إحكام خيوط الخديعة التي نسجها عمر بن العاص لخصمه الأشعري، فبلع الأشعري الطعم، وظهر وسط الجيشين متوكئاً على عصاه القصيرة، وقال بصوت أجش:

- " أيها الناس، إنا قد نظرنا في أمر هذه الأمة، فلم نرَ أصلحَ لأمرها ولا أَلَمَّ لشعثها من أمرٍ قد أجمع رأيي ورأي عمر عليه، وهو أن نخلع علياً ومعاوية، ونستقبل الأمة بهذا الأمر، فيولوا منهم من أحبوا عليهم، وإني قد خلعتُ علياً ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلاً. "

وتلاه عمر بن العاص فقال بعد تمهيد:

- " أن هذا - وأشار إلى الأشعري - قال ما سمعتم، وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه!! وأثبت صاحبي معاوية!! فإنه ولي عثمان بن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه!!"

فغضب أبو موسى الأشعري وعرف أنه تعرض لمكيدة فصاح به:

- "مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت، إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث!!"

فابتسم عمر بن العاص وقال:

- " إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً!!"

فضج المعسكران بالضحك عليهما، وقد وضحت الصورة للجميع أو على الأقل لي وللمؤمنين في الفريقين!! أن اللذين وقع عليهما الاختيار لتمثيل الأمة وتقرير مصيرها ومستقبلها "كلب وحمار!!" حسب وصفهما لبعضهما البعض!! فما كان بعد هذا التحكيم الجائر غير فتنة الخوارج، الذين أنشقوا عن جيشنا، ورفعوا سيوفهم بوجوهنا مكفرين لنا، لأننا قبلنا التحكيم، ولم ننفذ أمر الله!!

20 ذو القعدة 38 هجرية

" يعلم الله شوقي إليك، ولكن ما لله لله، وما لأشواقنا غير الصبر، والانتظار."

الهفاهف الراسبي

أخبرنا عبد مسن يعمل في أرض سيده بعد أن عرفنا وضيفنا في كوخه القريب من الأرض التي يعمل فيها منذ طفولته، أن من يتبعنا من قطاع الطرق، ما أن بلغوا سدة الزرع القريبة من فرع الفرات المتجه جنوباً نحو البطائح حتى وجدوه مع عبيد يحرثون الأرض. كانت جيادهم متعبة وبحاجة للراحة، وكانوا شعناً غير الرؤوس - كما ذكر - بسبب عاصفة ترابية كادت تخنقهم بدقيق رملها وترابها، وما حملته دوامات الرياح من الحصى الصغير، وجزور العاقول، يقول المضيف، فبادرهم أعظمهم جثة بالتحية فرددنا عليه، فسألنا عن طريق "خان الغربان" وهو الخان المعروف لأغلب المسافرين، ووجهة القوافل المتجهة إلى الشام، لتَموينها من حوانيته بالحبوب، وعلف الركائب والماء، قبل أن تتجه شمالاً صوب صحراء الجزيرة، حيث لا ضرع ولا ماء. يقول مضيفنا أشرت لهم إلى جهة الشرق أكبر، وأنا أتقي الشمس بكفي الثانية، وطلبت منهم السير لمرحلة، ثم الاتجاه شمالاً، فوخز الفرسان الثلاثة خيولهم، المتعبة لمواصلة سيرهم، حسبما أشرت لهم. وذكر لنا:

- أنهم كانوا متعبين إلى حد أنهم لم ينبسوا بحرف. وبدا أن غرائز غامضة تقودهم إلى مكان ما. إلى هدف لإنهاء الأمر الذي جاءوا من أجله بأقصر وقت والعودة إلى الديار والأهل لإستلام جائزتهم.

قال المضيف ذلك وأكد أنه يعرف هذا النوع من القتلة والآفاقين. يستلمون المال بعد أن يسلموا رأس ضحيتهم، لمن وضع جائزة لرأس غريمه !! وكان الجدل بينهم في ذلك الصباح على أشده، وكان كبيرهم يطالب الآخرين ضرورة الإسراع للحاق بطلبتيهما قبل أن يفلتا في صحراء الجزيرة المترامية الأطراف، ذلك الجدل أوصلهم إلى حد العراك فيما بينهم "قال المضيف المسن".

وأكد لنا أنهم كادوا أن يشهروا سيوفهم بوجوه بعضهم البعض، وفي حقيقة الأمر كان كما بدا له أن الثلاثة أحدهم يكره الآخر، وما جمعهم إلا طلب المال، ولا يمكنهم الإمساك بهذا المال الملعون إلا بالمصاحبة بينهم، وابداء الرأي الحصيف لتتبع بغيتهم، وما أن أنهوا مرحلة الطريق التي أشرت بها عليهم حتى ظهرت من بعيد تخترونات كثيرة تنقل الخضار والتمور وأكياس الحنطة والشعير، وهي إشارة إلى أن "خان الغربان" لا يبعد سوى مرحلة واحدة، فضحك أبو الهوائل مسروراً، وقال لصاحبيه:

— سنتعلم عما قريب فن القيافة، فنصير أحسن ممن يقصون الأثر!! وقد عرفت أمهرهم، وهو سوافة بن خزاعة، وكان يردد وهو يتقى الأثر، فلا يخيب مسعاه" البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير."

وذكر أحد العبيد لمضيفنا أنهم بعد أن قطعوا مسافة من الخان أشار أحدهم لصاحبيه إلى مكان مناسب قريب من النهر ليشربوا وترتوي منه خيولهم، قبل أن يواصلوا المسير إلى الخان. فأسرع أصغرهم، فخلع ثيابه وارتمى في مياه النهر، ليزيل عن جسده وشعر رأسه غبرة الطريق، وخاض الرجلان الباقيان في مياه النهر إلى وسطيهما وغرفا بكفيهما من ماء النهر ليشربا ماء زلالاً بارداً.

لم يكن لسيدي الهفهاف إلا أن يتدبر حال الجواري الثلاث وحالي، فهو قد قرر الرحيل عن أرض الأخماس خفيفاً لا امرأة تثقل كاهله، ولا طفل يضطره للتريث والأنس بما قيض له الله تعالى من مصير، لا يرضى ذلته وهوانه، لا شيء يحمل معه غير حاجاته الضرورية، وما نحتاجه في طريقنا، ولو عرف سيدي أنه يستطيع العيش مع غيره لتركه، فهو غير محتاج لصحبه، لكنه متيقن من أنني أحبه في الله ولا أستطيع فراقه، لذلك اصطحبتني في رحلته، التي ظن أنها ستطهره من ذكرياته المريرة، مما لاقاه من أهله وأقرب البشر إليه، ولكن الله تعالى يريد وأنا أريد وأنت تريد، ولكن الله يفعل ما يريد، فبماذا تعتذر يا سيدي لهاته الجواري اللائي لا يعرفن غيرك منقذاً بعد الله، وقد تعلمت أن لا تقول لا إلا في تشهدك؟

هل تدير وجهك عنهن وقد جنن إليك راجيات حمايتك؟ فما أنت فاعل يا ابن الأجواد؟ وأي الحاليين ستختار؟ وقد وضعت بين أمرين، نساء يصعب عليهن السفر والتنقل وروحك اللائبة، الباحثة عن الطمأنينة والسلام في خطو بعير

وحداء دليل حزين، ووقع ركائب فوق حصباء مقفرة في مسيرة طويلة تحت شمس لاهبة في صحراء لا ضرع فيها ولا ماء؟
آه أيتها النفس ما أشد عنادك، وما أكثر عنائك وقلّة دوائك، ومن منا استطاع قهر مرديات نفسه؟ من فعل هذا؟ إلا رجل واحد لا سواه هو هناك في دار حكومة الكوفة، ودار الخبل!! كما قيل عنها، بلسان عارفها!! أمير الحكمة والتدبر علي بن أبي طالب.

لم أجد بداً من الطلب من مسعود أن يبحث لنا عن مسكن نكتره قريباً من خان المؤمن، لكي نستقر فيها بعض الوقت، فالخان لم يعد مناسباً لسكنانا مع الجواري ومتاعهن ومتاعنا، كم أن النساء حرمة وحاجات كثيرة لا ينبغي أن يطلع عليها من هب ودب من مسافري الخان خدمه وسفاروه، كما تبغي النساء الأفراد بأنفسهن عن عيون الناس.

ولم يتعب مسعود كثيراً فوجد لنا الدار المطلّة على نهر الفرات، وتعود ملكيتها لمالك أرض قريبة هجرها قبل فترة قصيرة. ورحب بنا الرجل، وما أن تعرف عليّ وعرف من أكون حتى طفق يحتضنني، ويقبلني من جبيني، فقد كان والدي ذا أفضال كثيرة عليه، وعلى قبيلته حين كانوا يعيشون في يثرب. وبعد أن جاءوا إلى أرض السّواد بعد الفتح الإسلامي لبلاد فارس، وتفرقا هو وقبيلته، وسكنوا هذه الأنحاء والمهند الأعمش سكن الأحماس.

وكان قبل هذا قد سمع أن رجلاً من الأعمشة حرّر قبل أيام قليلة ثلاث جواري من يديّ نخاس جشع، وأطلقهن في سبيل الله، والقصة فيما يبدو انتشرت بين الناس في القرية المجاورة للخان، وقد مدح كل من سمعها كرمي وأريحيته وخلق المؤمنين الصحيح، الذي لم يكن معروفاً لدى الكثيرين قبل هذه الحادثة.

وردد الناس كما ذكر لي صاحب الدار "لا يفعل هذا الفعل النبيل إلا رجلاً من أهل الإيمان القريبين من ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهؤلاء تدل عليهم أفعالهم لا أقوالهم."

وما أن استقرينا في الدار حتى توقف أمامها تخترون يحمل رجلاً كبير السن يعتمد عكازاً، وكانت لحيته بيضاء كالفضة، يسبقه فتى صغير يحمل سجلاً ضخماً تحت أبطه، وسلم علينا.

وعرف بنفسه بأنه عمدة قرية الدخن، التي يقع الدار ضمن حدودها، وطلب منا أن نسجل أسمي شاعلي الدار ومن معنا من النساء، وتأسف لنا عن ازعاجنا بهذا الموضوع الإداري، الذي عهدت به الحكومة إلى عمدات القرى

كافة، لمنع اتباع وجواسيس الأمويين من السكن في القرية، وجعلها مقرات للخارجين على الدولة ومهاجمة دور قضاء الدولة ومخافرها، وإشاعة القتل والفتن والخراب بين المسلمين وغيرهم من الأديان، من أهل الذمة.

وسجل الكهل بأصابع مرتعشة في سجلاته التي أفرد أحدها على دكة طينية إلى جوار باب الدار الرئيسية أسماء من في الدار وأعمارهم وصفاتهم الجسمية ولون عيونهم وطول قاماتهم ومن أين أتوا من مدن أرض السواد وإلى أي القبائل ينتمون، وحالتهما الزوجية، وعدد الأنفار، وفي أي قافلة قدموا واسم حملتدار القافلة، وكل ما عهد إليه من المعلومات المطلوبة من مسؤولي الشرطة من توصيات.

فتعجبت من عدد الأسئلة التي طرحها الكهل علينا، وتمتعت مع نفسي " إلى هذا الحد بلغ سوء الأمور بين المسلمين ؟ " فقال الكهل:

— لا تعجب يا سيدي فالبلاد في حالة حرب مع جماعة مارقة لا تخاف الله، ولا تقيم لحكم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وزناً أو حرمة .

— إلى هذا الحد من التجني على عبيد الله ؟

— نعم قبل أيام شن أتباع الأمويين على سوق عامر بالنساء والأطفال عند أطراف القرية، وسلبوا ونهبوا واختطفوا أكثر من عشرين امرأة وثلاثين طفلاً ليستعبدهم في بلاد الشام. وسيتداولون بيعهم بينهم كعبيد وإماء. أنه زمن أسود بالغ القسوة والفجاجة. ولن أحدثك عن الجواسيس، الذين يبعثهم الأمويون لكي يقتلوا رجلاً ما من المسلمين، ويجعلون أصابع الإتهام تشير إلى النصارى أو لغيرهم من أهل الذمة، الذين يسكنون في الجوار، لخلق الفتنة بينهم وبين المسلمين.

ولم يكتف بما رواه بل أضاف قائلاً وهو يخوص بعينه لتتفادي العينان أشعة الشمس:

— صارت الأمور أسوأ من ذلك بكثير، ففي الشهر الماضي قبضنا على بصاص ممن بعثهم الأمويون ليضع السم في وليمة لوجهاء الكوفة، واعترف ذلك البصاص أن كل من ينجح في قتله بالسم سيقبض عنه ألف دينار ذهباً وردد علينا ما يقوله الأمويين كلما قتلت أحداً بالسم من اتباع علي وخلصائه أخبرهم " أن لله جنوداً من السم".

واستغفر الكهل الله تعالى، وكذلك فعلت ومسعود وغلام الكهل، وأخذ الغلام يسجل في الدفتر الذي وضعه على دكة إقيمت أمام باب الدار، أسماء من في

الدار وصفاتهم، والعنوان القديم لنا في الأحماس وأخبرني الكهل، أنهم سيكتبون إلى عمدة الحي السابق في الأحماس، ليتأكدوا من صحة ما أدليناه لهم من معلومات، ولأبعاد الريبة عنا، واحتسابنا من ضمن رعايا الدولة الموالين للخليفة، وحكمه، لمنحنا حماية الدولة ورعايتها. فشكرته، وسلم علينا الكهل وغلّامه وغادرا المكان في تخترونهما الذي علته زوبعة من الغبار بعد عدة أمتار قطعها.

قلت لمسعود:

- الدار خالية من الخبز والآدام والفاكهة، أجب أي شيء لنا وضيفاتنا تجده في دكاكين القرية.

وأنقذته دينارين ذهبين من صرة أحملها في وسطي، وقلت له:

- اعرف أن الأسعار ارتفعت في القرى والمداشر النائية بسبب ظروف الحرب بين الأمويين وجيش خليفة المسلمين علي بن أبي طالب، فأنفق من دون أن تخشى لومي !! .

قال مسعود وهو يعدل من وضع عمامته، ویتھياً لمغادرة المكان:

- لا عليك سيدي المبلغ أكثر من كاف.

أخذت الجوّاري الثلاث يهين الدار للسكن بالرغم من أن ما يحملنه من أفرشة وأغطية محفوظة في سفطين وضعن فيهما كل متاعهن. وكان كل سفظ بالرغم من حجمه الصغير الذي يبدو عليه من الخارج إلا أنه كان يحمل الكثير من الحاجات الصغيرة والكبيرة، فقد تفنن صانعه بصنعه، وجعله خفيفاً سهل الحمل وواسعاً يمكن إخفاء ما يحتاجه المسافر من حاجات ولوازم.

وبدت الجارية صغيرة السن شهزاد أنشط الأخوات في ترتيب المكان ووضع كل ما تحت يدهن لجعل موضع جلوس سيدهن مريحاً. وقد أورد الفرع في وجهها غمازتين. وكانت لا تصبر عن النظر إلى سيدي الهفهاف في رواحه ومجيئه، غير مصدقة أنها وهو يجمعهما مكان واحد، وأنها تراه حقاً وليس كما كانت تراه في خيالها فقط.

أختاها كانتا تعرفان سر فرح أختهن شهزاد ونشاطها الملفت للنظر، في ترتيب المكان لينال سيدهن راحته، وكن يرمقنها سراً ويتغامزن من حركاتها ونشاطها، وكلما أنشغل سيدي بأمر بادرت شهزاد بعبارة أو بطلب لتلفت نظره إليها. وكان الهفهاف يغض بصره ويقتصد بكلامه معها والحياء لا يفارقه لحظة، وكنت منتبهاً لما تفعله الفتاة، وما تبغيه من حركاتها ونشاطها، لكنه ظن

أنها تفعل ذلك من باب رد الجميل لسيدي، ولم أخمن أبداً: أنه العشق الأول لفتاة لاتزال في عمر الزهور !! .

اعرف أن سيدي فعل الخير لها ولأختيها، في زمن انعدم فيه الخير والمعروف، وقلت الشهامة، والناس من حولهن لا يعرفون لا يعرفون ديناً غير دين الدينار والدرهم، إلا القلة القليلة القابضة على دينها كقبضها على الجمر.

طوال النهار وأنا أفكر بحكمة الله تعالى في حبسنا عن مواصلة رحلتنا، الآن عرفت سر ذلك الفيضان المفاجيء لنهر الفرات !! والجو العاصف الذي خرب جسر العبور إلى الطرف الآخر، ولأيام كثيرة، ويبدو أن الله تعالى استجاب لدعاء إحدى هاته الجواري، ويبدو أنها دعت في ليل شديد الظلمة، أن يؤخر سفرنا لتتمكن هي وأخواتها من اللحاق بنا، والآن ياهفهاف ما أنت فاعل، غير أن تسجل كل هذا في كشكول رحلتك في هذه الحياة؟ فما أنت فاعل وفي رقبتهك مصير هاته النسوة؟ وكيف لك أن تمضي في أرض الله الواسعة باحثاً عن خلاصك، وأثقال الحياة تسحبك من قدميك إلى سكون الاستقرار، كغيرك من الذكور الثواقل؟ وما أشدها اغراءات الدعة والسكون والاستمتاع بما حباك الله تعالى من نعم الصحة والصيت الحسن. وهذه الصغيرة التي تدور حولك كفراشة لطيفة، ملونة يجذبها ضوء موقد نار لا تدري أنها ستحترق بناره، وهي في أغلب ظني لا يهمها أن تحترق، فهي احترقت منذ يوم سببها من أهلها ووطنها وحملها إلى بلد آخر، كما يبدو أنها لا يهمها ألم الاحتراق القادم !!

على الأرض تصادفنا احياناً نساء ليس كغيرهن أنهن مبعوثات الإرادة الإلهية ليغيرن حياتنا وكذلك أولوياتنا فيها، وهذه الصغيرة واحدة منهن لا شك في هذا. أنظر في عينها فأرى نداء حارقاً: "أنا أريدك أيها الفارس، ماعدت إلى رقي إلا من أجلك. عدت لأجعلك شئت أم أبيت رفيقاً لي في هذه الحياة.

هل أنا راض بالمصير الذي تدعوني إليه هذه الفارسية الغارقة في وله لا تعرف كيف تجابهه، أو على الأقل هل أستطيع أبعاد هذا المصير عن نفسي؟ ما أسرع مرور الأيام وما أكبر وابتعد الهدف، وما أقل الصبر على المكاره وأكثر الرغبات حرقاً للكبد، وإضعافاً للإرادة مثل دعوة هذه الأنثى في هذه الغربة وهذا القدر الغامض الذي نسير إليه بأقدامنا ونحن نظن أننا أحرار في أتيانه أو الرجوع عنه."

22 ذو القعدة 38 هجرية

"إن كان لديك ماض لا يسر أنسه واصنع لنفسك مستقبلاً يسعدك"

الهفاهف الراسبي

حدثني "سبهان الأزدي" عن البيوت الأموية في الشام، وأحوال من يكون بخدمتهم وهي أحوال لا تسر دائماً فهم (أهل هذه البيوت) لا يتركون من في خدمتهم إلا من نزعوا كرامته ولسانه، فإن كان رجلاً خصوصاً، فلم تبق له ذكورة ظاهرة ونزعوا عنه كرامته بمعاملته بدونية، فلم تعد له كرامة باطنة، فهو لا يرى ولا يسمع !!

يؤمر فيطيع بلا جدال، ولا ولاء له إلا لأهل تلك الدور، وأن كانت امرأة ختنوها، وجعلوها مطية لكل فعل دنيء، فلا تقول لا لمخدومها او مخدومتها، يعملون هؤلاء الخدم في خدمة سادتهم، كالدواب المغمضة العيون.

فلا تعلن أسرار تلك البيوت وتبقى أخبارها حبيسة الجدران، فلا يعرفها قاص ولا دان لا عدو ولا صديق، وبيوت كهذه ستبقى في ظنهم باقية إلى ما شاء الله، فيرث الأبن ميراث الأب، والحفيد ميراث الجد، ولا يعلم بقية المسلمين كيف يعيش أولئك ولا بما يفكرون أو يخططون له !! فتبقى دولتهم صامدة لعاتيات الزمن، فلا واش يشي ولا حاسد يحسد ما لا يشاهد ولا يسمع ولا يعرف.

وأسهب بالحديث عن أسرار تلك المدينة "دمشق" بأسوارها وجندها، وجوامعها منابرها التي فرض فيها الأمويون على خطبائها شتم خليفة المسلمين علي بن أبي طالب في خطبة الجمعة، وعزوا إليه في كل خطبة كل نقائص البشر، وعندما سألته لماذا يفعلون ذلك بإبن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخليفة المسلمين الشرعي، وهو خير الناس بعد رسول الله، وهو معروف بورعه وتقواه لجميع المسلمين في كل الأرض!!؟

ضحك الأزدي وقال، هي السياسة يا ابن عمي، وماذا تراه يقول الحاكم الأموي للناس في دمشق لكي يجندهم لحربه!!؟
فقلت له متعجباً:

— أنه بهذا الفعل القبيح يربح دنياه ويخسر آخرته !!

– نعم هكذا قال بعض الشيوخ، لكن السياسة تبقى هي السياسة، لا دين لها ولا أخلاق، فهي تجمع كل وضاعات البشر والدناعات ليفوز أصحابها بمغانم الدنيا وبشيء من ذكر التاريخ لهم ذماً أو مدحاً وإني لأظنه سيكون ممدوحاً لدى القياصرة والجبابرة من أمثاله إلى زمن طويل !!
خوصتُ بعيني، وسمعته يضيف لما قاله:

– المسألة ليست سياسية فقط، إنها صراع على الجاه والثروة والسلطة، والصيت، والمسألة قديمة بين الأسرتين، فقد كان أبو لهب عم الرسول صلى الله عليه وسلم، متزوجاً من أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان، التي وصفها القرآن الكريم بـ "حمالة الحطب" كناية عن السعي في الشر، وتأريث نار الفتنة والبغضاء بين أهل مكة، وقد دأبت على توغير صدر زوجها على ابن أخيه الرسول.

وهي تعلم أنه خير الناس، لكنها كانت تشعر بالحيف والحسد أن ينال واحد من أسرة الهاشميين هذا المجد الكبير " مجد الإبلاغ عن الرسالة الإلهية، وأن لا يقع هذا المجد في يد أحد أبناء أمية قبيلتها وأهلها !!

وأبو سفيان والد معاوية، وقد أورثه كل ما في صدور أبناء قومه من غل وحسد لبني هاشم، وكان اعتراضه على رسالة الرسول تتلخص بسؤال واحد: " لماذا لم تنزل الرسالة على أحد اغنياء قريش من قبيلته؟ وهو يعني نفسه لأنه كان زعيم بني أمية ومكة في وقت هبوط الوحي على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال الأزدي بعد تفكير قصير:

– عجت لمحبي الخليفة علي ابن أبي طالب، فهم لا يفرطون بحبه حتى لو قدموا حياتهم مقابل هذا الحب، وأتذكر في الأيام الأولى بعد أن أمر شيوخ المنابر في دمشق بشتم علي ابن أبي طالب في المساجد بأمر من معاوية بن أبي سفيان، فاعترض الشيخ الجليل "حجر بن عدي" وستة من أصحابه وأنكروا هذا الفعل القبيح، الذي لا يليق بالإسلام والمسلمين، ورفضوا الشتم، فأمر معاوية بقتلهم، فنحرت أعناقهم أمام أهل دمشق !!

وكنت اتساءل لحظتها وأنا أشاهد الدم يشخب من مناخرهم: " كيف هانت عليهم الحياة الدنيا، وجادوا بأرواحهم من أجل كلمة يقولونها كغيرهم وتذهب في الهواء، والحياة لا تعاش إلا مرة واحدة؟ !!
نظرت إليه وقلت:

- يا صاحبي الشامي، الله... كلمة والحق كلمة والعدل كلمة والحب كلمة والتوحيد كلمة وبعد هذه الكلمة، جنان الفردوس أو الجحيم الأبدي !! ولا أظن أن عاقلاً يفرط بحياة أبدية من أجل حياة قصيرة مليئة بالأوجاع والاحزان !! وما أن مالت الشمس للمغيب حتى عدنا معاً من دون أن ننس بكلمة وأنا وهو نمشي في الطريق النيسي الذي يخترق بساتين النخيل عند ضفة الفرات، وعند هامات النخيل كنا نرى الطيور تعود إلى أعشاشها، وموجات النهر تتلون بلون الشفق القرمزي.

وذكرته بقول رسول الله " من سره أن يحيا حياتي ويموت مماتي، ويسكن جنة عدن غرسها ربي، فليوال علياً من بعدي، وليوال وليه، وليقتد بأهل بيتي من بعدي، فهم عترتي، خلقوا من طينتي، ورزقوا فهمي وعلمي، فويل للمكذبين بفضلهم من أمتي، القاطعين فيهم صلتي، لا أنالهم الله شفاعتي !! " وأكدت له:

- هذا السر الأكيد في حب حجر وأصحابه للإمام علي بن أبي طالب إلى درجة التضحية بحياتهم. وأني لأظنك تعرف هذا الحديث خيراً مني ويعرفه معاوية وأهل بيته، لكنها الدنيا وحلاوتها والسلطة ورغدها، هذا جوهر المسألة وسرها !! .

في يوم الخميس بعد أسبوع من استقرارنا في بيت الغندج، المطل على الفرات العظيم، كتبت على جاريتي شهنزاد، فصارت زوجة لي، ووهبت أختها شيرزاد لمسعود، فكتب عليها، فصارت زوجة له. وحضرت أختها سهانزاد العروسين لليلة العرس، ودعونا جميع مشايخ قرية الغندج لحضور وليمة العرس، وقد كان زواجنا سريعاً، فلم يكن الأمر يستقيم إلا بأكمل اجتماعنا برباط الزواج المقدس، فلم تكن علاقة الجارية بالسيد ترضيني وإن صحت دينياً، فهي مكروهة عندي وأظنها تقلل من شأن من نبادلها أخص ما في أنفسنا من عواطف وأسرار !!

وفرح أهل القرية بزواجنا غاية الفرح وإن كنا غريبين بالنسبة لهم وعابري سبيل حلا في قريتهم، ولكن الناس جبلوا على الاجتماع عند كل فرح. وتلا إمام الجامع في حفلة العرس دعاء طويلاً وبارك لنا فرحنا، وفي تلك الليلة المقمرة وبعد أن أنصرف الضيوف، وأنفردنا بعروسينا، فأدينا صلاة الشكر إلى الله.

كانت العروسان في زينتهما، جميلتين، وقد غير الفرح كل شيء فيهما، وللفرح سلطان على الجسد والروح، فتفتحتا كوردتين منداتين، مسهما برد

الفجر ونداه. قبلتا كفيينا، ونظرات الفرحة تشع من عينيها. كانت أكثر الأخوات فرحاً أختهن الكبيرة شيرزاد، فهي أخيراً أطمأنت على أختها مع سيدين كريمين.

مضى على الزواج أسبوع واحد حين فاحت شيرزاد أختها بضرورة عودتها إلى خراسان لتبحث عن تبقى من أهلها، فهي لم تعد مع أختها إلى هذا المكان إلا لكي تساعد في إنقاذ شقيقتها شهزاد من هلاك محتم، وهي الآن أطمأنت عليها وعلى أختها الثانية، وعليها أن تعود إلى مسقط رأسها. حاولت ومن بعدي مسعود ثنيها عن فكرة السفر لكنها أصرت على هذا، وعندما تأكدنا من إصرارها على السفر، اضطررت إلى توصية صاحب الخان أن يبعث لنا من يخبرنا عند مرور قافلة راحلة إلى خراسان، لكي تصحبها شيرزاد، ولم يطل الانتظار طويلاً، فما أن حل يوم الثلاثاء من الأسبوع التالي للزواج، حتى جاء مبعوث صاحب الخان يخبرنا بوجود قافلة ستمضي إلى خراسان قريباً.

وفي صباح السفر ودعت شيرزاد أختها، وقد بكت الأختان إلا شيرزاد، فقد كانت قسماتها محايدة لا تعبر عن حزن أو فرح، وجهزت لها متاع سفرها، ملابس حرير، وأخرى من السلاقطون، من نسيج الكوفة، ومنسجب غالي الثمن، مبطن بفراء السنجاب، وجعلت متاع سفرها من الفالونج مع أخونة لمستبطن اللباب البر، ومعالج بالقلو ومحاج الشهد ومن الفاكة الجافة والمكسرات الشيء الكثير.

وما أن غادرت القافلة الخان في طريقها إلى خراسان حتى حل الحزن والوجوم في بيت الغدج، واختفت الضحكات والهمسات التي كانت تدور فيه في الأيام السابقة.

وكانت الأختان عندما تختليان معاً تجهشان بالبكاء، وهن يتذكرن أختهن الكبيرة شيرزاد وما مرَّ بهن، وكانت لهن نعم الأخت، المضحية من أجلهن، فهي كانت تسعد لسعادتهن، وتبذل في سبيلهن ما تملك، وكلما عدت واحدة منهن مناقب الأخت الغائبة ذكرتها الأخرى بمناقب منسية أخرى!! فتتعالى النهة، وتتحول إلى بكاء ونشيج متواصل، وحين سمعت ذلك البكاء ورأيت حزن المرأتين، قلت متأسياً:

نروح ونغدو كل يوم وليلة ——— وعما قريب لا نروح ولا نغدو
ونظرت إلى مسعود وقلت:

— يا مسعود حان وقت الرحيل. سنشد الرحال إلى حلب، تقصّ لنا موعد رحيل قافلة إلى هناك، فقد رأيت في الحلم البارحة سيدي وحببي أبا عبدالله يبتسم لي ويؤشر لي قائلاً " ألم يحن وقت الرحيل يا ابن المهند ؟ ما ينتظرك هناك الكثير. يا هفهاف يعلم الله تعالى شوقي إليك، ولكن ما لله لله، وما لأشواقنا غير الصبر، والانتظار."

30 ذو القعدة 38 هجرية

"دخلت جنتي يا عروسي وستقطفين مري مع طيبي

وتتذوقين شهدي،

وتطعمين لبني

كلي أيتها الحبيبة، فأنت من قاسمتك عمري."

الهفاهف الراسبي

قريباً من "تل أخضر" اكتشف فيما يبدو "أبو العقارب" وصاحبه "أبو الهوائل" و"عنبر" أننا مكرنا بهم، فهاهم يفتشون في القوافل الراحلة إلى دمشق، فلا يجدون في سجلات المسافرين أسميناً، سوى قافلة واحدة وجدوا فيها الأسمين مشطوبين!!

بوابة "تل أخضر" هي فرجة الدرب إلى دمشق، وتدعى أيضاً بوابة الشام، وللأمويين رصد هناك للتدقيق في شخص كل وافد جديد إلى أرض الشام، خوفاً من أن يبعث أهل العراق عيونهم وبصاصيهم وشيوخهم إلى دمشق لنشر التشيع لعلي، وتسفيه دعوة معاوية وبني أمية إلى الاقتصاص العاجل من قتلة الخليفة الثالث عثمان من دون إبطاء، كما كان جماعة معاوية يشيعون بين أتباعهم.

وهناك على حدود الأرض الشامية لا تنجو القوافل المارة من عدة كمائن ينصبها المتشددون من أهل الشوارب الضخمة من بدو الشام، وهم فئة ارتأت إكرام الشوارب بتطويلها والعناية بها وإزالة اللحية، لأن في اعتقادهم أن الشيطان يأوي في تلافيف اللحي الطويلة فيوسوس للمؤمنين بالشرك، ويجعلهم يقولون أشياء لا يريدون قولها، لقربه من أفواههم، فيظن السامع، أنهم قالوها لا الشيطان الرجيم!!

وقد استخدمهم بنو أمية لقتل كل من يعتقدون أنه من اتباع علي، من المسافرين، وهؤلاء يحملون معهم قوائم بأسماء من يظنونه من أصحاب الخليفة الرابع، أو من وجهاء الكوفة، وبقيّة المدن العراقية، والبعض من هذه

الجماعة كانت تهاجم القوافل بلا تعيين بحجة البحث عن شيعة علي، ومقاصدهم الحقيقية سرقة المسافرين وسبي نساءهم، والأستيلاء على ركائبهم، وما يحملون من متاع، وهم ياملون بعد كل غارة الحصول على مكافأة الأمويين وكلما كثر عدد الرؤوس المنحورة المحمولة للأمراء الأمويين، مدعين أن أصحاب هذه الرؤوس من غلاة شيعة علي وأقرب الأصحاب لأبي تراب، كما يسمون الخليفة. وكان الأمراء يدفعون عن طيب خاطر مائة دينار ذهب بيزنطي، لكل رأس، فيأخذ زعيم هؤلاء المشوربين جل المكافأة ويوزع النزر القليل على تابعيه.

كانوا يطلبون من أسراهم أن يتبرأوا من خلافة علي ابن أبي طالب، وكان هذا يعني لأهل العراق حنثاً بالبيعة لعلي، الذي اجتمع عليه الناس في مشارق الأرض ومغاربها. ويرون في هذا خطيئة كبرى ونقصاً في نخوتهم ورجولتهم، ودينهم، فلا يقبل أحد بهذا إلا فيما ندر، وكان ينعتة الآخرون بقتلة المروعة والجبن، فكان المرء من هؤلاء يفضل الموت على أن يبقى محط اتهام مع نفسه ومن الآخريين طول حياته، لأنه خان بيعته، وحنث بشرف كلمته، والموت أهون عند العراقي من هذا الفعل الشنيع.

فكان المشوربون يجزون رؤوس الجميع بلا رحمة، وسمعنا أنهم في بعض المرات كانوا يجزون رؤوس هؤلاء المتخلين عن بيعتهم لعلي، بدعوى أن تخليهم عن البيعة جاء بسبب الجبن والخوف من الموت. وأنهم ليسوا بمؤمنين حقاً، فالمؤمن ليس خواناً ولا كذاباً، ولا يدحض بيعته خوفاً من الموت، فيخون الله ورسوله لأجل أن يبقى حياً، وأنهم حالما سيعفون عنهم سيكونون أشد ولاء وبيعة لعلي من الآخريين !! .

وذكر لنا صاحب قافلة مارة أن الثلاثة عادوا بمحاذاة الفرات، والجوع والتعب والإحباط بلغ بهم مبلغاً، بعدما صدموا بوجود أصحاب الشوارب والثياب البيضاء الفضفاضة لأنهم أكثر منهم إجراماً.

وبالفعل فهؤلاء أهل الشوارب يظنون أنهم يحسنون صنعاً وسيدخلهم الله الجنة بأفعالهم القبيحة، وقارنت بين ما يصنع أولئك القتلة، وما يصنعون هم، فوجدت إن جماعتنا من قتلة العراق عقربة صغيرة مسالمة، لا تلدغ إلا لتعيش وتفعل ذلك دون غطاء الدين والتدين أما هؤلاء الهمج، فهم يقتلون البشر لكي يثروا، بدعوى الدين والتدين، والله أنه آخر الزمان يا مسعود.

كل صباح منذ استقرارنا ببیت الغنّج وزواجي بشهنزاد عندما افتح عينيّ أجدّها تنظر إليّ، وقد جلت نور الفجر الفضي وجهها، وبانت غمازاتها، وحالما تشاهدني افتح عيني تميل برأسها على كفي فتقبلها، وأنا لفرط نعاسي أخذ كفيها الصغيرة الموشومة، البضة واعصرها بكفي ثم يغلبني النعاس مرة أخرى. وفي هذا الفصل من السنة يطيب لي النوم إلى ما بعد شروق الشمس بقليل، وفي بعض الأيام يفوتني وقت صلاة الصباح، وصلاة الصباح في وقت مبكر بعد الأذان مباشرة عادة اعتدتها منذ طفولتي، وواظبتُ عليها بعد انتقال أسرتي من يثرب لتسكن الأحماس في أرض السّواد، ولأرض السّواد مناخها الخاص، وطعامها، اللذين يجعلانك بمرور الوقت محباً للعالم ومباهجها!! متكاسلاً في إداء شعائرك الدينية، زاهداً بالآخرة وأجورها!!

وببطء ومن دون أن تشعر تنحدر من قمة الإيمان إلى ذروة النفاق!! إن لم تحارب كل الأسباب التي تعتريك بسبب المناخ وطعام هذه الأرض، فإن تكاسلت عن مصارعة ما استجد عليك هيمن عليك النفاق وصرت منافقاً، لا كلمة لك ولادين، لا صديق لك ولا وجهة وهدف غير كسب المال ونيل المغام، فتغدو صديقاً لمن نفحك وأضر أختك، وعدواً لمن وقف ضد اغراءات الدنيا ومباهجها، ما تكسبه من مال هو دينك ومذهبك وغير ذلك فهو لا يعدو عن لقلقة لسان لا تضر ولا تنفع!! يا لفتنة أرض السّواد ولعنتها!!

تغدو كأولئك السمان الغلاظ القلوب غمر الطعام يستهويك، ما بين قصاع الشيزي ومداف الثريد، وقد تراكبت عليها لصمان أعجاز الحملان والسّمك الرضراض والدجاج المتبل، وأصناف الطير المشوي، طيور كباب وفاخت ولقالق، وكل ذلك يتطلب مالاً وخدماء، وأخونة وأثاثاً، وأرضاً مبرية، وفرشاً وثيراً، وهذه المطالب الكثيرة تجعلك تركض وراء الدينار والدرهم، ولا فرق أن أتيا من حلال أو حرام!!

قبل سنوات التقيت حكيماً يعيش في أحد سراديب بواديهها، فأخبرني بوصف لأهل السّواد، قال فيه "أهل السّواد أهل دنيا فلا يغرنك تدينهم وتقواهم، تدينهم وتقواهم لعق على أسنتهم، وهذر كلام يقولونه بلا منفعة ولا طائل، يقولونه لينتفعوا به أو يتقربوا ممن يظنون أنه يشتري ما يقولون وما يدعون ولو بخسف تمرّة، فإن وجدوا أن لا مشترٍ له، عادوا لمخاطبة من يكون بلغتهم الحقيقية، لغة المزمار، وقرع كؤوس المدام، وإيقاع رقص القيان، وأتيان

فجور الليل، والمبالغة بجور النهار على من سادوا من الضعفاء، ومن الذين لا حول لهم ولا قوة. "

استيقظ من نومي على عطر شهزاد في أنفي، وهي تلثم وجهي بالقبلات، فأخذها إلى صدري، ونعود إلى نومنا وأحلامنا المتقطعة، فأرى فيما يرى النائم، الكوفة وأهلها وأصحابي من أبناء قبيلتي، وشهزاد تهمس في أذني بكلمات الحب والوله مرة بالعربية وأخرى بالفارسية.

ذلك الحكيم الكوفي زارني أيضاً في أحلامي عدة مرات، وفي كل مرة كان يضع بيدي ورقة، لكنني لا أستطيع قراءة كلماتها، فيبتسم لي الكهل، ويختفي، فأطلبه ساعياً في أراضٍ وعرة، وهضابٍ وجبالٍ، لكنني لا أبلغه، والورقة في كفي لا معرفة لي بحل طلاسمها، وقبل أن استيقظ سمعته يقول في خاتمة رؤيائي كلاماً لا أفهمه، هل أخبرني بتاريخ موتي؟ أم هي كلمة واحدة هي خاتمة لأعمالي في هذه الدنيا " حسنة أو سيئة " ؟ واستيقظ من النوم مهموماً، حزيناً، لا أجد تفسيراً لرؤيائي، ولا يستطع أحد ممن يعرفون تفسير الرؤيا تفسيرها.

وما أن ذكرت الحلم والموت لشهزاد حتى وضعت كفها على فمي، طالبة مني أن أصمت وأن لا أكرر هذا، وتقول له هامسة:

— لن نموت، ولن أتركك تموت فإننا أحبك يا سيدي، أكثر من أي شيء آخر، كيف تجرؤ على ذكر الموت أمامي؟

ونظرت إلى دموعها كحبات اللؤلؤ على خديها، فتساءلت مع نفسي " يا للعشق كم له من المعجزات، من يعشق يصبح قضاؤه بعيداً لا يأتي!! يا شهزاد من قال لك أنني أسعى لذلك برغبتني؟ لكنه سيسعى لي يوماً بعد آخر، فإن وصل سيجدني هاشاً باشاً له، فهو الصاحب الغائب الذي نلتقيه يوماً ما. "

12 صفر 39 هجرية

"أهلنا بالأسر نايمين

ناظرين طلتنا

أخبرونا يا أهل الخير طريق المنتظرين؟"

الهفاهف الراسبي

ماذا أكتب عن السجون في عهد علي ابن أبي طالب ؟ والله أفترى عليه بنو أمية حين أطلقوا على أكشاك القصب التي أمر بها لتكون سجونا لمن يحكم عليهم القضاء بالسجن. بنى تلك السجون الهزيلة، التي يمكن للسجين نقيبها بسهولة والهرب منها، وهذه هي طريقة علي ابن أبي طالب، فقد كان يريد أن يعلم الناس أن يعاقبوا انفسهم بأنفسهم، فهم مسلمون، وتعلموا ما هو الحلال وما هو الحرام.

أيمكن مقارنة هذه السجون الهزيلة بتلك السرايب والطوامير تحت الأرض، التي أقامها الأمويون لمعارضتهم، وليس لأولئك المجرمين الذين أدانهم القضاء والشرع !! وكلما قص علي صديقي الشامي شيئا عن عذابات أولئك السجناء في سجون حلب أو دمشق إلا وأقشعر بدني، وقلت في نفسي " يا هفاهف جاء الإسلام محرراً للناس من القياصرة وملوك الفرس في مغارب الأرض ومشارقها، وأعاد بنو أمية كل ماكان يقترفه قياصرة الروم من جرائم بحق شعبها، ومن شعوب فتحت أراضيهم وحكمتهم بالسيف.

كان ذلك آخر نهار لنا في بيت الغندج، وبعده جمعنا أثاثنا القليل، وأثوابنا ورحلنا مع قافلة حلب، وكانت الأرض تتموج كلما تقدمت القافلة صوب الغرب، وتزداد ارتفاعاً متحوّلة إلى تلال وهضاب صخرية لا زرع فيها ولا ضرع يعيش حولها، ولا يصادفون فيها مدشراً ولا قرية ولا راعياً أو مخلوقاً من مخلوقات الله، وليس فيها متوفراً فيها في النهار غير شمس لاهبة والسراب والأرض الصلصالية.

كان مسعود يقود ناقة زوجته، التي حملت على هودجهم، وهو يتزمل بحبل الناقة، التي حملت هودج شهزاد وطول الوقت لا يشعر بشيء مما حوله كان يسترجع ذكريات طفولته وشبابه، ومامر به من أحداث وما عاشه مع أبيه من أحداث والحزن يرتسم على وجهه، فهو يشعر مع كل خطوة تخطوها القافلة تبعده عن أرضه وذكريات أهله، وما عاشه في أرض الأخماس والسبابة والأبلة والبصرة والكوفة، وكانت الحسرات تملأ صدره، وتدمع عيناه لحداء دليل القافلة الحزين، لكنه لا يستطيع العودة وقد بعدت الشقة وكُتبت الأقدار وجف الحبر، وحفظت الأوراق في ظلمة الغيب، ولست من يتردد في أمر قرره، قد ألحظ الحيرة والأسئلة في عيني شهزاد وفي عيني أختها سهنازاد، تقول لا بل تصرخ، إلى أين؟ ولماذا؟ وما الداعي أن نسيح في أرض الغربية، ولنا مالنا فوق هذه الأرض، التي نخطو مبتعدين عنها، حاملين معنا ذكرياتنا، وصوراً متلاشية لأحبابنا، وأحلاماً طرزانها عن سعادة موهومة سنعيشها؟

قال مسعود لي في موقف سابق "لو لم تهجر تاركاً أرض الأباء والأجداد، لما عدمو وسيلة لقتلك " " ولكن لماذا أقتل يا مسعود؟ الأنبياء الحق، والأفق النير، والكلمة الحرة، والموقف الشجاع في ظل عبودية شاملة للأسياذ على العبيد؟ " " نعم كل هذا أنت يا هفهاف، ولم يقتل النبياء والأوصياء وأهل الرأي والرسالات، أليس لهذه الأمور التي فيك؟ ألم يقتلوا أمثالك من أجل كلمة أو لمجرد كونهم ورقة بيضاء لم تلوثها وساخة الأسياذ؟ ولم تحط من قدرها آفة الطمع والتزلف والأنانية وأبشع ما في البشر من نوازع الشر؟ "

قلت له " نعم يا مسعود كل ما ذكرت صحيحاً، لكن أقسم أنني لم أغادر خوفاً على نفسي أبداً، إنما أغادر لكي لا أتسبب بفتنة، فيراق الدم ممن يقف معي أو ضدي، أهذا هو الجبن يا مسعود أم هو الشجاعة الفائقة، التي لا يعرفها الكثيرون، أم هو ليس جبناً ولا شجاعة، فما هو إذن؟ "

قال مسعود " أنه النبل يا سيدي، أنه السعي إلى هلاك النفس لحفظ الغير " " هو هلاك أيضاً يا مسعود، هو هلاك فلم تصحبنى إلى هلاكي يا مسعود؟ وأنت يا سهنازاد وأنت يا شهزاد؟ "

وهنا تدخل طيف أبي علي الحسين، فأراه هاشماً باشاً كعادته، متزماً بوشاح أخضر، يفوح عطراً، فسمعتة يردد:

— " يا ابن المهند الراسبي، أو تظن أن الإنسان لا يفتن؟ الفتنة في الحياة دنيا الأحياء وهي سر أسرار وجودنا ومصيرنا، ولا قيمة لنا إلا كقيمة البهائم

لو كنا لا نُفتن.. نعم سر أسرار مصيرنا أن نفتن كل لحظة في أنفسنا ومالنا وولدنا، وهذا دليل يؤكد نظر الخالق تعالى لنا ليزيل خبث ما علق بنا." – " أهي فتنة يا أبا علي ترك الأهل والأرض والذكريات ؟ – هي كذلك يا ابن الراسبي، بل هي أقسى الفتن وأصعبها، وفاز من تسلق هموم فتنته وضحك مما جاءه ومما ترك، واستصغر ما ملك وما كان سبباً في متعته.

نظرتُ إلى تلك السماء الزرقاء المشبعة بالأفق المحمر، ولمحتُ إشارة حملتدار القافلة وهو يوميء، بأن وقت التوقف عن المسير قد حانت، وحل وقت راحة العير، فأخذ المسافرون يجعلون الأبل تنتظم على هيئة دائرة، ليمضوا ليلتهم في هذا الخلاء الموحش، وهم ينصتون لعواء بعيد لذئاب الهضبة، التي تنتظر أن يحل الظلام لتهاجم صيدها، الذي تختاره وحيداً، تائهاً لتنقض عليه، وتقضي عليه في برهة من الزمن.

حين حدثنا أبو علي في مجلسه العامر بظاهر الكوفة عما يجري في آخر الزمان من أحاديث مروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن جميع الأمم والأعراق في انتظار مجيء المنقذ، العادل، الذي يملأ الأرض نورا وخيراً وعدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً.

فسألته، وهل جاءت أخبار هذا الأمر العظيم في الديانات السماوية الأخرى، كالحنيفية واليهودية والنصرانية ؟ فقال نعم يا هفهاف، الجميع ينتظرون مجيئه، وهم يصلون ويتضرعون للخالق بالتعجيل بالظهور المبارك، والغريب أن رواياتهم في مختلف الأزمان والعهد تتقارب في رسم ذات المسارات، فكل نبي سجل العلامات ذاتها، وقد وردت علامات وإشارات رمزية توضح، فأوقعت الناس في الاختلاف، فهي لم توضح شروط الظهور بل أكدت ما سيحدث بعد الظهور.

فموسى وشيوخ وقراء بنو إسرائيل حدثوا اليهود ببشارة مجيء سيد الجنود، الذي يوفق ويصالح بين جميع الصالحين، ليعدل ما أعوج من إيمان الباقين، ويجعل جباه الجميع متجهة لعبادة الله وتنزيهه.

وعلامات مجيئه لدى الديانات التوحيدية تشير إلى يوم تطوى فيه السماوات طي السجل وتظلم الشمس ويعتم القمر، فلا نور له، تتساقط النجوم فيه كالأثمار الناضجة مثيرة أصواتاً كهزيم الرعود، والموتى يقومون من رموسهم منذ قديم الزمان، فهم كالجراد المنتشر، وما أن تحل رحمة الله على الأرض، حتى تضج

الطبيعة من جديد بخضرتها وجمالها، فتأخى الحيوانات المفترسة، وتفقد الأفاعي أنيابها فلا تضر بعد ذلك أحداً من البشر والحيوان، فيلهو الرضيع معها كما مع قط أليف، ويذكر انبياء اليهود عن حوادث ذلك اليوم اجتمع اليهود من كل الأرض في بقعة واحدة، بعد أن كانوا شتاتاً في الأرض يضطهدهم الناس ويذلونهم، ويحرقونهم مع أطفالهم، فقاطعه الجعفي وهو من بدو الجزيرة، وسأله عما جاء لدى النصارى، فابتسم وهو يتأمل قرص القمر المكتمل، الذي أنار مجلسهم، في ذلك الخلاء، ونثار ندى يبيل ملابس الجالسين، مبدداً حرارة النهار، التي عانينا منها إلى ساعة قبل منتصف الليل، وكان ذلك النهار صيفياً جافاً، تتحنح أبو علي وقال بعد أن صمت لحظات:

— الوعود ذاتها والعلامات هي هي، لم تتغير، فالسراج الذي ينير واحد. فمحكيات اليهود هي محكيات غيرهم، فقد جاء في الفقرات (29 - 31) من الإصحاح الرابع والعشرين من أنجيل متي، وكذلك الفقرات العاشرة والحادية عشرة من رسالة بطرس الرسول الثانية، ويمكن ملاحظة في القراءة المتأنية لها انها تحمل ذات الإشارات والتلميحات، واقتصروا عليها من دون أن يوضحوا المراد، ولم يفسروا شيئاً منها، وقد ورد ما ذكر في إشارات كثيرة في القرآن الكريم، يفهمها الراسخون في العلم، ولذلك جاء دور البقية الباقية من من آل بيت رسول الله لوضع التأويل المناسب والتفسير الصحيح لما غمض على الناس، وقد ذكر رسول الله لعلي ابن أبي طالب " قاتلني كفار قريش على تنزيله وسيقاتلونك على تأويله" وقد صدق رسول الله. وضح الجميع في هداة ذلك الليل بترديدهم الصلاة على الرسول الكريم وآل بيته. وأكمل بعد صمت قصير:

— ومن العلامات لدى النصارى، عودة المسيح الموعود، ووقتها تعتم الشمس، فتصير ظلمة حالكة السواد، ويتلون القمر فيصير بلون الدم، وتبدل السماء بعد ذلك بغير السماء التي نعرفها، والأرض بأخرى لا نعرفها، والنجوم تهوى ساقطة كأوراق الأشجار في فصل الخريف والموتى يبعثون من قبورهم، ويتحقق كل هذا نهار ظهور يسوع الناصري، الذي يجمع اليهود الموزعين بين الأمم الآخرين وينقذهم من الذل، ويغيرهم إلى عباد صالحين، شاكرين، معترفين بنبوته، فيتبعونه، وقد أظهر لهم الخيط الأبيض من الخيط الأسود في دعوة يسوع، السابقة واللاحقة، يا الله يا هههاف كم كانت أيامك يا أبا علي مملوءة بالمعارف والأخبار النبوية التي لم نحط بها علماً من قبل، وكنت أرى

بخيالي ذلك النور الآتي من السماء حاملاً للبشرية الخيرات والرحمة للبشرية، فتتحول بقدرة الله وببركات صاحب الأمر هذه الحصباء، الصفراء، المقفرة إلى واد ذي زرع أخضر. يسير فيه المرء من الكوفة إلى دمشق دون خوف من قاطع طريق أو من ضواري الطريق، أو من تيه أو من عطش أو جوع، ستتفجر الينابيع الحلوة على طول الطريق، وستنبت الأشجار المعمرة الضخمة، التي ستضلل مسير الركائب وتحجب عنهم أشعة الشمس الحارقة، وتثمر أشجار الطريق عن أثمار مغذية، حلوة لها ما يشبهها في الجنة التي وعد الله بها عباده.

الأفكار والأحلام تتوارد في مخيلتي، وقافلتنا تمر بخرائب، وبيوت متداعية، ملأت باحاتها إلى السقوف الرمال من سف الرمال الذي استمر لمئات السنوات، وبعد أن تأمل حملتدار القافلة المكان، والشمس المتعامدة فوق الرؤوس، وقد اختفت الظلال قرر التوقف عن المسير، وصاح بصوته الجهوري:

— نتوقف هنا، وقد عاش هنا قوم السواري. كانوا عبدة أوثان، وقد أرسل الله إليهم نبياً يعلمهم أخبار السماء، فكذبوه وقالوا له أنت بشر مثلنا، وتريد أن تملك نفسك علينا، ويوجد لنا ملك أغنى منك وأكثر أهلاً وعصبة منك، وأنت تريد أن تضع أراذلنا فوق رؤوس ساداتنا. ما أنت إلا مفتر أثيم، فقتلوه فسلط عليهم الله أسراباً من الأفاعي الطائرة، فهي تحلق لبضعة أمتار في السماء لتتنقض مهاجمة عدوها، فقضت عليهم في أقل من شهر، ولم تبق منهم أحداً. فبقيت دورهم ومدينتهم، وما يملكون من دون أن يجرؤ أحد طوال مئات السنوات الاقتراب منها، أو العبث بما تركوا من متاع الدنيا. فاحذروا من الاقتراب من خرائب بيوتهم، فهي فتنة للمسافرين تقودهم إلى موارد الهلاك بأسلاف تلك الأفاعي الطائرة والعياذ بالله، وعلينا الميبت هنا اتقاء لعاصفة بدت لي نذرها قادمة من الغرب. ولن تصدها سوى خرائب مدينة السواري.

وتأملت ومعني مسعود وشهنزاد وأختها، وبقيّة المسافرين تلك البيوت الخربة، والتلال التي سفت في ساحاتها وغمرت قصورها وقلاعها، والآبار المعطلة، وقد نبتت حول جدرانها المتآكلة نباتات العاقول والشيخ والصبار، وقال لي مسعود:

— وهل يعتبر بنو البشر بمن سبقهم؟ لا أظن هذا. " رددت عليه:

– " يا مسعود لو اعتبر بنو آدم، بما مر من قبلهم، لكانت الأرض غير الأرض، والسماء غير السماء، ولصار الطريق إلى الشام زرعاً وكروماً وخيراً كثيراً وبركات. "

كان المسافرون يعدّون أثافيهم، من أحجار تلك البيوت المندثرة، ويجمعون العشب اليابس، لإشعال النار فيه لطبخ طعامهم، لتناول الغداء في ذلك الخلاء الموحش، ومن بعيد كنا نسمع تدويم عاصفة قادمة من الغرب. وأردت الأفراد بنفسي، وهي عادتي عند السفر، وقت صلاة الظهر، وشعرت أنه يعرف هذه الخرائب من قبل، ورآها في أحلامه، أو ربما حكى له عنها أبو علي الحسين في إحدى أماسي ظاهر الكوفة في رمضان، أو ربما خطرت له مشاهد هذه الخرائب في أحلام يقظته، وما أكثرها.

ومن بعيد كان يأتيني صوت نباح كلب أو ربما كان صوتاً لمخلوق آخر لا اعرفه، فوحده الله يعلم من يسكن هذه الخرائب الآن ويتدارى من قيظ شمس الصحراء الحارقة، في مكان ما من حفر أسس تلك الخربات للبحث عن رطوبة وبرودة يتدارى بها من لفح الشمس وحرارة الريح.

وكل ذلك العواء المختلط بالنباح الممتد طويلاً، تردده أوتار صوتية مطلقة أصواتاً خشنة، لحيوان تمرّس على النباح، من دون أن يتلقى رداً. كانت شهنزاد وأختها تعدّان طعاماً ساخناً، بينما انشغل مسعود بجمع الحطب لهما من عاقول جاف وأغصان شجر أثل جافة، وبعر رواحل مرت من هذا المكان وتركت أثارها.

كانت أصوات مسافري القافلة تبتعد كلما غذت المشي بين الجدران الصلصالية المتوراية خلف تلال صغيرة صنعها سفّ الرمال. وظننت أنه وجد مكاناً ظليلاً ينحصر بين زاويتين لجدارين متعامدين، لم يكمل الدهر هدمهما، أو دفنهما تحت الرمال، ففرّشت سجادة صلاتي الكوفيّة، وبدأت يأكبر وأسبح وأحمدل، وما أن رفعت كفي للتكبير للصلاة فلمحتُ أفعى ضخمة تجتاز حفرة في الجدار المقابل له، وهي تحمل في فمها قطعة معدنية تلصق تحت ضوء الشمس وتبهر البصر، وتقدمت الأفعى ببطء مني، وأنا ساهم أنظر إليها، وقد جمدني الرعب من منظرها المنفر، ولم تطاوعني قدماي للفرار، فقد غدتا كخشبتين لا سلطان لي عليهما. إلا ان لساني بقي يردد التسبيح والتكبير لله، وجمدت الأفعى في مكانها قبالي، وصار نصف طولها تقريباً عمودياً مع الأرض، وكأنما تتحقق من صورة الشخص الذي يقف أمامها كما نفعل نحن

البشر حين يكل بصرنا ونفاجأ بشخص غريب، ونريد التحقق من هويته، وبعد لحظات من التحقق في صورتني وهيئتي. أقلت من فمها قطعة ذهبية عند قدمي، وطأطأت رأسها المثلث كأنما تقول لي اتبعني، وعادت ببطء إلى فجوة الجدار الذي جاءت منه.

لم أتوقف عن الحمدة والتسبيح لحظة، وما أن بدأ نبضي ينتظم وخفقان قلبي يخفت، حتى انحنيت والتقطت القطعة الذهبية. فشهدت عليها نقوشاً وكتابة لا أعرف فك خطها. وما أن أخذت أقلبها بين كفي مندهشاً من نقاء ذهب القطعة وجودة صقلها، وثقل وزنها، فهي تساوي في أقل تقدير خمسين ديناراً ذهبياً رومانياً، من الدنانير التي يتعامل بها أبناء الشام وبعض أنحاء الجزيرة العربية.

وبعد لحظات خرجت الأفعى مجدداً وهي تحمل في فمها قطعة ذهبية ثانية، وألقتها بين قدمي، وفعلت مثل المرة السابقة، فقد نظرت بوجهي وعادت إلى الفجوة مجدداً، فالتقطت القطعة الثانية، وقلت في نفسي، أن الأفعى ترشدني إلى كنز من الذهب، فتبعتها على وجل إلى الفجوة وعبرت من حيث عبرت، وشاهدتها تختفي في حفرة أخرى في جدار مقابل، وبالرغم من خوفي من مخاطرتي بحياتي، إلا أن فضولي كان أكبر لمعرفة مكان الكنز، وفكرت، أن للمال سطوة تذهب العقل وتخلق المجازفة، فهو يملك سحراً آخذاً، يقود من يسعى إليه إلى الهلاك في كثير من الأحيان وهو يبتسم، حتى لو كان مثلي من مدعي الزهد، وكره الدنيا ومتاعها ومتعها !!

وما أن مددت رأسي في تلك الفجوة العميقة، فشاهدت نفقاً وسلاماً من الأجر المتأكل تقود درجاته المنحدرة، التي تهبط إلى الأسفل سرداباً مظلماً، ولكن فتحة الجدار اتاحت لخيط من ضوء الشمس أن ينسل في هذه الساعة من النهار إلى داخل السرداب وينير جنباته.

ارتجفت خوفاً عندما أصطدم بي وطواط أفرد جناحيه طائراً مفزوعاً من الذي دخل عليه القبو المهجور، وأقلق وحدته. كان السرداب فارغاً لكنني شاهدت لصف القطع الذهبية خلف الدرج الحجري المتهاوي، فحوقلت وسبحت بحمد الله وصليت على الرسول الكريم. كنت متوجساً من وجود أفعى في مكان ما من السرداب أو ربما توجد عدة أفاع، ولكن فضولي وطمعي بالذهب دفعني إلى ذلك الكنز المخبوء تحت الجدار، وقد سمحت ثلثة في إحدى الدرجات إلى ظهوره إلى العيان.

— يا الله ما أكثر هذه المسكوكات الذهبية " تمتت بصوت خافت " المسكوكات استقرت بصفوف بعضها فوق الآخر، وقد ظهرت صفوفها بعد أن تهشم جزء من الجرار الذي خبئت داخله، وكان الجرار مبطناً بقماش أبيض بانث للعيان أطرافه الممزقة.

— لقد أصبحت غنياً يا هفاهف، ستكون غنياً بهذا الذهب إلى آخر يوم من عمرك، إن شاء الله.

وسمعت هاتفاً من داخلي يناديني محذراً : أحمد الله يا هفاهف وتعود من الشيطان الرجيم !!

فخررت راعياً وساجداً إلى الله، حامداً ومستغفراً، وما أن أكملت حمدتي وشكري لله، فكرت: كيف أحمل هذا الكنز؟ لم يطل بي التفكير، فنزعت عن جسدي سروالي الأبيض، وكان واسعاً، وضيقاً من الأسفل، فملأته بالمسكوكات الذهبية، والتي بدت من شدة لمعانها، وكأنها سكت قبل وقت قصير.

كانت الكتابة المنحوتة عليها واضحة، وهي مكتوبة بلغة ليست عربية، ولا فارسية وأغلب الظن أنها كتابة لاتينية، وما أن ملأت طرفي السروال، فعدتُ نهايتيهما، ونظرت صوب الجرار، فشاهد ثروات أخرى لا تزال فيه، مؤلفة من الجواهر، المرصعة بالأحجار الكريمة، وتمتت متسائلاً: " أهذا كنز قارون، الذي جاء ذكره في القرآن الكريم؟ لا شك أنه هو، ولكن من الذي أتى به من مصر إلى أرض الشام؟ هل فعل ذلك أحد قادة جيش الرومان بعد استيلائهم على مصر؟

واستعنتُ بشوال الصلاة الذي كنت أحمله أينما أذهب، فملأته أيضاً بالقلائد المزينة بالؤلؤ والمرجان. وبقيت في الكنز بقية، فقررت أن أذهب بما حملت لأخفيه في امتعتنا على أن أحمل ما تبقى من الكنز فيما بعد، وموهت مكان الكنز بما وجدت من أحجار وحصى، وبقايا الجرار المهشمة.

وتأملت الكنز من جديد، فشاهدتُ أن لا يمكن تمييز مكانه من شخص آخر بعد هذا التمويه، الذي عملته، ووضعت ما يداني على المكان عند العودة من جديد، وتركت خرقة قماش قددتها من درعية كنت أرتديها أسفل ثوبي، ووضعت فوقها حجارة كمنقطة دلالة على المكان، وحملت ما جمعت من ذهب وجواهر، كما يحمل الجدي على رقبتني، وكتفي، وربطتُ السروال المملوء بالذهب حول وسطي، وغطيت كل ذلك الحمل الذي حملته بعبائتي الحريرية، وتركت تلك الخربة، ومن بعيد وأنا أخذ السير إلى مكان استقرار القافلة، شاهدتُ أدخنة ما

يطبخ في القدور المسوّدة والأثافي التي تجمرت من الأعلى وأسودت من الأسفل بفعل شدة السنة النار.

وعدتُ إلى خيمتي التي نصبناها في طرف المعسكر الذي أقامه مسافرو القافلة على هيئة تجمعات من دون أن يلحظني أحد، وقصدتُ سفطي على وجه السرعة، لمعاناتي من ثقل ما حملت من الكنز، وكان السفط فارغاً تقريباً إلا من بعض الملابس، فملأت السفط بما حملت من سبائك ذهب وجواهر وغطيت الثروة بالملابس، واعدتُ الغطاء على السفط، وكانت امرأتي وامرأة مسعود مشغولتين بإعداد الطعام، بينما كان مسعود غائباً بعد أن صلى الظهر في خيمته وخرج يجمع ما تيسر من أعشاب وجذوع أشجار الغرب المتييسة، والشيح والعاقول لإدامة النار في مواقد النار تحت قدور الطبخ الذي يتم إعداده.

ولم أترك الفرصة تفر من يديّ، فأغلقت السفط المملوء إلى نصفه بكنزي، وحملت معي شوالاً فارغاً للدقيق كان معنا، وغادرتُ الخيمة لأعود إلى الكنز مجدداً، وواصلت نقل ما احتواه الكنز حتى أفرغته، وامتلاً سفطي، فأغلقتُه وختمته برتاج الحديد، وتوضأت وصليت صلاة الشكر لله، وما أن أنشغلت بالصلاة حتى دلفت سهنازاد الخيمة، لتخبرني بأن الطعام قد نضج، وجهاز أنهم بانتظاري في موقع إطعام المسافرين، لتناول الطعام.

وما أن فرغت من صلاتي حتى يمت صوب الوليمة، فوجدت الجماعة حول خوان الطعام ينتظرونني والطبخ وسطهم يتصاعد منه الدخان والروائح الزكية، وكان إلى الجانب الآخر خوان آخر لنساء القافلة تجمعن حوله. وكن يتحدثن عما صادفهن في الرحلة، وما يتذكرنه مما قاله حملتدار القافلة عن وعورة الطريق في المرحلة القادمة من الطريق، ومقدار ارتفاع الهضاب الصخرية، والممرات النيسمية الضيقة التي ستسير عليها القافلة حتى نبلغ مدينة حلب.

وما أن قلت " بسم الله الرحمن الرحيم " وتمتت مع نفسي بصوت خفيض " سبحان الله يرزق الله من يشاء.. في الصباح كنت فقيراً، لا عرف بـم أفندي أبي من الأسر !! وسيطلب الأمويون لقاء تحريره الكثير من الذهب، والآن غدوت أغنى الأغنياء، وسأفتدي كل أسرانا من الأمويين وأبقى غنياً إلى ما شاء الله. أنا قادم يا والدي، لتحريرك من ذل أسر الأمويين، سأفتديك وأفتدي أصحابك بأي مال يطلبون، لقد نصرني الله على فقري وقلة حيلتي، فالحمد له، الحمد لله. كنت اضع الطعام كيفما اتفق، ومرات أضيع مكان فمي، فتصطدم اللقمة بأعلى

شفتي بسبب ارتبكي وارتجاف كفي، ومن دون أن أشعر بمذاقه، فقد كنت أفكر بما سأفعل بكل ذلك المال الذي أخفيته في السفط؟”

وكان في نهاية الخوان رجلان أتتا تناول طعام الغداء وأخذا يطاردان ديكاً ودجاجة للإمساك بهما، لتهيئتهما لوجبة العشاء، وكان الديك شرساً ينقر كل من يقترب منه، بينما كانت الدجاجة تلوذ بديكها، وكانت امرأة متوسطة العمر تلوم الرجلين لفتح أحدهما القفص المعدّ لحفظ الدجاج والديكة، لرحلتهم، فهم من قبيلة عربية تعيش في جنوب شبه جزيرة العرب تُحرم أكل لحم الحيوانات باستثناء لحوم الطيور، والدجاج.

وكنت اعجب مما يفعلون، حتى أن أحد المسافرين الذي عرف اسمي وتعجب منه، قال لي ضاحكاً لا تقترب من هؤلاء القوم الذين بقوا بالرغم من إسلامهم يحرمون اللحوم على أنفسهم إلا لحم الطير، فحالما يسمعون بأسمك يظنونك هههههههه من الطيور!! فيشترونك من مسعود بأي ثمن، ليقدمونك وجبة دسمة في غداء باذخ لجماعتهم. وطفق يضحك ويردد " هؤلاء الطيوريون يفعلون فعلهم الشنيع بكل طائر وهههههههه يمر قربهم، فضج من سمع ما قاله لي بالضحك إلا أنا، فقد اعتبرت ما قاله ذلك البدوي نكتة سمجة لا يليق به قولها في محفل من المسافرين بحق أسمي، والأدهى من كل ذلك أن المسافرين كلما شاهدوني قريباً من أولئك الأعراب ضحكوا متذكرين سخرية ذلك البدوي من هؤلاء الأعراب ومن اسمي على حد السواء. وكان يزداد ضحكهم حين يرونني أضع على كتفي عباءة الحرير التي يطيرها الريح من الجانبين، فتفهههههههه في الهواء كجناحي طير.

وما أن تناول المسافرون طعام الغداء، ومالت الشمس قليلاً نحو الغرب حتى دقّ نفير العير يأذن بالرحيل، وبعد أقل من ساعة إلا وكانت القافلة تودع خرائب ذلك الماضي البعيد، وقد حملت ناقتي في رحلها سفطيّ المملوء بكنزي إلى مكان آخر، لإداء واجب عليّ طال أنتظاره.

قطاع الطريق

12 صفر 39 هجرية

"مصارع الرجال تأتي من لمعان بروق الطمع في عيونهم"

الهفاهف الراسبي

وما أن تحركت القافلة قاصدة حلب مارة بمداشر مغبرة، وقرى شبه مهجورة، بان الجوع والفقر على وجوه وملابس ساكنيها، وكل تلك المداشر تقع تحت حكم ولاية بني أمية، وأمراء نصبهم معاوية عليها، وكلما اقتربت القافلة في مسيرها من قرية أو مدشر أو من خان، حتى هرعت لأستقبالنا الكلاب العجفاء الجائعة والفقراء باسمالهم وهم يطلبون الصدقات منا، وتقابلنا الكلاب بهز ذيولها، تذلاً، كلما ألقى أحد المسافرين لها بكسرة خبز يابسة، فتلتقطها بخطومها، وقطعة الخبز لا تزال تدور في الهواء، وقبل أن تسقط على الأرض.

وبعض الأطفال كانوا ينافسون تلك الكلاب على التقاط ذلك الخبز الجاف، وكلما أوغلنا في تلك الهضبة الجرداء وضح الفرق للمسافرين بين قصور الأمراء الشامخة وحياتهم المرفهة التي نمرُّ بها في ظواهر المدن، وطوامير الفلاحين وسواد الناس وشظف عيشهم، فلم يكن أمامي سوى أن أردد لمسعود الذي كان جملة يسير إلى جوار جملي، ومسعود يسير قبله ماسكاً حبله، وهو ينظر إلى البون الشاسع بين حياة هؤلاء وهؤلاء. فتمت بصوت مسموع:

— حرب علي ومعاوية التعبير الحقيقي، عما يحصل بين هؤلاء المغلوبين على أمرهم تحت حكم الأمويين، وما لا يرغبه خليفة المسلمين علي بن أبي طالب لبقية المسلمين أن يقعوا تحت مغبته، ومن العجب العجاب يا مسعود أن الأغلبية من أهل الشام لا يعرفون هذا.

مسعود لم يكن يسمعي كنت اعرف هذا، لكنني واصلت الحديث كما لو أن مسعود يستمع إليّ:

— لم يكن علي بن أبي طالب يفرح بكثرة من حوله، فقد سمعته في صفيين يقول " لا يزيدني كثرة الناس حولي عزاً ولا تفرقهم عني وحشة." فهو

المستأنس بمخاطبة ربه، الذي كفاه البشر جميعاً، ووقتها نظر صوب أقرب أتباعه، وأكمل:

– " يأتي على الناس زمان تكون فيه العافية على عشرة أجزاء (تسعة منها) في اعتزال الناس والعاشرة في الصمت!! وماذا أقول وأنت يا علي بن أبي طالب سيد الأمرين وشيخ العارفين والمعتزلين، وبيبلغ الصامتين، وما أن يجترىء على الحق فتكون أول المتكلمين، وخطيبهم وسيد البلاغة وأهلها. ما تقوله دون القرآن وفوق كلام البشر، أيها الحاضر في فقر هؤلاء العبيد الشاميين، والمدافع عن إنسانيتهم، فهم في بغضهم لك بشر، لم يرتقوا بعد إلى إنسانيتك، هم بشر غير عارفين، وليسوا ناساً والبشر يا أبا الحسن مخلوقات تشبه الناس، ولكنهم ليسوا ناساً، فهم أهل جاهلية لا يفرقون بين حق وباطل، ظالم ومظلوم، عدل وظلم!!

يا مولاي وقد بات معروفاً سر عدم هضمك من قبل الموسرين، فهم يرونك مانعاً لطموحاتهم باستعباد الناس، فهم يريدون مصائر البشر في أيديهم، وأن لا يبقوا بأيدي العامة غير النزر القليل من الحياة، الذي يبقى جاهم ويجعلهم عبيداً عندهم.

فما خلافاً يا سيدي يا أبا الحسن مع الزبير بن العوام وظلحة غير هذا الأمر، الشنيع، الذي فيه حيف لبقية المسلمين، فقد كان بيت مال المسلمين يوزع الأموال وفق امتيازات لبعض المسلمين قبل خلافتك، والتي شترطوا فيها الأسبقية في الإسلام، وعدد المعارك التي خاضها كل واحد في جهاده ضد المشركين، فما أن توليت الخلافة، حتى ألغيت هذه الامتيازات وقلت كلمتك، التي هي أعظم ما قيل في العدل، والحكم بين الناس:

" أن جهادكم لله والله هو الذي يعوضكم أما الأموال فهي للناس!! وسأقسمها بالتساوي، ولو كان المال مالي لوزعته بالتساوي، كيف والمال مال الناس!! "

فرد عليه الزبير: " أتساويني مع عبي وأنا أنا؟ "

فقال علي: " أنا أخذ ما يأخذه خادمي قنبر وأنا أنا. "

وأكمل لمن حضر في تلك الواقعة كلماته التي كلما رددتها هملت دموعي وأيقنتُ بدنو أجلي:

" وليغتنم كل مغتنم منكم صحته قبل سقمه، وشيئته قبل هرمه، وفرغته قبل شغله، وقبل كبر وسقم وهرم، فيمله طبيبه، ويعرض عنه حبيبه. "

كانت صور البؤس تترى أمام نظري وأنظار من سار في القافلة، وبدت أراضي الإقطاع الحلبية قاحلة، لا زرع فيها ولا ضرع سوى بقايا أكداس أعشاب حولتها الشمس الحارقة إلى ظفائر سوداء، ومن النادر كانوا يشاهدون دخان تنور أو رائحة شواء.

وقبل الوصول إلى قرية "الحسنباد" التي تسبق قرية "براد" وكنيستها المشهورة بـ "جوليانوس" فوق جبل "ليلون" بعدة مراحل ظهر لنا ثلاثة فرسان غير الشعور ردينو الملابس والخلقة، فوق خيول عجفاء متعبة نال منها الجوع والظماً ونالت من وعشاء الطريق.

بدت وجوههم المكفهرة والمعفرة بدقيق الرمال، وعيونهم تشي بالشر، والطمع، مستفهمة عنم يكون في هذه القافلة من المسافرين، وقد بدا أنهم مروا بقوافل كثيرة وسألوهم عن ضالتهم، ولكنهم لم يصلوا إليها.

طلبوا الماء والخبز من الحملتدار، فأمر الحملتدار المكلف بمؤونة القافلة أن يعطيهم ما طلبوا، وأن يزيدهم، ليغيثهم مما هم فيه من غائلة العطش والجوع، وما أن أرتووا وأخفوا ما حصلوا عليه من خبز وبطاطا مشوية وتمر في رحل خيولهم، قال كبيرهم وأعظمهم جسماً:

— جننا نطلب عندكم طلبة لنا.

قال حملتدار القافلة :

— ومن يكون طلبتكم ؟

قال كبيرهم، وهو يمسد لحيته الأثيثة:

— سيد وخادمه، قدموا من السبابخة من ضواحي البصرة.

— وما أسميهما ؟

حرك الفارس فرسه باتجاه مسافري القافلة، فقطع عليه سيره حملتدار القافلة بعد لكز جواده ليقف أمام الفرسان الثلاثة:

— لا يمكنكم أخذ أحد فهما في حمايتي حتى يصلوا نهاية سفرهم، فاتبعوهم إلى حلب وهناك أخلي مسؤوليتي عنهما. سواء كانا موجودين ضمن مسافري القافلة أو لا يوجدان.

ضحك الفارس حتى بان نواجذه، وسال اللعاب على لحيته. وردد صاحبه ضحكتين عميقتين، تدل على الاستهانة بالرجل، ونخوته، ونكز الفارس على حين غرة حملتدار القافلة بطرف عمود يحمله إلى جانب رحل جواده، فاسقطه عن جواده.

وعرفتُ أنني طلبتُ قطاع الطرق هؤلاء، فتقدمت إليهم، وسط ذهول من في القافلة، من رجال ونساء وصبيان، ولم ينتظر مسعود أن أدعوه فتبعني مذهولاً، وهدر الفارس بصوت عال خشن، مهدداً كل من في القافلة، وأولهم حملتدارها، قائلاً:

— نتبع طلبتنا" الشيخ الهفهاف ابن مهند الراسبي وتابعه" منذ شهر ونحن نبحث عنه، ولنا ثأر عنده، وكلكم أبناء قبائل عربية وتعرفون كم الثأر عندنا من المقدسات، فلا يتدخل أحد منكم بيننا وبين غريمنا، ولا شأن لنا بكم. ذهبتم أم بقيتم. ومن يتدخل منكم في شأننا، وضعناه مع طلبتنا واقتصنا منه.

وتقدم الفارس صوبنا ملوحاً بسيفه، أمام خيول وركائب المسافرين. ووقف حملتدار القافلة وهو ينكت الرمل عن ثوبه وعمامته، مردداً:

— لن أترك من هو في حمايتي !! حتى لو قطعتموني إرباً، لن أتركه لكم أبداً. حربه حربي وسلامه سلامي.

تقدمتُ من الفرسان الثلاثة، فوق جواده الأبلق، وقلت لهم بلين:

— اعرف أن لا ثأر لكم عندي، ولكن بعثكم من استأجركم بالمال لقتلي، فاتقوا الله تعالى، فإن الله حرم إسالة قطر دم واحدة من مؤمن ظملاً، وأنا ليس لي معرفة سابقة بأحد منكم، فكيف يكون بيني وبينكم ثأر لا اعرفه ؟

— أنت هو الهفهاف الذي مكر بنا، وجعلنا نتيه في الصحراء، وكدنا نهلك عطشاً وجوعاً، ونحن نتبع قوافل شتى ظناً منا أننا نتبعك.

— أردتُ أن أجنبكم، فعل الباطل.

— أنت الباطل يا هفهاف.

— لا والله أنتم الباطل ومن بعثكم، فمن بعثكم هم أبناء عمومتي، الذين أغرتهم المشيخة بعد أسر والدي في معركة صفين، فأغروكم بالمال لقتلي، لأنني مزعم على تحرير والدي من الأسر وافتدائه من أسريه. فهم يريدون منع هذا الأمر، ليبقوا على رأس مشيخة الأعمشة، سادة للسبابة وما يحيط بها من مداشر وحاضرة. فإن كان المال هدفكم، فأنا الكريم ابن الكريم، وسأعطيكم من المال ضعف ما أعطوكم، وما يزيد على كل عطاء نلتوه من إعمامي، ولكن ليس خوفاً منكم أو من الموت، فالموت له ساعة لا ترجأ ولا تقدم، وساعته بأمر الواحد سبحانه، أرواحكم وروحي هي باقية بأمره وليس بأمر أحد غيره .

ضحك الفارس ساخراً، وصاح :

— سنقطع رقبتك يا هفهاف بعد قليل، وسنغنم كل المال الذي معك، من مال وسراري، وخدم، وسنقدم رأسك لأبناء عمومتك ليفرحوا وننال الجائزة. وحرك سيفه بوجهي وأكمل: "سأقطع رأسك ب"الكافر". وأخرج سيفه من غمده، فلصفت شمس الظهيرة على نصله. وما أن سمعنا شاهنزاز وسهنزاز الأصوات العالية، فشعرتا بالخطر، وظهرتا من هودجيهما، ونادتا من ينيخ لهما بعيريهما، وما أن جرّدتُ ومسعود سيفينا للدفاع عن نفسينا، ومواجهة الأشقياء الثلاثة، فعقدتُ الدهشة لسان الحملتدار، للحظات لكنه حزم أمره، وأستل سيفه من غمده، واعتلى ظهر جواده من جديد، وصاح بهم:

— لن أمكنكم ممن في حماي وقافلتني يا أوغاد. ثكلتكم أمهاتكم. حتى لو كان بينكم وبين الرجل وصاحبه كل ثارات الأرض، في الجاهلية والإسلام. وإن أردتم أن تنالوا منهما، فعليّ أن أوصلهما إلى مبتغاهما، وعندها لا شأن لي بكم وبهما، أما وهما في عهدي وضمن قافلتني فالسيف بيننا. وفي هذه الأثناء وصلتا شهنزاز وأختها، وقد امسكت كل واحدة منهن بعمود خيمة، وقد لففن وجهيهن، واعتمرن خمّاري الصلاة، وتزرنن بوشاحين أسودين، وشعر الأشقياء الثلاثة، بأن كلما مرّ الوقت، فإن ميزان الصراع سيختلف وسيكون بغير صالحهم، فصرخ كبيرهم:

— نحن لا نقاتل الحرّيم، مرّ جواريك بالابتعاد.

فأشرت للمراتين أن لا تتدخلوا في الأمر، وصحت بالفرسان الثلاثة:

— هلموا فقد دنت ساعة حتفكم بسيف ابن الراسبي!!

ونكز كبيرهم جواده شاهراً سيفه، وقال:

— أنا أبو العقارب تريد أن تتفضل عليّ بمالك؟ لست شحاذاً أطلب الإحسان من أمثالك، أنا نسر الصحراء يأخذ غنيمته قهراً. فقطاعته:

— كان أبوك وجدك ومن بعثك لقتلي يأخذون الحسنه من من أبي في الخربة. قبيلتك من صعاليك الأخماس، كلهم يعتصر بطونهم الحجر فوق بطونهم من الجوع، فلا ينالوا طعاماً إلا من وقاد الراسبي ومن أيدي خدمه!! ومن بعثكم يعرف من أكون، ولذا لم يأت ليغامر بروحه، فبعثكم طرائد مسكينة أعماها بدنانير قليلة، ووعود خرقاء لا قيمة لها. تهبأ أبو العقارب للهجوم، فصرخت به:

— أنا الهفهاف بن مهند الراسبي، سيد رجال الأعماش، المعروف بالجود والكرم، والشجاعة والطعان، أضربكم بسيفي حتى أفذخ جماجمكم، هذا ما طلبتوه ويستتالونه بإذن الله القوي الخبير!!
وتقدم الرجال الثلاثة شاهر ين سيوفهم بوجهي ، وسمعت أبو العقارب يتمتم، كازاً على أسنانه من شدة الغضب:

— لست ابن أبي أن لم أفجع بك أمك وأبيك يا ابن الراسبي.
وشهر حملتدار القافلة سيفه، وفعل مسعود كذلك. وبدأ قتال شرس بين الرجال الستة، وأخذت شهنزاد وسهنزاد يزغردن لتشجيع الرجال على القتال والصبر عليه، على عادة الفارسيات حين يشارك رجالهن في معركة.
وتجمع مسافرو القافلة، وهم يرون ما يجري من قتال، وقد غطت الفرسان الستة موجة غبار، وحجبتهم عن المشاهدة، بوجوه مدهوشة وعيون مرعوبة، وكل واحد منهم يرغب بانتهائه، وبالسلامة له ولغيره من المسافرين، وقد اعتقدوا أن ما يحدث بسبب ثأر قبلي، لا يرد ولا يؤجل، وتمتم الأكبر سناً من مسافري القافلة : قاتل الله الجاهلية، لا تزال فينا حتى بعد أن حررنا الإسلام منها ومن تبعاتها!!

وما أن أنجلت غبرة القتال بعد دقائق قليلة، حتى ظهر أبو العقارب مكباً على ظهره، وقد فذغ سيفي رأسه إلى شطرين، وتجدل من كان يقول أنه "أبو الهوائل" على بطنه بطعنة من سيف الحملتدار، أما الثالث من قطاع الطريق، فقد أصاب مسعود في ساقه بطعنة رمح، ولكنني لحقتُ به ووجهت إلى يده ضربة سيف بترت كفه، فتعالى صراخه من شدة الألم، وهرب وهو لا يلوي على شيء وهو يتوعدني بأنه سيعود ليقتلني، وياخذ بثأره مني وبثأر صاحبيه اللذين قتلت أحدهما وقتل حملتدار القافلة الآخر. وزغردت نساء القافلة، لنصر رجالها، وهرعت سهانزاد لمسعود تحاول تضميد جرح ساقه، ورغب حملتدار القافلة بتتبع ثالثهم الجريح الهارب فوق جواده صوب الشرق، فصحت عليه أن لا يفعل، ووضحت له:

— أتركه فهو صغير السن. وقد فقد كفه، ولا اعتقد أنه سيعيش طويلاً، وجرحه ينزف الدم بغزارة، وليس من المروعة الإجهاز على جريح!!
ترجلت عن جوادي ووقفت قريباً من أحد الهالكين، وكان الدم لا يزال يشخب من رأسه بغزارة، وقد تكونت تحته بركة من الدم بدأ الرمل يمتصها بشراهة وقلت له :

– ألم أطلب منك أن تحقن دمك وأنا أعطيك تفضلاً ما يكفيك من المال الذي
جئت تطلب قتلي بسببه ؟ ولكنك أبيت إلا تموت ميتة جاهلية، وأنت ظالم نفسك،
ولا حول ولا قوة إلا بالله.

25 صفر 39 هجرية

"كل مدينة خاوية من البشر إن لم يكن ساكنوها في فرح"

الهفاهف الراسبي

دخلنا حلب في نهار صيفي معتدل الحرارة. كانت معالم المدينة في غاية الجمال والترتيب، ابتداء من باب السور إلى باب دمشق وانطاكية. تتخلل المدينة روضات كثيرة، وأسواق واسعة وأقاص طير بمختلف الأنواع والألوان منتشرة في الروضات تزيد من بهجة الناظر إلى ما في الرياض من أشجار وأزهار وثمار.

شوارع المدينة ممردة بالرخام، ومحلات سكنها تتخللها البرك والنافورات من مجار للماء العذب تمر من تحت الأرض فلا تتلوث بقاذورات الطريق والأسواق، وعلى واجهات القصور والبنايا أصنام من الصلب بقيت من زمن حكم الرومان لهذه المدينة تمثل ملائكة تطير بأجنحة، وشياطين يمسون بحراب متعددة النبال، وطيور نحاسية ومخلوقات أسطورية مدهشة. ولكننا لم نر الفرح على وجوه من مررنا بهم من أهل حلب، ومررت قافلتنا التي لم يسمح لها بدخول حلب ليلاً وسمح لنا بالدخول فجراً، لضرورات انتشار الجند خوفاً من استغلال الأعداء للظلام الساجي، فيدخلون المدينة ويحتلونها، ويغلقون أبواب اسوارها، فتصير على الأمويين مهمة فتحها من جديد، لذلك رسموا خطة نزول الجند ليلاً إلى المدينة وانسحابهم منها فجراً، والخطة الدفاعية للمدينة قديمة. وقد وضعت من قبل الحاكم الروماني سلفييتن أوغسطس، منذ حلول الرومان فيها قبل ثلاثة قرون، وقبلهم اليونانيون، الذين حكموها لأكثر من ثلاثة قرون.

كان جرح قدم مسعود قد بدأ بالألتنام، لكنه ويا للأسف لا يزال يسير وفيها عرج شديد، مستنداً على عكاز أشتراه من أحد أسواق حلب عند دخولنا المدينة بعد الفجر.

ذلك الجرح، هو تذكّار غير لطيف للمعركة التي وقعت بيننا وبين قطاع الطريق الثلاثة، الذين تبعونا من البصرة، ولشد ما أفرح المرأتين شهنازاد وسهنازاد رؤيتهما لمتاجر صنّاع الجواهر في حلب وشاهدن ما يزين نساء أمراء الأمويين وتجارها وقادة جندها من جواهر مرصعة بالأحجار الكريمة، وبعضها الآخر تم تزيينه بالنقوش الإسلامية، وأسماء الله الحسنى، وأدهشتهن أكثر الأزياء الغربية التي تردتها نساء حلب، وهي خليط من أزياء يونانية ورومية، وعربية، مزينة بورود، وألوان فاقعة وخطوط ووجوه نساء ضاحكات.

ولفتت نظري كثرة دكاكين السلاح، والحدادين الذين يصنعونها، ودكاكين شحذ السيوف والقصي، وتثقيفها وعمل حراب الشباب وتقويم والأقواس، وجعب الشباب، ودروع الخيول وزرد الفرسان، كل ذلك الإنشغال تظهر أن المدينة تستعد لحرب ضروس قادمة من خلال ما تم خطه عند كل جامع من قماش أسود تم الكتابة عليه بالصباغة البيضاء وأغلبها تكفر العراقيين والخليفة علي بن أبي طالب وتطالب كل شامي بالاستعداد لرد كيد المعتدين من أهل العراق، إضافة إلى مجترأت من خطب الجمعة ممهورة من فقيه حلب تحت أهل حلب على الجهاد في سبيل الله. وأن يستعد الصيد الميامين من شباب وشيوخ حلب لاسترداد الكوفة من مغتصبيها قتلة عثمان بن عفان والزبير بن العوام.

وكانت في كل زاوية من حلب أسماء لشباب من حلب سقطوا في معركة صفين، ورفعت إلى جوار كل اسم راية القبيلة التي ينتمي إليها، ووضعت بصمة كف القتل مضمخة بدمه على القماش بشكل مقرز، لزيادة التوثيق والتأثير على كل من يقرأ الاسم. وباختصار كانت البغضاء للعراقيين ولخليفة المسلمين علي بن أبي طالب بلغت أوجها.

كان الماء يمر بممرات بين المحلات وقد جلب من الجبل في مصارف وقنوات عديدة تمر تحت الأرض، وهذه المصارف المائية برياض وبساتين حلب، فتسقيها، وتسقي ماشيتها ودوابها وأهلها، لقاء ضريبة سنوية تفرض على ساكنيها تسدد بصك من حاكم المدينة ومحتسبيها.

قال لي حملتدار القافلة، الذي صار صديقاً، بعد وقفته المشرفة معي في وقعة لصوص البصرة الأشقياء.

— أسعدكم الله بالوصول إلى بغيتكم، فهذه حلب أجمل مدن العالم وزهرة الرومان اليانعة التي حررها المسلمون من إشراكهم ونير عبوديتهم لأهلها. فضحكت وإجبتة:

— وهاهي قد وقعت بأيدي من هم أسوأ من الرومان وأكثر بغضاً لأبناء دينهم وأهلهم!!

أجاب الحملتدار:

— نسأل الله أن يصلح الشأن كله.

(كان الحملتدار شديد الحذر من أن يقول شيئاً فيه تقليل من شأن الأمويين خوفاً من عيون الدولة، لئلا يمنع من دخول المدن التابعة للأمويين، فينقطع رزقه وهذا في أحسن الأحوال وربما أحيل إلى القاضي الشرعي، فيطالب القاضي جنود الدولة بتطبيق حد الردة عليه!! فيقطع طرفاه من خلاف أو يصلب بباب الحديد بحلب، كآخرين ممن تدخلوا في الشأن السياسي، قبل شهور قليلة، فقطعت رؤوسهم وثبتت على أسوار حلب وستبقى كذلك تأكل من فرواتها الطير فتحرك أجراساً مربوطة إليها بحبال مخفية لتصدر أصواتاً تصل إلى ما بعد سوق حلب الرئيسي لنشر الرعب في نفوس أهل حلب، ولكل من يسمع أصوات قرع الأجراس، حتى تغدوا بعد زمن تلك الرؤوس المقطوعة جماجم بيض بلا معالم تبقى معلقة بأجراسها إلى ما شاء الله وتصدر أصواتاً كلما حركتها الرياح شمالاً ويميناً.)
تمت: أمين.

وبعد أن سلمت على الحملتدار وعانقته قصدت صرّافاً عند نهاية سوق السقطة، لأبدل ما لدي من دنائير كوفية وأخرى مما وجدته في كنز الخربة، بدانائير ذهبية أموية.

تعجب الصرّاف من جودة ذهب المسكوكات التي عرضتها عليه، فغير حسب ميزان دقيق وتعريفة معروضة في صدر حانوته وملصقة على الجدار بغراء الشجر، كل دينار من المسكوكات القديمة بألف دينار!! وأخذ الصرّاف يتعامل معي ومع مسعود تعامله مع أمراء وأصحاب إقطاعيات كبرى. فقد ظننا مبعوثين من طرف أحد الأمراء الأمويين، فالمعروف عنهم ثرائهم الفاحش، حتى أن شائعات سارية في حلب تقول أنهم عثروا على كنوز الأسكندر الذي احتل مدينتهم قبل مئات السنوات واحتفظ بكنوزه في مكان ما من حلب على أن يعود من فتوحاته، فيستخرجها ويعود بها إلى اليونان لكنه مات في بابل

بمرض الجدري. وبقي كنزه مجهولاً حتى عثر عليه الأمويون مدفوناً في أحد القصور التي تعود لأحد القادة الرومان الذين حكموا المدينة. وكانت تلك الإشاعة من صنع فقهاء بني أمية لكي يغطوا على فساد الأمراء واستيلاءهم على الفيء من دون وجه حق، وعلى إيرادات بيت مال المسلمين من الضرائب والقبانية المالية للجنود، والفوائد على الحنطة والشعير ومكوس الماشية بحجج شتى، فقد أخبرني أجير يعمل في الخان بقوت يومه، أن حاكم حلب وعد الخليفة بتجنيد مائة ألف نفس من شباب حلب لقتال أهل الكوفة، واعتمد جرايات لهذا العدد الكبير من الجنود، وهو لم يعطهم منها سوى دفعة مالية صغيرة لتأكيد بيعتهم له كعبيد من المولد إلى المثلوى. دماؤهم وأولادهم ونسائهم ومالهم وأرضهم وكل شيء يعود لهم تحت تصرفه وأمرته !!

ما يسميه الأمويون ببيعة الدم والمال والأنفس للخليفة الأمين من المهد إلى اللحد. وهم في استعداد دائم لتلبية نفير الخليفة للقتال، أو بأمر من أحد افراد حاشيته، أو والي حلب "كمال الخلوئي الحلبي". وكل هذه الحشود كما أخبر الأجير لسحق المرتدين عن دين محمد من مشركي العراق !! واستغفر الأجير الله ووحده وكبره، وبسمل وقرأ سورة فاتحة الكتاب، وبصق على الأرض ثلاث مرات، وهذا ما تعلمه الحلبيون من شيوخهم في خطب الجمعة للخلاص من ذنوب ارتداد العراقيين عن الإسلام، وشركهم بالله الواحد الأحد، وجعلهم علي بن أبي طالب هدفاً للتأليه والعبادة!!

أخذت مالي ووضعت في جراب جلدي يحمله مسعود ويشده على وسطه بلفافة قماش كوفية، وأخبرني الصراف أنه بخدمته دائماً لتغيير أي مال وفق، التعريف الموثقة من الحاكم والمصدق عليها من قاضي قضاة حلب ورئيس شرطتها وكبير محتسبي أسواقها.

وأخبرني هامساً قبل أن أغادر صرافته بهنيهة، أن العملة تهبط وترتفع أسعارها في كل موسم حصاد، فإذا كان موسم الحصاد جيداً ارتفعت قيمة الذهب وانخفضت أسعار المحاصيل والعكس بالعكس، فكل موسم سعر خاص بالذهب وكذلك عند الحروب، فالذهب تهبط أسعاره وترتفع أسعار الغلات حتى أن الفقير لا يجد مالاً يكفي لشراء قوته وقوت عياله ليوم واحد.

وردد الصراف: أعاذنا الله من الحروب وشرورها. وقضى بالحق على أعداء الله وأعداء شريعته. وكنت اعرف أن ذلك الدعاء كان موجهاً بحق العراقيين

كافة، فصمتُ على مضمض وأنا أكاد التميز من الغيظ، فهذا هو فهم، هذا الصرّاف ومعظم أهل حلب والشام لما يدور من أحداث حولهم !! وفي سوق الشونة، المزدهم بالمتسوقين من كل الأجناس: عرب من البادية، وأرمن وتركمان من أنطاكية، وأحباش وقفجاق، وكرج، وفرس. وكانت مجموعات راجلة من الجنود بأثواب حمر وقبعات من الخيش الموشاة بشرائط ملونة تمرُّ على الدكاكين والحوانيت لإستلام الجبايات على ما تم بيعه من بضاعة في دكاكينهم، وقد عرفتُ أن الجامكيات (الرواتب) الشهرية تعطى لهؤلاء الجنود قليلة جداً، ولا تكفيهم هم وعائلاتهم، إلا لأيام قليلة، فكانوا لا تورعون عن اقتطاع نصف المال الذي يجمع كضرائب ويقوم أمير كل مجموعة بتقسيم ذلك المال الحرام عليهم، نهاية كل نهار جمعة وهم يعتبرونه مالاً حالالاً زلالاً عليهم وعلى عائلاتهم، لا شبهة فيه ولا تثريب عليهم ولا لوم بإنفاقه وهو مزكى وفيه بركات السماء !!

فهم في اعتقدهم أنصار الله والدين الحق وحاملو راية الجهاد في سبيل الله، وما يدخل بيوتهم من قوت هو فيء من مال بيت المسلمين، جعل الله فيه البركات، ورئيس الشرطة يغض البصر عن هذه الأعمال اللصوصية لما يناله هو أيضاً من حصة، فيما يجمع من التجار، وأرباب الصناعات والمهن بالسوق. وبالقرب من الباب الرئيسي لخان الشونة، المواجه لخاصرة السوق، زاوية تسمى بزاوية النحاسين، التي تباع فيها الجوارى والعبيد، وقد استلقت نظري ونظر مسعود حادثة غريبة، إذ فيما بدا أن عبداً فرقه أسياده عن زوجته لأكثر من سنة، فلم يتمالك نفسه عندما وجدها مربوطة اليدين ومعرضة للبيع مثله !! فغافل سيده وضمَّ زوجته إليه بقوة، ووقع فوقها يجامعها أمام مرأى من الناس في السوق !! وحاول سيده أن يبعده عنها، ولم يتمكن، والعبد يصرخ: زوجتي، هي زوجتي ولي الحق فيها يا ظالمين !! فأسرعت ورميت عليهما عباءتي الكوفية غالية الثمن لأسترهما عن عيون الخلق، وأمسكت سيد العبد من يديه ومنعته عن إيذائه بالسوط، وعرضت عليه شراء العبد وزوجته، فوافق البائع، فاشتريتهما منه، واستلمت صك ملكيتهما، ومنحتهما صك حريتهما، بعد أن هدأ شوقهما لبعضهما قليلاً، ورفعنا عنهما العباءة وهما يبكيان واطلقتهما في سبيل الله بعد أن منحت العبد مالاً ليبدأ به حياة عتقهما من العبودية. وأخذتُ استغفر الله لهول ما شاهدته من مشاعر، فأخذ الأسود زوجته وصك حريتهما غير مصدقين، انهما صارا حرين، ومضيا غير مصدقين

ما حدث لهما، مرددين عبارات بلغتهما لم أفهما ولم يفهما مسعود، فقد قال
الرجل بلغته: هلالا هلالا والله هلالا.

5 ربيع أول 39 هجرية

" كل محبة لم تؤد إلى علاقة منفعة وثيقة مصيرها الزوال "

مسعود الأعمشي

كتب بعد ذلك مسعود ما حدث في ذلك اليوم في واقعة السوق ذاكراً ما سمعه من شيخ حلبي، إذ قال معلقاً على ما شاهد من شهامة سيدي الهفاهف:
- كل الصلات أيها السيد الغريب التي تجمع بين العبيد في هذه البلاد معقودة بالزواج أو بغير الزواج، فهي غير محترمة، ولا أحد يتلفت لها، من جميع مالكي النفوس، فمتى يقرر مزاج المالك أن يختار زوجاً آخر لعبدته من عبيده، فيقوم بطرد زوج عبدته!! ويعقد لها على ثان من دون عدة أو أنتظار، وبلا رضا من الطرفين، قبولهما أو عدمه سيان لدى السيد المالك!!

فاستغفر سيدي الهفاهف، وعدّ الدنانير المطلوبة للبائع، ومضينا قاصدين خان الشونة، الذي نقيم فيه طوال مكوثنا في حلب، قبل السفر إلى دمشق بعد أن نعثر على القافلة المناسبة التي تمضي إلى هناك.

طول الرحلة إلى حلب كنا نمرُّ على قرى مملوءة بالعبيد والعتقاء من الذين يعملون في المزارع والحقول، لفائدة أسيادهم، وقد أخبرنا بعضهم وهم يتكفنون مسافري القافلة، أن أجورهم من السادة الملاك النزر اليسير ما يبيقيهم أحياء، هم وزوجاتهم وأطفالهم.

وكان السادة لا يتورعون من عرض أطفال هؤلاء العبيد للبيع على القوافل المارة بقراهم ومداشهر، ورأيت سيدياً منهم وقد أمسك بطفلين أسودين ليبيعهما علينا، ولم يتجاوز الطفلان السادسة من عمريهما، وهو يعرضهما للمسافرين في القافلة مؤكداً قوتهما وصحتهما وقدرتهما على العمل، عندما مررنا بقريته.

وفي أكثر الأحيان يختار السيد أطفال العبيد الأبقين، الذين هربوا من عبوديتهم إلى وجهات يجهلها، أو قتلوا أثناء متابعتهم أو تم سجنهم من قبل "والي حلب" بسبب أبقهم لأسيادهم، أو يختار أطفالاً من عائلات السود التي لا تتمكن من أن تعطي عن الأرض الموكلين على زراعتها مردوداً كان يرجوه السيد، فيعوض أرباحه ببيع أطفالهم لأول من يمرُّ قريباً من قريته،

وربما أراد الغش أيضاً، فهو يبيع الأطفال المرضى أو المجذوبين أو من يرى فيه عاهة غير ظاهرة أو يتوقع تفاقمها كلما كبر ذلك الطفل.

ولم تمر سوى أيام قليلة في حلب حتى عرفت ما يدل على أن أهل المدينة لم يفهموا ما في عقيدة الإسلام من ضوابط أخلاقية وإنسانية، وما هو الحلال والحرام في الإسلام. فقد وجدت من عاداتهم التي ورثوها من الرومان !!

ومن تلك العادات أن النساء في حلب هن من يمهرن الرجال، ويعطن الرجال ما يمكنهم من تأثيث منازل الزوجية، من معدات طبخ وأفرشة، وأسرة نوم، ومصاطب وسقف، وأخونة وصحون، وطبليات طعام، وأوعية شراب فاخرة من الفخار الغالي، وزرابي فارسية ثمينة لفرشها في بيوت الزوجية، ولا يكتفن بهذا بل ينقدنهم دنائير رومية ذهبية، لحفلة العرس، التي تمتد لثلاثة أيام.

وإذا لم يتمكن من جمع المال لخطيبهن، أعطنه بدلاً عن ذلك دجاجاً وبيضاً وماشية، وخيولاً وغير ذلك مما تمتلك أسر أهلهم، وغير ذلك وقد لاحظنا عدداً كبيراً من شباب المدينة قد بترت أذرعهم من الكتف، فعرفنا من فقيه الجامع، أن شيوخ الفتوى عندهم يقرأون الآيات القرآنية، ولا يفهمون ما جاء فيها، لضعف لغتهم العربية، وعدم معرفتهم لمعاني الكلمات القرآنية فيوقعون على كل من يسرق شيئاً حدي قطع اليد إلى حد الكتف بشكل كامل وهذا لا يجوز خصوصاً أن اشتراط إقامة الحد على السارق إن تكون أسباب الفقر في البلاد قد مُحقت ولم يعد فيها أحد يعاني الفقر والجوع كما أن من يقوم بذلك حكومة مسلمة لا شبهة في إيمان خليفتها ومن يحكمون البلاد معه، وكلها شروط غير متوفرة لا في حلب ولا في كل بلاد الشام.

فكرت متذكراً أيام صفين وكنت أرافق سيدي الهفهاف في كل خطوة يخطوها في ميدان المعركة أو في مخيمات المقاتلين فقد كنت معلمه أحفظه القرآن وفقهه وفك الخط العربي ورسمه، ومدربه على فنون القتال منذ طفولته، وتمت مع نفسي، أذن بهؤلاء حاربنا معاوية بن أبي سفيان، بناس لا يفهمون القرآن الكريم ولا يفقهون أحكامه.

وعندما شاهد شيخ حلبي عجبي مما يحدث في حلب من طقوس وتقاليد غريبة، يسميها الحلبيون بدم الشياطين، إذ تقوم مجموعة من الشيوخ في الأسواق بمطاردة لعدد من الذين لا يرغبون بدخول دين الإسلام، وقد ارتدوا أثواباً سوداً ومعممين بعمامات خضر، وهم يلعنون الشياطين بأقذع ما في اللهجة الحلبية من كلمات نابية.

ويقولون بعد ذلك: "اللهم تقبل منا " ويتبادلون القبلات رجالاً ونساء، فقال الشيخ الحلبي، وابتسامة عريضة على شفثيه: " لقد ترك لنا حكامنا الطقوس نحن نبتكرها ونحن نقوم بعرضها في الأسواق والساحات العامة" وهناك أيضاً من يرتب لها ويشجعها ويمولها من أهل الحوّل والقوة من تابعي الحاكم وبايعاز منه، والناس تستجيب بلا إدراك ولا فهم، لما يراد بهم من تجهيل، فهم يخاطبون مخاوفهم الداخلية، وما تناقلوه جيلاً بعد جيل، مجسدين ما حدث لأجدادهم ولبلادهم من ويلات وكوارث، وقحط ووباءات وسيول، وحروب وحصارات، أما أمور الحرب والطعان فقد جعلوا شأنه خالصاً للعساكر، أما شؤون الدهاء والكياسة وتدبير خطط تسيير العوام، فهو شأن الوزراء، والأمراء، أما الحاكم والخليفة، فشأنه المتعة والصيد والقنص، وتوزيع المغانم، لكل ما يرى فيه فائدة لاستمرار سلطانه، وتوطيد حكمه !! فلا عجب مما نرى في حلب، وما يفعله أهلها.

وأكد لي الشيخ الحلبي أن للأمراء واجب التدبير والتنفيذ وللحاكم ما لا يغيظه ولا يحزنه، وما يجعله سعيداً مستبشراً بالحياة ومباهجها. قيان ونساء جميلات وموائد عامرة، والأمر بحروب ما أنزل الله بها من سلطان، وهذا باق ما بقي للسلطان سلطة وهيلمان وعصبة تحميه ومال يبيض وجهه أمام من يتبعه !!

استعراض الجيش

12 ربيع الأول 39 هجرية

"كل متظاهر بالقوة مخفٍ لضعفه لا يعول عليه"

الهفاهف الراسبي

في تلك الليلة بعد صلاة العشاء التي أداها مسعود في زاوية الخان بينما كانت امرأة سيدي الهفاهف وامراتي شيرزاد تعدان لنا طعاماً فارسياً يسمى حساء الأش ومعها يخنة خوريشت التي يحبها سيدي وسلطات مشوية من شرائح الطماطم والبطاطا وبيض السمك مع الزعفران والبصل والزعتر مع العطرية الفارسية وخبز الشعير المدخن.

كانت شهنزاد قد وعدتني بتحضيره، وطلبت من أختها أن تساعدني في إعداده. في تلك الليلة رأيته مجدداً. نعم رأيته، رأيت أبا علي الحسين قادماً من بعيد، وقد توشح بلثام أخضر، فصحت أناديه، هذا أنت يا مولاي؟ فأزال وشاحه عن نصف وجهه، وقال مبتسماً: نعم أنا هو، وتعانقتا طويلاً، وأخذت أتلفت يميناً وشمالاً، كأنما أنظر إن شاهد ضيفي العزيز أحد، فقال أبو علي: يا هفاهف إلا تزال تخشى عليّ أكثر مما تخشى على نفسك؟ فعانقته مجدداً وقلت والدموع تبلل خدي: وكيف لا أخشى عليك سيدي وأنت أمل الأمة المرتجى في الدنيا والآخرة؟

فبادلني أبو علي العناق، وأخذت بيده وأجلسته إلى جواري، وقلت وقد خفّ عجبني من قطع صاحبي كل هذه المسافات الطويلة لكي يلقاني في هذا الخان، فابتسم، وما أن رأيت ابتسامته حتى نسيت كل أسئلتني، فقال هامساً: جئت لأبشرك يا هفاهف، فقلت بلهفة، وأنا أضع كفيه على صدري، لأهدىء من روعي، وعجبي: أسأل الله تعالى أن تكون بشارة خير يا سيدي، فتابع قائلاً: يا هفاهف لقد نلت الحضوة مع خيار المؤمنين وهي حضوة لم ينلها إلا القليلون.

— يا الله هل نلت هذا حقاً؟

— نعم يا هفاهف، وقد جئت لكي أبشرك بهذا.

— يا مولاي تجشمت كل متاعب الطريق لتبشرني بهذا، ما أسعدني بك وبالبشارة!!

لم أكن اعرف معنى هذه الحضوة التي نلتها، وعند مَنْ؟

وفكرت أنها بالتأكيد عند سيد عظيم، ولكن مَنْ يكون هذا السيد، الذي نلتُ حضوته؟

ونظرت بوجه أبي علي، الذي أزداد ألقاً ونوراً وقد جللت وجهه ابتسامة عريضة، الذي لفحته شمس الصحراء، لكنها لم تخف بياض وحمرة بشرة وجهه، ووسامة تفاصيله، ولحيته القصيرة المشذبة، وجديلته التي برزت من خلف العمامة تفوح منها روائح مسك وعنبر أخذت تملأ المكان الذي نقف فيه، قال أبو علي مفسراً:

— الحضوة التي نلتها يا صاحبي سيرتها عنك أحفاد أحفادك، وسيلهج بذكرك طويلاً، وحالما ينادونك تحضر لهم من عالم الموت إلى عالم الحياة، وتشاركهم أفراحهم وأحزانهم، وترد عنهم مخاطر الحياة وتشاركهم أعباءها، وتتجدد لهم وقتهم حاجتهم إلى منجد، ولن يبخل عليك الله تعالى بإجابة دعاء تدعوه به. في ليل أو نهار، في ساعة شدة وعسر، أو في لحظات يسر وسعادة. فحُوص الهفاهف بعينيه:

— أهكذا أكون؟

— نعم هكذا تكون، وستبقى هكذا.

— هكذا يا مولاي؟

— هكذا يا هفاهف.

— وكيف نلتُ كل هذا المجد يا مولاي، أنا المذنب المُقصر طول حياتي؟

ضحك أبو علي ضحكة قصيرة، وتابع:

— يا هفاهف ما عمله هين ولكن عند الله عظيم.

— لا أتذكر إني فعلت شيئاً أثاب عليه !!

وحاولت أن أتذكر، فقال أبو علي مذكراً:

— أنسيت يا هفاهف العبد وامرأته في السوق؟

— لكنه أمر أقل من هين؟ فالمال مال الله وهبني أياه وكنت فقيراً فأغواني من

فضله، فأعدت جزءاً مما وهبني سيدي ربي، لإنقاذ عبيد من عبده عاشا الذل

والحط من الشأن حتى صاروا مثل بهيمتين.

— ليس لبذل المال نلت حضوتك يا هفاهف !!

— شوقتي لمعرفة السبب لما نلته عند الله من درجة.

— نلتها يا هفهاف بإلقائك عباةك الثمينة على الرجل وزوجته لكي تستر عريهما والتحامهما عن عيون الناس، فقد ضجت السماوات والأرض بأصوات الملائكة مسبحة بحمد الله طالبة من الله إن يهبك جوده وكرمه حياً وبعد موتك. فالله تعالى يعرف كم كنت حريصاً على تلك العباة التي وهبها لك أبوك، وقد ورثها عن أبيه وجده.

فرطت بالعباة من دون أن يرّف لك جفن أو تتردد لحظة واحدة. بقيت ملائكة سبعة سماوات لسبعة أيام ضاجة بالدعاء لك، لفعلك الكريم ذاك. أنت لم تر في مرآة نفسك أنك قمت بالواجب فقط، وعند الله كان فعلك كبيراً جداً.. بخ بخ لك، فالله ينظر إلى قلبك الذي لم يتردد لحظة، بوركت أخي الهفهاف بهذه المنزلة العظيمة !!

وقبلني في جبيني، وأشرق وجهه بضحكة فرح. وشعرتُ بيد تمتد صوبي لتمسد كتفي:

— يا سيدي الهفهاف هل غفوت ؟

فتحت عيني كنت لا أزال جالساً القرفصاء فوق سجادة الصلاة، وشممت شذى عطر أبي علي الحسين في صدري. كان مسعود قد فرغ من صلاته، وهو يوقظني بلطف من غفوتي.

— هل نمت يا سيدي ؟

— نعم يا مسعود، وفي نومي نلتُ الكثير من فضل الله تعالى.

— هل من مبشرات سيدي تفرحنا بها ؟

— سيجعل الله تعالى لي خيراً كثيراً يا أخي.

كانت الكلاب تتجمع عند باب الخان كل مساء فقد اعتاد طباخو الخان وضع ما تخلف من طعام المسافرين في باب الخان، فكانت تهز أذناها القصيرة، مشتمة بخطومها كل ما يلقي إليها قبل أن تباشر بازدراده ولا حظت أن هذه الفصيلة من الكلاب لا تشبه كلابنا ذات الأذنان الطويلة في صحراء السباخة.

وما أن أشرقت الشمس في اليوم التالي حتى طالبتني شهنزاد بالتسوق من سوق خان الشونة لشراء بعض احتياجاتها من الثياب واللوازم، وكنت قد وعدتها ليلة أمس بهذا التسوق، وصحبتهما شهنزاد لتتبضع هي الأخرى وبقي مسعود عند متاعنا لحراسته.

كان السوق مملوءاً بالبضائع: أقمشة من أنطاكيا وأخرى رومية وفارسية وحلبية، وسوق الحبوب كان مملوءاً بالخيرات، وسوق الأخشاب مملوء بشتى

أنواع النجارات والأثاث الجاهز، وقد عملت أشياء مذهشة من الخشب بأيدي حرفيين مهرة تشتهر بهم حلب من دون مدن الشام الأخرى. نقلوا إلى صناعتهم كل ما ورثوه من فنون الأرابسيك التي تعلموها أباً عن جدّ، وكذلك سوق التوابل فلم يتمكن من المرور به من كثرة المتسوقين، وازدحامهم حول الدكاكين، وبدا لي أهل حلب أكثر ساكنة للأرض اعتناءً بذائقة طعامهم، وفي سوق الصناعات والحدادين وجدناه سوقاً كبيراً لجميع أنواع المشغولات وإلى جواره دكاكين الصاغة والصرّافين.

وأدهشتنا رؤية المصوغات الذهبية التي كانت تخب لب وأبصار الرجال قبل النساء لصنعتها الدقيقة الملفتة للنظر، أساور تلهث بضوء الشمس وما يرصعها من أحجار كريمة، وجواهر لأعناق النساء وصدورهن وأقدامهن في غاية الجمال وأحزمة تتزخر بها النساء رصعت باللؤلؤ والعقيق واللازورد، ثم شاهدنا صفين من الجنود يتقدمون وقبلهم أصحاب طبول وزمارون، والمنادي قبلهم ينادي بأعلى صوته يطلب من السابلة فسح الطريق لجنود أمير الأمراء وموكبه، الذي سيمر بجيشه مستعرضاً صوب ساحة حلب الرئيسية مركز الاحتفال، بمناسبة دخول يزيد بن الخليفة معاوية بن أبي سفيان على زوجة من كريمات العرب في دمشق.

وعرفت من أحد تجار السوق أن أمير الأمراء يستعرض جيشه بين فترة وأخرى لكي يغري الشباب الحلبي للتطوع في الجيش الأموي، فلأمويون حملة جديدة قريبة على أهل العراق، الذين ارتدوا عن الإسلام، وتدينوا بالمجوسية، وصاروا يعبدون مع خليفتهم النار الفارسية!!

لم أشاء مجادلته، فهو كما يبدو من كلامه لا يفهم شيئاً عن عقيدته كمسلم، ولم يحفظ حتى سورة فاتحة القرآن من دون أخطاء وسهو وتقديم وتأخير في تلاوة الآيات، واعترف لي أنه لا يصلي ولا يصوم، لكنه يقول أنا مع هذا فإننا مسلم!! وسادافع عن الإسلام حتى ولو اضطر إلى تقديم ولديه للجهاد في سبيل الإسلام، وفكرت " أي إسلام يعني هذا الشيخ؟ أليس ما في رأي الشيخ عصبية قبلية لا غير، ولا علاقة له بما في الإسلام من عقيدة إيمانية وطريقة مثلى للعيش الكريم؟ "

وازداد ضجيج قرع الطبول وأصوات التزمير وقرع الصنوج، وظهر أول تشكيل للجيش، وهو أكثر من مائة فارس يعتلون خيولاً بلقاء سوداها أكثر من

بياضها، وعليها سروج مذهبة، وفرسانها يرتدون ثياباً زاهية مكرشة ومطرزة بشرائط خضراء وبيضاء، وهم يحملون رماحاً طويلة.

وتذكرت من ذكريات حرب صفين أن الأمويين كانوا يستخدمون فرقاً اقتحامية من هذا النوع بداية كل معركة لزعزعة المعنويات، ويجعلون هذه الفرق تتقدم في المقدمة لحماية فرسان القوس والنشاب، وكان هذا النوع من الفرق المقاتلة هي التي تقع فيها خسائر كثيرة بالأرواح، فهم عرضة لجميع أسلحة الجيش المقابل، ولا سلاح لديهم غير رماحهم الطويلة، التي تصير عبئاً عليهم عند اشتداد المعارك وتحولها إلى كروفر!!

وتنهدت متذكراً والذي المهند الراسبي، الذي كان مكلفاً بقيادة تشكيل من الفرسان الخفيف لتشتيت هذه الفرق وتمزيقها من خلال الاندفاع بتشكيله مستقيمة بعد أن تنقسم إلى جناحين أيمن وأيسر من وسط الفرقة ويعملون السيف في رقاب هؤلاء الفرسان، الذين لا تتيح لهم رماحهم الطويلة سوى الهجوم والطعن عن بعد أو التصويب على عدوهم ورميه بها في إصابة قاتلة، وبعدها يصير الفارس أعزلاً، وليس أمامه سوى الفرار من المعركة، ليعاد تسليحه برمح آخر، وكلما بوغتوا بالهجوم من الجانبين وقعت بينهم مقتلة عظيمة، ولو لم يُجرح والذي في المعركة لما تمكن الأمويون من أسره.

وتجمع الضيق في صدري ويزداد ضيقي كلما تذكرت مهمتي التي تتلخص بتخليص والذي المهند من أسره بأي ثمن، وقد حاول قبلي خليفة المسلمين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مبادلة الأسرى مع الأمويين فوافقوا على إطلاق سراح أسرى الكوفة من فئة المقاتلين الجنود العاديين، وإبقاء قادة التشكيلات والفصائل الذين يعدون من أصحاب علي ابن أبي طالب وشيعته المقربين، وتمت مع نفسي "أنا قادم يا دمشق، وسأحررك بإذن الله تعالى يا مهند الراسبي يا فخري وفخر الأعمشة."

وروى لي من قاتل قريباً من أبي في صفين، أنهم لم يتمكنوا من أسره إلا بعد أن عملوا له مكيدة لئيمة، واستدرجوه إلى حفرة مغطاة بالعاقول المجتث، وما أن أقدم بفرسه لمعالجة تشكيل من أصحاب الرماح الطويلة استقروا خلف الحفرة - المكيدة، فكبا جواده فيها، وقد كانت مزروعة برماح قصيرة مدببة، فقتل فيها جواده الخبّاب، الأبلق، فوراً وجرح والذي، وأطبقت عليه شبكة وضعت في قعر الحفرة، لمنعه من استخدام السيف بعد أن يترجل الفرسان عن خيولهم لتقييد يديه وأسرهم!! والغريب أنهم استخدموا ذات المكيدة التي

يستخدمها صيادو الأسود في الغابات، وهذا دليل على أنك أسد يا أبي، ولهذا فخري بك الدائم، إن كنت على الأرض أم عرجت روحك في السماء، فمهما نعيش خمسين سنة أو أكثر، فنحن ماضون، ولا تبقى إلا سيرتنا وأسمائنا يفاخر بها الأبناء والأحفاد.

ومرت بعد فرقة حاملي الرماح الطويلة، فرقة السقائين، وهي الفرقة المخصصة لحمل قرب الماء للسقاية، وقد قُسمت إلى مجموعتين، واحدة لسقاية الجنود وأخرى لسقاية الخيول والركائب المختلفة، وبين كل فرقتين تمر فرقة متخصصة بحمل الطبول الضخمة وآلات النفير، لإخافة العدو وبعث الهلع في قلوبهم وإفزع خيولهم، فتلقي بهم إلى الأرض وتولي هاربة لا تلوي على شيء ثم مرت فرقة النبالة، يتمايل فرسانها فوق ظهور خيول رومية واسعة الأرداف ثقيلة الخطو كأنها قلاع عالية لتتيح للرامي مساحة واسعة للتسديد المستقر فوقها، لينالوا من أهدافهم، وهذه الخيول بطيئة ثقيلة الخطوات، ولا تمتلك رشاقة الخيول العربية الأصيلة، ولا قدرتها على المناورة أثناء الكرّ والفرّ، لكنها أكثر أذى على الجنود المشاة حين تدهسهم بحوافرها، قافزة فوق رؤوسهم، فهي حيوانات ضخمة ثقيلة الأوزان، بالغة الأذى على من تدعسه بحوافرها، ويمكنها أن تدعس عشرات الجنود وتقتلهم في كل جولة من جولاتها، ممزقة صدورهم بمرورها فوقهم دون أن يتخلخل إترانها، فهي مُدربة على دعس كل من يقف أمامها، ممزقة صدره بحوافرها، وفوقها رماة ماهرون تدريبوا على التسديد على أهداف صغيرة وإصابتها على مبعده مائة قدم أو أكثر، وقد جُهزوا بأكثر من جعبة نبال حملوها في رواحلهم وعلى ظهورهم في حافظات جلدية أعدت لهذا الغرض.

كان كل تشكيل يمرُّ يصرخ جنوده بأصوات عالية: "فداك يا أمير الأمراء... فداك يا أمير الأمراء.."

ومرت صفوف المشاة شاكة السيوف، بثياب خضر وقبعات بيضاء، تعلوها شرائط صفراء، وفوق قبعة كل قائد تشكيل مشاة علم الأمويين المعمول من الكتان الأخضر الذي كتب عليه " لا إله إلا الله محمد رسول الله ونصر من الله وفتح قريب"، وقد طُرزت على مساحته وجوه نسور صفراء بشعة، ووضعت في نهاية كل راية كرة من النحاس تصدر أصواتاً حين تحريكها تشبه أصوات تكسير الزجاج، وكلما حرك قائد التشكيل سارية الراية، لأرهاب العدو وبث الذعر في قلوب جنوده، ثم علت أصوات الصنوج وقرع الطبول وتزمير

الزمارين، ونعيب العياطين، منبهين إلى أهم فرق الجيش، تتقدمهم راية طرز عليها اسم الفرقة "المؤمنون" قلت في نفسي ساخراً نسوا أن يكتبوا قبل المؤمنين لقتل " فيصير اسمها الصحيح " لقتل المؤمنين".

وقد ضمت فرقة قتل المؤمنين رجالاً من عمالقة الشام، طوال القامة برؤوس مفلطحة ضخمة، وصدور عريضة كثيرة العضلات. وضعوا على رؤوسهم خوذاً حديدية فوقها قرون طويلة كالرماح، وأمسكوا بأيديهم سيوفاً ثقيلة، أكبر من حجم السيوف المتعارف عليها، ولا يستطيع القتال بها إلا عمالقة من أمثالهم ممن تدربوا للقتال بهذا سيوف ثقيلة لفترات طويلة، وخاضوا قبل ذلك حروباً تشبيهية وتمريبات في التحمل في غاية الصعوبة، حتى صار الواحد منهم كالثور، متمكناً للقتال بدرعه الثقيل وسيفه الضخم كأنه في نزهة أو وكأنه يزاول مهنة عادية. ولفت انتباهي شعارهم الذي يرددونه وهم يهرولون بحركات أقدام وأذرع منضبطة حاملي سيوفهم على اعتاقهم، مرددين " الموت للعراقيين الكفرة، يا لثارات الجمل وصفين!! الموت للكفرة والبقاء لسيدنا القرشي المكي صاحب الرسول وكاتب وحيه!! وبعد هذه الفرقة التي بدا على وجوه أفرادها أن أغلبهم أصيبوا أثناء التدريبات أو في معارك سابقة خاضوها، فبعضهم كريم العين، أو شرمت أنوفهم إلى فلتتين، أو طار حواجبهم، فبقي من أثر ضربات سيوف باشطة طعجات لحم مندملة أسفل الحاجب السابق، ومن تبقى منهم له ندوب كثيرة في وجوههم بدت كأثار طعنات سكاكين أو مرت عليها شفرات نصال حادة، وكانت أذرعهم العارية موشومة بصور لها هيئات جماجم ورؤوس مقطوعة وأذرع مبتورة وخيول تقف على قوائمها الخلفية.

ببطء درجتُ عربة أمير الأمراء. كانت أخشابها قد غلفت بصفائح الذهب، فلصفت عليها أشعة الشمس، وفوق هيكل العربة، فأثار كل ذلك اللمعان في نفوس المشاهدين الرهبة من السيد الذي يستقلها وعلو درجته في الدولة الأموية، وكانت العربة تجرها ثمانية جياد رومية غليظة، متسعة الأرداف، وظهر أمير الأمراء من فتحة ستارة العربة وهو يحيي أهل حلب وقد تمنطق بلامة حربيه وشرائطه المذهبة والتقت عيناه بعيني، ونظر صوبي مذهولاً وهو يتفرسني والعربة تمرُّ قربي، فاندهشت غاية الدهشة، وتمتمت أسأل نفسي : "أهذا هو صاحبي في السفر سبهان الشامي التاجر؟"

ورددت على نفسي " نعم أنه سبهان الذي صاحبني في قافلة دمشق قبل أن يغيروا إلى قافلة متجهة إلى حلب وفي اللحظة ذاتها، التي لمحني فيها الأزدي،

ويبدو انه ما صدق عينيه أول الأمر، لكنه بعد لحظات أمر حرسه وسائس عربته أن يوقف العربّة وما أن توقفت حتى ترجل من عربته ليحييني .

– يا صاحبي مرحباً بك في حلب.
وبادلتة التحية وتعانقنا وسمعته يتمتم:

– هكذا هي الحياة وداع ولقاء على غير توقع، وما تدري النفس ماذا يخبيء لها القدر. سبحان الله
وسألني: أين تقيم الآن ؟
ولمح زوجتي وأختها إلى جوارِي، فقال مستدرِكاً:
– يبدو أن معك عائلتك.
– نعم زوجتي وأختها.
– في أي خان تقيمون؟
– في خان الشونة القريب من سوق حلب.
توقف الموكب العسكري بتوقف قائده، وقال الأمير وهو يعود إلى عربته:
– ستكون ضيفي أنت وعائلتك، سأبعث لكم من يصطحبكم إلى قصري.
وحياتي وهو يصعد إلى عربته وسط فرسان حمايته المدججين بالسلاح تحية عسكرية على الطريقة الرومانية بضرب الصدر بالذراع، فقلت في نفسي "ما هذا هل عادت روما تحكم الشام بعد التضحيات الكبيرة التي قدمها المسلمون في سبيل تحريرها منهم؟" ورأيت إلى الجنود الذين تمترسوا بالدروع ووضعوا على رؤوسهم وأجزاء من وجوههم شبكات الحديد وفوقها ما يغطي الرؤوس من قبعات البرونز، والتي زينت نهاياتها بريش نعام طويل ملوّن يُذكر بالزّي العسكري الروماني، وأردت أن أهتف بأعلى صوتي "يامسلمين لا يزال هرقل يحكم هذه البلاد" ولكنني صمت على مضض وألم وقلت في نفسي "سيقتلني هؤلاء الرعاع المارون في السوق لنداء أحرق مثل ندائي الذي نويته بمركوبات أقدامهم وليس بسيوفهم ورماحهم، وسيعتبرون قتلي جهاداً في سبيل الله ورسوله، وسينالون ثوابه في جنة الخلد، حورياتٍ وأنهاراً من الخمر والعسل، فالناس شئنا أم أبينا على دين ملوكها.

13 ربيع الأول 39 هجرية

"من مات ولم يكن له أعمال خير فهو لم يعيش دنياه ولا يُسر بآخرته"

الهفاهف الراسبي

عندما رجع سيدي الهفاهف من السوق في ذلك اليوم وامتنع عن القيل والقال، وأراد الصلاة، وكنت أصلي فلما رأيته قادماً نحوي تنحيت له عن بعض المجلس، فقال لي هامساً: أنت أحق مني بموضعك القريب من الله أخي مسعود، لا أقام الهفاهف بموضع يُصلي العصر فيه قصراً إلا عند أقدام المصلين. كانت زوجته شهزاد تصلي خلفي، فلما فرغ الهفاهف من صلاته، حتى رجعت إلى مكانها، وحرك الهفاهف رأسه لها محيياً، فرأت قلقه وارتجاف أصابع كفيه مما صادف رؤيته في سوق حلب. فقالت:

- على رسلك يامولاي، الحمد لله وصلى الله على محمد وآله، أنت قلق ومستاء يا مولاي مما رأيت في استعراض الأمويين، أنني امرأة غريبة عن أرومتك، ولا والله ما ركبت مركباً هو أصعب عليّ من رؤية قلقك من هذا الأموي الذي تعرف عليك!! وظهر لك أنه من عليّة قومه، ومن مدبري زمام ديوانهم، ولم يكن يجول في العراق وحواليها إلا وقد بُعث دسيسة من قبل شيوخه لأصحاب أمير المؤمنين ومريديه وأبرز رجاله، وأنا والله لا أعرف شخصك، فخبّرني بما تحب أن أفعل إذا حدث مكروه لك لا سامح الله، فأفعله بإذن الله حتى لو طلبت مني أن أقتل من يصيبك بأذى. أخبرني بما تكره مني في غيابك لأزدجر عنه، وما تحب أن أعمله فأعمله، أقول قولتي هذا وأستغفر الله لي ولك، فقال سيدي الهفاهف لها:

- الحمد لله في كل حال وصلى الله على محمد وآله، أما بعد، فقد قدمت خيراً مقدم، وأحسنّت، فقد كنت خير النساء وأعطفهن وأبرهن بأزواجهن، فأنت مع رجل هو سيد قومه، وأنت إن شاء الله سيدة نساء قومه تأخر زمن ذلك أو تقدم، وقد عشت معك كل أيامي بسرور، وأنت والله فضل من الله تفضل به عليّ، وقد حفظ الله بك سلالتني من العدم، وقد حملت ذريتي، وستلدينه لأراه شاباً قوياً يعيد

لأسرة الراسبي مكانتها ورياستها على قبيلتها والقبائل التي تجاورها كما كانت دائماً.

فقال:

- أن المرأة لا تكون أسوأ منها خلقاً إلا في حالتين، إذا ولدت غلاماً وحظيت وقتها عند زوجها بالخطوة الكبرى، فأسأت استعمال تلك الخطوة، وفي الحالة الثانية إن ترى سيدها في محنة لا منجى منها ستنتهي بتلفه، فتعتمد إلى التشكيك في موقفه الذي أدى به إلى هذا الموقف الخطير، وتبدد ما بقي في نفسه من شجاعة وقدرة لمواجهة تلك النهاية بشكل مشرف له. فأرجو من الله تعالى أن لا أكون إحدى هاتين الأثنتين، فكل واحدة منهما أسوأ من الأخرى. فلا تخف يا سيدي الهفهاف أنك على حق أن عشت، فأنت سيد في هذه الأرض وإن مت، فأنت سيد في السماء، وذكرك في الأرض سيدوم طويلاً، فتصير كالعائش بعد أن يخمد ذكر من عاشوا وماتوا، والله لا يخذل أمثالك ممن يكرمون ضيفهم ويسترون عيوب غيرهم، ويحسنون الظن بالله، ويساعدون الغرباء، ومن كان مثلك لا يُخزيه الله لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وسمعت الهفهاف يجيبها:

- الحمد لله يا شهزاد كملك الله بعقلك وتفانيك من أجل حليتك، وجزاك الله خيراً. إن جاءني في الصباح تخترون الأموي فلا تجزعي!! و عليك بذلك السقط، الذي فيه متاعي ومالي، فحافظي عليه، وأنفقي منه ما يعيدك وأختك ومسعود إلى العراق، وأذهبي إلى صاحبي أبي علي الحسين في الكوفة وأبليغه سلامي، وقولي له، أن الهفهاف بقي على الوعد والعهد معك حتى غلب الله أمره، وأن لنا لقاء آخر في مكان خير من هذا المكان إن كتب الله لي العفو والمغفرة. بلغيه رسالتي وأمضي في شأنك وما تحبين، فهي الحياة، والحي له من المعاش ما ليس لمن ذهب إلى رحمة الله.

وفي الصباح ما أن ارتدى سيدي الهفهاف ثوبه الأبيض ووضع عمامته الصفراء على رأسه، وهي العمامة التي يدخرها لمقابلاته المهمة لأصحاب الشأن، حتى علا صوت صفق حديد اليد، الذي يستخدمه سعاة البريد في حلب للتمييز من أن لصاحب الشأن رسالة، وعليه أن يقبل لإستلامها.

كانت ثياب السعاة في حلب تشبه تلك التي يستعملها السعاة في العراق، والكثير من المدن الأخرى، التي فتحها المسلمون، ولكن سعاة حلب كانوا يضعون على رؤوسهم قبعة من الكتان الأخضر للإشارة إلى أنهم في دولة

أخرى، دولة أموية!! وكانت رايات الأمويين من الكتان الأخضر، والقليل منها رايات بيضاء كتب عليها " نصر من الله وفتح قريب" رأيناها في كل المعارك والمناوشات التي دارت بيننا وبينهم في صفين، والغريب أن تلك القبة تشبه ما كان يرتديه سعاة البريد الرومان عندما كان الرومان يحكمون بلاد الشام ولكن بلون أحمر، واستغربت وصول رسالة لي في هذه المدينة، وأنا لا يعرفني أحد فيها، ولكن زال عني عجبني حين أخرجتها من غمدها وفضضت ختمها الشمعي، وبصمتُ للساعي بالإستلام، لقد كانت رسالة من الأمير سبهان الأزدي القرشي، أمير أمراء حلب والسبعين قرية حولها، وفيها ذكر المرسل موعد اللقاء به، والرسالة هي أيضاً للسماح بمروره إلى قصره في القلعة الرومانية السابقة، التي أقيمت فوق تلة عالية تطل على حلب، والتي يمكن رؤيتها من جميع الأماكن من حلب وحواليها، وممن يسير عن مركز المدينة عدة مراحل من السفر وأراد العودة إلى ما كان فيه، ولكن الساعي أخبره أن له رسالة ثانية قادمة من العراق. فتعجب غاية العجب، واستلم الرسالة الثانية وبصم للساعي بالإستلام وثبت تصحيح بصمته بختمه، وأنقد الساعي بضعة دريهمات بيزنطية، فدعا له الساعي بسعة الرزق وعلو المرتبة.

وفض سيدي على عجل الرسالة الثانية، فعرفنا منه أنها قادمة من السبابخة من ابن عمه بشر بن المفيد، وموقعة في ولاية البصرة قبل شهور ومختومة بختم بريدها، ومذيلة بمكان فج الساكنة، بالسبابخة، وجاء فيها كما قرأتها بعد أن قرأها علينا، فقال:

- بسمه تعالى، ابن عمي الحبيب إن كنت حياً، فالحمد لله، فقد نعاك لنا أحد الشباب من بدو الصحراء يدعونه في السبابخة "عبر الأعضب" وقد كذبناه، وفي سري حزنت جداً لهذا الخبر الأليم، فإن كنت كما ذكر هذا البدوي، ولأظنه أحد قطاع الطريق الذين بعثوهم في أثرك، وفي كلامه ما أكد لي أنه رآك فعلاً، فقد وصف لنا شكلك، وذكر طولك وشعرك الكثيف الذي يميل للشقرة، ووصف خادمك مسعود بكل صفاته التي نعرفها، فالرحمة على روحك الطاهرة، فقد أبليت في هذه الدنيا، وغادرتها ولا تزال ذكراك عطرة لدينا في السبابخة بمحاسن الأفعال، وكثرة الحسنات، وجمالك على أهلك وأصحابك، وإذا لا زلت حياً ورواية هذا الأعضب كاذبة وهو كذاب أشر كغيره من صعاليك البادية، الذي قرضت كفه ضباع الطريق كما يدعي، ولأظنه كان كاذباً، فالذي قطع كفه بهذا الشكل المستقيم يبدو لي سببه حد سيف باشط لا قرض أنياب، ولو كان كذلك

لجاء القطع مشروراً، كما فعلت قواطع الضباع بكثيرين ممن وقعوا ضحايا لها من أهل السبابة أثناء صيدهم وقنصهم في البادية في مواسم صيد الغزلان والقنص الطير بالصقور المدربة والنشاب كل سنة، ولك العمر الطويل يا ابن عمي، وسأكون أسعد الناس بنجاتك.

عرفنا من هذا الأعضب كذلك أن نفر الذين حذرتك منهم قد بلغوا غايتهم منك ونجحوا في مهتهم الخسيصة!! ولكن كما يقول أنك قبل أن يقضوا عليك القتلة قضيت على اثنين منهم، وعالجك الثالث اللعين غدرًا بطعنة رمح قضت عليك، ونجا اللعين بفعلته.

حزن بسبب هذه الأخبار المؤلمة فقراء السبابة وعبيدها وأقاموا لك معزى وذبخوا فيه جملاً جمعوا ثمنه بينهم أما سادة القوم، فقد فرخوا بأخبار مصرعك وبقاء والدك المهند في أسره لدى الأمويين!!

وأكدوا أن المهند شيخ الأعمشة السابق هو الآخر ستأتي أخبار هلاكه قريباً مثل ولده الأحقق الهفهاف!! الذي سار إلى حتفه بقدميه، ولتأكيد فرحهم بأخبار الأعضب النحس، زوجوا أولادهم، ورقصوا في أفراحهم تشفياً بمصرعك وانقطاع نسل المهند الراسبي، واعتمدوا خدمهم من الهنود في طبخ وليمة كبيرة بالمناسبة، ووزع على الحاضرين لحم الجمل مع ثريد الشعير والبن الخاثر، ولا أكتمك شيئاً مما دار بالرغم من فظاظة ذكره، أن أعمامك استأثروا بأملاكك وما ترك أبوك!!

وكان أكثر أهل السبابة فرحاً بأخبار مصرعك هم أعمامك الخالص، قاتلهم الله وقاتل لؤمهم، وطمعهم، وذكر محدثهم ملقياً الحجة عليك، متعللاً، بخروجك، فقالوا: من تغرب عن بلاده قل مقداره وسهل كسره. ولم يلم أحد منهم نفسه أو تساعل لماذا خرج الهفهاف تاركاً أرضه وأعمامه ومواطن ذكرياته؟ فقالوا مختصرين الجواب: غوى فهوى. وهذا مصير من تقوده الغواية لنبذ أهله وأصحابه!!

أما بعد فقد زادت الرثاثة في خطاب شيوخ الأعمشة، وصار حديثهم قبيحاً لا أطيق سماعه، وأغلبهم كان متطلعاً للزواج بما أمكن من فتيات القبيلة ومن خارجها، فهم يختارون صغيرات السن، كأنما أصيبوا بسعار النكاح الذي لا شفاء منه، فهم بما ملكوا من غنى حديث اندفعوا لشراء الجواري الفارسيات، الفاتنات وفضلوهن على أمهات أبنائهم ذاكرين أن نسائهم تذكرهم بعنثرة العبسي وفرسان بني شيبان، لما في وجوه أولئك الفرسان من دمامة وأمراض

جلها مما يخلفه الجذام والسرسام من تهتك للبشرة وتغيير للونها الرباني. ولن أضيف لقسوتهم إضافة حين أذكر أنهم اضطهدوا الهنود الذين حلوا قبل سنوات قليلة في السبابخة والذين يعملون بعرق جبينهم في مستنقعات الملح، ويعيشون بشرف مما تدره عليه أعمالهم من استخراج الملح وبيعه ويعيشون عيش الفقر والكفاف، وقد تحول عدد كبير منهم للعمل في أرض شيوخ السبابخة كالشيخ السالم، والرويض والمبخوتي، وغيرهم.

السبابخة هي اليوم غيرها يا هفهاف، فإن قدمت يوماً فلن تعرفها، فهي ليست كما كانت، ففقراؤها تركوها وتوجهوا إلى أطراف البصرة والأبلة المدينة الجديدة ونيوى بظاهر الكوفة حيث الأعمال ميسرة والأرزاق كثيرة. ماذا أكتب لك يا أخي العزيز، فأنا افتقدك كثيراً، والسبابخة ودروبها وبساتينها تفتقدك، فهل يطيل الله بي العمر لأراك ثانية واستمع لحلو حديثك، وأفرح بعطايك وكرمك؟

أعلمني برسالة حالما تستلم رسالتي، وأرجو أن تكتب لي فيها أخبارك وفي أي أرض من أرض الله الواسعة تعيش؟ وهل حققت هدفك بإطلاق عمي المهند الراسبي من أسره لدى الأمويين؟ وهل لك عودة قريبة لك، ولنا أمل خيراً بمقدمك سالماً غانماً بإذن الله تعالى.

وفي ختام رسالتي ادعو الله لك بالسلامة، والصحة والسعادة. وذيل ببصمة بشر بن مفيد الراسبي الأعمش البصري، الرسالة وكتب على ظهرها مدشر رأس السبابخة.

بقيت كلمات بشر في رأسي تتردد وأنا استقل تخترون أمير الأمراء لاصطحابي إلى قصره عصراً، والعربة يحيط بها أربعة فرسان شاكى السلاح والدروع، ويجر التخترون أربعة خيول، وكل ما في العربة مزخرف بزخرفة رومية مطلية بماء الذهب. ويستطيع تمييز فرادتها أي عابر سبيل، وهي تدرج على الطرقات المرصوفة بالحجر، فيفسح الطريق لمرورها، وفي مقدمة التخترون آلة تزمير تعمل بالضغط على دواسته، فيخرج منها صوت عال!! ينبه المارة للابتعاد عن طريقها، وكلما زادت الخيول من سرعتها زاد توتر السيور الجلدية بين العربة، ومربطها المعدني عند أرداف الخيول، فتطرق مطرقة أخرى على وعاء معدني، فيصدر صوت رنين عال يخيف من العربة، فيفر العابرون عن طريق العربة الأميرية، وإن كانوا على بعد مائة متر عنها!!

لشدة الصوت ودويه العالي، الذي يبقى يتردد بين جنبات الدور والبنائيات التي تمر قريباً منها.

قلت في نفسي "هذه طريقة في فلسفة الحكم، وليس في الأمر نزوة طارئة باستخدام هذه التخترونات المرفهة، التي يزعج مرورها المدوي الناس. يقول الحاكم في كل لحظة من خلالها لرعيته، أنني موجود وأنا حاكمكم، أبي من أبي ورضي من رضي. فهي تحمل رسالتين، الأولى التي ذكرتها، والثانية هي إشعار من يستقلها، أنه فوق هؤلاء الرعية مرددة له "إنك أفضل منهم" مذكرة بقيادة الرومان، ومن كان يتولى أمور الحكم منهم على البلدان التي احتلتها جيوشهم، وتساءلت: "أين أنت من كل هذا الترف يا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، لقد أراد الأمويون بعث رسائل إلى الرعية التي تحب المظاهر، ولا تنظر إلى جواهر الأشياء، ولا تعيرها اهتماماً. هؤلاء على رسل آبائهم وأجدادهم. أتذكرُ بغلتك يا مولاي يا ولي الله، فيزداد اعجابي بك وتواضعك، فضحت كل الحكام، من سبقك ومن يتلوك، بزهدك وورعك وعدلك وكل من لم يذعن لوصايا الرسول وأولها أنك وصيه وخليفته من بعده !!

سارت العربة على طريق ملتوٍ حول تلة عالية يربض فوقها بناء شامخ سقوفه من القرميد الأحمر، وأسواره عالية، وله أبراج عديدة عليها حراس، ونبتت على سفوح التل أشجار مثمرة لليمون والبرتقال، وبينها داليات وسقائف لأشجار العنب وأثمار أخرى لا يمكن تمييز نوعها.

وعند كل دورة للعربة حول التلة، تظهر لنا نقطة للحراس، وآراهم وهم يقفون عند بابها، بملابسهم المزركشة وخوذاتهم السود وخيמתهم السلطانية التي ثبت فوقها علم الأمويين الأخضر، وتتوقف العربة عند كل نقطة ويظهر لهم سائق العربة ورقة السماح لنا بالمرور. زداد عجبي لحظة بعد أخرى لكل هذه الاحتياطات لواحد من أتباع معاوية !! وتساءلت مع نفسي، بماذا أقارن تواضعك يا ابن عم رسول الله علي بكل هذه البهرجة والاحتياطات لتابع من أتباع معاوية؟ أيحكم عليك التاريخ يا ولي الله وعليهم، بنفس القدر المتساوي كنديين تخاصما وتحاربا على خلافة المسلمين؟ وأيكما أفضل لأي عاقل يحكم بالحق؟

والله عيب على الزمان أن يقارن بينك وبين هؤلاء، يا ولي الله !! لولاك يا علي بن أبي طالب لما عُرف هؤلاء إلا كبقية من بقايا أخلاق وسياسات هرقلية بائدة، أو ربما يطلق عليهم أنهم كانوا من مسلمي الشام !! كناية عن قرب

عهدهم بالإسلام وشرائعه. نعم انتصر المسلمون في الشام على الجيوش الرومانية، وأخذ المسلمون دمشق، ولكن الجيوش المنتصرة لا توصل في العادة رسالة، ولا تشيع عقيدة، وستبقى تلك الأمة التي يحتلها جيش المسلمين أمام تقلبات التاريخ، فكم من خذلان عسكري صنع هبة في نفوس الخاسرين، ليصنعوا نصرهم في قابل الأيام؟.

وفي بوابة القصر استقبلنا ثلة من الحرس، وفتحت لنا بوابة ضخمة جرتها سلاسل ضخمة يدير عجلاتها الضخمة عشرة عبيد من مفتولي العضلات العراة إلى وسطهم، وعملهم هذا يحتم عليهم كما عرفت من سائس التخترون العري صيفاً وشتاءً، مهما اشتد البرد ونزل الصقيع فوق رؤوسهم !!

وهذا تقليد روماني قديم، لإظهار هيبة وهيمنة ملوكهم، وقد اخترع العبيد حيلة ذكية، تمنع عنهم البرد أو حرارة الشمس بدهن جلودهم بزيت الأركان، المستخرج من صمغ أشجار جبلية، فهم بعد وضع الزيت على جلودهم لا يشعرون بحر أو برد !! وتلك الزيوت تذهب الحس من جلودهم فلا يشعرون بوخزها طوال نهارهم، ومن يقع نظره على هؤلاء العبيد ممن يزورون قصور ملوك الرومان وقصور قوادهم، فتقع الهيبة في نفوسهم من أصحاب تلك القصور.

كانت طرق القصر منحوتة في الصخر، ومرصعة بالرخام، والفسيفساء والأحجار المجلية. حمرٌ وخضرٌ وصفراً وسودٌ، وحولها أرض مزروعة، وعلى واجهة القصر وبوابته نحتت وجوهاً من خشب الأرز لمريم العذراء، وقديسين، ويبدو أن كل ذلك مما تبقى من تماثيل الرومان ومن صنع فنانيهم، قبل أن يبدل الله تلك القصور بملاك غير أصحابها ومن أشادها، وفي كل عطفة من الممر قبل الولوج إلى بناية القصر الرئيسية كان الحرس بدروعهم ورماحهم وسيوفهم بوضع الاستعداد للقتال، وكأنهم في ميدان معركة، وكلما اقتربنا من البوابة الرئيسية تعالت أصوات، قادمة من حدائق الطيور بمختلف أنواعها المقامة حول البوابة وقريباً منها، لتعطي الداخل للقصر شعوراً بالألفة والفقامة والتهيب عند ولوجها، وقد أقيم البهو الذي دخلنا إليه على أعمدة اسطوانية عديدة، محاطة بالرخام الأبيض الناصع البياض الصقيل.

وفي البهو شاهدت مجموعة كبيرة من أهل حلب ينتظرون دورهم للدخول على أمير الأمراء لقضاء حاجاتهم، أو للتزود بموافقة ما لقضاء حاجاتهم، أو للشكاية على عامل من عمال أمير الأمراء، أو لدفع مال لتمشية مصلحة ما،

ولم يتركني الحاجب أنتظر طويلاً، فأدخلني إلى مجلس أمير الأمراء، فإذا هو صاحبى التاجر الشامي، الذي تعرفته في إحدى محطات الطريق إلى دمشق، قبل أن أغير اتجاه سيري إلى حلب.

شاهدت سبهان الأزدي القرشي بالمجلس الكبير على سرير الإمارة، وحوله قادة جنده ومستشاروه، ورجال دين من المسيحيين بصلبانهم وقلنسواتهم، وأصحاب عمائم من فقهاء الجوامع وشيوخها، ووقف بجانبه جندي ضخم الجثة يتزمل سيفاً عريض النهاية، وقف خلف أمير الأمراء، خانعاً ورأسه منحني وعينه تنظران إلى الأرض لا يرفعهما إلى وجوه الجالسين، فألقيت التحية على الجميع بعد أن أعلن حارس التشريفات اسمي وعملي ومن أي بلد قادم، كنت متوتراً، وقد رأيت مصيري معلقاً برهافة ذلك السيف عريض النهاية، الذي سينطع به رأس أحد أصحاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ولفرط غبائه جاء بقدميه إلى وجر الذئب!! ولكن الأزدي قام من سرير حكمه مرحباً بقدومي إلى مجلسه، ماداً يده لي بالتحية، وعلى وجهه قرأت لهفة وحفاوة كبيرة:

— مرحباً بك أيها الكريم البصري في حلب.

— أهلاً بك.

تعانقنا وسمعته يردد وابتسامته لا تفارق شفثيه:

— للقدر خطته في رسم الحظوظ، وما يكون لنا ومن سنلتقيهم.

وأشر بيده لجميع الحضور بالإنصراف، وأفسح لي مكاناً إلى جواره.

عقدت الدهشة لساني، وتساءلت مع نفسي: " أهذا إغواء الشيطان!! لكسب تأييدي لمعاوية، والأمويين، كما فعل من قبل معي وفشل؟ وقلت مع نفسي " لولا أسر أبي لما قدمت وجرُّ الأمويين، ولكن لله ما أراد وما قدر!!" وجلست في المكان الذي فسح لي فيه للجلوس، ورأيت يوشر لحارسه أن يذهب، فتركنا وخرج، قال مرحباً:

— كيف أحوالك؟ — ثم أكمل — لا تدهش من كوني أميراً للأمراء، وليس تاجراً

شامياً، كما عرفت عني من قبل، ففي دولة بني أمية نتبع ذات الأساليب والطرق في إعداد القادة والأمراء في الدولة، فلكل من وصل شأواً في الجيش عليه أن يمضي بين ستة شهور وسنة في رحلة في ولايات غير خاضعة لدولته، لمعرفة استعدادات العدو، والأطلاع على ما يدور في ضمائر رعايا تلك الدولة المعادية، والتعرف بشكل شخصي على قادتهم وكبرائهم، لمعرفة ما يعدون وما يفكرون

به، فالفكرة آخر العمل كما تعرف، وعلينا أن نعرف هل من الممكن أن نستميل إلى صفوفنا عدداً من قاداتهم، وأعطاء الدلالات لرسم الخرائط التي تفيد قادتنا في تحريك الجيوش عند الزحف على تلك الدولة، والتعرف على شيوخ القبائل التي تمر بهم قطعنا عند التقدم في أراضيهم، لضمان ولائهم، ولكي لا تقع جيوشنا المتقدمة لما يشوش عليها خططها في دحر جيوش العدو، أو ما يعرضها لفقدان خسائر لا مبرر لخسرانها، وبعدها نعود إلى الشام ونكتب لأمرير أمراء الجيش ما رأينا وما صادفناه، وما عملناه في أرض العدو ووجهات نظرنا في كل ما مرّ بنا من أحداث في الرحلة، ليرفع كل ما ندونه إلى البرجمان الحربي العام للدولة، لإطلاع أعلى مراتب الجيش وقادة البلاد ليستفيدوا مما أفدنا به من معلومات ووصايا ووضع خطط الحرب في ضوء ما جاء فيها. ثم صمت قليلاً وعلى صوته غاضباً: لعن الله الحروب ومشعلتها، فليس فيها إلا الموت والخراب، والفقر والضعينة!! فقلت دون أن أظهر عجبي مما يقول:

— هكذا كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولو بشكل أقل تعقيداً مما ذكرت!! وهو صاحب المقولة الكاسبة دائماً في المعارك " الحرب خدعة!!" ولكن الأزدي قال معترضاً:

— وأين ذاك المثال مما نفعل.
فقلت: وما الفرق كلها حروب. ويحكمها مبدأ الفوز والخسارة.
قال ضاحكاً:

— الفرق يا أخي أن البشر تغيروا!! ولم يبق من أولئك الغر المحجلين أصحاب الكلمة والموقف المشرف ما يعول عليه، فالدنانير الذهبية يمكن أن تغير ولاعات أشد الأعوان وأكثرهم إخلاصاً لقاداتهم، وتجعلهم دسائس في جيش أعدائك.

وأشر لخادمه طالباً منه أن يسقينا شراب عرق السوس. وتابع قائلاً:
— كبرت في عيني يا أخي في ذلك الموقف الذي انتخيت به لأجل أولئك الجاريات الفارسيات، فقلت في نفسي يوماً " هذا الرجل، الذي يمكن أن تصاحبه، ولا يرّف لك جفن ولا تخاف منه على حق من حقوقك كصديق، ونديم، ومكانك منذ اليوم معي في حلب، وفي أي مكان أذهب إليه ستذهب معي، فمثلك لن أجد مثيلاً له مهما بحثت!!

— جازاك الله خيراً على حسن ظنك بي يا أمير وأطال الله في فعمرك. فأنت من معدن طيب صقلته الأيام وأنضجته التجارب، وصحبتك لا ريب ثروة لا تعادلها كل خزائن الأرض.

رد عليّ الأزدي بخجل:

— كل هذه المجاملات يرددها الشعراء وطلاب الحاجات، لكنني لا أقبلها منك، لأنني بالفعل محتاج إلى رجل مثلك كريم وشجاع وصاحب نخوة وفقه. ممن عرف أخبار صحابة الرسول الكريم وتعلمذ على فكرهم، وقراءاتهم، وله أخلاق أهلنا الأولين في الإسلام.

وقال لي هامساً:

— أتعرف ابن من أنا؟

فرددت ما يقال، حين يطرح عليك سؤال بهذه الصيغة لتطيب خاطر من يسألك:

— ابن أب كريم وجد كريم .

— هذه مجاملة أخرى يا أخي، فأنت لا تعرف أبي ولا جدي.

ثم سمعته يتنهد بعمق ويكمل :

— أنا ابن سلمة بن سلامة بن وقش، الغلام الذي التقى الرسول وأسلم شاباً يافعاً، وكان يحضر مجالس عمومته بني أمية في قصر الأفراح لمعاوية بن أبي سفيان، وكان لا يرضى عن كل شطط لا يتطابق مع ما جاء به القرآن ورسول الله وينهي بني قومه عن فعله !! وعندما أكثر بنو عمه وأعمامه اقتراح الأفعال القبيحة على معاوية، فكان والدي يرحمه الله يشدد عليهم القول، وينهاهم بكتاب الله وأحاديث الرسول والصحابة، فرأى معاوية، أن ذلك النهي واللوم والنصيحة لا تصب فيما يريد ويفت في عضده في قتال علي بن أبي طالب، فقال له في مجلسه العامر بوجوه بني أمية:

— يا ابن أخي هي الدنيا، فأما ان ترضع معنا أو تعترلنا !!

فشعر أبي بالأهانة ورأى لحي وجوه القوم تهتز من الضحك شامتين بما ناله من تصغير وتحقير من قبل خليفتهم، فترك المجلس واعتزل قومه في بيته حتى وافاه الأجل حسرة وكمداً، مما كان يسمع من ظلم وقبائح تقترف بأسم الإسلام.

هذا هو أبي يا أخي الهفهاف. وأنا كما ترى أظهر لعلية القوم من الأمويين عكس ما أبطن حتى نلت أرفع الدرجات وفي نفسي الكثير مما عاناه والدي من ظلم بني أمية واحتقارهم له !! ولست الوحيد من بين بني أمية من هم على

شاكلتى، ونحن نتحين الفرصة حتى نعدل ما أعوج ونوقف دماء المسلمين المستباحة ونزيف أموالهم، وتوحيد الأمة على ما جاء به رسول الله. استمعت لكل كلمة قالها سبهان وأشرفت في روعي أنوار الأمل، فالقلوب إن أثارها الصفاء سعدت النفوس وابتشرت الأبدان، وتوقعت العقول مجيء الخيرات والألطف، وتبدلت الأمزجة من التحسب والخوف والظن الخاطيء والقلق مما تجيء به الساعات والأيام من الحزن والقلق صوب الفرح والسعادة، وتوقع ما لم يكن متوقعاً قبل لحظات قليلة، وأكمل الأمير، الذي كان ينظر أنفراج أساريه وابتسامه الرضى ترسم على وجهي:

- روى أبي يرحمه الله أنه لقي رسول الله عندما توجه مع صحابته إلى معركة بدر في منطقة تدعى الروحاء رجلاً، فسأله صحابة الرسول عن أخبار قريش وجيشهم، الذي كانوا يتوقعون وصوله لحربهم، فلم يجدوا عنده خبراً، فقالوا له: سلم على رسول الله، فقال: أوفيكم رسول الله؟ قالوا نعم، فقال حين شاهده: إن كنت رسول الله فاخبرني ما في بطن ناقتي هذه؟ فإجابه أبي يرحمه الله، وكان وقتها غلاماً حدثاً: لا تسأل رسول الله، أنا أخبرك، ففي بطنها سخلة منك!! فقال رسول الله: فحشت على الرجل يا سلمة، ثم عرض رسول الله عن الرجل، فلم يكلمه كلمة حتى قفلوا إلى المعركة واستقبلهم الناس بالروحاء يهنئونهم، فقال والدي للرسول الكريم: يا رسول الله، ما الذي يهنئونك عليه؟ والله إن رأينا إلا عجائز صلعاً كالبدن المعلقة فنحرنانا!! قلت:

- يرحم الله أصحاب الرسول، وجعلهم في جنات الصالحين. وبدت أمارات الحزن على وجه سبهان، وقال بصوت خفيض:
- لو تعلم شدة حزن أبي لسماعه بالباطل الذي يفعله بنو أمية بالرغم من اعتزاله أهله وقربته. إذ ما أن نهره معاوية في ذلك اليوم في مجلسه حتى قلب له الناس ظهر المجن، وأخذ يتحاشاه أقرب المقربين إليه، وتبرأ منه إخوته وأعمامه وأقرب معارفه إليه، تودداً لمعاوية ولشيوخ بني أمية.

كلهم يا هفاهف من عبيد السلطان والمال، هؤلاء عبيد للدينار والدرهم وليس عبيداً لله كما يدعوون في كل يوم خمس مرات في صلاتهم!! ورأينا أبي، الذي كان في أتم صحته قبل هذه الحادثة يزوي يوماً بعد آخر، لقد أصابه معاوية في مقتل، فالكلمة الدنيئة التي توجه للأحرار قاتلة، وكان أبي يردد حين يخلو بنفسه ساجداً لله آيات من القرآن الكريم، ويدعو بعد ذلك فيقول: شاهدت اللحي

تهتز من شدة الطرب على ما وجهه لي معاوية من نهر شديد والطلب مني الكف عن المجيء إلى مجلسه بعد يومي ذاك إلا أن أرضع معهم من هذه الدنيا، اللهم فوضت أمري إليك وأنت السميع الخبير بعبادك.

ولم تطل أيامه بعد هذه الحادثة غير شهر قليلة، ووجدناه بعد ذلك في فراشه ميتاً وابتسامة ظاهرة على شفثيه، لم نر أجمل منها، يرحمه الله برحمته الواسعة. هذه هي قصة أبي هفهاف، وهذه هي فجيعتنا به، فهل أنسى ما حدث؟ وأبرىء المجرمين مما صنعوا؟ أولئك الذين تحول شعارهم إلى ماهو أقسى من السخرية، فصار من تكلم بغير مدحنا قتلناه ومن صمت على غيظ مات بدائه !!

وردت:

- ألهمك الله الصبر والسلوان.

وأكمل سبهان القرشي:

- لم أرو لك ما حدث لأبي واسرتي من دون غاية، بل لي غاية وهدف من ذلك، فاسمعي يرحمك الله.

فأنصت بكل جوارحي إلى ما يريد قوله:

- نحن مجموعة من خير شباب بني أمية من جيل لم يرضع الأحقاد والكبر، ولا يتذكر ما حصل للأجداد من تنافس وغلبة. تعلمنا فقه الإسلام ووجدنا أن دولة المسلمين تتحول إلى هرقلية جديدة، وملوكها نسخة جديدة من ملوك الفرس والرومان وفراعنة مصر، وقد اجتمعت كلمتنا على أن لا حق فيما فعله معاوية، وأنه خسر آخرته في سبيل أن يربح دنياه !! (وصمت قليلاً ليسترد أنفاسه، فقد كان التعبير عن مكنونات صدره يتعبه، ويجعل العرق يتفصد من جبينه) وأكمل:

- لذلك فنحن نريدك مبعوثاً للسلام لخليفة المسلمين علي بن أبي طالب، لتوحيد أمر المسلمين تحت راية لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فلا نقول وقت الأذان كما يفعل معاوية حين يسمع الأذان للصلاة " دفناً دفناً .." وهو يقصد ما يقصد، ونحن نعرف صداقتك للبيت الهاشمي، ودالتك عليهم، وكنا نعرف أنك ستأتي قريباً إلى دمشق لافتداء والدك "المهند الراسبي" من الأسر، بعد أن أندملت جراحه التي أصيب بها في معركة صفين.

تهلل وجهي بالفرح، وقلت له:

- والله يا أخي هذا الكلام يفرح القلب.

صمت الأمير لحظات ثم أكمل:

— أكتم هذا الأمر يا هفهاف حتى يتم لنا الأمر كما خططنا له بـتروٍ وسرية!!
لتحقيق ما نسعي إليه منذ مدة بخطة مفصلة، لعزل معاوية وآل بيته وكل من
والاه من كبار القوم عن محيطه الأموي، وأبعاد من يؤثر في قرارات الحكم
وشؤونه عن مراكز القرار في الولايات المختلفة، فلا يبقى في الساعة
الموعودة من فعل غير ما نراه في صالح الأمة ونشر الإسلام في بقاع الأرض
بغير قتال بل بنشر شرع الله سلماً وبالكلمة الطيبة وإبراز المثال في الحكم
الرشيد لباقي الأمم فترى الأمم البعيدة والقريبة عدلنا وأحساننا ورفاه رعيتنا .
فقلت صادقاً:

— هذا والله عهد عليّ أن أكتم ما أسررتني به، حتى يفعل الله على أيديكم ما هو
في خير المسلمين، وأن الله على كل شيء قدير.
ثم ترك سبهان مجلسه وأخذ ذراعي بحنان أخوي، مصطحباً أيّ للقسم على
القرآن الكريم لحفظ سر ما أخبرني به، وعلى تحقيق الهدف الذي من أجله
تسعى مجموعته.

كان كتاب الله مفتوحاً فوق مسنده، وقطعة قماش خضراء اللون تغطيه وتحيط
به أعواد البخور، وحافظة زجاج تحوي المسك والعطر إلى جواره. فرفع قطعة
القماش التي تغطي صفحات القرآن، فإذا بي ألمح الآية التالية: " يا أيها الذين
أمنوا أدخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان " فشعرت بالأمن
والسلام وأقسمت له، وتعانقتا وسمعته يهمس بأذني:

— صرت لنا أماً. دمك من من دمائنا وعرضك من أعراضنا. مرحباً بك أماً
عزيزاً. " ووضح لي قائلاً:

— كل أخوتنا من الشباب، الذين لا يرضون بالظلم، وما يصيب المسلمين من
فجائع الاقتتال من أجل السلطان، وهذا ما يفعله صاحبنا في دمشق، وقد ركبته
الكبر والغرور، وظنها هرقلية جديدة!!

ولاحظ سبهان أنني أريد أن أقول شيئاً، فقال مبادراً:

— ما يوجعك يا هفهاف معروف لي. أنه أسر أبيك وشوقك لرؤيته. سأبعث معك
رسالة إلى متولي زمام السجون في دمشق، أطلب فيها منه معاونتك في افتداء
والدك بالمال، وسأجهزك بما يطلبونه منك من دناتير بيزنطية فداء.
فقاطعته:

– " إن كانت قضية أسر والدي تنتهي بالمال، فأنا أولى بدفع فداء والدي،
ولك الشكر على ما تفضلت به من كرم ومودة."
نظر صوبي وقال مبتسماً:

– المبلغ كبير، فقد حدد بألف دينار بيزنطي لمن كان قائداً في جيش علي
ومائة دينار للجندي !!

– سأدفع كل ما يطلب من مال لكي أحرر ما أمكنني الله عليه من الأسرى، من
القادة والجنود.

صمت قليلاً وقال بعد أن نظر صوبي:

– أنت يا هفاهف صاحب نخوة ودين، حماك الله.
وعانقتي من جديد، وقال:

– ما يحدث للمسلمين في العراق والشام وباقي الثغور، فهو من تخطيط وتدبير
سرجون الرومي، مستشار معاوية ورجل دولته الأول !! فقد شرع أن لا تقبل
الفدية من ممثلي علي بن أبي طالب، ويقبلها من أهل الأسير أو صحابته،
ليفرق بين الخليفة علي بن أبي طالب ورعيته !! ويجعل ما من منة لحاكمهم
عليهم، وكلما نصح أهل الحكمة من شيوخ بني أمية بخطأ اعتماده على
نصراني كسرجون من دون بقية عماله وهو ينتمي لرجال الدولة الرومانية
التي آفلت في بلاد الشام، فهو يخطط في نفسه للنيل من المسلمين، لبعث
الهرقلية من جديد في أرض المسلمين، ولا يتم له ذلك إلا بضرب المسلمين
بعضهم البعض، لإعادة مجد روما في أرض الإسلام. ابتسم معاوية لمن نصحه،
وقال:

– ما للدولة للدولة وما للدين للدين. وتعل بان ليس لبدو الصحراء الذين
فتحوا دمشق ومدن الشام خبرة بإدارة الدولة ورسم خطوات علو شأنها، مما
لدى جهاذة الروم من خبرة طويلة في إدارة الممالك وجعل الشعوب في
خدمتها، فلماذا نعدم هكذا خبرة ونحن نروم توطيد أركان دولتنا، وجعلها بذرة
لإنشاء إمبراطورية كبرى سيخلد وجودها نسلنا طويلاً وربما امتد عمرها إلى
أطول من عمر إمبراطورية روما العظيمة ؟

فرد عليه المتبصرون من بني أمية:

– على هونك يا ابن حرب، هذه الدولة التي تخطط لها ستكون دولة هرقلية
ظالمة كالتى سبقتها.

فاجاب:

— ولم لا ؟ فلتصبح هكذا، ما لله الله وما لقيصر لقيصر !!

فانسحب الناصحون من مجلسه وهم قلة قليلة مشفقون من غضب الله، وبقي المنافقون وهم الكثرة الكثيرة يباركون لابن حرب ما انتهجه من مذهب في سياسة دولته، وفرح سرجون بما سمعه من المجادلة، وكان دائم الأختفاء خلف ستار في ديوان معاوية بعلم معاوية لئلا يحسب تخطيطه لذلك الرومي، ولكي يبقى على اطلاع على كل ما يجري في ديوان معاوية.

لم تفد مع ابن حرب كل مجادلة ولم يثمر أي عتاب، ولم يدخر ابن عمنا الأمير "عبدالرحمن بن خالد بن الوليد" جهداً إلا وبذله لتصحيح المسار، حتى شاع صلاح موقفه وسعة فكره وتدينه وكرم طبعه وقدرته على القيادة بين الناس، فأحبه الناس، وأملوا من وجوده خيراً كثيراً وصلاً للشام. فصار معاوية يبادل البغض، ويحذر جانبه، ويراه منافساً لمن سيوليه من بعده لحكم بني أمية على الشام. "

وما أن حلّ وقت العشاء اصطحبني أمير الأمراء إلى مائدة طويلة وعريضة ينتظر حولها الخدم، من الرجال والجواري الحسان، فكان غمر الطعام ما بين قصاع الشيزي، أفعمها وأكثرها مذاقاً طيباً، ويبقى تحت اللسان الثرد، الذي أهيل به السمن، وتراكبت عليه لصمان أعجاز الحملان، والأخونة المملوءة بالأطعمة.

وقد كانت جميع الآنية مذهبة، محكمة الصنع، تتلألأ عليها أضواء الشمعدانات، وتنتال منها روائح التوابل والمطيبات وأبخرة الأطعمة الساخنة، وإلى جوار تلك الآنية، آنية زجاجية موشاة من خارجها بزجاج صقيل ألصقت عليه فصوص من حجر اللازورد، وغلفت حافاتها بسيور من الفضة، ووضعت لها مقابض من العاج الأبيض، وقد عرض فيها السمك الرضراض، وإلى جوارها آنية أخرى أعرض منها، وفيها أفضل أنواع الطير المحشو باللوز والجوز، المقلي والمشوي، وتلتها صحون إضافية فيها ما لذ وطاب من لحوم الطير المسفود، ولحم طيور الكباب وأفخاذ اللقالق، التي طهيت على نار هادئة، فصار لحمها من أطيب اللحوم مذاقاً وأسهل مضغاً.

— " كما ذكر لي قائد من القواد الذين حضروا المأدبة عن أنواع الأطعمة التي ازدحمت بها مائدة أمير الأمراء، جلس إلى جواربي، وكان يأكل بشراهة، وكأنه لم يذق طعاماً منذ ولدته أمه. " وتلت تلك المأدبة أصناف الحلوى من مستبطن

اللباب البر المعالج بالقلو، والفادولج، وحلوى العسل الحلبي بالفسق والجوز، والعود المحكم، المشتمل على ألوان الفاكهة ومحاج الشهد.

خَدَمَ سَماطُ المائدة خدام وسادة تمرنوا على التهذيب والكياسة، فكان حديثهم همساً وتعبيرات وجوههم وإشارات أكفهم لغة ثانية يتفاهمون بها دون أن يفهمها سواهم، لمنع الجلبة وتعكير مزاج المدعويين !! فهم على بشاشة وجوه وسرعة استجابة لما يُطلب منهم، وكل فريق منهم يتكون من أربعة أشخاص من الأناث والذكور، ويوجههم رئيس بينهم وينبهم لأي تقصير أو لأي طلب مفاجيء أو إشارة من أحد المدعويين.

خفت حركتهم وسكنت أصواتهم، ورفعوا أذيال ثيابهم لئلا تصدر حفيفاً على الأرض الرخامية يزعج المدعويين أو يشتت انتباههم إلى لذة ما يطعمونه، وشمروا عن سواعدهم، وقد أحضرت آنية الوضوء النحاسية الضخمة لغسل الأكف، استعداداً لتناول الطعام.

وجلس المدعويون على طنافس من صوف وقطن غطيت بحرير موشى بالورود ووجوه النساء الجميلات، ثم رأيت كما رأى غيري: "الجاشنكير" وهو السيد المنوط به تذوق طعام أمير الأمراء، يقف قريباً منه، فأكل لقمة من كل آنية من الآواني التي وضعت قبالة أمير الأمراء، فكان "الجاشنكير" يتذوقها ويمضغها ببطء ثم يبلعها بتودة، وقد اعتاد عمله واتقنه، فهو يجد فيما يفعل لذة ما بعدها لذة !!

والجميع ينظرون إليه وينتظرون قراره لبدء الأكل من الأطعمة، وقلت في نفسي " الأكل هكذا يصير سماً وإن لم يوضع فيه السم !!.. سلام الله عليك يا مولاي أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب !! يا مَنْ يحمل لك "قنبر" خادمك رغيف الشعير !! الذي لا يقدر على مضغه غيرك !! لشدة جفافه وصلابته، وقد وضع في جراب حائل اللون، وختم قنبر الجراب لئلا يقع بيد أحد محبيك من أولادك، فيضيف لطعامك الفقير آداماً من لحم أو من سمك أو ما أنبتت الأرض !! وإذا صادف أن حملت لك فردات من التمر وجرة صغيرة من اللبن، قلت مبتهجاً " ما أكثر النعم اليوم !! " وهمست مع نفسي سبحان الله ..الله يعرف كيف يختار أوصياء أنبيائه !! "

وما أن انتهت مهمة "الجاشنكير" وكان اللعاب يكاد أن يسقط من أفواه المدعويين لمنظر وروائح الأطعمة المقدمة لهم، التي تعدّهم بطيب المذاق،

فتراجع متذوق الأطعمة إلى الخلف بحركة عسكرية دُرب عليها طويلاً، فرجع أمير الأمراء كفيه للمدعوين للتفضل بتناول الطعام، على بركة الله !! وما أن انقضت مائدة العشاء وبدأت المائدة كساحة حرب عاث فيها الخيالة ورماة النشاب والقسي الطويلة، فتركوا العظام على أطرافها والآنية مسفوحة الطعام على جوانبها، وأخرى فارغة تماماً من محتوياتها، وبدأت لي المائدة مثل مدينة منكوبة بزلزال عظيم أو بريح عاصفة لم تبق ولم تذر !!

وقلت في نفسي ساخراً " هذا ما تخلفه رغبات النفس ومطالبها، مزبلة عظيمة للرغبات مهما غلت أو عزت، فهي بقايا خرائب، فاز من دعي إليها وصان نفسه من الطمع فيها، ولم يتجشم الصبر من غوائلها وشهواتها !!"

وسمعت المدعوين يدعون كالمسولين لأمير الأمراء، داعين الله أن يزيده من فضله وكرمه، وغادر بعد ذلك معظم المدعوين صالة الطعام، وكنت محرراً أريد توديع أمير الأمراء لأعود إلى الخان إلا أن الأمير أشار عليّ بالبقاء، فبقيت وأنا لا أدري متى ينتهي هذا الأمر؟ فأنا رجل اعتدت على تناول كسرة خبز شعير والقليل من اللبن الرائب، وبضعة فردات تمر، تيمناً بسيرة الصالحين !! وأمضي ثلثي ليلي بحمد الله وأشكره على تلك النعم، وذلك الطعام القليل الذي ساعدني على قيام الليل، إلى قبيل الفجر، فأنام ساعة وأصحو لصلاة الصبح، وكلي ثقة أن من أكل من مائدة الأمير هذه الليلة لن يستطيع أن يجد في بدنه القوة لصلاة ليل أو لصلاة صبح !! لذلك حرصت في تلك المأدبة العظيمة أن أتناول القليل من لون واحد من الطعام !! ولم يغب تصرفي ذاك عن نظر الأمير، فهمس لي وعلى وجهه ابتسامة:

- "أنتم أصحاب علي تعلمتم الكفاف مثل صاحبكم، ولن يجادل أحد في أن صلاتكم خلف علي بن أبي طالب أفضل وأثوب بكثير من الصلاة خلف أميرنا معاوية. ولكن مائدة معاوية أدم وأفخم !! أليس هذا ما قاله عقيل بن أبي طالب وهو يقصد مجلس معاوية تاركاً علياً بعد أن رفض علي ابن أبي طالب طلبه بزيادة فيئه من بيت مال المسلمين دون وجه حق ؟ فابتسمت لطرافة ما ذكر، وأكمل، فمعاوية يا صاحبي صاحب أشهر مائدة بين الأمويين !! تجد فيها كل أنواع الأطعمة، ثقيلها وخفيفها، روميها وفارسيها وهنديها، وتنوع طبأخي قصره، فتنوعت الأطعمة وزكت رائحتها." فجاملت أمير الأمراء قائلاً :

- لقد بيلت بما لم تستطع معدتي أن تهضمه.

قال الأمير:

— لا عليك، والآن أصحبك إلى حمّام القصر، فأنتم أصحاب علي تعيشون في فقر وبدواة، وكأنكم لا تزالون تعيشون في صحراء مكة المجدبة. ولا يهتمكم إن سارت الدنيا إلى الأمام أو وقفت أو رجعت إلى الخلف!! تحسبون للقبر ألف حساب، ما لاتحسبونه لدنياكم، ولا تعيرون للسلطان أهمية حتى يؤخذ منكم عن نفس راضية، لزهلكم به ومنافعه.

فتمتت:

— والله يا صاحبي أن فعلنا ما تفعلون لحت الدنيا بعيوننا ولأمسكنا بتلابيبها لا نريد مغادرتها، وهي دار فناء كما تعرف، لا مقام فيها لمقيم، القادم إليها مغادر، والمغادر لا يأخذ شيئاً معه منها!! فلا نريد أن نضيع صوابنا بما لا يدوم.

فقاطعي:

— أن الحياة لا تسر من دون تمتيعها بما لذ وطاب من طعام، وما تتيحه الحياة من لذات تبعد فاعلها عن التفكير بالموت، والتحضر لحساب لا يبقى ولا يذر صغيرة أو كبيرة!!

قلت:

— على هذه الشاكلة قلة من بني البشر جعلك الله منهم.

— بوركنت يا هفهاف والآن اصحبنى.

فصحبتة في ممر طويل حتى دخلنا الحمّام، فشاهدته غاية في الكبر، ويسع مئتين من البشر. مرتفع السمك (السقف) طيب الهواء قائم على أعمدة رخام تنتهي بعروش ساطعة البياض والنعومة، ومسوخ الحمّام متسع الساحة، وله ثلاثة أبواب، وسمكه قبة متقنة التشييد تتعزز على أربع جنبات. ويوجد بصحنه صهريج كبير يرتفع عن الأرض بمقدار قامتين، ووسطه سارية مجوفة يستقر فوقها طيفور من الرخام الموصوف، ويصعد الماء في جوف السارية الزجاجية التي تشاهد العيون ما فيها ماء ساخن وفقاعات البخار تطلوه!!

وفيض الماء الساخن يملأ الصهريج، وأكثر الأرض في الحمّام مطلية بالقار مسطحة به، فيخيل لمشاهده أنه يشاهد أرضاً رخامية، شديدة السواد، وفيه خلوات وكل خلوة مفروشة بالقار، ونصف الحائط السفلي طلي بالقار أيضاً، والنصف المتبقي طلي بالجص الأبيض الناصع، فالضدان متجمعان، ويتقابل حسنهما، وفي داخل كل خلوة جارية رائعة الجمال شبه عارية توميء للقادم مشيرة إليه أن يقصد خلوتها!! فهي حرية بخدمته، وإسعاده، وفي الخلوة

حوض من الرخام فيه أنبوبان، أحدهما يجري داخلاً بالماء الحار والآخر بالماء البارد، فيدخل الرجل الخلوة فيها منفرداً بجاريته لا يشاركه أحد لا بالخلوة ولا بالجارية!! فيقع بينهما ما يقع بين الرجل والجارية، كجزء متمم للاستحمام من وعشاء الحياة ودرنها ومتاعبها!! وسمعت أمير الأمراء يقول لي:

— أليست هذه الجنة التي وعد الله بها المؤمنين؟ أنظر فطنة معاوية وقصر نظره أراد أن يقول لأتباعه أن جنتي خير من جنة علي التي يعد بها مناصريه وأصحابه!!

فاستغفرت الله ولم أعلق على ما قال، فقد قال الرجل قوله ذاك ساخراً من جنة معاوية الأرضية. ولاحظت أن في زاوية كل خلوة حوض آخر للاغتسال، وفيه أيضاً أنبوبان يجريان بالحار والبارد. وكل داخل إلى الحمام يُعطى ثلاث فوط من امرأة في الخمسين من عمرها، عهد إليها تدبير شؤون الحمام وجواريه. إحدى الفوط ينتزر بها عند دخوله، والأخرى ينتزر بها عند خروجه والثالثة ينشف بها جسده من الماء والعرق.

ويصب في حوض الخلوة ميزابان ثجاجان حار وبارد، وأربع قدور رصاص كقدور الهراس، لكنها أكبر منها، وتتصل هذه القدور قرب أعاليها بمجار للأنايب، فيدخل الماء من مجرى البئر إلى فسقية عظيمة ثم منها إلى القدر الأولى، فيكون فيها بارداً على حاله، ثم يجري منها صوب الثانية، فيسخن أكثر من ذلك ثم إلى الرابعة فيصير ساخناً جداً ثم يخرج من الرابعة إلى خلوات الحمام!!

ضحك الأمير مقهقهاً حين رأى دهشتي مما رأيت من وسائل ترفيه ومنتعة في الحمام، فقال الأمير:

— هل عندكم في الكوفة أو في البصرة مثلما الذي شاهدت عندنا؟
— تا الله يوجد في البصرة والكوفة ما عنيت، ولكن ليست بهذه الرفاهية وحسن الترتيب، لقد قال الإمام علي في شأنها " بنس البيت الحمام تكشف فيه العورات، وترفع فيه الأصوات، ولا تقرا فيه آيات من كتاب الله" وروي أن معاوية قدم من الشام على الخليفة عمر بن الخطاب، فضرب الخليفة بيده على عضده، فتكشف له عن عضد بضة ناعمة، فقال له عمر " هذا والله لتشاغلك بالحمامات!! وذوي الحاجات تقطع أنفسهم حشرات على بابك!!".

فضحك الأمير، وقال:

— صدقاً ذكرت والله صدقاً ذكرت.

وتابعت:

- تركت في البصرة سبع حمّامات، وسمعت الناس تضرب المثل بحمّام البصرة "فيل" الذي كان لفارسي يدعى مشناو خسروي، وآخر لمسلم ابن أبي بكرة، وثالث لعبد الله بن عثمان بن أبي عاص، وثلاثة من الحمّامات تملكها نساء، وعرفت من أحد بني عمومتي أن غلة الحمّام في البصرة في اليوم لا تقل عن ألف درهم!! وهذا غير الأطعمة التي يحصل عليها صاحب الحمّام كأجرة دخول بدل الدراهم عند عدم توفرها، وقد قال أحد الشعراء في حمّام فيل:

" لعمر أبيك ما حمّام كسرى — على الثلثين من حمّام فيل!!"

كانت الأبخرة تملأ سقف الحمّام، فتبدو شبابيكه وأنايبه المتخذ بعضها من الفضة المطلية بالذهب وبعضها على هيئة طير، يخرج من مناقيرها الماء، وكلما أطلقت دفقا من الماء أطلقت أصواتاً رقيقة، كغناء بعيد لاتفهم معنى كلماته!! ولكن وقع على الأذن يكون وقعاً موسيقياً عذبا، فتنتشي روح المستحم ويرتاح بدنه.

وبعض الأحواض عملت من رخام بديع الصنعة، والمياه ترج فيه من سائر الأنابيب وتسير إلى الأحواض ومن الأحواض إلى بركة حسنة الأتقان ثم منها إلى البستان.

واقفاني الأمير إلى عشر خلوات خاصة في كل خلوة صنعتها أحسن من صنعة أختهان ثم أنتهى بي إلى خلوة عليها باب حديد مقفل، ففتحه، ودخل بي إلى دهليز طويل كله مرخم بالرخام الأبيض الفاتح، وفي صدر الدهليز خلوة مربعة تسع إلى أربعة أنفس إذا كانوا قعوداً، وتسع أثنين إذا كانوا نياماً، وشاهدت من عجائب الترف في هذه الخلوة أن حيطانها الأربعة مصقولة صقالاً لا فرق بينه وبين صقال المرأة!! فيشاهد المرء سائر بشرته في أي حائط منها!! وأرضها مرصوفة بفصوص حمر وصفر وخضر ومذهبة، وكلها متخذة من بلور مصبوغ بعضه باللون الأصفر والآخر أحمر، أما الأخضر، فيقال أنه حجارة تأتي من بلاد الروم، وأما المذهب، فزجاج ملبس بصفائح الذهب الخالص. وبدت تلك الصور في غاية الحسن والجمال على هيئات مختلفة وبألوان مختلفة.

وما أن بدأنا حمّامينا، وقد صرف الأمير الجوّاري من حولنا بعد ان رأى عدم رغبتى بأي منهن وزهدي فيهن، فقال:

— هل تدري يا صاحبي، ما قاله الطبيب اليهودي "عدي بن أثال" طبيب معاوية وكبار شيوخ بني أمية عن الحمّات، وفوائدها، لقد أشاروا إلى أنها تدفع الأمراض كالحميات والتخم والإعياء وأنواع الهیضة والنزلات!! وتدفع لما كان في العروق من رواسب وسموم، وما هو بعيد الأغوار أرق من الشعر. وكان الدواء إنما يجذب الأقرب من المعدة فالأقرب، والدهن إنما يحل ما في الجلد خاصة، وكانت الضرورة قاضية باجتماع العفونات في أمكنة لا يبلغها الدهن ولا الدواء، وأن اجتماعنا بالناس على تطاول المدد لا بد وأن يحدث أمراضاً ضارة، وقد جعل الحمّام للتطيف والتحليل لكل ما استعصى العلاج!! ضحكت وإجبتة:

— كل الأمراض التي ذكرها طبيب معاوية وجد لها أبو الحسن علي بن أبي طالب شفاء!!

نظر الأمير صوبي متسائلاً، فأكملت:

— نعم، دواء كل ذلك الزهد!! الزهد في مطعمك ومشربك ومنكحك!! واعتبر أبو الحسن أن للإسلام ثلاث عبادات يشد بعضها بعضاً "عبادة للأعضاء بالزهد، والثانية للنفس بطهارتها وبذلها في سبيل الله للناس ممن نعرفهم أو لا نعرفهم والثالثة للقلب بطهارته ونقاؤه وحبه للآخرين ونخوته لمن جاوره أو صاحبه أو كان في حمايته!!" فأكملت والأمير في دهشة مما قلت:

— صدق أبو الحسن. صدق ابن عم رسول الله!! والله أنه يبعث الطيب في أنحاء الدنيا، فيما يقول ويفعل نفس رسول الله، لا من حدود نفسه، فيما ترغب ولا ترغب فقط، بل أنه إذا سلّ سيفه سلّه بقانون وإذا أغمده أغمده بقانون!! واجبات عقله وقلبه ضميره الإسلامي، فهو ما غضب ورفع سيفه إلا لهذا الضمير وحدوده.

ومن خلال طرطشة المياه ونفحات البخار وقرقعة أوعية الاستحمام على الرخام، التي ندلق بها الماء على جسدنا، جاء صوت الأمير يسأل:

— ياهفاهف ألم يحدثكم أبو الحسن عن يوم السقيفة بعد موارة جسد الرسول الكريم التراب، هل بايع أبا بكر على خلافة رسول الله؟ وهل هذه المبايعة وقعت فعلاً؟

— نعم حدثنا أبو الحسن بذلك الحديث، وقد سأله بعضنا في مسجد الكوفة عن هذا الأمر، فأجاب: " غضبت من الصورة التي تمت بها البيعة بالخلافة لأبي

بكر الصديق في السقيفة. غضبت لانتهاه الأمر بهذا الشكل المتعجل، وكنت منهمكاً في تجهيز جثمان الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعد أن استتب الأمر لأبي بكر جاني وبصحبه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة عامر بن الجراح، فدعاني للبيعة، فأبيت، فأخرج الزبير سيفه ليرد القادمين، فثار عمر، وهتف بمن معه قائلاً: عليكم بالرجل فخذوه. فاجتمع القوم على الزبير، وانتزعوا منه السيف، الذي رفعه دفاعاً عن موقفي من رفض البيعة لأبي بكر، وعاد عمر إلى شدته معي، فقال:

— يا ابن عم رسول الله وخذنة تريد أن تشق عصا المسلمين؟
فاستفز العباس عم الرسول من تلميح عمر، فقال له: ما أحد أولى بمقام رسول الله من علي.

وكل هذا الحوار الملتهب يجري وأنا اتابعه على مهل - يقول أبو الحسن - وعندما وصل الأمر إلى ما وصل إليه منشدة يوشك على الانفجار بين قومي، فكان لا بد لي وقد رأيت من الحكمة والقوة أن اتكلم وأبدي رأبي للطرفين، فقلت متوجهاً بالخطاب إلى أبي بكر وعمر وأبي عبيدة:

— انا أحق بهذا الأمر منكم، لا أبايكم، وانتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الأمر من الأنصار واحتججتم به بالقرابة من النبي، صلى الله عليه وسلم، وتأخذونه دون أهل البيت غصبا، أستم زعمتم للأنصار أنكم أولى بهذا الأمر منهم، لما كان محمد منكم، فاعطوكم مقاله وسلموا إليكم الإمارة، فإذا احتج عليكم بمثل ما احتججتم به على الأنصار، فماذا تقولون، نحن أولى برسول الله حياً وميتاً .

فانصفونا أن كنتم تؤمنون وإلا فبؤوا بالظلم وأنتم تعلمون، فرد عمر بن الخطاب عليّ بشدة قائلاً: أنك لست متروكاً حتى تباع، فقلت لعمر: أحلب حلباً لك شطره وشد له اليوم يردده لك غداً، فإدركه أبو عبيدة عامر بن الجراح بحكمته وتجربته أن شدة عمر لن تفي بالغرض مع مثلي، فمال إلى صوت العقل والرجاء، فقال لي، يا ابن العم، أنك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ولا أرى أبا بكر أقوى على هذا الأمر منك، وأشد احتمالاً واستطلاعاً، فسلم لأبي بكر هذا الأمر، فإنك أن تعش ويطل بك بقاء، فأنت لهذا الأمر خليق وحقيق من فضلك ودينك وعلمك وفهمك وسابقتك ونسبك وصهرك، فرددت محذراً، الله الله يا معشر المهاجرين، لا تخرجوا سلطان محمد في العرب من داره وقر بيته إلى دوركم وقبور بيوتكم، وتدفعون

أهله عن مقامه في الناس وحقه، فوالله يا معشر المهاجرين، فنحن أولى به لأننا أهل البيت ونحن أحق بهذا المر منكم !!
وما أن أكملت روايتي، حتى سمعت الأمير يجهش باكياً، فتركته وقد دمعت عيناى أيضاً، وسمعته يقول بحرقة قلب:

— صدق أبو الحسن حذرهم. فظنوا أنه يطلب المريسة عليهم، وما نظروا بعين العقل لما قال فأفاد. ولو أنهم رجعوا عما في نفوسهم وعصبياتهم القبلية، ما جرت علينا حكمتهم الناقصة من فتنة الردة، التي سالت فيها الكثير من دماء المسلمين، وخربت خلالها القرى، وما سيأتي بعد هذا، وهو امتداد له سيكون الأعظم والأشد على المسلمين إلى يوم الدين من فرقة وتناحر بينهم.

وأكملنا استحمامنا وغادرنا إلى المسلخ، فارتدينا ملابسنا وطلب مني الأمير أن أجلب عائلتي ومن معي لنسكن أحد البيوت المحيطة بقصره في حلب، فشكرته وأخبرته أننا سنغادر إلى دمشق قريباً لتحرير والدي من الأسر، وأخبرته أنني لا أستطيع البقاء لفترة أطول في حلب، وعندما رأى الأمير أصراري على أمر الرحيل القريب، جهزني بكتاب إلى ماسك زمام السجون في دمشق لتسهيل أمري بأسرع ما يستطيع من التسهيلات، وطلب منه أن يؤمن لي ولمن اقتديهم من الأسرى الخروج الامن من دمشق عائدين إلى الأحماس. وكان هذا اسم البصرة لدى الأمويين، قبل ان يشيع اسمها الجديد "البصرى" أو "البصرة" على ألسنتهم.

" كنت وشهنزاد وسهنزاد قلقين على تأخر الهفهاف عند أمير الأمراء وكل الظنون السيئة تسيطر علينا وكل ساعة تطلبان مني أن أرقب الطريق لأخبرهما بعودته. ولم نكن على يقين بعودته سالماً، فهؤلاء الأمويون لا آمان عندهم، ولا ذمة ولا شرعة ولا قانون، وإنما يحكمون الناس حسب مزاجهم، فمن كان مزاجه طيباً أعطى وأكرم، ومن كان مزاجه سيئاً أمر بالقطع ظلماً وافتراءً !!
وما أن سمعنا أصوات جلجلة عجلات عربة على الآجر، وصليل ناقوسها، فهرعنا إلى الطريق، وما أن رأينا سيدنا الهفهاف يترجل من العربة، فهرعت إليه زوجه وعانقته، وعدنا إلى داخل الخان، وكنا في غاية الفرح بسلامة سيدي، ورجوعه إلينا، وقد نصره الله، وخابت ظنون السوء. وطلبنا منه أن يحدثنا بما حدث له منذ غادرنا !!

فأشار لنا بكفه أنه في غاية التعب، وفي الصباح سيحكي لنا، وطلب منا أن نستعد للسفر مع قافلة اتفق معها عند عودته للخان للسفر من الغد إلى دمشق!!

وما أن غير جلبابه بثوب النوم، ونزع عمّامته البيضاء وأبقى على القلنسوة، التي تغطي بداية صلح في قمة رأسه، فقد كان ليل حلب بارداً، وما أن أوى إلى الفراش، فأسرع بالتغطية بالدفء.

39 هجرية 15 محرم 6 أفرودين ماه 28 سنة جلالية فارسية

"لي معك كلام أيها الطير !!

يا من تشدو متوارياً

صوتك يذكرني بأيام مضت

تصيح فتبهت روعي في مضجعتها !!"

"شهنزاد اسفندياري"

كنت طوال الوقت بعد الظهر مشغولة بتدبير رسالة إلى أختي الكبيرة شيرزاد كتبتها على مراحل، وأظنها وصلت إلى هناك، واستقرت مع بقية أهلنا في خرسان، وكلي أمل أن نجد في صباح اليوم القادم قافلة مغادرة إلى خرسان لكي أرسلها مع قيم يريدونهم، قبل مغادرتنا حلب. فكتبت على وجه السرعة، بالفارسية التي تفهمها شيرزاد على ضوء سراج الزيت في المعزل: بسمه تعالى، حلب في 39 هجرية 15 محرم، وبالتاريخ الفارسي الجلاي 6 أفرودين ماه 28 جلالية...

لا أدري يا أختي شيرزاد إن كنت حية أو ميتة، ولكن ادعو الله تعالى أن تكوني حية وتقرأين رسالتي، وأرجو أنك وصلت خرسان بخير وأمان ولم تتعرضوا في الطريق لسلب اللصوص والقتلة، وسبوك مجدداً وباعوك في سوق النخاسة، كل هذا لا علم لي به ولا أدري هل حدث هذا الأمر المؤسف لكم أو لم يحدث !! ولكن اسأل الله العظيم أن تكوني سالمة، وسعيدة في أرض الأباء والأجداد !! وقد حلت البركات في ربوعكم العامرة، آمين.

أختي وصلنا حلب قبل أيام قليلة، وشاهدنا فيها ما لم تشاهده عيوننا من قبل، خيرات وعمارة وأنهاراً وبضاعة متوفرة ونساء جميلات ورجالا، وقد انتشر الفقر في حلب حتى أنني ادفع لفقير درهماً فظيلاً فيزدحم حولي وحول زوجي أكثر من ثلاثين شحاذاً ومسكيناً !! وكلهم يطلبون الصدقة. فنعطي من نعطي ونترك الكثيرين بلا عطاء، ولا نتخلص من زحام الشحاذين إلا بنهرهم بقسوة شديدة، فهم لا يرتدعون ولا يتفرقون إلا عند رؤية المحتسبين في السوق !!

وعرفت فيما بعد أن بين محتسبي السوق بحلب والشحاذين عداوات ومعارك حدثت في الماضي وستحدث في المستقبل، وكل فريق منهم يعيش على العطايا. المحتسبون يعيشون على عطايا أهل السوق والشحاذون يعيشون على عطايا المتسوقين!! وقد تركتهم الدولة وشأنهم، فالقاتل منهم بعد الشجارات تضعه في السجن والمقتول يأخذه أصحابه لدفنه في مقابر الحلبيين الفقراء في ضاحية قريبة من مدخل سور المدينة القديمة.

لن أسرد لك عن سعادتني مع سيدي الهفاهف!! وكذلك سعادة أختنا سهنازاد وزوجها مسعود، ويبدو أن أختي وأنا سنرزق بطفلين في الشهور القليلة القادمة!!

أنا بالطبع لم أخبر سيدي الهفاهف بحملي، حتى اتأكد من الحمل، ولئلا يصير هذا الخبر حملاً ثقيلاً عليه، ونحن في سفر دائم من أجل إطلاق أبيه من أسر الأمويين، وكذلك لم تفعل أختنا. نريد قبل ذلك الأطمئنان على الحمل كما كانت تفعل أمنا يرحمها الله مع أبنائنا حين كانت تحمل بطفل!! وحين نطمئن على ثبات حملنا سنخبر زوجينا بهذين الخبرين السعيدين.

لن أخبرك بمدى سعادتني مع زوجي الهفاهف، وكذلك أختي مع زوجها فهما يخافان الله فينا، ويقدمان لنا كل رعاية، وكلما فكرت بوضعنا مع هذين الزوجين الشهمين، أشعر أن الله تعالى رحمة وأي رحمة، وكل ما مر بنا من صنوف الأذى في السنوات الماضية من سبي وتشريد حتى اعتقدنا وقتها أن الأرض خلت من الطيبين وبقي فيها الأسياد الغلاظ فقط، الذين ليس في قلوبهم رافة أو رحمة.

وليس لي إلا أن أقول الحمد لله على الذي عشناه، والذي نعيشه الآن. أختي العزيزة في الصباح الباكر وبعد صلاة الصبح سنسافر ضمن القافلة المغادرة إلى دمشق لافتداء أب زوجي من أسر الأمويين، أسألك الدعاء لنا بالوصول سالمين. يقولون من قابلناهم هنا في الخان أن الطريق إلى دمشق وعرة، ويكثر فيها اللصوص والنخاسون، والنهابون، وأن في المداشر التي سنمرُّ بها سادة غلاظاً لا رحمة في قلوبهم!! تتحكم بهم الأمزجة والعداوات الثأرية، وهم لا يطيقون سيدنا علي بن أبي طالب ولا رجاله، ولا أهل العراق قاطبة!! وأن حروباً عديدة وقعت بين الطرفين وكانت سجلاً بينهما، وقد شارك فيها سيدي الهفاهف وأبوه. نسأل الله أن ينجينا مما نكره ومن صعاليك العرب، وعياريمهم، واسأل نفسي في هذا الليل هل نلتقي ثانية يا أختي؟

سيدي الهفهاف يغط في نومه بعد تعب النهار وزيارته لأمير امراء حلب لأجل أفتداء والده، وعاد من هناك متعباً وهو لا يطيق الحديث مع أحد. كنا نامل أن تبقي معنا ليكون مصيرك مصيرنا، لكنك فضلت أن تعودى لذلك الأعرج الدميم ابن عمنا، الذي لا أدري كيف تحبينه، طوال السنوات الماضية، وهو دميم الوجه، لا يزال على شركه بالله، ويعبد النار، كأي فاقد عقل؟ قالت أمنا الله يرحمها "أنك إذا نضجت وكبرت ستتسين هذا الأعرج وترضين بأي زوج أفضل سيتقدم لك؟" لكن خابت كل مساعيها وبقيت على عهدك وحبك له!! ولا ادري ما الذي يجنيه زوجك من زراعة البابونج وانتظار حصاده لعدة شهور، والفقير يسربله يميناً وشمالاً ومن أخمص قدمه إلى قمة رأسه!! ولكن لقلب الأنثى قوانين لا أعدّها معقولة أو يمكن فهمها!! منذ شبابك المبكر وأنت تحبين هذا الرجل، وتخلصين له في حبك، وأتذكر هذا وأنا صغيرة جداً، وهو لديك أهم ما في الوجود كله، وليس هذا صحيحاً منك عزيزتي، فهناك قيم أخرى يمكن أن نؤمن بها ونضحي من أجلها، ونجعل حياتنا رهينة بها.

المهم أختي، أرجو أن تهتمي بصحتك وتكتبي لنا عن آخر أخبارك، وما يحصل في قريتنا الصغيرة الواعدة "خراشين ماه" فقد اشتقنا لأهلها الطيبين. وسارسل لك حالما نصل دمشق عنواننا الجديد، وسأخبرك بكل ما يحصل لنا في الطريق إلى دمشق أو في دمشق. أكتبي لي دائماً، وأخيراً أختي العزيزة لقد كنت بمثابة أم لنا أنا وأختي بارك الله فيك، وأرسل لك صحبة رسالتي قطعتي قماش من الحرير المزخرف بالورود، وبعض الحلي الذهبية، التي تعينك في حياتك في خرسان.

وكلها أشتراها لي وأهداني أياها سيدي الهفهاف، أما قطعنا الحرير فواحدة مني والأخرى مهداة من أختك سهنازاد. قبلاتي لك ومعها دموعي لفراقك أيتها العزيزة يا أمنا الجميلة، التي لا ننسى ودّها ومحبتها لنا وتضحياتها في سبيلنا. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أختك الصغيرة شهنازاد - حلب - خان الشونة.

وما أن أكملت رسالتي ختمتها بالشمع، وأطفئت السراج واندستت تحت الدثار إلى جوار زوجي، فاقتربت منه حتى التصقت به، فشعرت بدفء جسده، وسمعت نفسه يتردد برتابة، وتأكدت من نومه العميق، قبلت جبينه قبلة خاطفة، ووضعت كفي على صدره بحنو، وأغمضت عيني وراحت في نوم عميق.

في اليوم التالي غدت القافلة السير بنا متوجهة إلى دمشق، وأدهشني منظر العبيد الذين يعملون قبل أن يطرأ الفجر في الأقطاعات الزراعية التي تمر في دروب مرصوفة قريباً منها. كان العبد من أولئك العبيد يتوقف عن العمل وينظر صوب قافلتنا المغادرة، وأظنه يتحسر، ويتمنى أن يكون فيها ليتحرر من عبوديته، وفقره واستعباد الأسياد له، ولمن معه من عائلته، الزوجة والأطفال، ولكنه يعود سريعاً إلى ما كان مشغولاً به قبل ملاحظته لقافلتنا حالما نمر قرب إقطاعيته.

وحين ارتقت الشمس إلى السمات كنا نرى بعضهم يضعون أكفهم فوق جباههم اتقاء لضوء الشمس، وهم ينظرون صوبنا، وما أن يغادر آخر هودج من هودج القافلة ينحنون ويواصلون عملهم في الأرض. كانت مناظرهم البائسة توحى لي بمقدار المعاناة والجوع وشظف الحياة حولهم في كل شيء!! خصوصاً أولئك العبيد الذين تم انتدابهم في أعمال سخرة تحت الشمس، فهم يعملون عراة الأجساد إلا ما يغطي عوراتهم، ليرفعوا المياه من السواقي إلى جداول تسقي إقطاعات الزراعة، وتلك الجداول التي تدخل البيوت للسقاية، والمئات منهم يعملون في كل مرحلة لرفع الماء إلى ذراع أو أكثر حتى تصل المياه إلى أعلى التلال التي أقيمت فوق قممها قصور فخمة!!

تبدو سقوفها القرميدية من مكاننا ونحن نمر عليها، وأخبرتني امرأة من حلب ممن صحبونا في القافلة ذاهبة إلى دمشق لسداد ديون للدولة على إقطاعيتها الزراعية، فقد تلقت أنذاراً من عامل محتسب الخراج بضرورة تسديد ما عليها من ديون لبيت مال المسلمين، وإلا تمت مصادرة أرضها ومنحها لغيرها من المزارعين. وذكرت لي الحلبية أنها استدانّت من أخوتها وعمومتها ما يكفي لسداد دين مال بيت المسلمين، وبالرغم من أنها بدت لي مهمومة بل في غاية الهم إلا أنها حدثتني عندما شاهدت عجبي من رؤية العبيد العراة، وهم يعملون في رفع الماء لأكثر من مئتي ذراع، ليبلغ القصور في أعلى القمة، ووضحت لي، فأقطاعيتها تقع على أرض مرتفعة يرفع لها الماء من جداول منخفضة بالأجرة، ووضحت أن رفع الماء لتلك القصور يتم على مراحل، وفي كل مرحلة توجد منصة على علو ذراع، ثبت فيه دلو يرفع الماء ويشرف عليه عبدان أحدهما يملأ الدلو والآخر يرفعه مقدار ذراع، ويكبه في مجرى آخر، وهكذا حتى تصل المياه إلى مجارٍ مرصوفةٍ بالرخام فوق التلال، ومنها تجري إلى ساقية رئيسية تعلقو كل موارد المياه الأخرى في القصور!!

والماء الفائض عن الحاجة يخزن في خزانات ضخمة مرتفعة تم نحتها من الحجر، تزود القصور حين تشح مياه النهر الذي تتزود منه سواقي الأراضي المنبسطة، وذكرت لي أن جميع هذه القصور، لعائلات بني أمية وقوادهم وأتباعهم المخلصين، ولعائلات من من قتلوا في معارك الجهاد من بني أمية، وبالذات في معركة صفين الأخيرة مع علي بن أبي طالب، وشيعته، وأعوانه ثم أخذت الحلبية تلعن العراقيين إذ لولاهم، ولولا حروبهم مع معاوية لما ساد الغلاء وأرتفعت ضرائب الأمويين عليهم، كما ذكرت لي. وعندما عرفت بالمصادفة أنني زوجة عراقي قادم من الأحماس، ارتبكت المرأة أشد الارتباك وأخذت تعتذر لي عن أقوالها السابقة، فهدأتها وأخبرتها، أنه لا تثريب عليها، فهي ذكرت ما يذكره الأمويون عنا، واردفت لها، أنها لو عرفت علماً وأصحابه وأهل العراق، لما ذكرتهم بسوء. وقلت لها:

- اتعرفين يا أختي الحلبية أن أول قرار اتخذته الخليفة علي بن أبي طالب فور مبايعته هو خلع جميع ولاية عثمان بن عفان، الذين كانوا من أبرز رموز قريش وساداتها، مع أنه كان يمكن أن يلجأ للهدنة والمساومة معهم، لكنه كان يراهم بسبب طمعهم وتكالبهم على المنافع والاستحواذ على الفيء وعلى ثروات رعيتهم بالخسف والظلم والحيلة، والقوة، وكانوا سبباً مباشراً في وقوع الفتنة التي أدت إلى مصرع الخليفة عثمان بن عفان، وقطع أصابعه القابضة على القرآن الكريم، والتمثيل بجثته، ورميها في إحدى مزابل المدينة فقد عرف أمير المؤمنين أن بقاءهم في مناصبهم لن يؤدي إلى استقرار الأوضاع، وقال على الملأ في تلك المناسبة: " مالي ولقريش، أما والله لقد قتلتم كافرين، ولأقتلهم مفتونين، والله لأبقرن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته، فقل لقريش فليضح ضجيجها!!"

واستمعت الحلبية إلى ما قلت له مذهولة، وكنت قد حفظت هذا عن سيدي الهفهاف وهو يتحدث عن فتنة مصرع عثمان بن عفان، وتساءلت الحلبية:

- بالله عليك أهذا حق؟

فقلت لها :

- نعم وأيماني بالله أنه الحق.

وسألت ثانية :

- أهذا حق حقيق؟

فقلت من دون أن ينفد صبري:

– نعم وإيماني بالله أنه لحق حقيق.

وتساءلت الحلبية متحيرة:

– ولمَ قتل علي بن أبي طالب وأبنائه وأتباعه شيخ المسلمين عثمان بن عفان؟
فقلت:

– لم يقتل علي عثماناً وهذا كذب وافتراء من بني أمية عليه!! ليحتفظوا بالشام في ملكهم، وقد بعث سيدنا علي ولديه الحسن والحسين للدفاع عن عثمان بن عفان، وكان معاوية قريباً من المدينة، ومعه أكثر من ألف فارس جاءوا معه من دمشق، وبعث إليه الخليفة عثمان بن عفان يستنجد به وبجيشه الشامي، إلا أنه لم يلبِ نداءه، وكان يرمي من وراء ذلك التلكؤ إلى أن يقتل أولئك الغوغاء المحاصرون لبيت الخليفة الشيخ عثمان، ليطالب هو بدمه، ويجعل هذا الأمر ذريعة لئلا يبايع أي خليفة آخر يختاره صحابة رسول الله لخلافة عثمان!!

فقلت الحلبية، وهي تتلفت يميناً وشمالاً:

– أيتها العراقية صه لا يسمعك عيون الأمويين وما أكثرهم، فأقل ما سيفعلونه بك هو جز لسانك من عرقه لتصمتي أو تموتي.

فدعوت لها لخوفها على سلامتي، وقلت لها:

– حدثيني عن أحوالكم الحسنة والسيئة في حلب؟
فقلت بعد أن صمتت قليلاً:

– والله يا أختي كان الرومان يحكموننا بقوانين أكثر عدلاً ورحمة ممن يحمنا اليوم من الأمويين، فهم يحكموننا كعبيد مملوكين لهم!! ولا يتوانون عن جلدنا بالسياط لأقل هفوة أو تقصير، وقطع رؤوس أزواجنا وأبنائنا أن تمرّدنا، وسرقة الإقطاعات الزراعية الجيدة بمختلف الحجج والقوانين الجائرة، التي لم ينزل الله بها سلطاناً.

– لا تثريب عليك أختي الحلبية وصبركم الله على بلائكم.

غادرتني الحلبية بعد أن أخذت شعلة نار من النار التي أوقدناها لطبخنا، وهي في قرارة نفسها لا تودُّ المغادرة لكنها كانت خائفة من حديثها مع إحدى العراقيات من أتباع علي بن أبي طالب.

كنا كلما تقدمت قافلتنا في طريقها صوب دمشق شاهداً المئات من العبيد العراة وهم يرصفون الطريق بين حلب ودمشق بالحجر، الذي يقطعونه من

مقالع فوق الجبال، ويتم حمله بالعربات، وكانت مناظرهم البائسة وعذاباتهم الجسدية واضحة لكل من يتطلع نحوهم، ورأينا رئيساً لكل مجموعة ومجموعات من الجيش الأموي بعبائاتهم الحمر وفوق رؤوسهم خوذاتهم الحديدية، وترفرف فوقها فرش حمراء عملت من ليف اليقطين، وبايديهم الرماح الطويلة وعلى ظهورهم محافظ القسي والنشاب، وقد تزمّلوا بسيوف قيسية، فذكرت الحلبية لي عندما شاهدتني أنظرهم في إحدى المرات:

- أن الطريق يتم رصفه بالحجارة منذ شهور لتسهيل مرور مشاة الجيش الذين جندوا من شباب أهل الشام ويقودهم " بسر بن أرطاة"

وحدثني سيدي الهفهاف، أن الغاية من وجود جيش بن أرطاة كان للقيام بغارات على الحرمين الشريفين وبلاد اليمن، وقد تم تدريبهم على القتل والتمثيل بجثث من يقتلونهم ليثيروا الرعب في الأحياء، والحرق لإتلاف المزروعات، واستعمال كل وسائل ترويع الناس، الذين بايعوا علماً وإخافة الجميع في تلك الأنحاء من مبايعته، وأن تبدأ تلك الغارات بغارة كبرى على مدينة الرسول، وبعد ذلك يتوجه الجيش إلى أم القرى، واليمن، وقد أوصى معاوية في رسالة قرأها أحد قواده على هذا الجيش، فقال لهم، كما أخبرنا بذلك شاميون من أهل الشام جند أولادهم في هذه القطعات:

- "سيروا حتى تمرّون بالمدينة، فأطردوا أهلها، وأخيفوا من تمرّون بهم، وأنهبوا مال كل من أصبتم لهم مالاً، ممن لم يكن دخل طاعتنا، وأوهموا أهل المدينة أنكم تريدون أنفسهم، وأنهم لا براءة لهم ولا عذر وسيروا حتى تدخلوا مكة ولا تعرضوا فيها لأحد، وأرهبوا الناس فيما بين مكة والمدينة، وأجعلوهم شرادات ثم أمضوا حتى أتوا صنعاء، فإن لنا بها اتباع وأصحاب، وأفعلوا بغيرهم ما فعلتوه بمن سبق أن مررتهم بهم، والسلام لمن تبعنا والموت والتشريد لمن خالفنا وعادانا."

هز الهفهاف رأسه وقال لشيخ يدعى هارون البرغي وكان أحد أفراد قافلتنا، الذي كرر له ما قيل عن جيش بسر بن أرطاة:

- صدقت يا شيخ، نعم كل هذا حدث منذ شهور قليلة ولا يزال وأحدث مقتلة عظيمة في عبيد الله من حملة بن أرطاة وما لا يوصف بالكلمات من سرقة وتخريب في مدينة الرسول والقبائل التي تسكن حولها، ومكة واليمن حتى حدود صنعاء، بما يزيد على الثلاثين ألف مقاتل، بهت الحلبى وردد: هذا الذي حدث للأسف.

- نعم ما قُلتَه الحق يا شيخنا. وصلتنا إلى الكوفة والأخماس أخبار كل ما حصل من ثقة، واستبشع الناس كل ما سمعوه عن أعمال القتل والنهب والتشريد للمسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

18 محرم 39 هجرية

"كل ما تفعله من أعمال لا ترجى منها نيل كرامتك، فأعمالك هباء لا قيمة لها"
الهفاهف الراسبي

مرّت القافلة وهي تغذ مسيرها في طرق ممهدة للقوافل على قرى فقيرة، وكانت عندما تصل أخبار القافلة إلى كل قرية منها يهرع أطفال القرية بخرقهم البالية يحملون في أكفهم الصغيرة البيض المسلوق وعلى رؤوسهم قفف صغيرة من الخوص مملوءة بالبيض، ويعرضونه متوسلين على المسافرين لشرائه، وآخرون كانوا يحملون قففاً للفاكهة أو للتمر أو يحملون جرادل مملوءة بالحليب.

كانت الأقدار تغطي وجوههم وأسراب الذباب لم تفارق مخاط أنوفهم، وأكفهم وسواعدهم وسيقانهم مكشوفة، وعرفت من كهل معنا في القافلة من طعانة شمال حلب، أن أهل حلب وما جاورها من القرى والمداشر يعتقدون ما أشاعه الرومان، الذين كانوا يحتلون بلاد الشام، فهم لا يستعملون الحمام لنظافتهم، فقد اشاع الرومان أنه يفتح مسامات الجلد، فتدخل الأمراض إلى الأبدان، فالنظافة في نظرهم تميت البشر، والاستحمام غير نافع للبشر، فهم يتطهرون من نجاساتهم بكشط الوسخ عن أبدانهم. وإذا أرادوا الأغتسال، فمرة واحدة في السنة، فهم يغطسون أبدانهم في مغطس من دون تكييس، ولا عرق للأبدان، ولا مسح للجلد بحجر خشن، وذلك ما دأب على اتباعه أغنياء طعانة وأهل جبرين من مداشر حلب، أما غيرهم، من الفقراء فربما يمضون حياتهم من دون غسل لأبدانهم أو تشطيف لأديبارهم !!

وفي الخانات التي مررنا بها بين حلب ودمشق شاهدنا المزيد من العبيد الذين يعملون في حرث الأرض وعلى رؤوسهم يقف عرفاء الملاك وفي أيديهم أسواط جلدية طويلة، وكلما رأوا فتوراً أو استرخاء من أحد العاملين ساطوه وتركوه يتلوى على الأرض تنظره زوجته العاملة معه وأطفاله، وأغلب العبيد

يعملون بجدية في الحراثة، وبذر البذور وجمع الحشائش الضارة أو تسوية الأرض، خوفاً من عقاب الملاك !!

وعرفت من أحد الذين صاحبونا في القافلة من الشاميين، أن المالك يعطي كل عبد يوماً جرايته، قرص خبز شعير، والقليل من من الفول والخضر، لبقائهم أحياء، أما أولئك الأحرار من الفلاحين، فهم يعيشون في ضنك من العيش وفي غاية التقدير، وأن أفضل العائلات عيشاً، هي العائلات التي بعثت أولادها ليحاربوا في جيوش الأمويين !! فلهؤلاء جرايات جزلة، ما يُطلق عليه هنا في الشام بالجامكيات، وهي رواتب شهرية تضاف إليها حصص متساوية من غنائم الجيش مما تغنمه جيوش بني أمية في حروبها وغزواتها، فكان الجنود الذين في خدمة الأمويين يصيرون كالبهاليل، الذين ذهبوا الجذبة بعقولهم، فهم يسعون للانتصار على أعدائهم بأي وسيلة ممكنة، لينالوا ما أمكن من الغنائم لإرسالها إلى أهلهم، الذين سيهلكهم الجوع في القرى والمداشر وإلى الزوجات والأطفال الذين ينتظرون وقد أشقاهم الجوع، وقد نزع الله بركاته مما يكسبه أولادهم من حكامهم الأمويين !! فقدت هذه العائلات بركات المطعم والمشرب، وصارت هذه العائلات في حاجة إلى المال على الدوام، فلا الغنائم، ولا الجامكيات التي تُعطى للمجندين في حروب الأمويين تكفي لإطعامهم وأكساءهم.

وتساءلت بعد أن عرفت كل هذا عن الذين قاتلونا من الشاميين: "أهذا السبب الأكيد في تتبع هؤلاء لسادتهم وقادتهم من الأمويين للموت دونهم، دون أقل تفكير بالحق والباطل، وفي أي جانب هو ؟ لقد حولوهم إلى حيوانات تسيرها غرائزها في البقاء أحياء فقط، مهما فعلوا ومهما اقترفوا من بشاعات !!

لقد جعل الأمويون زوجات وأبناء وأباء وأمهات هؤلاء الجنود رهائن لديهم بلا أصفاد ولا سجون !! فهم وأهلهم رهائن الخوف والجوع والعوز والتفاخر بأنهم أفضل حالاً وأكثر مالاً، ولذلك فأولادهم الجنود لا يسمعون ولا يرون وهم يواجهون القتل والتجريح وأهوال المعارك، وقطع المسافات الطويلة في الحر والبرد، هؤلاء رهائن لأولئك الرهائن في تلك المدن والقرى والمداشر، في تلك المجمعات البشرية التي تتم معاملتها بالخسف والظلم والسياط واستيلاء السلطان على الفياء فلا يصل فقرائهم شيء منه.

القافلة المتوجهة إلى دمشق تغذ بنا السير وسط شجر الخرنوب والصبار، التي ملأت الكثير من الفلاة الواسعة، ونبتت فيه بشكل غابات قليلة الكثافة، واستغلت أفضل المناطق منها لزراعة أشجار الجوز، ولا حظت أن شجر الخرنوب يكون لاصقاً بالأرض كأنه محار دائري، أما الصبار فقد كان محوطاً بجدران الطين العالية، كأنه بستان ويربط المزارعون بخيط طويل فصماً من الثوم في أعلاها لئلا تصيبها العيون الحاسدة " كما أخبرني الكهل الحلبي " فهم يقتاتون من ثمرة هذه الشجرة، ما يسمونه بالتين البري !! ولولا هذه الثمار لهلك الكثيرون من أهل هذه القرى جوعاً، والغريب أني جربت تلك الثمرة، فوجدت فيها القليل من الحلاوة، والكثير من البذور الصلبة، التي إذا لم تكن معتاداً عليها في طعامك أصابت معدتك وأمعائك بالتلبك وعسر الهضم، وربما تهلك بسبب انسداد الأمعاء بتلك البذور الخشنة، الصلبة، التي لا يمكن للإنسان هرسها ولا مضغها، إلا جمعها في الفم وبصقها إلى الخارج إلا بصعوبة، لأنها ستمر شئت أم أبيت مع السائل الحلو إلى البلعوم، من دون أن تستطيع منعها، وعرفت من صاحبي الحلبي أن الكثيرين يهلكون من التخمة بأكل المزيد من ثمار هذه الشجرة.

وقارنت بين أهل هذه المدن المنكوبة بالفقر، والتي يأتي منها معظم جنود الأمويين، الذين يقودونهم في معارك تدافع عن هرقلية جديدة بنيت على قيم إسلامية مختلفة تماماً عما كان في دولة الرومان والفرس، فالمسلمون، كما جاء في كتاب الله وهدى رسوله لا يغيرون على الأمم، ولا يحاربونها حرب الملك والقهر، وأخذ ما يملكون من خيرات واستعبادهم، وأما طبيعة حركة الإسلام، التقدم على الأرض حاملة السلاح والأخلاق، قوية في ظاهرها وباطنها، فإذا كان وراء سيوف الجنود أخلاق الإسلام، فتصير أسلحتهم نفسها ذات أخلاق.

20 محرم 39 هجرية

"لا سرور للحبيبة إلا حين ترى حبيبها مسروراً وغير ذلك، فهي في حب

كذب !!"

مسعود الأعمشي

حين تجتمع الأختان سهنازاد وشهنزاد في هودج واحد أسمعهما تبت أحدهما للأخرى مخاوفها، وتتحدثان حول ما يشغل فكريهما، فالكبيرة تشكو للصغيرة إنشغالي بالصلاة والتهجد أكثر من إنشغالي بها !! فتقول لها عني " هو طيب ولا أشك في محبته ومودته لي، لكن مسعود ليس لي !! أنه لصلاته ومواجيده وادعيته الطويلة، التي يرددها ليلاً ونهاراً !! يسبقتي في صلاة الليل والصبح، وأحاول أن أسبقه، لأجاريه فيما يفعل على أمل أن أفوز باهتمامه ومحبته ولكنني لا أفجح فهو كالقط ينام بعينين مفتوحتين وقريحة مفتوحة للصلاة والتهجد. وكانت الصغيرة تحكي لها عن سيدي الهفهاف، وتذكر لها مناقبه وشدة حبه له، وذكرت لها أنها لا تغمض لها عين إلا بعد أن تطمئن أنه نام بعد أن فرغ من الكتابة في برجمانه إلى درجة بدأت أشعر بالغيرة منهذا البرجمان الذي يأخذ جل وقته وكأني أرى في البرجمان امرأة أخرى تشاطرنني إياه !! ولا تمد يداً إلى طعام حتى تراه قد أكل وشبع وحمدل، ولا تسر إلا حين تراه مسروراً، ولا يهمها أن أحبها كما تحبه، أو عاملها بلا مبالاة أو اهتمام !! ولا يهمها إلا أن تكون معه ويكون سعيداً بصحبتها.

وذكرت لها أنها تشاهده يبكي في صلاته تضرعاً وخشية إلى الله، وقالت، أشاهده في أحيان أخرى يضحك مسروراً لما يراه من أحوال الناس ومفارقات العيش، التي تمر عليهم في السكن والرحيل، أو حين يقرأ في برجمانه أو حين يقرأ سير الأولين مما يتلوه من القرآن الكريم.

فهو يصحب برجمانه مع القرآن الكريم في شوال أخضر، فهما لا يفارقانه، وقد طلب مني أن أسجل في البرجمان ما يروق لي مما يمر بنا من أحداث، وأي ملاحظات أخرى عما نعيشه، فهو برجمان لنا ولمسعود أيضاً، ولنا أن نسجل فيه ما نراه وما نحسه وما نعيشه وما نعتقده صحيحاً أو خاطئاً، ليطلع على

حيواتنا أولادنا وأحفادنا وذريتنا من بعدنا. فنحن زائلون مهما امتد بنا العمر والكتابة باقية تعيد للأحياء ما عشناه، وأشاهده يكتب لساعات في أوراق برجماته، ما يحدث لنا في يومنا من أحداث، فهو وجد ضالته في تسجيل وقائع عشناها وذكر لي أنه يضرر فيما يكتبه أن يخلد وقائع حياتنا وما مرّ بنا وهذا أفضل من الشعر أو غيره من الحكي!! فهو يقول هي كتابة من غير ضوابط، مما تلهج به الروح وما تشاهده العين. فردت عليها أختها:

— كل شيء فيما يفعله زوجك عجب وفريد!! فهو بالغ العطف واللفظ على من يحيط به من موجودات، شديد المقت لما يغضب الله ويظلم مخلوقاته. شاهدته مرة يبكي على جراء صغيرة ولدتهم أمهم ونفقت أثناء الطلق، فتجمعت حولها الجراء الصغيرة، العمياء المولودة حديثاً باحثة عن رعايتها وحمايتها!! ورأيت وفي وجهه قسوة لم أشاهدها على وجه بشر وهو ينتزع روح قاطع الطريق ذاك قرب حلب وحين حز رأسه ليرمي به ثالث اللصوص!! صورته في ذاكرتي، وهو يفعل ذلك تجعلني ارتعد طيلة الليل خوفاً منه، وأنا أتأمله ينام قربي هادئاً كطفل وديع!! قاطعتها أختها قائلة:

— هؤلاء الرجال لا يشبهون رجالنا في خرسان، أنهم تهذبوا بدين وتعلموا من قرآن ليس له مثل في كل ما عرفناه من علوم العالم، فيه ما للسماء كما فيه ما للأرض والحياة من شؤون وشجون!!

وحكت الأختان عني وعن الهفاهف وحياتهما معنا وعرجتا بعد ذلك لتتحدثا عما صادفناه في طريقنا إلى دمشق وما سمعناه في حلب وحولها وفي الطريق إليها، وأفاضتا في الحكي عن نساء هذه البلاد، فذكرن أن النساء في الشام هن من يدفعن المهر للرجال، كما كانت تفعل الروميات عند الزواج، وذكرن أن الكثير من الرجال في الشام يتظاهرون بطلبهم للإحصان، وما أن يحصلوا على المهر من المرأة تركوا البلاد فراراً إلى بلاد بعيدة، ليستثمروا بالمهر الذي حصلوا عليه، وربما أعادوا الأمر مع امرأة أخرى!!

وقد حولوا الإحصان إلى تجارة يعملون بها لكسب أموال النساء!! وذكرنا أيضاً أن المتعة والتسري أمر في غاية البساطة، والشيوخ عند الجميع في هذه المناطق التي مروا بها، وتحدثنا عن النساء اللاتي تركن أزواجهن وذهبن مع من أغواهن!! كما أن الكثير من الزوجات تركهن أزواجهن وذهبن ليعيشوا مع أخريات محرّمات عليهم، لتعويض زوجاتهم، وهن أقمن مع غيرهم من

المحرمين عليهن، ولا ضير عندهم أن يسري أبوان أحدهما ببنات الآخر، وإن كان فارق العمر كبيراً. ولا يهمل الأب إن أقامت بناته مع رجال غرباء محرمين عليهم، وربما يمرُّ ببناته، فيراهن في مخيم للعازبات، فلا يحرك ذاك نخوته، واعتبر أن ما تقوم به يستوجب منه العطف والتفهم، وربما أخذ من مال عرقهن ما يتقوّت به أو يشتري به الخمرة أو عشب الحياة الذي يمضغه، فيشعر بالحيوية والنشاط والسرور، ليوم أو لبعض يوم.

أغلب المخيمات التي مرّت بها قافلتنا كانت مخصصة لسكن العازبات على أطراف المدن والقرى. سكنتها نساء لسن على جمال، فقيرات، تكاد أسماهن لا تستر أجسادهن، وكل مجموعة منهن تعيش في خيمة، ويعشن حياة متضامنة، كما لو كنّ أخوات بالرغم من أنهن غريبات، لا تعرف أحداهن الأخرى، قبل أن تجمعهن خيمة الفقر تلك، وقد بدت تلك العازبات أكثر حشمة وأكثر صوناً لألسنتهن من الشتم من نساء المدن، والحديث عما يجري في كل الخيمة حين يقد إليها رجل أو رجلان في وقت واحد طلباً للأفراد بوحدة منهن، فتغادر البقية الخيمة إلى خيمة أخرى لا يوجد فيها رجال. وكن يتحدثن بينهن بكثير من الاحترام لمن هي أقدم منهن في هذه الخيام، فلا يجري على ألسنتهن الفشار أو الكلام البذيء بعكس النساء المتزوجات، الشريقات في اعتقادهن، فهن كما عرفنا في حلب وغيرها من المداشر والقرى التي مررنا بها، كما أن من علامات احترام هؤلاء العازبات لأنفسهن، فهن لا يحدقن في وجوه الرجال، كأنما يدعينهم لأمر ما، كما تفعل غيرهن من نساء المدن، والكثيرات من هاته العازبات لا يزلن على نصرانيتهن، ويدفعن الجزية للأمويين، وخيمهن مملوءة بالصلبان وصور القديسين وصور كبيرة لعيسى بن مريم على الصليب، وهن عادة حين يكن عاريات يغطين تلك الصور والصلبان بقطعة قماش، لكي لا ترى تلك الصور المقدسة عريهن، ومن بين الخيم تلك وكنا على بعد عدة مراحل من حلب برزت للقافلة من إحدى خيام العازبات امرأة عجوز تحمل في كفها مجمره بخور، وما أن شاهدت قافلتنا، ونحن نحدق فيها من بين الأستار، فصرخت بصوت عال، لتنبه المسافرين إليها، وقالت باللاتينية، وكنت أفهم اللاتينية قراءة وكتابة، فقد كان والدي يرحمه الله، أحد خزنة الملك الأعظم كسرى يزيدجرد. وقد حرص والدنا على تعليمي وأختي، لغات كثيرة، منها اللاتينية والبهلوية الوسطى - الفارسية -، والآرية السنسكريتية، ولغة الطير - المصرية القديمة في القرن الهجري الأول وكانت تسمى في خراسان باللغة

الهيروغليفية المصرية القديمة وبلغغة الطير، لكثرة رسومات الطير في نصوصها - قالت العجوز:

- أنظروا إلى أنفسكم. تأملوا جيداً خرابكم، ألا تلاحظون من شكل أجسامكم أنكم خلقتم على شكل صليب، فأنتم تبسطون أيديكم وترفعون رؤوسكم هكذا !! ورفعت رأسها في الهواء بحركة تدربت عليها، لتبدو أكثر هيبه وشموخاً. وأكملت بصوتٍ فحمت كلماته:

- أبسطوا أكفكم، وستشاهدون اسم مريم العذراء مرسوماً في كل كف، وخطوط كفوفكم تشبه حرف الميم باللاتينية !! فبرز لها رأس مؤذن القافلة من ستار هودجه بعمامته البيضاء، ولحيته الأثيثة السوداء، وصاح بالمسافرين رداً على هذه العجوز التي أحنث ظهرها السنوات، فصارت لا تستطيع الوقوف بشكل مستقيم لفترة طويلة إلا بواسطة عكاز غليظ تستند عليه:

- لا تلتفتوا لهذه المبشرة النصرانية !! فقد أكرمكم الله بالإسلام، والقرآن الكريم، ورداً على ادعائها، وأنا من عرف لسان هؤلاء النصارى، وقد درست كتبهم منذ فتوتي الأولى، وحتى كرمني الله بالإسلام. أن اسم نبينا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم مكتوب من اتفاق أعضاء كل بشر !! فالميم تشبه الرأس والحاء تشبه الصدر والميم الثانية تشبه السرّة والداد تشبه الساقين. أنظروا إلى أجسادكم وأحكموا !!

فصاح بعض المسافرين اللهم صل على رسول الله، وتشهدوا بعد ذلك بشهادة الإسلام، وغطت أصوات تشهدهم على صوت العجوز !! وأخذ بعض المسافرين يلقون للعجوز النصرانية بعض الخبز والتمر، ومما حملوا من طعام وحبوب وخضار رافة بحالها وفقرها الواضح، وتبرعت لها بعض نساء القافلة بثياب ترتديها بدل تلك الخرق الخلقة، التي تضعها على جسدها. فصرخت النصرانية: "أنظروا تريدون معجزة بصدق كلامي عن المسيح؟ هذه هي أمامكم، بركات سيدي المسيح وأمه العذراء تنهال عليّ منكم وأنتم على غير ديني !!". ورسمت إشارة الصليب بكفها في الهواء.

صممت الشقيقتان ثم تذكرتا شيئاً عن أهل خرسان ونسائها، فأكدت الكبيرة للصغيرة أن أولئك يشبهون هؤلاء، فلا فرق بين أخلاق هؤلاء وأولئك !! فهم لا يزالون لا يفهمون، ما هو الإسلام وأكثرهم من الكفار، وإن نطقوا بما يخالف هذه التسمية، فالنساء في خرسان متزوجات أو غير متزوجات يفعلن ذات

الأفعال المشينة!! ويرددن ذات الكلام البذيء، ولكن بلغة أخرى، سواء كنَّ من
علية القوم أو من العوام.

صمتن لحظات، وقالت الكبرى

- " أن الأخلاق والقيم تتبع من إيمانك أو عدم إيمانك، فمقياس العدل والجمال
والخير والشر هو إيماننا بأن هناك مثلاً للحق والجمال والعدل، وذلك كله
يتجلى في الخالق!! فمن آمن به آمن بكل القيم التي يعيها اسم الله وشريعته،
وكل فخار ينضح مما احتواه جوفه!!

كانت قافلتنا تدب في طريقها إلى دمشق، فتمرُّ بين الحين والآخر بمعسكرات
متعددة يتدرب فيها جنود على القتال، فينظر سيدي الهفهاف لكل معسكر نمرُّ
به، فيرتسم على وجهه انطباع يشير إلى " أن كل ما تعدون له لقتال العراقيين
باطل. "

وأشاهده كلما ضاق صدره وشعر أن الأرض لا تسع ضيقه أخرج البرجمان
الذي يحتفظ به في رحله وقرأ ما دونه من كتابة أو قرأ ما سجله من أشعار
أمية بن الصلت والسموأل بن عاديء، والحارث بن حلزة والنابغة الذبياني،
وكنت اعرف بحكم ملازمتي له أن أكثر الشعراء اللذين أحبهما سيدي هما:
حكم أكرم بين صيفي، وقس بن ساعدة الإيادي، وكلما قرأ قصائد هذين
الشاعرين، اللذين سبق شعرهما الإسلام تعاطف مع مغازي شعرهما، فيما تنقله
من مواجع النفس البشرية، وما يصطرع داخلها من عوامل الخير والشر،
كالسكينة والثورة، والطمأنينة والخوف، الهدوء والهيجان!!

وكنت واثقاً أن الإنسان كلما فهم نفسه ازداد اطمئنانه وحببه لمن حوله ولما
يعيشه، وكلما ازداد فهمه ازداد يقيناً بجمال الحياة وجمال ما قدره الله لنا مهما
كان سيئاً أو حسناً. ولا يقلق كل ذلك القلق لما يدور حوله من أحداث إلا الحدث
النفيس، وأن النفيس غريب حيثما كان ومتى كان!! وما علي بن أبي طالب -
كما ذكر سيدي الهفهاف - إلا ذلك النفيس!! الذي لن يفهمه الكثيرون مازال
بيننا!! لكننا سنحبه أكثر ونفهمه أكثر حين يغيب عنا!! وهذا جزء من فلسفة
الحياة، فالنفيس صعب الفهم على الأغلبية، والقلة القليلة التي تفهم كنهه.

24 محرم 39 هجرية

الدنيا واضحة وتقول لكل واحد منا: خذني كلي أو أزهدي بي كلي، أو عش بعيداً
عني على الكفاف، فأنا لا يهمني كثرة المرئيين ولا قلة الزاهدين !!
الهفاهف الراسبي

كنت أرقب مسعود الذي صار أخاً لي لم تتجبه أُمي، والذي يبدو للجميع أنه لا
ييدي اهتماماً لما حوله !! وهو قليل الكلام، وإذا تكلم لا تسمع منه إلا همساً،
كلاماً مقتضباً، وقد عرفته منذ الصغر خطيباً مفوهاً في الجامع وحافظاً لكتاب
الله، واعدّه مرجعاً لي، فما إن أذكر كلمة من آية قرآنية، حتى يقرأ لي السورة،
التي وردت فيها الكلمة كاملة، وليس هذا وحده فهو حافظ لمعظم شعر
العرب !! فإذا غمض عليّ شعر أحدهم قرأ لي له أكثر من قصيدة له، وعرف
لي كل قصيدة وفيمن قيلت ولأي سبب قيلت !! فإذا غمض عليّ أحد أبياتها
ناديت مسعوداً، وما أن أتلو عليه كلمتين من شطر البيت حتى ازدان وجهه
بابتسامة حزينة، وقرأ لي الشطر والعجز لما غمض عليّ ووضح معاني كلمات
القصيدة والمناسبة التي قيلت فيها.

مسعود لم يكن يرتدي غير الجلباب الأبيض في الصيف، وفوقه الدرعية
السوداء، وفي الشتاء الجلباب الرمادي أو الأزرق والدرعية الصوفية البنية
اللون، ويغطي رأسه بجيب الجلباب المتهدل عند الرقبة، ويبقي رأسه عارياً في
الصيف إلا حين يتقي الشمس، وشواظ أشعتها.

وهو دائماً يشكو من الحر، ويكره الصحراء والعيش فيها، ويحني رأسه حين
يجيب على سؤالي حتى يكمل إجابته، وكان يبدو لكل من قابله أو تحدث معه،
أنه خارج الزمان والمكان، ويعيش في كهف وحده، ولا يعنيه كل الذي يحدث
أمامه من أحداث. ولكن هذا الظن يخيب حين يدافع عن دينه، وعن مخدمه
وما يملك، وكنت أراه وهو يتعامل مع زوجته ويحدثها بحديث رقيق، هامس،
ووجهه يتورد خجلاً !! مثل فتى في بداية بلوغه، وهو يحدث فتاة ما من
اقربائه أو من قبيلته، وحين يصلي فلا يهمله حينها إن احترق الوادي أو فاض
السيل !! فهو يبقى مغمضاً عينيه مردداً كلمات صلاته بيقين ثابت، وكأنما

يكاشف بحبه، لمحبوب بيده حياته وهلاكه، فرحه وحزنه، غناه وفقره، مرضه وشفائه!!

أما ما يلهج به من دعاء بعد الفريضة، فهذا شأن آخر، وقمين بكل مؤمن من اليهود والمسيحين والمسلمين أن يحفظه ويردده عند كل صباح ومساء.

لا أدري متى حفظ كل هذه الأدعية التي لا يقولها إلا رجل واحد مؤمن، هو "علي بن أبي طالب" ولمسعود قابلية الحفظ من تلاوة واحدة يسمعها!! فما أن تقرأ أمامه قصيدة جديدة أو خطبة، حتى يعيدها عليك بعد أن تنتهي من ترديدها!! كلمة كلمة ونغمة نغمة، الله جعل لهذا الرجل موهبة الحفظ التي لا نجدها لدى الكثيرين، وربما هذا السبب الأول الذي جعل والدي يحتفظ به ولا يفرط به بالرغم من عتقه!! لكي يصاحبني ويشب معي فلا يفارقتي، ويكون لي أماً مخلصاً لم تلده لي أمي!! وهو يذكرني دائماً بقول "علي بن أبي طالب" ليذكرني بنحو ما بالمصير القادم، الذي ينتظرنا: "يهلك فيّ رجلان، مفرط في حُبِّي ومفرط في بُغْضِي" وقوله كذلك عن أولئك الذين أحبوا علياً، فافرطوا وصور لهم الشيطان أنه الله تعالى عما يافكون ويصفون "ليُحِبُّني قوم حتى يدخلوا النار فيّ!!" وصدق أبو الحسن، فقد نقلت لنا الأخبار ونحن في طريقنا إلى دمشق أن علياً حارب جماعة عند الزاب أدعوا أن علياً إلهاً!!

فقتلهم شر قتلة بعد أن استتابهم فلم يتوبوا ويستغفروا الله، وتتبع فلولهم التي فرّت إلى قمم الجبال، وتسربت عبر الوديان، حتى عجز جيشه عن اللحاق بهم، وكانت سيوف علي وجيشه قبل أن تحز رؤوسهم تلهج ألسنتها بقولها "أيناه، فعرفناه، فهل تريدون بسيوفكم أن تبدلوا صدق ما رأينا بتخويفنا بالموت؟ مرحباً بالموت بسيوف محبتنا له، وولهننا بالوهيته!!" تسامى الله عما كفروا وأدعوا، وبئس القوم هم، فما الرسول إلا بشر يوحى إليه، وما وصيه علي إلا بشر تخلق بأخلاق ودين محمد.

وكتبت في البرجمان الذي صار كتابي بعد كتاب الله من حيث الاعتناء والمعاناة!! بخط مرتعش مادار من حديث بيني وبين ذلك الشيخ الحلبي، الذي صحبنا في القافلة. كان ارتعاش خطي بسبب حركة كفي وعدم ثباتها، التي أتت من حركة الهودج فوق الجمل السائر في رعاية الله إلى دمشق، غائتنا ومحط رحال قافلتنا.

ولكن كل ذلك الغناء لا يمنعني عن الكتابة، فالبرجمان ضنيني، وما يتبقى مني بعد أن يفكك الموت والدهر، أجزاء جسدي!! وتذهب مع حياتي مهاراتي، ومن

بينها مهارات كفي، وقدرات فكري التي يحولها الدهر إلى ما يتحول إليه كل هالك إلى محض تراب !!

مهما طال الزمن أو قصر فوق هذه الأرض الكالحة، الكنود، اللئيمة، التي لا تعطي لمستحقيها ما يستحقون. نعم الحياة واضحة وضوحاً لا لبس فيه ولا تدليس، فمن أرادها سعى إليها على قدميه وركبتيه جمع فيها حلالاً وحراماً يسحق رقاب في سعيه من يعارضه أو يرضيها بالمال الحرام، لينال غايته ويصل مبتغاه، دنيا مبهرجة فيها من الم لذات والحضور والمباهاة ما لا يعد ولا يحصر، ولكنها واضحة كما أسلفت تقول له كل شيء أعطيك ولكن إلى حين، كما أن شرطي عليك واضحاً: إن أردتني، فكد كيدك وأدر طاحونتك، لا يهيك ما صنعت بغيرك، وأفعل كل شيء لتتالني، وساكون طوع يدك، ولكن لفترة قصيرة، وسأصير لغيرك متى ما وجدت من يفعل أكثر مما فعلت لينالني، ومهما بلغت من الحنق والخبث فك فترة حياتك وبعدها سأصير إلى غيرك، فالموت سيفرقك عني مهما طال عمرك في هذا العالم !! أنا واضحة، هكذا تقول شريعتي، لن أغشك أو أدلس عليك.

خذني كلي أو أزهدي بي كلي، أو عش بعيداً عني على الكفاف، فأنا لا يهمني وكما أن الذين يرغبون في كثرة كاثرة، والذين يزهدون بي قلة لا اعبأ بها، وهم لا يعنونني في قليل أو كثير. إن أردت أن تكون من هؤلاء، فمرحباً بك، وإن رغبت أن تكون من أولئك البائسين، فلا تثريب عليك، أذهب بسلام. فهم لا يضيفون ولا ينقصون من بهجة البشر بي ونوالي عندهم هو الهدف الذي يسعون إليه طوال أعمارهم القصيرة !!

أنا سائرة بقوانيني منذ وجودي منذ الأزل، وباقية إلى أن يشاء الله، لن أغير من عاداتي من أجل أفراد عابرين، سيمضون في رحاب الدهر كعفطة تيس، لا تضيف خردلة ولا تنقص ذرة من هذا الوجود العظيم !!

وقد حسب الكثيرون من بني أمية حسابي وفعلوا ما طلبته منهم، وكانوا عبيداً صاغرين لما طلبته منهم، فصرت لهم طوع البنان، ماداموا طوع قوانيني، وما درجت عليه طول الدهور الماضية !! أنا واضحة ولا أغش أحداً ممن يتعامل معي، من يريدني له، فعليه أن يفعل ما يجب عليه لنوالي، ومن لم يستطع، فأنا لست له !! أنا للجبارين والذين لا تأخذهم لومة اللائم أو عتب عاتب !! أما من لا يريدني فأنا لست له، وليمض في حاله، ويتركني مثل الذين سبقوه، ومن

سيمضون بعده، لهم مافعلوا وللذاكرين من بعدهم ما فعلوا، وما فعلت لهم، وما امتعتهم به من متع !!

وما اقترفوا من ذنوب وجرائر لينالوا جناتي، وأخرجتهم من خانة العبيد إلى خانة الأسياد، أنا واضحة ولا أغش أحداً من بني البشر.

توقفت القافلة وسمعنا صهيل الخيول حول رواحل القافلة، وما أن أطلوا حتى رأينا مفرزة من جنود بني أمية بثيابهم الحمر وراياتهم، ودرعياتهم الجلدية، وكانت خيولهم رومية عريضة المناكب ضخمة الأجساد، ثقيلة الخطوات. وعرفنا بعد قليل من حملتدار القافلة أن على المسافرين دفع أتوة المرور لهذه المفرزة !! وتسجيل جهة مسيرنا، وعدد المسافرين، وما نحمل من بضاعة، ليتمكنوا من أخذ العشر النظامي من ثمنها، وكانت هذه عاشر مفرزة تقابلنا في الطريق وتفتش ما نحمل وتأخذ أتوة المرور منا، وليس لنا الحق بالتذمر، فهو غير مسموح به، وقد يصادف في بعض القوافل أن يكون حملتدار القافلة لئيماً متفقاً مع هذه المفارز على مضاعفة الأتوة على المسافرين فيأخذ هو قسماً من الغنيمة، ويأخذ الجنود الجزء الأكبر منها !! ولكن الحمد لله كان حملتدار قافلتنا يخاف الله، وله من الحنكة والخبرة والمعرفة الواسعة بالكثيرين من قواد هذا المفارز، مما سهل على القافلة المرور من دون مشاكل كثيرة، ومن دون تأخير بدعوى تفتيش القافلة، ومعرفة ما تحمل من بضاعة وأفراد، وقد أخذ حملتدار قافلتنا احتياطه فاقتطع من كل مسافر ما يساوي من المال لجميع المفارز، التي من المحتمل أننا سنمر عليها، وخصوصاً أن المفرزة الأخيرة التي تقع عند مفترق طريق حماة، الذي يقود إلى حمص ومنها إلى دمشق أو إلى طرسوس الواقعة على البحر، مروراً بجبال لبنان.

وأسرع الحملتدار، متوجهاً إلى قائد المفرزة، وسلم عليه، فترجل القائد عن فرسه الأبلق، وكان شاباً بمقتبل العمر وسيم الوجه، أشقر الحاجبين والشعر، وعانق الحملتدار، فاطمأن المسافرون، أن المفرزة وقائدها في ضمانه حملتدار قافلته، وأن مرورنا سيكون سريعاً وأمناً لا تأخير فيه ولا تعقيدات غير محسوبة، وبالفعل لم يمض على ذلك العناق سوى فترة قصيرة حتى أذن للغير بالنفير أن تمضي في طريقها، متجهة إلى حمص ومنها إلى دمشق، فأنزل المسافرون ستارات هوداجهم !! ومضت الركائب تغد السير فوق الأرض الحصباء بعين الله وحفظه، وسط هضاب ترتفع حيناً وتخفض حيناً آخر، وسط أودية تجري فيها مياه كثيرة، وقد نبتت الزروع المثمرة حول ضفافها.

كانت مناظر تلك الوديان في غاية الجمال والإبهار، جعلتني أتمتم، مسبحاً بحمد الخالق تعالى، وأخذت أردد: سبحان الخالق المصور، وأنا اتابع بناظري الهودج الذي يحمل زوجتي وأختها. فقلت لنفسي " هذه المناظر التي تسر النفوس ليست غريبة على شهزاد وساهزاد، فقد شاهدتها مثلها في طفولتيهما ويفاعتيهما في أرض خرسان وما حولها، الكثير منها، كما أخبرتني شهزاد حين شاهدت أسواق حلب، كسوق النحاسين، والعطارين، والزرب والشام والمحمص والخابية، فقالت لي أن تلك الأسواق، ذكرتها بأسواق خرسان، وما يباع فيها من بضائع الهند والسند والصين !!

وما ينتشر فيها من روائح التوابل، التي تملأ صدور من يجول فيها، فالرائحة هي ذاتها، ومصدرها بخارى وسمرقند، وعندما أخبرتني بالشبه بين الطبيعتين فيما بعد، ضحكتُ وقلتُ لها " هذا دليل على وحدة الخالق يا شهزاد، فلو لم يكن الخالق واحداً لوجدت اختلافاً بين مخلوقاته من نبات وحيوان في شرق الأرض وغربها !! فسكتت مبهورة بهذا الاستنتاج العقلي.

وعلى طول الطريق كنا نمرُّ على قوافل للأسرى والسبايا الراجلين مع فرسان من الجيش الأموي يحرسونهم، وفي بعض المرات أجبرت قافلتنا عند قنطرة حجرية بالتوقف، لكي تسمح بمرور سرية من الجيش الأموي يتبعهم المئات من الأسرى والنساء المسيبات، يتقدمهم فرسان يحملون فوق رماحهم الطويلة رؤوساً مقطوعة !! وحول الرؤوس حملة الأعلام الأموية، وخرقاً مرفوعة عليها كتابة آيات من القرآن الكريم كآية " يد الله فوق أيديهم " فقلت بصوت مسموع " قاتل الله هؤلاء الطغاة، الذين جعلوا الإسلام ملكاً لا خلافة، وقرأوا رسالة محمد المسالمة، التي جاءت رحمة للناس بصورة مجتزأة وخاطئة في أكثر الأحيان . فصار القتل وتسليب أموال الناس وسبي حريمهم شريعة، وقانوناً آلهياً مقدساً !! تباً لكم ولدولتكم الصنيعة الفاسدة تصارعون دولة الخلافة لتزيلوها وتضعوا مكانها دولة المُلْك الظالمة !!

أخبرني الشيخ الحلبي في وقت راحة القافلة، أن أولئك الأسرى والنساء المسيبات والحلال المغتتم، جميعه من نتائج غارات جيش بسر بن أرطاة على القبائل العربية بين مكة والمدينة ونواحي اليمن القريبة من صنعاء التي بايعت علي بن أبي طالب بالخلافة.

كانت أوضاع أولئك الأسرى تبكي من ليس في قلبه رحمة، ولكن هؤلاء الأسرى لا قلوب لهم ولا إنسانية !! وكل ما تحمله الرسول الكريم وأصحابه

من الأذى، لكي يصححوا مسارات حياة هؤلاء الأجلاف وإصلاحهم باءت بهذه النتيجة، أراد النبي الكريم أن يجعل للعربي المسلم قيمة عليا لحفظ حياتهم وأعراضهم وأموالهم بينهم، لكن كل جهوده ذهبت سدى مع هؤلاء، وحل محلها كل ما هو مخز وبشع، ولا يمت لأي شرعة عادلة ولا حتى لقيم الرجولة، والرحم والجوار !!

ضاع كل شيء وإذا استمر هذا الخراب دمر الجميع، ولن تقوم لإسلام الخلافة والدين الأصيل قائمة، وستقوم مكانها دولة المُلْك والإسلام الشكلي الطقوسي طال الزمن أم قصر !! فليس من الإسلام أن لا ترحم أسيرك وتطعمه من طعامك، وتفك أسره حالما ينتهي قتالك مع قومه بالنصر أو بالسلام !! أما السبي، فهذه من العادات الجاهلية، وفي الإسلام لا تُسبى إلا المقاتلة الكافرة لجيش المسلمين أو تلك التي تشجع جيش الكافرين على قتال المسلمين !! أما سبي ربات البيوت والفتيات الصغيرات والأطفال الذكور وغير المقاتلين من من الرجال فهذه جريمة حقيقية، يا الله ما أفدح ما أراه اليوم، وكله باطل وحرام، ولا يصح أن يعمل باسم الإسلام وفي ظلال قرآنه الكريم !!

كانت قوافل الأسرى تترى ماضية في طرق شتى بين الجبال والوهاد متجهة صوب دمشق. سارت قافلتنا وأنا بوجوم شديد وليس لي إلا ريشتي ومدادها وورقي أدون عليه ما يعن لي من أفكار وحوادث، وما أشاهده وما أسمعه وأفكر به بخط مرتعش، وروح مضطربة، وداخل نفسي ثورة عميقة أكاد أن لا أستطيع أخفاءها. وكانت الممرات الجبلية التي نمر عليها من الضيق والوعورة، فتكاد الركائب تهوي بما عليها من الأحمال والهوادج والودائع إلى أعماق الوديان عند كل خطوة تخطوها، ولكن الله الحافظ !!

وطوال الطريق كانت تسقط أشياء من أحمالنا، وتتدهور بين الصخور والأحجار، وتختفي بين أشجار الصنوبر والأرز الواطئة، التي تثبت على سفوح الجبال وتشتد كثافتها في الوديان، وبين منطقتي قطيني والقصير !! قبل الوصول إلى بعلبك هوى كلب أحد المسافرين من فوق السن الصخري الحاد النتوء !! وتوقفت القافلة بوقوف عير صاحب الكلب. كان أنين الكلب يأتينا مع الصدى محزناً، ولكن ما العمل؟ فليس بمقدور أحد إنقاذه، فقد هوى في فج عميق، لأكثر من فرسخ، وهو علو السن الصخري، الذي يطلُّ على واد مملوء بأشجار السنديان الضخمة والأرز، وشاهدت دموع صاحب الكلب الغزيرة وهو يستمع لأنين كلبه !! فحاولنا مواساته، فنظر صاحب الكلب صوبنا، وكان في

أواسط العمر، وله لحية شقراء مثلثة، وشعر رأسه قصير أجعد بعد أن أزال عمّامته، ليسهل عليه النظر من فوق السن الناتية إلى أسفله لنلا تهوى عمّامته إلى عمق ذلك الفج، فرقع رأسه لنا وقال:

— كلبى الذى فقدته أفضل بكثير من إخوتى وأبناء عمومتى، فقد رافقتى حين أصابنى الطاعون قبل سنتين فى حلب، وأهلك الكثيرين. وأبى أن يتركنى فى مرضى بعد أن تركنى أهلى واصحابى خوفاً من العدوى، وقد كان يصطاد طيوراً ليحبها لى لأطعم منها!! حتى بللت من مرضى، فقررت أن أترك الأهل والأصحاب والعيش وحيداً مع كلبى!! فقد كان أكثر وفاء من الجميع!!

وأبكى كلام الرجل الجميع خصوصاً النساء اللاتى وقفن يستمعن لما يقوله هذا الحلبي المفجوع بكلبه!! وبقيت القافلة متوقفة والرجل لا يغادر مكانه حتى انقطع أنين الكلب، وظهر لنا فجأة من بين الأحجار، وهو يلحق جروحه!! وعانق صاحبه، وسط فرحة جميع المسافرين بنجاة الكلب، ولم أر فى حياتى علاقة حب كلب بسيدته كعلاقة هذا الكلب بصاحبه الحلبي طوال الرحلة إلى دمشق!!

كانت أصعب مراحل رحلتنا المسافة بين بعلبك وشعبه، فقد مررنا بقرى محروقة، وأشجار صلب على جذوعها فلاحون فقراء لم يؤدوا ما عليهم من خراج. كانت المناظر مؤلمة والدخان لا يزال ينبعث من بعض البيوت مما يدل على أن حوادث القمع والحرق حدثت قبل وصولنا إلى هذا المكان بوقت قصير، وتساءلت بألم إلا تنتهى هذه الرحلة ونصل إلى دمشق؟

كانت عدة مراحل من الطريق على القافلة قطعها، ولا تزال أمامنا الكثير من المدن كسرغايا و عنجر وقطيفة ودوما للوصول إلى دمشق!!

ومضت مراحل الطريق مرحلة بعد أخرى، وكانت كل مرحلة أصعب من التى قبلها بسبب وعورة الطريق ونقاط التفتيش والحراسة، التى كانت تؤخر وصولنا، فقد كانوا يتفحصون وجوه المسافرين فى بحث مستمر عن يثير الارتياب، ممن هم من طلبة الدولة!! سواء ممن اتهموا بالوقوف ضد الأمويين وحكمهم، أو ممن لم يؤدوا الخراج عن أراضيهم وبيوتهم ودوابهم.

وكانت القيود الخشبية التى يتم تثبيتها فى رقاب المقبوض عليهم من الطلبات، التى تم العثور عليها بين المسافرين، وكانوا يجمعون طلباتهم، ويوثقونهم بقيود الخشب حول أعناقهم وأيديهم، التى توثق رقابهم بعضهم إلى البعض الآخر، وكانوا يجمعون كل عشر طلبات قبضوا عليها لتقدم بعد أسبوع

سرية جمع الطلبات من النقاط كافة !! وكانت أسوأ تلك الطلبات حالاً من العبيد الأبقين لأسيادهم، الذين فروا من خدمتهم، ومعظم أولئك من مناصري الأمويين ممن تملكوا الأراضي من الحكام الأمويين ومن الطلبات الذين أوضاعهم أكثر سوءاً أولئك الذين أثاروا القلاقل على حكومة الأمويين ولم يبايعوا الخليفة معاوية في مكة ويثرب واليمن وغيرها من بقاع جزيرة العرب، وكان هؤلاء المطلوبون لا يملكون المال ليرشوا الحراس، لكي يخففوا عنهم عذاب القيود وعذاب المعاملة السيئة !! فكانوا يُتركون في الشمس المحرقة وبرد الليل !! ولا يزودون بطعام إلى القليل القليل، الذي يبقيهم على قيد الحياة فقط، ولا خيمة لهم تقيهم الغيث والبرد، وقسم كبير منهم يقضي، فيتم دفنه ليلاً بكتمان شديد في حفرة قريبة من نقطة التفتيش تسمى حفرة أصحاب الهسيس !! والبعض الآخر يبقى صامداً لأيام، فتدمى قدماه ويتقرح وجهه، ويسيل الصديد والدم من رقابهم بسبب القيد الخشبي حول الرقاب، وتصير تلك الأماكن جاذبة للذباب ولهوام الليل، وبالرغم من صراخهم وعويلهم، فلا أحد يهتم بأنيهم وصراخهم، طوال الليل، وإذا انزعج أمير النقطة من عويل أحدهم، أشار لأحد الجنود الذي يدعى "المخلص" فيهرع لصاحب الشكوى، ويجعله يصمت إلى الأبد بشكة عميقة من رمحه في جهة القلب !! وعندئذ يحل الصمت ويدفن مع أصحاب الهسيس، وتجمد التأوهات في صدور باقي المعتقلين خوفاً وحزناً !!

وعندما وصلت قافلتنا ضواحي دوما، قبل الدخول إلى دمشق بمرحلة. خيمنا على هضبة مرتفعة تطل على دمشق، وكنا نشاهد أضواء سراجات المدينة ومشاعل قصورها !! ومن يصيح السمع منا سيسمع ضجة عربات المدينة ونباح كلابها، وعزف قيانها، وكان الليل ساجياً ونسمات الهواء الباردة تمرق على وجوهنا، ومن أحد الخيام في أعلى الرابية علت صرخات امرأة !! وتعالق أصوات الرجال المسافرين وعويل النساء، وبربرات رومية، فالكثير من المسافرين معنا لا يتقنون العربية، ويفضلون عليها الرومية، وذهب مسعود إلى موقع تلك الخيمة المتطرفة فوق الربوة ليستطلع الأمر، فهو كما عهدته منذ طفولتنا معاً في يثرب شديد الفضول، وكثير التقصي عما يحدث حوله.

وعاد بعد مدة وهو يتعوذ من الشيطان !! فسألته عما جرى ؟ لكنه استمر يتعوذ من الشيطان ويلعنه أشد اللعن، ولا يقول شيئاً !! عرفت بعد حين أنه لم يقل شيئاً بسبب وجود زوجتينا قربنا !! فاستحي من التصريح بما عرف،

فانتبهت إلى ذلك، واصطحبته إلى خارج الخيمة وطلبت منه أن يخبرني، فقال وهو يتعوذ من الشيطان مجدداً :

— إحدى السيدات المسافرات ادعت على أحد المسافرين، قائلة أنه راودها على نفسها !! والرجل كذبها وقال أنها من بنات الهوى المعروفات في حلب !! وأنه تعرف عليها ضمن المسافرين، فخافت أن يفضحها، فتمنع من دخول دمشق وتفرض عليها الإقامة في حي الفاحشة خارج سور المدينة !! فبائعات الهوى القادمات من أطراف الشام لا يسمح لهن بالدخول إلى مدينة دمشق !! وهي لها ولد يعمل في دمشق وجاءت لرؤيته، بعد أن انقطعت أخباره عنها وتريد رؤيته مهما كلفها ذلك من مخاطرة.

وتابع مسعود:

— قال المسافرون أنه يوجد حي آخر في مركز المدينة خاص ببنات الهوى، وأغلب ما فيه صبايا كجوار ومحظيات وسراري للأغنياء تم نبذهن من مالكيهن لدور الملاهي تلك !! ومعهن مجموعة من أهل الطرب والعزف على العود الأفرنجي، والحلبي. ومنعت الشرطة التقاء هاته البغايا بغيرهن من صاحبات المهنة خارج دمشق، خوفاً من انتقال الطاعون، المنتشر في أغلب قرى ومدن الشام !! وقد أهلك المرض كثيراً من الخلق في تلك المدن والقرى، ولكن كما هو واضح أن المرض خفّ وانتهت ذروته، وما عاد مؤثراً، لأننا لم نصادف مريضاً واحداً طوال رحلتنا بهذا المرض الفتاك، وقد حفظ الله عبيده وحفظنا من أذاه.

ومن الأفضل أن أستر شيئاً من مخازي ما شاهدنا، فإن الله يحب الساترين، ولكي لا أطيل الكتابة في فلا يفيد وأصون ريشتي عن ذنوب رسم فواحش عهد لا يزال قريباً من عهد دولة الرومان لتراها أجيال قادمة كثيرة، فهذه الكتابة لعنة، تبقى الأحداث حية ما بقيت الريشة والمداد ومن اتاحت له الفرصة بقراءة ما تم تدوينه عما شاهدناه وعشناه في هذه الرحلة !! فالنفس تعاف أن تذكر ما يسمح مَسْمُوعُهُ سامعه، ويُكْرَهُ التحدث به !! ويبدو لي أن الأمر بين تلك المرأة ومفضوح القافلة تم بالصلح الودي بينهما !! بعد أن تدخل عقلاء من مسافري القافلة، وهدأوا الطرفين، والأدهى من ذلك أننا بعد أيام قليلة رأينا ذات المسافر والمرأة في ونام يتضحكان ويتغامزان !! كأفضل رفيقين، فلا عداوات تدوم في هذه البلاد ولا محبة إلا بعد عداوة وفضيحة مجلجلة !!

7 ربيع الأول 39 هجرية

"برجمان الدهر كتبنا فيه ما مرّ بنا على جلد ماعز ونأمل أن يصير شاهداً لما

عشناه لآخر الزمان"

مسعود الأعمشي

نساء من دمشق يسحرنك برقة كلامهن، وبهاء ابتساماتهن، وهن بتمام شبابهن، وفي علو من التهذيب والأناقة في الملبس والمعشر، لا تجده إلا لدى أميرات ترّبن في قصور ملوك. مدلات لم يمسهن حر ولا لغوب، فهن لا يفترن عن المرح، والحركة في أرجاء القصر كالفراشات الملونة في بستان من الزهور، فيسحرن كل من أطل عليهن لحظة، وقد زين الله وجوههن بعيون واسعة وشفاه صغيرة مضمومة مثل ورود مقلّة، واعناق طويلة، وأجساد غداء، فصلها خالقها فأحسن تصويرها.

في ذلك الصباح البهي المشرق وصلنا أسوار مدينة دمشق، فأدهشنا علوها، وكثرة أبراجها وضخامة أبوابها وكثرة الحراس فوق الأبراج والصور، والعدد الضخم من الخلق الذين وقفوا عند الباب مع رواحلهم وهي تحمل متاعاً كثيراً ينتظرون دخول دمشق، والحراس عند البوابة يدققون في وجوه الداخلين وقوائم أعضائها حملتدارات القوافل لكل قافلة، وقد جعلوا بين قافلة وأخرى مسافة عشرين متراً في نظام دقيق، لئلا تتزاحم الركائب والأنفس عند دخول البوابة. عربات كثيرة تجرها ثيران وأخرى تجرها الخيول والبغال والحمير، وتخترونات محملة بالخضار والحبوب، والفواكه، وسأل سيدي الهفهاف عن اسم الباب في هذه المنطقة من السور فقيل له، أنه باب الساعات، فلاحظتُ، أنه اغتم وتغير لون وجهه، وحاولت التسريّة عنه بالحديث، لكنه قال لي:

— اتركني يا مسعود اتأمل هذا الباب!! وكنت اعرف ما يقصد بقوله هذا، فقد تذكر، ما ذكرته له تلك العرّافة في السبابخة ذات نهار، عما سيواجهه في آخر أيام حياته، ولا أزال أتذكر ما قالته، كئيبه الوجه تلك!! وقد امتلأ وجهها بالثأليل والندب السود، التي هسمت له تلك العرّافة، وكنت على مقربة منه، كنا

وقتها في سن الشباب ووقتها خارجين مع متاعنا وجوادينا الصقلاويين، لصيد الغزلان في ضواحي السبايخة.

فحت تلك المرأة العرافة قائلة لسيدي الهفهاف: " أنت السيد المبجل الهفهاف !! ستكون لرأسك منزلة كبيرة فسيصحب رأسك الرأس المقدس!! وسيكون لرأسك حينها مهابة عظيمة ويشرق من ثناياك نور، وستكون لك وقتها لحية مدورة خالطها الشيب، وقد خضبت بالوسمة وعلى شفطيك ابتسامة، وتتنظر بعينين نصف مغمضتين إلى السماء، شاخصاً ببصرك نحو الأفق!! والريح تلعب بلحيتك يميناً وشمالاً كأنك ملاك هبط من السماء بلا جسد، والرأس وحده، سيتقدم رأسك رؤوساً ظاهرة كثيرة!! فأبشر يا هفهاف بمجد الدنيا والآخرة!!

اقتربت منها لتسمع المزيد من نبوة تلك العرافة المجنونة، وحاولت أن أبعدك عنها خوفاً من أن تصيبك بعدوى دماغها!! ولكنك أصرت على الاستماع لبقية خرافتها " ويلي رؤوسكم المباركة موكب السبايا من النساء والأطفال من أشرف ما خلق الله على هذه الأرض حسباً ونسباً!! وأهل دمشق تستقبل رؤوسكم وسباياكم بالطبول والصنوج والغناء، وسيمرون برؤوسكم من باب الساعات في سور دمشق!! ولا يبكي على مصيبتكم سوى الفقراء وضعيفي الحال والمشردين من أهل المدينة، فسمعت سيدي يقول وما دليلك على هذا الذي تقولينه؟ فنظرت صوب سيدي ورفعت عصابة قدرة ملفوفة على جبهتها لكي تنظر جيداً صوب سيدي، وكانت عيناها رمداوتين " دليلي ان أحد الكوفيين يدعى "سهل بن سعد" وهو من صحابة الرسول يصادف في ذلك النهار وجوده في دمشق!! فيسجل دخول رؤوسكم الكريمة إلى تلك المدينة من هذا الباب المشؤوم!! فيرى بن سعد رؤوسكم معه أنتم أصحابه وسفراؤه وقد نصبت على أسنة رماح طويلة بعد مرورها من باب الساعة لتتصب فوق تلك الرماح عند باب أكبر مسجد في دمشق!!

ووقتها يتبادل الدمشقيون التهنة بنصر الخليفة على الخارجين على حكمه. ذلك الوجوم الذي قابل به سيدي الهفهاف مرأى "باب الساعات" قطعه زوجته عليه، فقالت له كلمتين أحداها عربية والآخرى فارسية " عليك بالسرفسار"، فقال لها سيدي:

– يا شهزاد كان الأجدد ان تقولي بالعربية أمسك بعنان الدابة!! أو أمسك بمقودها، بدل كلمة سرفسار الطويلة التي يمج العربي سماعها لما فيها من تكرار لحرف السين!!

وأمسكت عنان الدابة، فرأيت على وجه شهزاد ابتسامة خفر واستحياء، وأنا اعرفها كثيرة الحياء، رقيقة المشاعر، جليلة المظهر، تدعن لمطالب سيدي الهفهاف الكثيرة من دون جدال.

قالت لي زوجتي يوماً بعد زواجنا بأيام قليلة "يا مسعود أطلب مني كل ما يريحك ويسعدك، فأنا جاريتك وخادمتك، فقاطعتها " وقلت لها ساخراً من نفسي وما أملك لا بل أنت سيدة بيتي إن وجد لي بيت غير بيت الشعر هذا!! وحليلتي، وأم أبنائي إن رزقني الله منك بأبناء، أنا ضيفك وأنت سيدة قلبي وأنا طوع بنائك، مريني، فستريني ملبياً نداءك حتى لو كان في ذلك هلاكي!!

ولاحظت زوال القليل من الحزن عن وجه الهفهاف، وكانت القافلة قد تجاوزت باب الساعات بعد وقت طويل من الانتظار عنده حتى أذن للقافلة بالمرور، والآن أصبحنا وسط سوق دمشق وقد صدعت رؤوسنا أصوات الباعة المنادين على بضاعتهم، ولم يكن سرور سيدي لمغادرته باب الساعات بل لما قالته تلك البصيرة في الأحماس، وتذكره حين عرف أن ذلك الباب هو باب الساعات، قالت له لا أصدق الله كلامها " سيكون رأسك إلى جوار رأس فتى صيغ من ماء البشاشة والتقى وألفاظه جود وأنفاسه مجد، والموت عند جواره وفي سبيل نصرته الفوز العظيم" فقاطعتها سيدي " يا بصيرة السباخة ومن لا يرغب بهذه الميتة العظيمة؟ ولحظتها نظر صوبي، وقال " يا مسعود أي أسعد خلق الله، بهذه البشارة وأرجو من الله أن تتحقق" ولحظتها حزنت جداً، وتعودت من الشيطان وطلبت من الله أن يرد كل بلاء عن سيدي. قال لي محاولاً التخفيف عني " هذه العجوز مخرفة فلا يحزنك قولها. " فقلت له " يا هفهاف – لم يكن يرغب بمناداتي له سيدي – دونك نفسي قبل نفسك. فقال لي " ما قالته يفرحني غاية الفرح وإن وصف الله الموت بأنه مصيبة، ولكن موت كذلك الموت مجد وغيره كل موت عقيم، لا يفرح أهله، ولا تمر حشرجاته إلا كأهوال لا تنتهي، أما الموت كما وصفته هذه العرّافة فهو أسمى موت أن كان برفع الرأس على رمح أو طرحها في العراء مع حجارة الطريق أو عملها كأثف مع الأحجار لقدر الطعام!!

وما أن استقرينا في خان المسافرين فاختر سيدي أفضل الحجرات فيه لنقيم فيها، واستحممنا في حمام الخان وتناولنا طعام الغداء الأمير الحلبي أن يقصده حالما يستقر في دمشق، فكان لنا ذلك، وحالما تعرّفنا الشيخ شعرنا أننا التقينا أفضل وجوه دمشق تقوى وزهداً وعلماً، وجلال مكانة، وكرماً وحسن وفادة لضيوفه، فرحب بنا غاية الترحيب، وقرأ الرسالة التي وجهها له أمير أمراء حلب التي جلبها سيدي الهفهاف له، فكان الشيخ المؤمل يقرأ كل سطر منها بتؤدة واهتمام، وحين أكمل قراءتها وضعها على عمّامته تبجيلاً وتكريماً لصاحبها، وحاملها، وتهلّل وجهه وهو يرحب بنا، وسأل سيدي عن أمير الأمراء والأوضاع في حلب، وكان يهز رأسه بأسى وهو يسمع عن أحوال أهل حلب ويعلق على ما يقول سيدي بين الحين والآخر: "وقعت البلاد في أيدي عصابة لا رحمة في قلوبها ولا دين عندها. لا حول ولا قوة إلا بالله، حتى هنا في دمشق الأوضاع مشابهة لما يقع في حلب من معاص وبلاءات!!" "واستدرك" بل هنا أسوأ وأنكى. نسوا ما مرّ بالشام من وباء الطاعون الذي أهلك من أهلك، من هم خير منهم، وكأني أتذكر الآن من الصحابة أبرزهم أبو عبيدة بن الجراح، الذي كان والياً على الشام حينها، وقد خطب في الناس طالباً منهم الحذر من غضب الله عندما اشتد عليهم الوباء قائلاً: "يا أيها الناس أن هذا الوجع رحمة ربكم ودعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم، وإن أبا عبيدة يسأل الله تعالى أن يقسم له من هذا الطاعون حظه." فكان ضحية للطاعون وبراءة لأهل الشام من ذنوب اقترفها ممن أتوا هذه البلاد وخلفه ولاية الشام معاذ بن جبل، الذي أودى الطاعون بحياته أيضاً، وحين ظهرت عليه أعراضه حيث ظهرت في راحة يده، فنظر إليها وقبل ظاهر كفه وقال: "ما أحب أن لي بما فيك شيئاً من الدنيا." وأين هؤلاء من هذين الطاهرين، الذين تحملوا الوزر كاملاً، ويومها ياهفهاف كنت أنا في مقتبل العمر، ورأيت بلاءات الطاعون!! وقد كتب لي الله الحياة، وقد نعي القائدين من الناس، فقالوا عنهما، لقد تفرّق الأخوان، المبشّران بالجنان، وما علما أن هذا اللقاء والحوار هو آخر لقاء يجمعهما في دنيا الناس. ونشرت العليّ أجنحتها، واحتضن الطاعون أرض الشام، وعمّ الموت بأهل الإسلام، وحلت مهلكة ما عرفتها الشام في تاريخها، حتى أن القبيلة الكاملة كانت تموت بأسرها، وحتى أشكل على أمراء الشام أمر توزيع الميراث، فكتبوا إلى عمر، يطلبون حلّ هذه المعضلة، فكتب إليهم عمر: أن ورثوا الأحياء من الأموات، ولا تورثوا الأموات بعضهم من بعض!!".

وكان الرجل أيامَ هذه المحنة يلقي أخاه فيقول له: كيف أصبحت من الطاعون؟! ويلقاه عشيةً فيقول له: كيف أمسيت عنه؟! لأن أحدهم كان إذا أصبح لم يمس، وإذا أمسى لم يصبح!!...

فأصبح الموت هو حديث الناس، وانتظار الموت هو هاجس الناس، فكان الناس في المصيبة سواً. فهذا الحارث بن هشام، صاحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يدخل الشام قبل الطاعون، بسبعين من أهل بيته، فلم يرجع منهم إلا أربعة. وتنهى الشيخ المؤمل تنهيدة طويلة وبعد صمت قصير:

سألنا عن الخان الذي اخترناه لسكننا، فاخبره سيدي، فقال بيتي تحت أمرك في أي وقت تشاءون، فشكره سيدي، وكنا نعرف ضيق حاله وفقره، بالرغم من كرمه، ثم أخذ يسأل سيدي عن العراق وأحوال أهله، وعن حقيقة الأحوال في الكوفة وأوضاع الرعية تحت حكم ابن عم رسول الله، وجرى الحديث طويلاً بين سيدي الهفهاف والشيخ المؤمل، وكان يسأل بلهفة الباحث عن الحقيقة، لوقائع يشك بصحتها في روايات بني أمية وفقهائهم في دمشق، وقد ضاع الصدق بين أفواه الكذابين، وكرر قوله "وهذا دأب عصرنا، بين منافق وكاذب ومتعيش على السحت من لغو الكلام واجتراح سير الناس بالنميمة!!" ضاعت حقائق بسبب السياسة، ومتطلبات أهل كرسي الحكم، وأظهرت الأسطح الأكاذيب لتحل محل الحقائق، فصار الباحث عن حقيقة ما يجري مهمة صعبة، فوجب على الشيوخ التقاة البحث عنها من مصادر صادقة، مخلصاً للدين ولله، فلا يعترى ما تذكر من أكاذيب دهرنا الفاجر ولا أدري بعد مئة سنة وألف سنة ماذا سيثبت من أكاذيب وما سيسفه من حقائق!!

كان وجه الشيخ يشرق بالبهجة كلما عرف من سيدي جديداً لم يكن يعرفه، أو كان يعرف عنه ما يجعله هلاماً لا يمكن الوثوق به والاعتداد به، ومن المسائل التي سألت سيدي عنها، كانت عن قضية الأفك، الذي اتهمت به مارية القبطية زوجة الرسول!! وحقيقة علاقتها بإبن خالتها "مأبور" فقال سيدي بعد أن استغفر الله من أقوال الكارهين لرسول الله والمنافقين، وذكر أن المقوقس في مصر أهدى جاريتين لرسول الله هما مارية وسيرين وحمار اسمه دلدل، وهو أول حمار تشهده يثرب في ذلك الوقت!! وأرسل هداياه مع صالح القبطي ابن عم مارية، فأهدى الرسول سيرين إلى حسان بن ثابت الشاعر، ليطيب خاطره بعد أن جلده وقد كان شاعره وصاحبه، وكان سبب جلد الرسول لحسان، لأنه قذف عائشة أم المؤمنين بالزنى والخيانة!! وضربه بعد ذلك ابن

مضعون، فاحتج حسان على ابن مضعون، لكن الرسول نصح حسان بالعفو عنه، فلما عفا عنه أهداه "سيرين" واختار الرسول مارية وأجلسها في بيت بعيد في المدينة، وهي وحدها مع امرأة تخدمها، لكنها كانت بلا أهل وصحبة من المدينة. كان الشيخ المؤمل يهز رأسه إيجاباً، دلالة على تتبعه واهتمامه!! وأكمل سيدي:

— ولأن مارية القبطية غريبة، فإن "مأبور" ابن خالتها، الذي جاء معها من مصر، وقد اشترته عائلة في المدينة للعمل في بئرها، وسقاية نخلها كان يزورها في بيتها ويجالسها، ويعمل على مؤانستها، والإتيان لها بحاجاتها، فلما حملت من النبي، وبان حملها!! انتشرت الألسنة حدادا تقول فيما تقول: عالج يدخل على علجة، واتهموه بمواقعتها، فصار "مأبور" ملعوناً في يثرب!! وما أن نمّ للرسول بعض ما قيل، حتى أرسل ابن عمه علي بن أبي طالب ليثبت لأهل يثرب من المنافقين كذب ما يشاع وما يقال، ويقطع تلك الألسنة المنافقة، التي تطعن في شرف الرسول!! ووقتها كان مأبور متسلقاً نخلة يقطع كربها وليفها، وما أن رأى علياً أسفل النخلة، وبيده سيفه ذو الفقار!! فارتبك وحدثته نفسه بأمور كثيرة، وكان قد تجمع جمهور كبير من أهل يثرب جاءوا ليروا نهاية القبطي الملعون "مأبور" الذي دنس عرض الرسول كما كانوا يظنون، وما أن صار مأبور على الأرض، وكان قد فهم سبب مجيء ابن عم رسول الله، حتى كشف ثوبه لجمهور يثرب، فإذا هو مخصي منذ الطفولة، ليقوم بخدمة أسياده، والدخول على نساءهم وبناتهم، فلا يخشى منه على أعراضهم!! وما أن كشف مأبور عورته حتى غطى ابن عم الرسول وجهه خجلاً، فهو لا يتطلع إلى عورة أحد إلا وحجب عينيه عن منظره، حتى لو كان في الحرب وشدة وطيسها!! فأسقط ذلك ما كان يردده منافقو يثرب حول مارية، أم إبراهيم وأم المسلمين!! وردد الشيخ المؤمل:

— بأبي وأمي يا رسول الله وابن عمك علي سيفك وعدلك، الذي افتدك بنفسه ليلة الهجرة.

وأكمل سيدي الهفهاف:

— وولدت مارية إبراهيم، وفرح به الرسول غاية الفرح، ولكن الله تعالى لحكمة لا يعرفها غيره أخذه إليه وهو لا يزال صغيراً!! وتوفيت مارية في فترة حكم عمر بن الخطاب، سيدة جليلة. أثنى عليها كل من التقاها، ونال بركاتها!!

فصلى الشيخ المؤمل على الرسول الكريم وحمد الله وسبح بحمده. وعرف الشيخ أن في عيني سيدي سؤالا عن قضاء حاجته للتوسط له لدفع فدية أبيه لفكه من الأسر، فابتسم الشيخ، وقال:

- في الغد بإذن الله أصحبك إلى مدبر أمور الأسرى والمساجين في شأن أبيك، وسيكون خيراً إن شاء الله.

ثم سأل سيدي:

- هل عرفت من هو أبو عامر؟

فابتسم سيدي من دون أن يحير جواباً، فأكمل الشيخ ساخطاً:

- أنه ابن حاطب بن أبي بلتعة، الذي كان دسيسة على المسلمين في يثرب!! الذي كتب للمشركين في مكة يخبرهم أن أن النبي قادم إليهم بجيش ليحاربهم. وكان خروج المسلمين في تلك المرة لفتح مكة وقد أوصى الرسول بكم كل ما ينبه المشركين لخروجهم، لنلا يفجعوا بخسائر بشرية لا مبرر لها!! ولكن ذلك الحاطب كان يرجو من فعله ذاك أن يكسب من المشركين في مكة ودّاً له ولأهله هناك، وأعماله في أم القرى. وقد كرم الأمويون ما قام به ذلك الجد فولوا حفيده مناصب عدة، من إدارة أموال الخراج بدمشق وتدبير سجونهم وبيع أسراهم لمن يشتري، لينفقوا من ذلك الفيء على جواريتهم وملاهيهم!! وهكذا تدار الأمور يا ابن الراسبي. أرايت مقدار ذل أشراف الناس في دمشق؟ وراحتنا في مملكة الشام السعيدة؟ إلى الغد يا ابن أخي وعسى الله أن يجعل خيراً في مجيئك. ارتفع صوت المؤذن معلناً حلول وقت صلاة المغرب، فنهض الشيخ لتأدية الصلاة ونهضنا معه، فسأل: هل تصليان؟

فقال سيدي مبتسماً: هل قالوا لكم أن علياً وجماعته تركوا الصلاة؟ فتمتم الشيخ ساخراً:

- هذا ما يخبرون الناس به بالشام وكل المناطق الأخرى التي وصلها جيش الشام في الجزيرة وغيرها وفي كل صلاة ليلاً ونهاراً أنكم ارتددتم عن الإسلام فلا تصلون ولا تصومون!!

وما أن فرغنا من صلاة المغرب حتى عرج سيدي صوب محلات الصرّافة في سوق دمشق الكبير، وما أن قدم سيدي الدنانير الذهبية التي يحملها، حتى ارتسمت الدهشة على وجه الماسك بزمام الصرّافة، فاخذ ينادي عماله قائلاً:

- هذه الدنانير الذهبية الحقيقية!! يا الله.. هذه هي دنانير الأباء والأجداد في زمن الخير زمن الأمبراطورية الرومانية التي لم تغب عن ضياعها الشمس،

حتى وفد إلينا العرب الأجلاف !! فذهب الخير والبركة وحلت محلها اللعنة على أهل الشام، أنظروا أنها ليست كدنانير الأمويين الذهبية، التي تنفخها فتطير في الهواء !! ونصفها مغشوش، وتم خلطه بالنحاس فما أن تستعمله لفترة شهر حتى تظهر ثقبون خبث النحاس في مركز دائرته. "ورفع الدنانير الذهبية عالياً ليراها جميع من في الدكان" وصاح: هذا هو الذهب الحقيقي ذهب الأجداد والأباء. متعوا أبصاركم برؤية هذا الدنانير التي لم يأت زمان الأمويين بمثلها ولن يأتي بها بعد ألف عام من حكمهم الرشيد !!

وأمر لنا بمجلس مريح في حضرته !! وأسرع عماله وخدمه بجلب آنية فاكهة عليها من كل لون، ليضعونها أمام مجلسنا، وأخذ مالك الزمّام يعاملنا معاملة الأمراء، وكان يدقق بالصنعة الدقيقة للدنانير الذهبية التي بين يديه، وازدادت الدهشة على وجهه، وسأل سيدي من أي البلدان قدومنا؟ وما أن عرف أننا من عرب العراق، حتى قال:

– غير مستغرب ما تملكان من مال !! فصاحبكم – يعني علياً أمير المؤمنين – يوزع عليكم فيء الفرس والروم، ولا يستبقي لنفسه وعشيرته شيئاً !! مثلما يفعل صاحبنا في الشام.

ثم أخذ يزن الدنانير بميزان من الخيوط الدقيقة، ويسجل على ورقة الأوزان، وما يساويها من الدنانير الذهبية الشامية، بينما كان عمال صاحب الزمّام يمررون مجامر البخور فوق رأسينا، لئلا تصيبنا عيون الحاسدين !! ولكي ينالوا نظير ذلك حسنة مما تفضل به الله علينا، وتم تحويل المال إلى ألف ألف ومئتي ألف دينار ذهبي دمشقي !! وقال مالك الزمّام هامساً:

– عليك أن تحرص على مالك، فالمبلغ الذي صار بحوزتك الآن كبير جداً !! ويمكنك أن تنفق منه على جيش من ألف رجل، لسنتين أو ثلاث دون أن ينفد !! وأسرع عمال دكان الصرافة، فأحضروا لنا صندوقاً مرصعاً بالشذر الملون، وله قفل حديدي غليظ، فوضعوا فيه الدنانير الذهبية، فلصف بضوء شعلة فانوس الدكان، وقد بدا لنا أن الدنانير الشامية قد سكّت قبل فترة وجيزة ولم تستعمل في السوق بعد، وتلألاً فوقها النقش، الذي لم تتوضح لنا معالمه في ظلمة الليل، وزودنا مالك الزمّام بصك البيع وقد مهر بختم الصرافة وختم مالك الزمّام، وفيه تاريخ البيع والشراء واسم البائع والمشتري، وهو المتعارف عليه في محلات الصرافة أثناء وجود الرومان وبعدهم في الشام، وحين جاء المسلمون إلى دمشق وعموم الشام، أبقوا أحوال الصرافات كما هي ولم

يغيروها حتى لا يهدوا ما سبق إقامته والسير على منواله، وليبقوا التجارة على ما تعارف عليه التجار والناس من معاملات.

وحملت صندوق المال الثقيل ولكن بسبب جرح قدمي القديم، وما تسبب لي به من عرج أخذ سيدي الهفهاف الصندوق مني قبل ذلك ووزع منه على العمال حسناً، ما يكفي لكل واحد منهم شهراً من الأنفاق عليهم وعلى عائلاتهم، ففرحوا وأخذوا يدعون الله لنا، رافعين أيديهم إلى السماء بفرح شديد.

وحمل سيدي الصندوق ووضعها في رحل أحد الحمارين اللذين أكثريناها لتنقلتنا في مدينة دمشق، وعدنا بحملنا الثقيل والثمين إلى الخان، وقد اشترى سيدي قلاطين بأحجارهما الكريمة واحدة لسيدتي زوجته والأخرى لزوجتي، وقال ضاحكاً:

— ستفرح السيدتان غاية الفرح، فالنساء مهما بلغ زهدن يعشقن الذهب يا مسعود!! وقد غلبنى الفضول وأوشكت أن أسأله من أين أتى بكل هذه الدنانير الذهبية؟ ولكنني تذكرت نصيحة المهند الأب لي أن لا أسأل ما ليس من شأني، حتى يقول لي صاحب الشأن ما يودُّ قوله، فإن صمت، فلا أسأل عما لا يجب ذكره!!

فابتسمت وهزرت رأسي إيجاباً. لم يترك سيدي فرصة للتعرف على مزيد من رجال الدولة في دمشق إلا وأغتمها، فأرسل في ذلك الليل إلى دار الشيخ المؤمل، الذي تعرفناه عند أول دخولنا دمشق مؤونة عام كامل من حبوب القمح والشعير ومطراً من العسل في أربع جرار!! والمطر من العسل يعني بلغة تجار دمشق حمل جمل من العسل، ومنا من التمر وعدة رؤوس من الضأن السمين، وثلاثة عجول مكتنزة الأرداف، وألف دينار ذهباً. نقل كل تلك الهبات أكثر من عشرة حمالين وبعث سيدي مع كبيرهم رسالة، بلغ فيها الشيخ المؤمل تحياته، وشكره لمساعدته، وأضاف أن ما بعث مع هؤلاء الحمالين ليس سوى جزء ضئيل مما يستحق من التكريم.

استقبلنا الشيخ المؤمل مع عطاء سيدي الهفهاف وهو مفرع الرأس حافي القدمين، وقد صحبت الحمالين لتأكيد وصول الهبة لصاحبها، وكذلك لتسليمه صرة الدنانير الذهبية، لينهض بأهل دمشق، ويبث بينهم رسالة السلام بينهم وبين إخوتهم في العراق، وإحقاق الحق والحث على عدم اتباع الباطل!!

واتفق سيدي الهفهاف مع صاحب العرصات المطلة على أحد رياض دمشق أن يبيعه داراً كبيرة قريبة من دار الحكومة وكانت داراً فارهة في مطلعها بستاً

واسعة وفي ظهرها زريبة ومعلف للخيل وسقائف لوقوف التخترونات، أينعت بين أرجاء البستان أغلب الفواكه الشامية، المشهورة بحلاوتها ونضجها المبكر، وكانت الدار فخمة التأثيث، وقد عمد مالكةا السابق على بيعها بأثاثها الكامل بعدما أصيب بخسارة كبيرة في تجارته بغرق السفينة التي حملت كل ما يملك من تجارته التي وضعها في حمولة توابل هندية، وفي الدار كان يخدم أكثر من ثلاثين خادماً وطباخاً وأكثر من عشر جوار روميات وفارسيات ومن أول يوم لنا في الدار عتق سيدي الجواري، ومنحن صكوك عتقهن، ففرحت سيدتي شهزاد، وقد قطبت عند حلولها في الدار، وهي ترى نساء كفصوص الألماس، شقراوات وحمراوات وسمراوات وبيضاوات كالجبين الفارسي، وقد فاق جمالهن كل جمال وسبحان من خلقهن بهذه التفصيلات والهيئات الأنثوية التامة، وعلاوة على كل ذلك الجمال يسحرنا بركة كلامهن، وبهاء ابتساماتهن، وهن بتمام شبابهن، وفي علو من التهذيب والأناقة في الملبس والمعشر، لا تجده إلا لدى أميرات ترّبن في قصور ملوك، مدلات لم يمسهن حر ولا لغوب، فهن لا يفترن عن المرح، والحركة في أرجاء القصر كالفراشات الملونة في بستان من الزهور، فيسحرن كل من أطل عليهن لحظة، وقد زين الله وجوههن بعيون واسعة وشفاه صغيرة مضمومة مثل ورود مقفلة، واعناق طويلة، وأجساد غيداء، فصلها خالقها فأحسن تصويرها.

وسألت سيدي عن سبب شرائه هذه الدار الكبيرة، ونحن لن نمكث في دمشق سوى أيام قليلة كما عرفت منه، وسنمضي عائدين بإذن الله إلى البصرة سالمين غانمين مسرورين بافتداء الغالي والده المهند وإطلاقه من الأسر؟ فابتسم وقال:

- يا مسعود... كلفني بهذا شيخي أبو علي الحسين في خطاب منه، وأنا في طريقي إلى حلب، فوردني كتابه من الكوفة!! ولم أخبرك بخبره وأوصاني في رسالته الكريمة "أن أشتري هذه الدار القريبة من جامع دمشق الكبير، لتكون ملجئاً للسبايا، ومن يقع في أسر بني أمية من آل بيت رسول الله، وأن أتركها وقفاً لهؤلاء عند مغادرتي دمشق. يتصرف بها من بعدي الشيخ المؤمل أو من ينيبه عنه" فقلت متعجباً: وهل تبلغ بهؤلاء الجرأة على سبي نساء وتأسير رجال من آل بيت رسول الله؟ فقال: الله أعلم ورسوله وآل بيت رسوله، وما فعلت إلا ما طلب مني أبو علي الحسين، فلاتعجب. فإن لهذا الرجل كرامات لا يعرفها إلا خلصاؤه، ومن اعتمد عليهم من أصحابه."

وما أن حل مساء اليوم ذاته حتى حللنا في الدار، وسلم سيدي الهفاهف الجواري صكوك العتق وكل واحدة منهن استلمت صك عتقها ومعه مائة دينار ذهبياً، لتبدأ حياتها الحرة به، في أرض الله الواسعة.

شكرت الجواري سيدي وقالت له كبيرتهن، أنهن لم يقابلن أحداً بمثل كرمه، ووهبن حريتهن وما حلمن به أن يكن سيدات أنفسهن، فلا سيد لهن سوى الله خالقهن، وكان ما تحقق لهن أمل غامض يراودهن في الأحلام وتطيش سهامه حالما يصطدمن برغبات من ملكهن واستعبدهن، واعتبرهن من ضمن متاعه وأثائه وخاصته، ومثلما اشترى بقية ما اشترى من ضأن وخام ورياش وعقار وطعام !!

ولم يكتف سيدي في اليومين اللذين سبقا زيارته لقائد بيت اللقلق، وهو البيت الذي احتجز فيه الأسرى، وهو قريب من سوق الزرب الدمشقي، أن يرسل لأبي عامر ابن عمير أمر الخراج بغالاً محملة بخيرات الجزيرة العربية والرومية، القادمة من الأنضول، وأخرى من بلاد فارس، والصين، وفيها أنواع الديباج من الحرير والجوخ والمطرز بخيوط الذهب والفضة، ومما يتقوت به الناس من دنان الزيت الحر، وسفوط مملوءة بأشكال الحلى المذهبة.

وعرفته بشخص من أرسلها إليه، فصار مذهولاً بعطايا سيدي الهفاهف، فلهج بالشكر ومدح كرمه، سائلاً عن حاجته فيقضيها له عن طيب خاطر !! فأخبرته أن سيدي الهفاهف عالي المقام يريد مقابلته، في بناية اللقلق صباح الغد، فرحب بي وبمقدم سيدي إليه.

ووثقت هذه الأخبار عن رحلتنا وما فعله سيدي الهفاهف في البرجمان في يوم السادس من صفر سنة 39 هجرية بطلب من سيدي الهفاهف في أن أنوب عنه في تسجيل وذكر ما يحدث لنا في رحلتنا العجائبية إلى دمشق والدخول على حكامها الأمويين، والتفاوض معهم لإطلاق سراح أسرى معركة صفين وعلى رأسهم شيخي وسيدي المهند الراسبي والد سيدي الهفاهف وشيخ مشايخ قبائل الأعمش في الأخماس.

وسيدي عادة لا يجد الوقت الكافي لتسجيل ما يمرُّ بنا من أحداث فأنوب عنه، وفي مرات أخرى كثيرة تنوب عنه سيدتي زوجته شهناز التي اعتذرت منذ أيام عن الكتابة بسبب حملها، وأقتراب موعد وضعها لطفلها، وقد اشترى سيدي هذه الدار الدمشقية، فيما بدا لي، وقبل أن يصرح لي سيدي الهفاهف بالغاية من شراء هذه الدار، لقضاء شهور الحمل المتبقية لزوجته أيضاً، وكذلك

للبقاء عدة شهور عقب الولادة خوفاً على الوليد مغبة السفر ومصاعبه، التي لا يطيقها الكبار، فكيف يستطيع تحملها طفل حديث الولادة، لا يقوى على حر وبرد وظماً ورياح عاصفة، ومطبات سير على طرق غير ممهدة لا ترحم كبيراً ولا صغيراً.

وما أن حللنا بالدار الدمشقية، وقضينا ساعات في بستانها وارف الظلال، المغطى بفضاءات من داليات الكروم، وأولى طلائع زهور الرمان، وامتلات أبهاء الدار بأريج الليمون والجوري والقرنفل، فلبهو والغرف مجاز يطل على البستان الواسع، ويسمح لتيارات منعشة من الهواء للمرور إلى البهو والغرف الفارحة، المضائة بشرفاتها المفتوحة على كل اتجاهات الشمس في شروقها وغروبها، فتضيف للأبهاء رونقاً وإضاءة وتنويراً يصعب وصفه.

10 ربيع أول 39 هجرية

"ليس الغريب غريب الوطن. الغريب غريب في كفنه ولحده لم يترك عملاً في
دنياه يؤنسه أجره بقبره !!"
الهفاهف الراسبي

وفد إلينا عدة رجال قالوا أنهم مبعوثوا أمير المؤمنين، فتبادر إلى ذهني أنهم
يقصدون بأمير المؤمنين علياً بن أبي طالب، فهذه صفاته وتعريفه منذ كنا في
يثرب !! لكنني تذكرت أنني في دمشق، وليس في الكوفة !! وفي دمشق هناك
من سرق التسمية وأدعاها له دون سواه !! فمعاوية خلع على نفسه هذا اللقب
النفيس، ولكن هي الأيام وأقدار الدهر، ومهازله، بأن جعلت معاوية بمصاف
علي ابن أبي طالب ونداً له، فلقب بما يُلقب به ابن عم رسول الله وخليفته !!
وفكرت لحظتها أن عيون معاوية أبلغت عن وجودي في دمشق، وأن هذا
الداهية سيطلبني، لمعرفته الأكيدة من يكون جدي، ومكانة أبي عند آل بيت
رسول الله !! وكنت قد تنبأت مع نفسي، أنني سأقابل معاوية يوماً، فأكون في
اختبار أمام الله ورسوله !! ويكون كل ما سأقوله بديوانه في ميزان أعماله في
الدنيا والآخرة، فأما الفوز بهما أو أنال خزي الدنيا وويلات الجحيم !!
سأمشي أذن على جسر الخطايا كما في يوم القيامة. تحت الجسر نار وأجيج
ألسنتها يصل كهزيم الرعد، وعذابها الخالد لا مثيل له، فما أن تزل القدم، حتى
يضمك لفحها إلى متنها الفوار وقعرها الذي ليس له قرار.

توكلت على الله وطلبت مهلة من المبعوثين، ريثما صليت ركعتين لله،
وأوصيت شهنزاد ومسعود وزوجته خيراً وأبلغتهم ماذا يفعلون إن غدر بي في
مجلس معاوية، ولكنني طمأنتهم أن لا شر سيصيبني منه، لأنه في وضع يتحجب
فيه لأصحاب علي ومريديه ليستميلهم، فيجرد شجرة علي من أغصانها
الباسقة !! فالسلاطين يعدون وتعادل قاماتهم بمن يتبعهم من المخلصين من
الأشراف وزعماء القبائل، وأهل الفكر والحوول والصولة والمال.

وبالرغم من تطميناتي لهم إلا أنني قرأت في عيونهم نظرات الخشية والهلع
مما هو قادم، وكل ما حولهم لا يبشر بخير، فأهل دمشق يصحون على أصوات

قرع طبول الجند وفرقهم التي تغذ السير إلى مكان ما لنهب القبائل الراضية لحكم معاوية وقتل رجالها وأخذ البيعة قسراً ممن تبقى منهم حياً، وتنص بيعتهم حسبما وصلنا على أنهم عبيد لمعاوية يبيعهم ويشترتهم يقتلهم أو يتركهم يعيشون!! فالأمر متروك له فيهم وفيما يملكون من دواب وما ينتسب إليهم من ذرية من أنث وذكور. لكنني أكدت عليهم، أن الآجال بيد واحد وليست بيد سلطان من السلاطين!! وودعتهم مبتسماً وأنا أرى الدموع تذرف من عيونهم، وكانوا يشعرون بنظراتهم كمن يشعرون محبوباً إلى لحده.

عند باب الدار وجدت ثلاثة تخترونات تنتظر خروجي، وحولها ثلة من حرس الخلافة، وانطلقت العربية الوسطى بي وتسبقنا واحدة والأخيرة تتعقبنا، وقبلنا تسير ثلة من الفرسان المدججين بالدروع ويمسكون بأيديهم رماحاً تنتهي نهايتها برايات صغيرة خضراء اللون، وجعلوا معي في العربية مرافقاً شديداً السواد لم ينطق بكلمة طول الطريق إلى قصر سماه الحارس وهو يحدث الحوذي بـ "قصر الياسمين" عرفت فيما بعد أن هذا هو قصر معاوية، الذي يقضي فيه نهاره، لتسوية أمور الحكم، وله قصر آخر يقضي فيه ليله، وله إضافة لهذين القصرين قصور أخرى كثيرة في انحاء كثيرة من دمشق ولكل واحد من هذه القصور جعله لقضاء حاجة من حاجات الحكم، ولأنسه قصر وراحته قصر وآخر لاعتلاله ولزوجاته قصر آخر وهكذا!!

بعد مرورنا من بوابة قصر الياسمين طلب مني ماسك زمام فرقة الحراسة ترك سيفي لديهم حتى عودتي من مقابلة خليفتهم، وأعطاني ورقة ممهورة تؤيد إستلام سيفي، ومن نقطة الحراسة تلك قادتنا العربية في طريق مشجر من الجانبين، وقد ظهرت بوابة القصر، المتوجة بوجوه الأسود الخشبية المزخرفة، والمرصعة بعيون فيروزية تضيء ما أن يقع أشعاع الشمس عليها، ومررنا من الصالة الرئيسية بعد أن ترجلنا من العربية، وقادني مرافقي في الممر حتى وصلنا إلى حارس آخر أعلى رتبة وتحت أمرته عدد من الجنود وهم يقفون بهيئة الاستعداد عند باب بهو واسع يؤدي إلى قاعة جلوس فارهة، بأثاثها ورياشها، وكنت أنظر إلى كل تلك البهجة والاحتياطات والمظاهر باستخفاف!! فطالما خدعت هذه المظاهر ملوكاً وقادة، فظنوا أنهم باقون إلى دهر لا ينتهي في عزه وسؤودده!! وسيخلدهم سلطاتهم وأموالهم، وأخذت أقارن بين هذا وذاك الذي تركته في الكوفة، فقلت بصوت واطيء "بأبي وأمي أنت يا أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب. باب بيتك الواطيء وحجرة معيشتك

التي تشبه اللحد، الضيق، الذي إعدته لسكنك، لتحكم إمبراطورية لها سعة إمبراطورية روما وفارس مجتمعين في أيام عزهما، ومجدهما!! لهو عندي أكثر وجاهة وفخامة ومهابة من كل ما رأيت من قصور حكام بني أمية فخامة وفراهة، أين هم من شسع نعلك والله ما وصلوا إليه، أين هذا الثرى من من تلك الثريا، المعطرة بأريج الزهد والكياسة والإيمان والعلم والحلم، أين كل هذا من رفقك باليتامى والمساكين، وعدلك مع أصحاب الحقوق، وتساءلت مع نفسي: كيف يصل إليك أيها الأمير معاوية طالب الحاجة والباحث عن عدلك من رعيتك وكل هذه الحصون التي أحطت نفسك بها؟

وانقطع حديثي مع نفسي عندما دخلنا أيوان الحكم لمعاوية، فرأيت رجلاً جثلاً كثير الشحم واللحم وله عجيذة عظيمة، أنفرشت على سرير الحكم كلية ضخمة لكبش سمين، امتد كرشه ليحتك بالمائدة التي مدت أمام كرسي عرشه الذين زين بالذهب، والأستار الحريرية. أبيض الوجه يشوبه بثر كثير، وله لحية أثيثة مثلثة شقراء، بلا شارب وبشفتين غليظتين، يغمز بعينه أكثر مما يتكلم!! وهو مشهور عند الأمويين بهذه الحركة في العينين والحاجبين وبين أهل يثرب، وكان يدعى بالغماز اللماز، كتعبير عن دهائه وكثرة حيله في تحويل الباطل إلى حق وتحويل الحق باطلاً، ويعود غمز عينيه غير المتحكم به لإصابته منذ الطفولة بعصا اللعب، عندما كان يلعب مع الصبيان في أم القرى، وقد بدت أسنانه وقد رصفها بصفائح الذهب، وهو دائم الابتسام والغمز بعينه، فهو يغطي غمزه بابتساماته المتوالية ظناً منه أن رؤية أسنانه المصفحة بالذهب ستغطي على غمزه، وتبعث الدهشة بمن يراه أو يكلمه!!

وكانت المائدة التي أمام سرير حكمه وحوله مجموعة من خلصاء الأمويين من الشيوخ والشباب يجلسون حول المائدة وأمامهم أعواد الشياه المشوية، وغمر من الطعام، قصاع متنوعة من الشيزي، المهيلة، والمسمنة وعليها أعجاز الحملان الصغيرة، وكلها متبلة ومزعفرة، وعلى جانبي المائدة، السمك الرضراض والطيير المحشى وأنواع الحلوى السائلة كأشربة!!

فسلمتُ فلم يرد أحد قبل أن يسمعوا رد معاوية على سلامي، الذي قال لي ملايناً:

— يا ابن أخي هلم لتشاركنا زداناً، وهو كثير من أنعام الله، واعرف أن ليس لدى مولاكم مثله!! فصاحبكم لعمرى يحسب للرغيف الجشب حساباً، والجلوس إلى الموائد ترفاً!!

شكرت معاوية مترفعاً، وإجبتة فيما يخص مولاي ابن عم رسول الله، فقلت:
- لا والله يا ابن سفيان تركت مولاي علياً يوزع على تابعيه ذهب فارس
وجواهر بلوستان وميرة مصر!! ونصيب كل واحد منهم بقدر نصيب مولاي
علي ابن أبي طالب!! نعم لأمير المؤمنين كما لقتبر خادمه من الفيء، كل مسلم
يتساوي مع أخيه في الفيء والمغانم والخراج!! وليس بين أتباع أمير
المؤمنين علي فلان وابن فلان، كلهم في دين الله سواء في المكره والمغرم!!
رفع معاوية رأسه عن صحن طعامه الخزفي، ونظر صوبي وقال، ودهاؤه
يقطر من كل كلمة:

- علي يعرف كيف يختار أصحابه ورجاله والمدافعين عنه في حضوره
وغيابه، بوركت يا ابن أخي!!

ثم التفت إلى مَنْ كان بمعيته، وقال ساخراً منهم:

- لو كان أحدكم في محضر علي، وله طلبه عنده، وحاله مثل حال ابن أخي
هذا الواقف أمامكم لتبراً مني، ولأظنه ضربني بمركوبه وهو علي بعده في
الكوفة عن الشام!! ولشتمني بأقذع الشتائم، مظهراً صفات الشياطين
والعفاريت فيّ لا عناء اليوم الذي عرفني وصاحبني فيه!!

فضج الحاضرون بالضحك من سخرية معاوية بهم!! لكنهم لم يتوقفوا عن
التهام الطعام، فأكمل يخاطبني:

- لنترك هؤلاء الأندال!! فهم لا يهمهم الشتم ولن يضرهم الهزء بهم، ولن
يثنّهم عن التهام طعام معاوية شيء حتى لو سلح الطير الأبابل فوق
رؤوسهم!! يا ابن أخي ما أراك إلا صادقاً وفاقياً، ولذا أردت منك أن تصف لي
علياً قبل أن تفارقه قادماً إلينا. قل ما له وما عليه!! فأنا مصغ لما تقوله عنه.
وأريد معرفة هذا الرجل فلم اعرفه قط وقد عايشته سنوات كثيرة، لكنني ما
فمته أبدأ، عسى ولعل أجد لديك ما يفيدني في فهمه!!
صمت قليلاً واعتذرت قائلاً:

- اعفني من هذا، فالمكان مكان هرس ومرس وقالت العرب عند الهرس
أبطلوا الدرس!!

صفق معاوية بكفيه، معلناً للخدم انتهاء فترة الطعام!! فعلت غمغمة الحاضرين
ولكنهم سرعان ما صمتوا ونفذوا طلب خليفتهم، وقلت في نفسي "معاوية هو
داهية العرب ولو لم يكن كذلك لما صار فوق هامات هؤلاء الدهاقنة من شيوخ
بني أمية!!" وأسرع خدم سود وبيض البشرة يجمعون آنية الطعام من علي

المائدة وآخرون اسرعوا بتقديم المناديل البيض، ليمسح المدعوون آثار الطعام عن أكفهم وأفواههم وأسرع المعطرون يحملون آنيات العطور يبللون الأكف والمناكب، وما أن خلت المائدة من أي أثر للطعام، وعندها أخذت عيون الحضور تنظر صوب من حرمهم لذات طعام مائدة معاوية التي توصف في المجالس بأنها تشبه ما وعد به الرحمن عباده المؤمنين عندما يحلون في جناته.

قلت له :

- أعطني الآمان فيما سأقوله عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، لأنني أظنك كباقي العرب يهتك إن لا تقال صفات خصمك بما لا تشتهي نفسك، وأنت ملك تجلس وحوالك جنك ومستشاريك وخدمك وعبيدك فأنا من غضبك ما أنال.

قال معاوية بصوت رخيم:

- لك الآمان يا ابن أخي قل فلا تثريب عليك، ولن أعفبك إن غبت أخي علي من وصف حقيقي ولمن تركت من جماعته في الكوفة يسودون أهل العراق وما حولها.

فقلت بصوت عال لا يقل رخامة عن صوته:

- إذا كان ولا بد، وأنا لا أطلب أماناً منك لما سأقوله، وألهمني الله استعادة ما رأيت من صفاته وأحواله. فأذكر ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم - فردد الحاضرون الصلاة على محمد كما فعلت - أن الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا، وهذا ما جاء أيضاً في القرآن الكريم، بقول الجليل: " فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد." قلت هذا لأنني اعرف أن ما أقوله عن سيدي علي سيذهب مذهب الريح في هذه القاعة فلا يترك أثراً، ولكن هي كلمات أقولها في حب رسول الله ووصيه علي بن أبي طالب لمن يأتي بعدنا ولا يعرف فضله وهمته وعلو شأنه، وهذا والله مكسب ما بعده مكسب لي في الدنيا والآخرة، ولمن سمعني ووعى، فرسخ في نفسه ما أقول، أما من غره السلطان وترفه ونزقه وجاهه، فهذا شأنه وهو شأن ملوك وأباطرة غادروا مخزن الحياة إلى مخزن الأموات، فلم تبق الدنيا من ملكهم أثراً ولا يمضي الدهر حتى ينسى ذكرهم، فله العزة جميعاً من قبل ومن بعد.

أما بعد من وعى، فهذا شأنه، وأن لم يع فلن يرى حقيقة ولا صواباً إلا حين يكشف الله تعالى عنه الغطاء فيغدو بصره حديداً يرى ما لا تراه أحياء اليوم

وأموات الغد. طلبت مني أن أصف لك علياً!! - قاطعني معاوية، وقال مخاطباً الحاضرين من شيوخ الأمويين -

- هل سمعتم أكثر فصاحة وعلماً من صاحب علي هذا؟ يا ليت لي مثله بينكم!! ولكنكم أهل جهل وكذب ورياء وركوش تملأ بطونهم بطعام معاوية وتشتمه في خلواتها مع نساءها!! ولكن لا علينا، فلنسمع من هذا الدر المسال من فم صاحب علي -

وأشار لي ان أكمل!! فلم تزدني مقاطعته إلا أصراراً على قول ما أراه صادقاً ومحققاً في شأن علي، وأنا أعرف سر ما قال بحقي وحق أصحابه، فقد كان يريد أرباك أفكاره بعد أن وصلت إلى لب خطبتي ومقصدها، فلا أتمكن من الأسترسال في مدح سيدي علي فيما يلي من الكلام، وليس أدهى من معاوية عربي!! ولكن الله سيعينني عليك يا داهية قريش، فأكملت، بعد أن استغفرت الله ثلاثاً:

- فوالله سيدي علي يقتحم لجج البحار العميقة، ويخوض غمراته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذر، ويتوغل في كل ظلمة فيرى ما فيها، وسببها، فيعلمنا بما نجعل وبما لا نعيه!! ويديني سراج علمه منا واحداً واحداً نحن اتباعه ومناصريه، فتعدو جهالتنا واحات للنور والبركات!! ويقتحم كل ورطة تعجز عنها الرجال وأصحاب المعرفة، فيجد حلاً لها، وفرجة!! ويتفحص العقائد، فيعرف صالحها من طالحها، ويناقش عارفينها فيفهمهم، ويجعلهم يخرجون من عنده وهم يظنون أنهم يخاطبون ملاكاً هبط من السماء أو عارفاً من عارفي الأرض ادخره الله حجة له على من في الأرض جميعاً!! لا أظن أن الموت سيبلي ذكره، أو تمسح ذاكرته عوارض الشيخوخة!! فهو عارف بتواريخ الشعوب وملوكها وعارفيها، يميز بين أهل الحق وجماعة الباطل من بينهم، يعددهم بالأسماء والصفات ويردهم إلى أصولهم، ويعرج إلى نسلهم فيعددهم دون أن ينسى أحداً منهم!!

يحكي عن أسرار الأرض ومعارج السماء، حتى نظنه قد أسرى مع رسول الله إلى تلك الأصقاع!! وأن رسول الله أشركه في كل علمه عن طرق السماوات والأرض، فهو قد واصل سفره إليها ليلاً وعائداً إلينا نهاراً!! نقول عنه أنه ليس ببشر بل خلقه الله من طين آخر غير طينتنا، وهذبه بأخلاق أهل الجنة، التي روى عنها رسول الله، نراه متبلغاً بهمومنا كأنه واحد منا، يزور فقيرنا ويعود مريضنا، ويدافع عن ضعيفنا ويعيد الحق له من قوينا، يفعل ذلك وكأنه

ذلك الذي وقع عليه حيفنا، وعمري ما سمعت أو عرفت أو قرأت عن سلطان أو ملك له فراسته في معرفة الظالم والمظلوم، من أذنب ومن كان بريئاً!! فهو لا يعاقب أحداً من أولئك الذين يسيئون إليه بالشتم أو النميمة تأديباً!! حتى يأتون إليه دامعو العيون طالبين الصفح، يسألونه أن يدعو الله لهم ليغفر الله لهم ذنوبهم، وما اقترفوه بحقه من ظلم!!

طعامه خبز شعير جشب!! لا يقدر عليه غيره، يوضع له في قراب مختوم، لئلا يضيف إليه أحد من محبيه أداماً!! وهو يريد خبزه وحده فلا يغتر بطعام ولا شراب. ترك قصر الإمارة في الكوفة، ونعته بقوله " أنه دار خبال " وسكن بيتاً صغيراً على أرض لابن أخته جعدة الكوفي، ما أن تطالع حجراته، حتى تتذكر بها وحشة القبور وضيقها!! وقلة الهواء فيها!! وفقرها من الأثاث!! وما أن تدخلها حتى تقول والله أنها القبور بعينها، وتسارع في الخروج منها خائفاً أن يقف قلبك، فدقاته تضرب كمن حضرك ملك الموت، ويختنق الهواء في صدرك كأن روحك عرجت في السماء!!

أخذ معاوية يهز رأسه موافقاً، والدمع يهمل من عينيه!! وعيون الحضور مذهولة بما تراه وأذانهم مشنفة لما تسمع وتريد نفوسهم أن تستوضح الأمر!! وهم في حرص شديد على أن لا تفوتهم كلمة مما أذكر من صفات علي بن أبي طالب!!

فأكملت دون أن أهتم بما أرى وأسمع من أهل المجلس من محبي الدنيا وترفها، فقد كنت محللاً لحظتها في ملكوت آخر!! ولا أظن أن ما قلته وما سأقوله هو من سرد جاهل مثلي لا يستطيع وصف نفسه!! فكيف يستطيع وصف علي بن أبي طالب!!؟!!:

— والله يا معاوية، رُزق علي ابن أبي طالب بحراً من العلوم، ما عرفناه منها تسعة!! وما لم نعرفه كثير، رُزق معرفة علم الفلك، وطرق السماء وعلم البشر، فهو يعرف أسماء مائة ألف نبي، وتواريخ نزول نبوتهم، وحفظ أقوالهم وكيف كانت نهايات دعوتهم إلى الحق، وعرف أحوال البشر وتقلبها في الدهور السحيقة، تجلس في مجلسه ساعات فيحدثك عنهم واحداً واحداً، وجيلاً بعد جيل وجماعة بعد جماعة، لعمرى وكأنه عاش معهم وخبر حيواتهم، وعرف أسرارهم!! فهو يردد عليك ما قالوه في حياتهم تلك، ويسرد عليك ما فعلوه، ويعدد لك من مات منهم ومن رفعه الله إلى السماء. عرف علم التفسير، فلا يُشكل علينا شيء في القرآن الكريم إلا وجدنا جوابه حاضراً عند أبي الحسن!!

حفظ علم الحديث والفقه، والنحو والمعاني، ما غمض عليه شيء قط من لغة العرب ومن بيناهم، بديعه وجوهره. عرف طرق البديع كما لم يعرفه أحد قبله ولا بعده علوم البلاغة والخطاب، والله يا معاوية وددت أن تسمعه يخطب يوم الجمعة بمسجد الكوفة بخطبة بليغة، بكلمات ليس فيها نقاط أو يقول خطبة تمتد لساعة لا يوجد في كلماتها حرفاً كالسين أو الألف أو الباء أو الهاء !!

والله يا معاوية، أنك بخسته حقه وخسرت قرابته، فأنت لا حظ لك كما أصحاب الحظ الذين نالوا محبته وجواره، والله لحظة من لحظات محبته لأفضل من كل عروش الدنيا وجاهاها !! والله يا معاوية كل ملك الأرض لا يساوي جلسة مودة مع علي ابن أبي طالب، فهو يتفجر علماً ومعرفة، ومودة وصدقاً وكرماً، يقول ما فيه الفصل، ويغضي عما لاتحبه النفس. يغيث الملهوف، ويدني إلى مجلسه الفقير والمسكين، ليله صلاة وعبادة وتفقد لأحوال الفقراء من رعيته، يحمل لهم على ظهره ما ثقل وزنه وأفرح عيالهم في الصباح، ما نظر في وجه محتاج وهو يكرمه بعباءة ليحفظ بذلك كرامته. سجونته يا معاوية للمذنبين أماكن للخلو بالنفس، ومعاقبها عما اقترفت بحق الآخرين، فهو لا يعاقبها بتلك السجون بل يصلحها، لأنه يحجزهم خلف قصبات مهلهلة !! يحيطهم بها، ويمكنهم دفعها ليعودوا إلى حريتهم، فهو يعلم رعيته أن غاية العقوبة دفع ذات المخطيء للعودة إلى جادة الصواب، وليس إصابة المعاقب بالأذى، وجعله حاقداً على من تسبب في وضعه بالسجن وعلى البشر كافة.

والله يا معاوية عرف علي بن أبي طالب سبع معارف بشرية، ولا أظن أن بشراً سبقه إليها سوى رسول الله، ومن له علم الكتاب. عرف علم الحساب والطب والقراءات والفرائض والتوسل والإنشاء وأصول الفقه والجدل، ولو استمعت إليه وهو يحاج من خرج عليه في صفين من الخوارج بعد التحكيم، قبل أن يحاربهم في معركة النهروان، لما شككت لحظة أنه أحد أكبر علماء عصرنا، وما يلي من عصور، إلى ما شاء الله، لعلمه وقدرته على الجدل وفهمه لأصول الفقه.

ومن دون أن يسيطر معاوية السيطرة على دموعه التي أنهملت مداراراً على لحيته، فهو لم يعد يملك نفسه، وتدارك خادمه الأمر، فأسرع له بمنديل لينشف بها دموعه بدل المسح بكم ثوبه !! وهز رأسه وقال بصوت مختلج بالعبرات:

— هي الدنيا يا ابن الراسبي !! فكما يوجد علي بعلمه وكياسته وزهده يوجد مثال آخر لبناء الدولة، معاوية الذي يؤمن بأن الدنيا إذا ملكتها، فهي لا تنتهي،

ولا ينبغي أن تُعطى إلا بالقوة، ومن يملك القوة والدهاء لتصريف الأمور وإدارة الدولة، هو الذي يستحق أن يتولى ويقود. الله أراد أن يضع نموذج علي بن أبي طالب ونموذج معاوية ليرى المسلمون أي الطريقتين يختارون!! ولا ضير أن يكون الناسك الزاهد هناك وابن الدنيا المتشبه بتلبية احتياجات الإمارة هنا في الشام. هي الحياة فيها من يرضعها وفيها من يطلقها بالثلاث!! ولا يسعني هنا إلا ان أحيي أصحابه من أمثالك!! فهم يجيدون وصف سيدهم لغرمائه وخصومه، وقد أحسنت الوصف والثناء لعلي يا ابن أخي، وما جئت من أجله مجاب يا ابن الراسبي، فأبوك بالرغم من علمه وفقهه، فهو لم يلن يوماً، ولم يقبل حتى بمقابلي حين أرسلت له أدعوه لكي أطلقه من أسره على وعد أن لا يعود مع أي جيش لعلي ليحاربنا مجدداً!! ولكنه أبي وتشدد في الرفض، وكنت أنوي إعادته إلى أهله وقبيلته معززاً مكرماً، فرفض كل هذا وقال أتركوني مع أصحابي من أسرى صفين، فلا أود أن يقولوا خان علياً وأشترى الأمويون ذمته، فإن أطلقوا أسراكم جميعاً أطلقوني معهم!! وأن لم تفعلوا، فأنا باقٍ معهم، حتى يفعل الله ما يشاء!!

فقاطعه:

- والله هذا أبي الذي عرفته دائماً!! فوالله ما ارتضى لنفسه مصيراً غير مصير أصحابه، والله يا معاوية، رأيت علياً يأخذ بكف أخيه عقيل الكفيف، وهو يقول له خذني إلى أقرب صراف في الكوفة لأسرق لك ما تطلبه من مال من بيت أموال المسلمين!! وكان عقيل قد طلب من علي بوصفه اميراً للمؤمنين أن يضاعف له عطيته من بيت مال المسلمين، لأنه يعلم أنه ملآن بالذهب والفضة!! وهو أحق من غيره بعطية مضاعفة، وهو من آل بيت الرسول وأكثر قرباً لأمير المؤمنين، فقال عقيل لأخيه ما طلبت منك أن تسرق، فقال علي، أن أسرق من واحد أخف من أن أسرق من أمة محمد كاملة، وألح عقيل عليه، أن يعطيه من مال المسلمين!! فأخذ بيده ووضع كفه على نار موقد صغير أمامه!! فصرخ عقيل متوجعاً، وقال: ماذا فعلت بي يا أخي؟

فقال علي: تتألم يا عقيل من نار صنعها الإنسان للعبه، ولا تخاف علي من نار إعدّها الجبار لانتقامه؟ فبكى عقيل، وبكى معاوية ومن معه!! وقال مردداً من بين دموعه بالدهاء المعروف عنه:

- نعم يا ابن أخي صدقت!! هو كذلك أبو الحسن، لذا فهو يصلح ماسكاً لزام بيت مال المسلمين لزهدده وصلاحه!!

وكتمت غيظي، ولم أرد عليه فهو أراد أن يقول " علي بن أبي طالب لا يصلح لخلافة بل يصلح لوظيفة ماسك زمام أموال المسلمين لأمانته وزهده بالدنيا!!" فأكملت دون يهز لي طرف بدهائه لحرف اتجاه ما أريد قوله من صفات علي: - والله لو تراه ليلاً يا معاوية لوليت فزراً مرعوباً!! وهو يتهدد ويمرغ وجهه في التراب طالباً العفو من خالقه كالسليم الموشك على الهلاك من الألم، لو رأيته لما قلت أن هذا الرجل يصلي كل ليلة ألف ركعة!! ويؤدي ألف دعاء، ويمضي نهاره بقضاء حاجات الناس، ويدفع عنهم المظالم، صغرت أو كبرت، ويفقههم بدينهم، ويعلمهم ما غمض عليهم، وشاهدته مرة يصوب لنصاري من أهل الكتاب ما غمض عليهم من أنجيلهم!! ويأتيه وفد من اليهود، فلا يعودوا إلى ديارهم إلا وأسلم أكثر من نصفهم، وشهدوا برسالة محمد، بين يديه!! فقاطعتني معاوية بعد أن شاهد علامات الإعجاب والدهشة على وجوه تابعيه الحاضرين مجلسه:

- وما رأيه بنا ابن الراسبي؟ لا أظنه خيراً، وأظنه يشتمني ويحثكم على شتمي من فوق منابر الجوامع؟

- لا والله يا معاوية علي ليس شتاماً ولا لاعناً كغيره من يدعي الصلاح!! سمعته في محفل كبير من أهل العراق يطلب منهم أن لا يقولوا عنك وعن جماعتك أنكم خرجتم على الإسلام، وأن يقولوا بدلاً عن ذلك: أخوة لنا في الدين بغوا علينا!! هذا كل الذي قاله عنكم يا معاوية. فتمتم معاوية معتذراً من سوء ظنه بعلي وقال:

- قال ولم يجانب الحق في بعض ما قال!! ما قاله عن بغاء الأخ على أخيه جاء بأسباب، لا مجال لذكرها هنا، ولكن شؤون الدول لا تدار دائماً مع معارضيها وخصومها وفق منطق علي بن أبي طالب، فعندما تكون مهادناً في عباراتك وأوصافك لخصمك!! لا نتظر ممن معك أن يبذلوا دماءهم وأرواحهم لقتاله، ونحن لنا ما يبرر شتمنا له، ولأصحابه على منابر الجوامع، فليس لنا إلا ما تعارفت عليه الدول في التعامل مع خصومها من طرق وأساليب، وأن كانت متدنية ولا تمت لروح الإسلام، ولكن مشكلة علي أنه لا يبني دولة أنه يبني ديناً داخل الدولة!! وهذا ليس هدفنا هنا في الشام نحن نريد أن نشيد دنيا داخل الدولة!! بكل ما في الدنيا من خير وشر وفرح وحزن، ظلم وعدل!! دولتنا باقية ودولته مآلها الفشل وحالما يغمض عينيه مودعاً الحياة ستفشل دولة خلافته.

انتظرته يكمل مقاله، لأرد والغضب يستعر في صدري:

— والله يا معاوية أن علياً لا يعمل ليومه، ولا لسرير الحكم الزائل، هو يعمل لتاريخ قادم سيذكر فيه هو ويمجد وستنسى أنت!! ويقال عليك بدل آخرته بدنياه!! سيذكره الناس، ويتذكرون من حاربه وعاداه، فهم لا يذكرونك إلا عندما يذكر هو!! وهذا ما تعرف أنت فرقه جيداً!! والله أن دولته باقية ما بقي الإسلام الحقيقي، وأن القادم لأقرب من الحاجب للعين.

أخذت نفساً عميقاً قبل أن اتابع: مررنا بأرض لجماعتك عليها الولاية والأمر، وراعنا ما رأيناه من أحوال رعيتك، فقد حرصت على تقسيم رعيتك إلى أسياد وعبيد!! العبيد يحرثون الكثير ويقتاتون على القليل، ولا يعرف ولائك الحلال من الحرام إلا من ندر منهم!! يهابون السوط أكثر ما يخافون من خالقهم!! والله رأيت خيرات بلدكم بالرغم من كثرتها لكن لابركة فيها!! فقطاعني معاوية متسائلاً:

— وما البركة التي تعنيها؟ فمادامت الخيرات موجودة باعترافك فهذا يكفي ويزيد!!

فقلت وجميع من حضر تلك المناظرة رفعوا رؤوسهم وفي عيونهم دهشة وعلى وجوههم اسئلة كمن يريدون معرفة الجواب، فقلت:

— علمنا سيدي علي بن أبي طالب أن البركة بحر غامر من الخيرات يضعها الخالق فوق ما لديك من خيرات، فتتضاعف، كما كل سنبله تعطي مئات السنابل إذا بذرتها بشروط البركة.

واستعصى عليهم بما فيهم معاوية فهم حقيقة البركة التي أوردتها، فقلت موضحاً:

— لستم وحدكم من غمض عليه معنى البركة بل الكثير من أصحاب علي لم يفهموا ما قصد بالبركة، مما جعل أبا الحسن يتساءل: من أكثر عدداً في نواحيكم الكلاب أو الأغنام؟ فقال الحاضرون بل الأغنام يا أبا الحسن. فقال مبتسماً: أن الأغنام لا تلد إلا كل حوّل مرة واحدة والكلاب تلد في كل حوّل مرات، وكل مرة تلد أكثر من جرو في البطن الواحدة، ولكن كما ترون أن الأغنام في كل مكان أكثر عدداً من الكلاب، فقد أنزل الله تعالى بركته في الأغنام، فازداد عددها رحمة بالعباد وفاق عدد الكلاب!!

وردد معاوية: سبحان الله، صدق أبو الحسن!!

وردد بعده رهطه:

— سبحان الله !!

وسأل معاوية:

— قال أشيع علي أنه يؤول القرآن، ويأتي بمعان غير التي فيه، فما ردك على هذا يا ابن الرسبي؟
فقلت:

— هو قول قاله الخارجي "حرقوص بن زهير" يوم معركة النهروان مع الخوارج، حين وقفوا بوجه خليفة المسلمين علي بن أبي طالب، فقال بن زهير "يا ابن أبي طالب لا نريد بقتالك إلا وجه الله والدار الآخرة، وبعدها شد هو وأصحابه عليهم، وكانت أعدادهم قليلة، فقد رجع عن غيهم الكثيرون منهم بعد أن جادلهم علي بن أبي طالب، وأعادهم إلى صوابهم وإيمانهم، فتخلوا عن خروجهم عن الصف. فشد الباقيون من الخوارج علينا شدة رجل واحد، فرسانهم أمام الراجلين منهم، فاستقبلت الرماة وجوههم بالنبل، فحمدوا، لقد رأيت يا معاوية الخوارج حين استقبلتهم رماح ونبال الحق، فصاروا وكأنهم معز تتقي المطر بقرونها.
وتساءل معاوية:

— وهل كان الخوارج غير صادقين فيما ادعوه من تأويل لعلي للقرآن
مالايجوز تأويله يا ابن الراسبي؟
فقلت:

— وصف الرسول محمد وصيه علياً بـ "الأنزع البطين" والأنزع يا حضور تعني الخالي من الشرك، والبطين من العلم، وأضيف أن الأنزع كناية عن امتناع الشرك فيه !! والبطين كناية عن كثرة العلم والإيمان واليقين لديه !! فإيننا من علي بن أبي طالب وعلمه وإيمانه؟

وقد سمعنا أبا الحسن وهو يقول في خطبة له بالكوفة "هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخير الأطعمة ولعلّ بالحجاز أو باليمامة من لا طمع له في القرص، ولا عهد له بالشبع أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثي، وأكباد حرى، أو أكون كما قال القائل: وحسبك عاراً أن تبيت ببطنة
**** وحولك أكباد تحن الى القد

أقتع من نفسي بأن يقال: هذا أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش ! فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات،

كالبهيمة المربوطة، همها علفها، أو المرسله، شغلها تقمها، تكثرش من أعلافها، وتلهو عما يراد بها، أو أترك سدى.

فعلق أحد الحاضرين: أنه يشتمك يا أمير المؤمنين بلسان علي بن ابي طالب، فلا تتركه حتى تصلبه من خلاف !!

فأشار له معاوية أن يجلس ويهدأ، وقال: انا طلبت منه أن يقول ما يقول فلا تثريب عليه.

فأكملت دون أن أهتم بما قيل حولي:

- وما سمعنا منه إلا فهماً عميقاً للقرآن فقد علمه رسول الله تأويله ونحن تعلمنا من وصي رسول الله، وعلى سبيل المثال فقد حار فقهاؤكم في وصف القرآن للزوجة مرة بالصاحبة ومرة بالمرأة، ولم يجعل لها وصفاً محددًا، وأقل أصحاب علي علماً يعرفون ما غمض علي هؤلاء في هذا الشأن، فسأل معاوية: وما هي إجابتكم لتوضيح هذا الغموض يا أصحاب علي؟

فقلت بعد صمت قصير، وبعدما صمت كل من في الديوان:

- توصف بالمرأة إذا كانت علاقة جسدية بين الذكر والأنثى، ولا يوجد بينهما توافق فكري وعقائدي ومحبة فيسمى القرآن الأنثى "امرأة" !! أما حين يسميها "زوجة" فهو يحصرها فيما إذا كانت توجد بينهما علاقة جسدية ويرافق ذلك توافق فكري وعقائدي ومحبة، فتسمى هنا الأنثى زوجة!!

فقد قال الله تعالى في محكم كتابه " امرأة نوح وامرأة لوط، وامرأة فرعون ولم يقل زوجة نوح ولا زوجة لوط، ولا زوجة فرعون بسبب الخلاف الإيماني بين النبيين نوح ولوط وامراتيهما العاصيتين، وفرعون الكافر وامرأته آسيا المؤمنة!!

واستخدم القرآن لفظ زوجة في العلاقة بين نبينا آدم وحواء، فقال الله تعالى " وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة " !! وقال في وصف النبي محمد " يا أيها النبي قل لأزواجك.. " وهذا من التوافق الإيماني بينه وبينهن !!

فقاطعتني أحد الفقهاء الجالسين في الديوان سائلاً عن سبب استخدام القرآن الكريم لفظ امرأة على لسان سيدنا زكريا على الرغم من أن هناك توافق إيماني بينهما وانسجام ومحبة وذكرني بقول زكريا " وكانت امرأتي عاقراً ؟" فابتسمت وأجبته، فقد كان سؤاله وجوابي عليه مما مرّ بخدي في اللحظة التي ذكر فيها هذا، فقلت:

- وصف القرآن في هذه الآية مرة بالمرأة، لأنها كانت عاقراً!! وقد كان هذا العطب فيها سبباً لعدم انسجام بينها وبين زكريا، فقد كان زكريا يدعو الله أن تتجب زوجته لما يبقي ذكره، ولكن بعد أن رزقهما الله بحيي اختلفت التسمية فقال " فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه" فقد سماها الله زوجة بدل امرأة بعد أن أصلح العطب في زوجة زكريا، مما جعل الانسجام بينهما، فتغيرت التسمية لانتهاى سبب الخلاف بين الطرفين!!
فقال معاوية :

- أزدنا من علمك يا ابن الراسبي!!

فقلت:

- وفضح الله بيت أبي لهب، فقال الله تعالى " وامراته حمالة الحطب"!! ليدلّل أنه لم يكن بينهما انسجام ومحبة وتوافق بالرغم من كفرهما المشترك، وبغضهما لرسول الله!! أما تسمية "الصاحبة" فقد استخدمها الله تعالى عند انقطاع العلاقة الفكرية والجسدية بين الزوجين بسبب أهوال يوم القيامة!! فلذلك معظم الآيات التي جاءت حول يوم القيامة استخدم فيها القرآن لفظ صاحبة، كقوله تعالى " يوم يفر المرء من أخيه وأبيه وصاحبته وبنيه" وقد قال الله تعالى أيضاً، لتأكيد أن ليس لله زوجة أو ولد حين أدعى البعض أن عيسى ابن الله وأمه مريم، فقال الله تعالى " أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة" ولم يقل زوجة أو امرأة لينفي أي علاقة جسدية أو فكرية مع الطرف الآخر نفياً قاطعاً!!

فقال معاوية هاشماً وباشاً، وقد بدا السرور على محياه:

- قص علينا ما رأيته من أحوال مدننا وقرانا وأهل البلاد الذين بايعونا على المكره والمغرم في طول الشقة التي قطعتها في سفرك حتى بلغت دمشق؟ وأحك لنا ما رأيته فيها من سياسات دولتنا التي يتبعها عمالنا هناك. فنحن نؤسس لدولة وليس إلى خلافة دينية، فيها السادة والعبيد، كما فعلت الأمم التي سبقتنا، فإن سيدنا الجميع وجعلناهم سواسية كما يفعل علي لما هدا التابعون من الفتن!! ولشعري كل واحد منهم لا اعتقد أن له حق القيادة، والصدارة، فتصير دولتنا الوليدة هرجاً ومرجاً وقتالاً يبدأ ولا ينتهي!! وهذه هي الأحوال، في معظم الولايات الخاضعة لحكم ابن أبي طالب، وهذا لا يساعد على نشوء دولة أو بقائها طويلاً!! علي ابن أبي طالب يعيد للإسلام جوهره وعقيدته الحقّة نعم، لكنه لا يقيم دولة بهذا على منوال ما فعله من سبقوه من أشياخنا أبي بكر

وعمر وعثمان، الذي أكتمل في عهده مشروع الملك في الدولة، ونسي الناس في عهده دولة الخلافة وشروطها بعد أن توفرت لهم الكفاية المالية، مما كان يرد المدينة ومكة من خيرات البلاد المفتوحة، وترك الناس الزهد في حياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم والمعيشة الضنك وصاروا يتسابقون لنيل مغام الدنيا. الناس يا هفهاف عبيد الدينار والدرهم، والدين علق على ألسنتهم، فإذا أردت أن تبني دولة فعليك بأسس رصينة تتبعها، وتاريخ العالم حافل بنشوء الدول على هذه الطريقة التي وصفتها لك، اقرأ التاريخ فستجد أن لا دولة انشئت فوق الأرض إن لم يكن الدينار والدرهم والسيف صنوان عن يمين وعن شمال !! وهما معادلتا الحكم الرشيد !! ويضاف إليه الكثير من توابل السياسة، كالإشاعات والأكاذيب ومعها إشاعة الجهل بين الرعية إلا ما يهم الدولة في توطيد أسسها، وترك الرعية لا تفرق بين الناقة والجمال وبين الثور والبقرة، والتيس والمعزة !! واقتصار العلم الرشيد على خاصة الخاصة !! وهم الأسياد الذين سيقودون أولئك العبيد إلى المجد والحضارة وحياة الرفاهية!! يا ابن الراسبي حالما تشبع رعيتي، فسيفكرون فوراً بخلعي وسؤال حائر تحاول الدول منع رعاياها من ترديده: من هذا القرقوز الذي بايعناه ليتسلط علينا يأمر وينظر، علينا ويوقدنا للحروب والمهالك ويمشي بيننا بموكب من الجنود يحرسونه وخدم هم أبناؤنا في ركبه يمسحون اعتابه ويعلفون خيله ودوابه، وإذا بصق وقع بصاقه على وجوهنا وهو ليس بأفضلنا؟ سيتسالون دائماً من هذا الدعي الذي له وجه بوم، ويدعي علينا أنه يمثل الله على الأرض؟ ويقسم علينا أرزاقنا قسمة ضيزى؟ من هذا الذي يقرر لنا أن نعيش أو نموت؟

فقاطعته:

— قطعتُ مراحل الطريق بين البصرة ابتداء من السبابخة جنوبي البصرة وحتى أنطاكية وأنا أشعر بالأمان والنظام وخيرات الأرض والسماء تنزل علينا من حيث نحتسب ولا نحتسب !! لأننا كنا نسير في دولة الحق والبركات، وقد نزع الله الغل من قلوب الرعية وتحابوا في الله، في دولة علي بن أبي طالب تلك لم نشعر بوجود عبيد وأسياد !! فكل من حولنا أخوة متحابون في الله تمتلئ أخونتهم بالخيرات التي تضاعفت ببركات وجود الإمام علي بن أبي طالب. فصارت تزيد ولا تنقص !! فيها المسلم والمسيحي واليهودي، العربي

والفارسي، الرومي والنوبي والحبشي والأفريقي، وكلهم يلهجون بذكر الله،
والخيرات تأتيهم كما وعد الرحمن من بين أيديهم ومن تحت أقدامهم!!
قاطني معاوية والرهط ينتظرون في مَلِّ نهاية هذه المناظرة ليعودوا إلى
بيوتهم:

— صدقت كل من بعثتهم إلى أرض العراق من العيون والدسائس نقلوا
ماذكرته الآن، وأنا لا أنكر أن من ينصر الله على الأرض ينصره!! ولكن كل
هذا يرتبط بشخص علي بن أبي طالب، وما أن يمضي عن هذه الحياة لسبب ما،
حتى يعود كل شيء إلى طبيعته، طبيعة دنيوية، وسترى الجشع وتقديم النفس
على سواها، والصراع من أجل شيء تافه أو من أجل لا شيء، ياهفها في
خدمتي خير مستشاري أمبراطورية الروم، سرجون بن منصور الكفيشي
الرومي!!

وأشار إلى سرجون الذي كان يتوسط رهطه، فوقف محني الظهر، وأكمل
معاوية:

— ومع سرجون بن منصور عشرات المستشارين من خير أعمدة الدولة
الفارسية السابقين التي ملكت العالم!! وكما ترى بدأنا نؤسس لأمبراطورية
إسلامية ستعيش طويلاً إلى أن يرث الله الأرض!! فمن الأفضل أنا أم علي،
الذي لا يفكر إلا بالآخرة!! وأكثر مما يفكر بالحياة، وما سيأتي على الرعية من
أيام قادمة ودهور!!
فقاطعته:

— والله يا معاوية أنك تؤسس لأمبراطورية أموية وليست إسلامية!! أخذت
الاسم زوراً من الإسلام، وكل من فيها سيعيش عهداً ويمضي أما كيف يعيش؟
فإن هذا لا يعنيكم!! أن الفرد في رعيتم سيعيش عبداً مملوكاً يسام سوء
العذاب والاحتقار، وستضع على كاهلكم كل ذنوب هؤلاء وكل دم سيراق، وكل
دين سيضيع وحق يهدر، إسلامكم هو صورة عن إسلام آخر لم يعرفه
المسلمون الصادقون!!

قاطني سرجون بلغة عربية، فيها لكمة رومية، ورأيت معاوية مغمض العينين
متصنعا النوم، فهو يفعل هذا دائماً حين لا يثق بقدرته من يطلب البراز في ميدان
المعركة من أتباعه، وهو لا يثق بقدرته على منازلة خصمه والفوز عليه لئلا
يرى ما لا يسره من هزيمة أصحابه وتابعيه، وهذه المرة تصنع الشخير تأكيداً

للجميع على نومه، ولكنه كان يسمع كل حرف يقال في مجلسه، لذلك فأتباعه يخشونه إن كان في يقظة أو منام:

— يا هذا ما عرّفك بالدول وكيف تدار؟ هل علمت أن الرعية في كل دولة هي نفسها، مع اختلاف الألسنة والعقائد، أما علمت أن الدول مهما صغرت أو عظمت تدار بالسياسة والسيف، وليس بالوعظ والإرشاد، وأن من يحضر خطبة جمعة في الجامع سينساها عند خطوه عشر خطوات خارج المسجد أو الكنيسة أو المعبد؟ فالدول معاش، ووسائل قبل أن تكون عقائد!! هل علمت أن العقوبة القاسية تؤسس لنظام صالح، وأن ملوك الدول هم مساطر الدول ومشاعل فهمها، فلا ترى إلا ما يرون، ولا يقررون إلا ما يقرر هؤلاء الملوك. فقاطعته مثلما فعل معي:

— يا سرجون هذه هرقلية جديدة، أنك تقول ما قاله فرعون وهرقل لقوميهما : لا ترون إلا ما أرى!! والله لو رأيت على تخوم إمبراطوريتكم التي سيبددها الدهر كما بدد أمثالها، كيف أن الأمراء الذين أمرتهم على الناس يقودون عصابات للسلب والنهب والقتل في ربوع الشام!! وهم يتبارون فيمن هو أفضل بينهم بفعل ذلك، ومن هو أقرب إلى الله بطول لحيته وقصر ثوبه، وكثرة أمواله وسراريه وقصوره، فهم يحرمون قتل البعوضة، ويريقون دم العباد من دون أن يرّف لهم جفن، ويزنون بأعراض بعضهم البعض وبأعراض رعيتهم، ومن تقع تحت رحمتهم أسيرة، والله لو أطلعت على ما يدور هناك من صنوف الإرتشاء والقتل والخطف، لخرجت من الجلوس وتناول الطعام على مائدة مسلم قرشي كعماوية، ابن رجل قال عنه رسول الله يوم فتح مكة من دخل داره فهو آمن!! وكان يومها أهل مكة من المشركين، الذين يحل قتلهم وفق شريعة الإسلام، وقد عذبوا أغلب صحابة رسول الله واستباحوا أموالهم ودورهم في مكة حين هاجروا إلى الحبشة ويثرب بعد ذلك، والله لأعجب كل العجب أن ياويك هذا البيت ويوليك أمور دولته!!

يا سرجون أنك فيما يبدو لم تقرأ تاريخ دولتك الرومانية، ولم تقرأ تاريخ المسيحية، قبل ثلاثمائة وخمسين سنة من يومنا هذا اختطف الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول الديانة المسيحية، وقضى عليها تقريباً!! وأحال بدلها مسيحية طقسية، اهتمت بالشعائر دون أن تهتم بجوهر ما جاء به سيدنا المسيح!! وكان يهمها ما يرتديه كاهن الكنيسة والقسيس، وما يؤديه من حركات في الكنيسة أمام الملائكة الحاضر إليها أكثر مما يهتم بما يفرضه عليه

واجبه كراع للمسيحيين يتدبر أمورهم الحياتية والعقدية !! والآن بعد هذه القرون غدت الديانة القسطنطينية هي السائدة على مستوى البشرية، وإن كانوا لا يعلمون أنهم أتباع قسطنطين !! ويعتقدون أنهم أتباع سيدنا المسيح، ما عمله هذا الأمبراطور طوال واحد وثلاثين سنة من حكمه من قتل وتشريد واغتصاب واحتلال للبلدان بأسم المسيحية، وبحق شعوب دولته، بدعوى نشر المسيحية، وهو في حقيقة الأمر كان يؤسس لدين سلطاني جديد لا يمت لشريعة سيدنا المسيح إلا بالأسم !! وإني لأظنك يا سرجون تريد إعادة ما جرى على المسيحية في بلاد الإسلام !! وتؤسس من خلال من احتضنك وأكرمك وجعلك وزيره الأول، لإسلام طقسي لا يمت لإسلام محمد بصلته، والله لن تستطيع وسيبقى إسلام محمد ساطع النور لا يمكن خداع الناس بغيره إلا من ارتأى الضلال وطمح إلى ظلم نفسه ورعيته في الدنيا والآخرة !! يقول سيدي علي بن أبي طالب، نظرُ البصرِ لا يُجدي إذا عميت البصيرة !! فلا تُعمى بصائرکم عما يريد بکم هذا الرومي وقومه !!"

كنت ألهث وأنا أتكلم مع سرجون ورهط معاوية من شدة الغضب. وعلى حين غرة استيقظ معاوية من نومه القصير و قاطعني وهو يتثائب بصوت عال ليصرف انتباه الحاضرين عما قلت، وهو الذي عرف عنه أنه لا يقطع خيطاً بينه وبين خصومه، فإن جذبوه إليهم، أرخى هو طرفه لهم، وأن أرخوها جذبها:

— بخ بخ لك يا ابن الراسبي، لقد سلحت فوق رأس وزيرنا الأول !! وأفحمته ولا أظنه يستطيع الرد عليك !!
وقال ملتفتاً إلى سرجون:

— أنصحك يا سرجون لله يا ابن الرومية أن لاتناقش أحداً من أصحاب علي بعد اليوم !! فكل واحد منهم، زق علم علي زقاً والبديهة في أفواههم حاضرة، فجعلهم مثله علماً وقدرة على التحدث في مختلف العلوم، فقد علمه الرسول ألف باب من العلم ولكل باب ألف باب، فأين نحن من علم هؤلاء الاتباع، ولنكتف بالشتم واللمز، بين أصحابنا ورعيتنا، فهي كافيتنا بإذن الله مقام علي وعلمه وعلم أصحابه، كما أوصيك - والتفت لي - أن لا يبقى ابن الراسبي هذا في دمشق طويلاً، أقضوا حاجته، حسبما قررناه لمن سبقه، ليعود إلى بلده، فإذا بقي ابن الراسبي في دمشق فترة أطول فسيخرّب علينا رعيتنا من أهل الشام

بعلمه وفقهه، فنؤمرهم فلا نطاع. سهل لابن الراسبي قضاء حاجته، وليمض
بسلام إلى أهله، سالماً بحفظ الله.

وبعد قولة معاوية لاتباعه ما سمعته، لم يكن لي إلا أن أسلم على الحاضرين
سلام الواجب، وما أن هممت بمغادرة قصر الحكم الأموي، حتى أسرع أحد
اتباع سرجون وزودني بكتاب من معاوية بن أبي سفيان إلى أبي عامر ماسك
زمام الخراج ومدير السجون بدمشق، أن ينجز ما جئت من أجله بأسرع وقت
ممكن.

ومن وقتي طلبت ممن صحبني من الجنود أن يسرعوا بنا بالتخترن إلى داري
وسط سوق دمشق قريباً من الجامع الكبير، خوفاً من غدر سرجون الرومي بعد
أن سمع كل هذه السخرية والتسفيه له من معاوية بسببي، وما أن وصلت الدار
حتى طلبت من مسعود أن يسير معي، وأومات لزوجي بأن الله معنا، وحملت
معي في شوال المال المطلوب كفدية لافتداء المهند، ومن معه من أسرى
صفين، وسألني مسعود متعجباً كيف استطعت النفاذ من معاوية وحاشيته
وحصلت علي مرادك منهم وكنت وزوجتي قد قطعنا الأمل بعودتك من قصر
معاوية سالماً؟ فقلت له:

— يا مسعود في أوقات الشدائد والملمات إذا لم يقدر الله لك فيها أجلك، أقرأ
هذا الدعاء الذي تعلمته من والدي وهو تعلمه من رسول الله محمد يوم معركة
بدر، إذ رأى جيش المشركين، وكان عددهم الألف فارس، وجيشه من
المسلمين لا يتعدى الثلاثمائة وثلاثة عشر فارساً!! وأولئك المشركون بعدتهم
وركوباتهم من الخيل والأباعر، وما حمل فرسانهم من أنواع السلاح والدروع،
فقال مناجياً الله تعالى:

— " آلهي أنت ثقتي في كل كرب ورجائي في كل شدة وأنت لي في كل أمر
نزل بي ثقة وعدة، كم من هم يضعف فيه الفؤاد وتقل فيه الحيلة ويخذل فيه
الصديق، ويشمت فيه العدو أنزلته بك وشكوته إليك رغبة مني إليك عمن
سواك فكشفته وفرجته، فأنت ولي كل نعمة ومنتهى كل رغبة!!" ففرت عليه
وممن معه من فطاحل بني أمية وشيوخها!!

قصدنا من ساعتنا دار شرطة دمشق وطلبت مقابلة أبي عامر، ويبدو أن أمر
مجيئي إليه قد وصله قبل أن أصل، فعيون معاوية في كل مكان، وتواصلهم
كفقرات الظهر تبدأ من معاوية وتنتهي عند أصغر حاجب من حجاب الأمراء
والقواد، ومالكي زمام الأمور في عاصمته!!

وبعد السلام سلمته كتاب معاوية، فقرأه ووضع على رأسه، ليؤكد طاعته وامتثاله لأمر معاوية، وسألته عن مقدار مبلغ الفدية عن جميع أسرى صفين، وكان عددهم يربو على المائة أسير، فنادى أبو عامر طالباً مالك زمام بيت المال، فدخل علينا رجل مسن عظيم الجثة، صغير الرأس، وبيده برجمان كبير الحجم ففتحه، وحدد أعداد الأسرى ومبلغ الفدية!!

ودفعت المال المطلوب، وكان يفوق الألف ألف دينار بقليل، واستلمت صكاً مختوماً بالاستلام وصكاً آخر هو الأذن بإطلاق الأسرى!! وكان علينا الإسراع إلى دار السجون القريبة قبل أن يؤذن لصلاة العصر، فتغلق دار الأسرى أبوابها، لنتنظر نهراً قادماً لمراجعتهم. وودعنا أبو عامر شاكراً الهدايا القيمة التي بعثها له قبل يومين مع مسعود!!

واسرعنا إلى دار السجون، وسلمنا الصك إلى مالك الزمام، فأخذه وأمر بإطلاق أسرى العراق، فاستقبلناهم على باب السجن الضخم، وكانوا بحالات يرثى لها حقاً!! أصفرت وجوههم، وكان أكثر من نصفهم، قد فقدوا عضواً من أعضاء أجسادهم بسبب معارك صفين، فزاد الأسر من أوضاعهم الصحية سوءاً على سوء، وكان بينهم العميان والعرجان و من فقد كلتا ذراعيه، ومنهم من أصيب في ظهره، فهو لا يقوى على الوقوف والحركة حتى بعد أن أندمل جرحه!! فهو يقضي وقته ممدداً في فرشته ليلاً ونهاراً وأصحابه في الأسر يقومون بخدمته. وأخذ قلبي يخفق بشدة وأنا أنتظر والدي المهند الراسبي حراً، والله وحده يعلم كم حلمت بهذه اللحظة!! وطلبتها ودعوت الله أن يحققها لي، وما أن لمحته قادماً قبل آخر مجموعة يُطلق سراحها، لم أقو على الوقوف واستندت على مسعود!! وأخذت أتمتم كالمعتوه: أبي. هذا أبي يا مسعود!! أنه المهند الراسبي!!

كان والدي قد هزل وشحب لونه وتحول لون شعر رأسه إلى اللون الفضي، وبرزت عظام صدره، ورأيته يمشي على قدم واحدة متعكراً على عكاز خشبي تم نحته من غصن شجرة، ولا يستر جسده سوى ثوب مهلهل، تبقع بخرائط من الملح، والتراب، صرخت بصوت عال:

— هذا أبي يا مسعود، هذا المهند الراسبي، سيد الأعمش وصحاب علي ابن أبي طالب!!

عانقته وضمته إلى صدري، لم يقل شيئاً حين شاهدني على عادة أهل الصحراء، الذين يملكون زمام أنفسهم في الفرح والحزن، وكان ينعتني في

مراهقتي حين يرى رقة عواطفني، أني من أهل الحضرة، وليس من أهل الصحراء الجفافة، القساة، الذين لا تعرف متى يحزنون ومتى يفرحون؟ أكتفى أبي بالابتسام، ابتسامة لم أر في حياتي أجمل وأنقى وأطهر منها، ستبقى مرسومة في خيالي فقط، ولا تستطيع ريشتي تصويرها بالكلمات، ابتسامة تعبر عن أشياء كثيرة، ولكن أهم ما قرأته من معانيها " أنه أخيراً انتصر بشيء من صنعه، انتصر بأبنة !! الذي هو في ذات الوقت نفسه، أخذت أبكي بدموع غزيرة، ولا يسعني الوقت مسح دموعي بكم ثوبي، فكانت دموعي تسيل على رقبة أبي المعروقة، وبقي أبي صامداً لا يبكي ولا يئن، ولا يتململ، مما مرَّ به من أوجاع، كنت أشم بملء صدري عرقه كما لو كنت أشم نسيماً عذباً من نسائم الربيع، يا للبنوة من معنى جليل، وأخذنا أنا ومسعود نقبل كفي أبي، فقال أبي:

— هونا عليكما ولنمض من هذا المكان الكريه الرائحة.

كانت تخرتونات كثيرة في باب السوق على مقربة من السجن الكبير، فطلبت من جميع المطلق أسره، أن يساعد الصحيح الأسير الذي لا يقوى على المسير، والمبصر يساعد الأعمى، وطلبت منهم أن يستقلوا التخرتونات، التي في انتظارهم، وكان جميع المفرج عنهم ينظرون حولهم بذهول وألسنتهم تثني على الله، وعلى ما أتاهم من فرج بعد أن ظنوا أن لا خلاص لهم من سجن بني أمية، فجاء الفرج سريعاً، ولم يمض وقت طويل حتى سارت التخرتونات بالجميع، وأنا وأبي ومسعود في مقدمتها.

كان العدد كبيراً ولكن الدار التي اشتريتها وحرصت على أن تكون كبيرة، وكثيرة الغرف، اتسعت لكل هذا العدد. كان الفرج لا يسعني، ويكاد قلبي أن يقفز فرحاً، وطلبت من مسعود أن يرتب عدداً من الأسرى الأصحاء لكي يساعدونه في تلبية طلبات من كان معهم، وأولها شراء الثياب، وتغيير أسمالهم المهترئة بها، وشراء ما يكفي من الأقوات لما يكفي للجميع، لعدة أيام، وجلب الأطباء الأكفاء لمعالجة المرضى منهم، وخرج الخدم من الدار ليرحبوا بالوافدين، وقد اندهش أهل حي الفستق من الذي يعيشون في الدور التي تحيط بنا بهذا العدد الكبير من الرجال، ولكن زالت دهشتهم حين عرفوا من مسعود أنهم أسرى العراق، وقد أطلقوا من أسره بعد دفع الفدية !!

وجاء على رأس عدد من اطباء دمشق طبيب مشهور، عرفنا فيما بعد أنه طبيب معاوية الشخصي، ويدعى عدي ابن اثال اليهودي. كان عظيم الجثة على

عكس ما عهدناه في أشكال اليهود في يثرب أو في الكوفة من النحول وأصفرار الوجوه ولأنف كل واحد منهم شكل مشابه للأنف المعقوف، واسع الجبهة، بلحية أثيثة شقراء، وثغر مبتسم دائماً، ولا تفرق شكله عن أشكال المسلمين كثيراً!! وله خال على خده الأيمن أحمر الشكل يزداد احمراراً كلما احتد في الكلام أو حاول أن يفكر بعمق، وذلك ما لاحظته حين ناقش أحد الأطباء حول حالة أحد الجرحى من الأسرى، الذين أطلق سراحهم، وكان يردد بين الحين والآخر " بسم الله .. بسم الله " وكنا في نفوسنا نخاف أن يكون ذلك دعاء علينا بالهلاك!! فقد كان اليهود في يثرب يسلمون على الرسول محمد قائلين " السّام عليك " وكان الصحابة يعتقدون أنها تحية السلام!! ولكن الرسول، في إحدى المرات ابتسم، وقال للصحابة، هذا الذي حيّاني كما تعتقدون، قال لنا "الموت عليكم" و "السّام" اسم من أسماء الهلاك!! فأن قال لكم اليهودي أو النصراني "السّام عليكم" قل "وعليكم"!! أي أن الموت للجميع ولا بشر خالد في الأرض!! وحين رأى الحيرة على وجهي قال:

- فهتت لماذا أنت مستغرب لقولي "بسم الله" نحن نعرف الله قبل أن تعرفوه أنتم فهو ليس ربكم وحدكم!!

قال ذلك ضاحكاً، وهو يتفحص ذراع أحد الأسرى التي ذبلت وصارت جلدًا على عظم. فقلت له:

- تذكرت "السّام عليكم" في يثرب!!

قال عدي ابن اثال بعد أن تنهد وترك ذراع الأسير لتهبط إلى جنب الجسد:

- هذه الذراع قطع عصبها، ولم تعد صالحة ولا يفيدها الدواء بشيء.

قلت له مماحكاً ومذكراً:

- ذكرتك بأيام يثرب فتنهدت؟

نظر صوبي وقال:

- أيها الشاب أولئك قوم خلوا من قبلنا، ونحن أتينا بعدهم ولكل قوم طريقتهم،

ووسيلتهم للتعامل مع الآخرين!!

كانت نظراته ماكرة، ووجهه صغير لا يتناسب مع جسده الضخم، وله عيان ملونتان ذكيتان. كثير الحركة، شديد الاهتمام بمن يطلب منه فحصه أو تعيين الدواء المناسب لدائه.

واحتد عدي ابن اثال بعد ذلك كثيراً حين نصح أحد الأطباء، الذين صاحبوه بقطع ساق أحد الأسرى لأن الدم لم يعد يسري في عروقها، وغدت زرقاء

اللون، لكن ابن اثال أعطاه دواء من برطمان زجاجي كان يحمله في جراب عدته، وما ان وضعه على مكان الجراح حتى شعر الأسير بعد ساعة بالراحة، وأخذ بعد ذلك يتشافى يوماً بعد آخر، ويعود لون قدمه من زرقتها المعتمة إلى لونها الوردي الطبيعي!!

وما أن استقر بنا المقام في باحة الدار مع ضيوفنا، خطبت فيهم، حامداً الله شاكراً فضله، ومصلياً على رسوله الكريم، وآل بيته الطيبين، وذكرت لهم وجع أهل العراق لأسراهم، وذكرت أول الموجوعين خليفة المسلمين أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب، الذي أرسل قبلي من يفتديهم، ولكن معاوية وشيوخ الأمويين رفضوا فدية الخليفة، واشترطوا أن تكون الفدية شخصية من أهل الأسير أو من أقربائه أو قبيلته!! لأنهم لا يعترفون بخلافة أمير المؤمنين علي وتمثيله لشؤون الرعية، وقد ادعوا أن قبول فدية علي قبول ضمني بخلافته على الرعية!! وهذا ما لا يعترفون به، أو يوافقون عليه، وقد شاء الله أن أغادر البصرة لأقدم إلى دمشق لفداء المهند الراسبي والدي، وقد وفقتي الله لفداء كل من وقع في أسر الأمويين، وحمدت الله وأثيت عليه، ودعوتهم إلى الأغتسال في حمامات الدار، وزودهم الخدم بكل ما يحتاجونه من ثياب، وجهازوا لهم الطعام، وامتلات الدار وأبهائها بالأسرى المطلق سراحهم، وأعد الخدم عدة ذبائح ما بين ضان وعجل سمين وطيور وسمك لعشاء الضيوف، وارتدى المهند الراسبي ثوب الحرير الأبيض، واعتمر العمامة اليمانية البيضاء التي اشتريتها له، وعطرتها بالمسك والعطور الفارسية.

كان المهند فرحاً برؤية ولده وحرите وتعرفه على امرأة ولده وحملها، الذي بدأ يكبر، وأخبرت الجميع بعد صلاة العشاء بأننا سنغادر دمشق، قريباً، فالذي يعيش فيها كمن يعيش في سفينة على وشك الغرق!! وسنتوجه إلى البصرة إلى منطقة السبابخة فيها، فمن رغب المغادرة إلى الكوفة أو إلى أي مدينة أخرى كخرسان أو بلوجستان، عليه أن يخبرنا لنجهزه بالمال الذي يكفيه، وسنطلب من إحدى القوافل المغادرة أن تقله معها، فشكروني وشكروا والدي، ومالوا عليه فقبلوا جبينه، وهم يزدانون بثيابهم الجديدة، ووجوههم المشرقة، والتماعات عيونهم وأمتلائها بالأمل، فالحرية شيء كبير، كشمس عظيمة تشرق في النفوس، فتزهو وتشرق الآمال، بأن يحيوا من جديد بعد أن يأسوا من الحياة، وظنوا أنهم هالكون في سجن بني أمية!! وهم يذلون كل صباح بسياط سجانهم الغلاظ، وخلال الأيام التالية غادرنا معظم الأسرى السابقين،

إلى أهلهم، في الكوفة والمدائن وخرسان، وإلى مدن وقرى ومدامر حول الكوفة، وكنت اضع في محامل المغادرين ما يحتاجونه من مال وطعام وما يحتاجونه ليومهم ومستقبلهم، وأقول لهم جازاكم الله خير الجزاء، دافعتم عن الإسلام ونصرتم علياً وصي رسول الله وإبن عمه، فنصركم الله بنصره واعدكم إلى دياركم وأهلكم سالمين غانمين، ولم يبق معنا في اليوم السادس سوى عشرة منهم، قالوا نصاحبكم إلى البصرة، فلا أهل لنا ولا أصحاب في الكوفة أو غيرها، فنكون من رجالكم، وأصحابكم، فرحبنا بهم، وقلت لهم لا بل تصيرون من أهلنا، فخرروا لله راعين حامدين والدموع تبلل وجوههم شاكرين الله أن حررهم من الأسر ورزقهم بأخ كريم وأهل كرام.

وبعد تهديد معاوية لنا بعدم الاختلاط بأهل دمشق، وقوله لي، أنه حارب علياً بجنود شاميين لا يفرقون بين الناقة والجمال، فليس سهلاً أن نقيم في دولته فنخرّب له دولته كما يظن!! أن معنى طلبه أن لا نختلط بأهل الشام أنه يحرص على أن يبقى أهل الشام عمياناً لا يبصرون بعيون مفتحة على الباطل، لا تعرف غيره ولا تقارن بغيره، ولا تزال كلماته تتردد في ذاكرتي: "خذ من سيطلق سراحه من الأسرى وأمض عائداً إلى أهلك وإلا فلا أمان لكم عندنا ولائمة ولا عهد"

لم يمض أسبوع إلا وكنا في قافلة سائرة بعون الله إلى العراق، أرض الأنبياء والصالحين، متجهة إلى السبابة عبر برية الرمال المتحركة، التي يضرب المثل بخطورتها كونها تبتلع القوافل، فهي كأواج البحر المتلاطمة، تغرق فيها قوائم الرواحل، فلا يرى لها أثر خلال ساعة من الزمان إذا تركت دون نجدة!! فكانت رواحلنا تسير متتابعة على حذر، مع ضيوفنا العشرة، وقد تزودنا بالأقوات وما نحتاجه من ماء في طريقنا، وحملنا معنا من بضائع الشام وحبوبه، ما يكفي لعدة شهور، وكنا بالرغم من مخاطر الطريق في فرح دائم لأننا نأمل أن تصافح عيوننا من جديد أراضينا وأهلنا ومرابع صبانا!! وبوصولنا سيفرح المحبون وسيحزن الأعداء ومن كره مجيئنا.

شاهدت شهزاد مسرورة، فقلت لها: سامحيني لم يترك لنا الأمويون فرصة للإقامة الطويلة في دمشق حتى تضعي مولودنا، فنحن في نظرهم نفير إيقاظ للنائمين من أهل دمشق، فربما ساهم قرع ناقوسنا إيقاظهم، فيعرفوا من ظلمهم، ومن أذاقهم الويل، فردت عليّ:

– يا سيدي، حين أكون معك فكل أوقاتي سعادة وأينما نكون، وأنت تحت نظري، أشاهدك وأتملى فيك وأسمع صوتك، فأنا في أمان وراحة، وساحتمل مشقة الطريق، وهذا ولدك يتحرك جذلاً في بطني، يريد أن تقع عيناه على أرض أجداده وأهله، ونسأل الله السلامة في حلنا وترحالنا.

"المدينة التي لا يشهد أهلها بوحداية الله مستقبلها الخراب"

17 ربيع الأول 39 هجرية

"مسعود الأعمشي"

أنشغل سيدي الهفهاف خلال رحلة عودتنا إلى السبابة بأبيه، فهو لا يكاد أن يفارقه، حتى أنهما انفردا بهودج، وأقول لم أر علاقة برّ ومحبة بين ابن وأبيه، كما رأيت في علاقة الهفهاف بأبيه!! أسأل الله لهما العمر الطويل والسعادة. بالرغم مما لاقاه المهند من ذل الأسر وعذابه، فهو لم يرو لنا إلا القليل عن ذلك. كان يردد بعد كل حكاية حكاها عن ظلم الأسرى، قائلاً: " لا تذكرني بما عشته في دمشق!! ".

وحكى فيما حكى من قليله، كيف أن أهل الأثواب القصيرة واللحي الأثيثة من حراس السجن كانوا يدورون حولنا وبأيديهم المطاريق، وهي معمولة من فروع الشجر، ويطلبون منا أن نشتم علي ابن أبي طالب، يقولون أشتموا أبا تراب فهو أس البلاء في هذه الأرض، فنأبى عليهم ذكر ابن عم الرسول بسوء، فيبتدون بضربنا بمطاريقهم على ظهورنا وأدبارنا، وأظهر لنا المهند ظهره، فإذا هو مساحة زرقاء وجروحاً لا تزال لم تندمل بعد، فكان في الليل لا يستطيع النوم على ظهره أو جنبه فيبقى متقرفصاً أو ينام لفترة قصيرة على بطنه!! وذكر لنا أنهم حين يدخلون إلى الفناء، الذي حبسنا فيه، فهم يتعودون من الشيطان ومن الإشرار بالله، وهم يعتقدون أننا نشرك بالله، ونعبد علياً!! وأنهم كلما فعلوا معنا منكراً، كلما أثابهم الله وأجزل لهم العطاء في الآخرة!! قال عمي الراسبي كنا نتلو الشهادتين بصورة جماعية، ونقول أننا نعبد الله الواحد، وعلي ابن أبي طالب عبد من عبيد الله، وهو ليس سوى خليفة المسلمين، بايعه الناس، فبايعناه، لكنهم كانوا يضحكون من قولنا، ويقولون " أنها التقية التي علمكم أياها أبو تراب!! " وبعضهم يقولون " إنما أنتم بقية من بقايا كفار قريش!! " ولن نكذب أهل رسول الله - يقصدون بني أمية - الذين يحكموننا بآيات الله، ونصدق أقوال علوج من علوج الكوفة!! أتوا من أرض النفاق والفتن - يقصدون أرض السواد - وذكر لنا أيضاً أنهم حين يطلبون منهم ذكر

علي بسوء ويرفضون أن يقولوا أفكاً، فيشتد الضرب على ظهورهم، فيلوذ بعضهم بالبعض الآخر، والسلاسل الحديدية الثقيلة تقيد الأسرى إلى حجر دائري ثقيل يتوسط فناء السجن، وكانوا في كل حملة إيمانية كما يسميها السجانون لنشر الإسلام في صفوف الأسرى يقتلون بضربهم عدداً من الأسرى، فتلقى جنثهم في خندق ضيق على أطراف دمشق، يحمل الأسرى الشهداء إلى تخترونات السجن لترمي هناك، فتأكلها الضواري، من طير وسحالي الجبل!! وقد هلك خلق كثير من الأسرى على أيدي سجانهم، وكان المهند يردد بعد كل حكاية قول علي بن أبي طالب: " مشقة الطاعة تذهب ويبقى ثوابها!! ".

وعندما وصل عمي المهند في قصته إلى هذا المقطع، فيأخذ بالبكاء بحرقة، ويكرر علينا أن لا نطلب منه أن يقص علينا ما حدث لهم في أسرهم!! فهو يريد أن ينسى كل شيء، فيقول له الهفهاف مرّبتاً على ظهره:

– " هوّن على نفسك يا أبتى، أن الله يسمع ويرى ". كانت جلسات عائلية كهذه الجلسات، التي يحكي فيها الراسبي شيئاً من سفر الأسر يتحول المجلس إلى مناخ!! نساؤنا يبكين والخدم يبكون، والحاضرون يمسحون دموعهم، ومن يروي يتهدج صوته، ولا يصبر عن البكاء إلا بصعوبة، ولو كانت للجدران والأبواب والأفرشة والأسفاط عيون لبكت معنا لفرط ما واجهه الأسرى العزل في دمشق من أذى، وهم لا حول لهم ولا قوة، وقعوا بأيدي جند يدعي أسيادهم وأمرأؤهم أنهم مسلمون!!

صحبت قافلنا ثلثة من فصيل أموي بأمر قائد ثكنة دمشق للتأكد من خروجنا من الشام وأن يمنعوا عنا الحديث مع الشاميين في القرى والمداشر، التي نمر بها، وهي نصيحة معاوية لوزيره سرجون!! وقد عمّت النصيحة بكتب إلى كافة نقاط الجيش الأموي في كل المدن والقرى التي ستمر بها قافلة الأسرى المطلق سراحهم!! وطلب مني سيدي الهفهاف قبل مغادرتنا دمشق أن أكتب لابن عمه بشر بن المفيد الراسبي، لأخبره فيها بأننا في طريقنا إلى السبابخة، قادمين من دمشق، ومعنا شيخ الأعمشة عمه المهند، وقد يسر الله لنا إطلاقه من أسره لدى الأمويين، ومعهم مجموعة من أسرى صفين، المطلق سراحهم، وطلبت منه أن يهييء لنا البيت الكبير في الأبلّة لأستقبالنا، وأن يخبر شيوخ الأعمشة بقدم شيخهم الأكبر، بحفظ الله ورعايته!! ووقعت الكتاب بختم سيدي الهفهاف، وكتبت أيضاً لأصحاب سيدي الهفهاف في الكوفة، كهاني بن عروة، وميثم اشعث التمار، وأبو الحديد وبشر بن غالب الكوفي، وأبي أسحاق

الثقفي، صاحب الإقطاع الزراعية جنوبي الكوفة، وهاتيء بن جبة الكوفي وسليمان بن سلط الخزاعي، وإلى جعدة الكوفي ابن أخت الخليفة المؤمن علي المسلمين علي بن أبي طالب وأبو حمزة الثمالي وغيرهم. وأخبرتهم في رسائلي بخبر إطلاق سراح جميع أسرى صفين، وعودتهم إلى أهلهم في الكوفة، وباقي المدن التي جاءوا منها، وذكرت لهم فيها أخبار ما جرى، وما حصل لنا منذ خروجنا من السبابة إلى يومنا الحالي!! وكتبت رسالة إلى والي البصرة " عثمان بن حنيف" أخبرته فيها بقدمنا، ومعنا أسرى محررون من أسرى صفين، بينهم شيخ شيوخ الأعمشة "المهند الراسبي" بطل معركة صفين وجريحها الأسير!! الذي مذكره أحد أمام أهل السبابة إلا وضجوا بالبكاء!! لما يتذكرونه عنه من كرم وحكمة وجود وطيب معشر وحسن إيمان، ولم يفتني أن أكتب كما أوصاني سيدي الهفهاف رسالة شكر لأمير الأمراء سبهان الأزدي القرشي في حلب، وأخرى للشيخ المؤمل شيخ الجامع الكبير في دمشق، وأرسلت مع رسالتي للشيخ صك شراء دار دمشق، التي اشتراها سيدي الهفهاف وطلب منه أن يجعلها داراً للسبايا، ممن يقعون في أسر الأمويين ولا مكان لديهم يبيتون فيها حتى يتم التصرف بهم من قبل الأمويين!! فقد كان أولئك يتركون في العراء لعدة أيام دون أن يأبه أحد بهم، حتى يعلن بيت الحسبة في شأنهم!! وشكرته نيابة عن سيدي الهفهاف، ودونت أخبارها في برجمان سيدي الهفهاف، وختمت الكتب، وأرسلتها بالحمّام الزاجل في إحدى مراحل الطريق، التي توقفنا فيها للتزود بالطعام وعلف الركائب ونيل قسط من الراحة، وإرسال بريدنا إلى الأهل والأصحاب، وقد استغرق إرسال الرسائل أكثر من أسبوع في موقف القوافل ذاك.

30 ربيع الآخر 39 هجرية

"كل مُصابٍ في سبيل الله مآله إلى الله وما لغيره فهو للدنيا وونسها"

"الهفاهف الراسبي"

ماذا أقول عن المقارنة بين سجون الشام وسجون الخليفة علي بن أبي طالب، يقول أبي "أن سجون علي كانت أكشاكاً من القصب، لأنه كان يربي الناس، فكشك القصب يمكن نعبه والهروب منه، وكانت له حكمة في هذا، فقد كان يريد أن يعلم الناس أن يعاقبوا أنفسهم ويخلق سجانهم في ذواتهم، فهم مسلمون، ومن ينسى حكاية التقاضي على درع مسروق تعود ليهودي في الكوفة مع شريح القاضي، وعلي كان خليفة للمسلمين، وكان المدعي عليه يهودياً من عامة أهل الكوفة، فكناه شريح القاضي بكنيته، فنهر علي القاضي، قائلاً: لا تكنني وتترك غريمي، هكذا!! فهذا ليس من العدل يا شريح!!

تركت كتابة الرسائل إلى الأصحاب في الكوفة والبصرة إلى أخي مسعود وأنشغلت كل الشغل بكتابة رسالتي إلى أبي علي الحسين. كتبت له أبشره بما فتح الله به علينا من إطلاق أسرى صفيين ووصفت الحال الذي كانوا فيه، ورثيت من ماتوا في الأسر وعددت أسمائهم، لإبلاغ أهلهم وقضاء حوائج من كانت له حاجة منهم!! وأخبرته أننا متوجهون إلى البصرة مع أبي مع عشرة من الأسرى الذين فضلوا مؤاخاتي والبقاء في ضيافتنا، وحملت الرسالة أشواقي ومحبتي له، وأملتي أن يجعلني الله في خدمته إن فكر يوماً بزيارة البصرة، مدينة السواد والأنهار، والخيرات الكثيرة، ومهرت رسالتي بختمي.

كانت رحلة العودة إلى العراق تسير كما شاء الله في حرارة شمس معتدلة، وقد اتسمت الطبيعة حول نهر الفرات بالخضرة والقرى المتناثرة التي تستقبلنا كلابها ركائبنا بالنباح، فنرمي لها شيئاً مما نحمل من الخبز فتتشغل به، وقد حصد الزراع قبل فترة قصيرة غلة الأرض، فكانت رائحة التراب الرطب مميزة وتملاً الصدور. والحصائد تملأ جنبات الأراضي الزراعية بانتظار نقلها إلى المخابيء والأسواق، وقد طلبنا من حملتدار القافلة أن لا يتجاوز مسير القافلة ثلاث مراحل في كل نهار، وبعدها نتوقف ونخيم ليوم وليلة، رعاية لحمل

شهزاد، وكذلك لمراعاة اثنين من ضيوفنا كانا يعانيان من مرض السرسام(1) الذي أصابهما في معتقل الأمويين، وكان قد حدد مرضهما الطبيب اليهودي عدي ابن اثال، الذي عاد جميع المرضى من الأسرى في دارنا بدمشق، وأخبرني أن المريضين لن يعيشا أكثر من ثلاثة شهور، بسبب انتشار "السرسام" في كل أنحاء جسيديهما، وأوصاني بأن توفر لهما الراحة، ونلبي لهما جميع رغباتهما فهما على شفا الموت، والله أعلم بنهاية الآجال، لذلك حرصت في كل مرحلة على تلبية طلباتهما، والأشراف على تناولهما الدواء، الذي وصفه لهما ابن اثال.

وكنّا في الليالي التي نخيم فيها نعقد مجالس السمر، بعد الانتهاء من تناول عشاءنا، الذي يعده طباخون استأجرناهم من دمشق ليصاحبونا في رحلتنا، إلى البصرة. وكان أبي مسروراً لما تفضل الله به عليهم وعلى أصحابه، بعد أن عاشوا تلك الشهور المريرة في سجن الأسرى بدمشق!!

(1) مرض السرطان كما كان العرب يسمونه قديماً.

كنت أشعر بسعادة ما بعدها سعادة وأنا اسمع والذي يتحدث مع أصحابه من الأسرى ويكركر ضاحكاً، ولما مرّ بهم من أحداث، وما عاشوه من مفارقات السجن، وما كانوا يصنعون في الأسر لكي يرفهوا عن أنفسهم، وما يؤدونه من صلاة في ليالهم الطويل، وكان المطلوب من الحراس الغلاظ اقتلاع كرامتهم، وهي ذي القاعدة المعتمدة والسنة المتواترة لدى الأمويين لقهر أعدائهم، والانتصار عليهم!! ولكن والذي ومن معه فطنوا لما يراد بهم، فحرصوا على الحفاظ على إنسانيتهم وصون كرامتهم، فهم إذا جاعوا لم يطلبوا طعاماً وإذا عرض عليهم تحاشوه، وكأنهم ليس بهم حاجة ماسة إليه، وإذا ظمئوا ما طلبوا ماء حتى ييسره الله لهم، حتى ظن السجانون أنهم يعاشرون في سجنهم جنأ، فهم لم يطأطأوا رؤوسهم لأسريهم، مهما دعته أجسادهم إلى ما هو أرضي، فكان الجائع والمريض منهم يقضي واقفاً من دون أن يسمع آسروه أئنه أو يطلب شيئاً ليبقي حياته!! وهكذا مضت عليهم أيام الأسر، يبنون نفوسهم ويقوون دفاعاتها أمام عدو غاشم كان يحاول أن ينال منهم ومن كرامتهم في قرص الخبز وشربة الماء، كان الأمويون يحلمون بأن يذلون أسراهم ويجعلونهم يفعلون ما تفعله البهائم في الزرائب حين يكتظ بها المكان، ويقل علفها وماؤها، فلا تشبع ولا ترّوي ظمئها، فتتقاتل بينها ويأكل قوياها ضعيفها، وعندما يأس السجانون من هؤلاء الجن، الذين لهم صور البشر، ولكنهم لا

يمكن أن يكونوا بشراً في كل الأحوال، يجوعون ويتألمون ويظنون وتعترهم لحظات ضعف فتهمل دموعهم أو تضعفهم ذكرى جميلة من ذكريات الماضي، كلهم أقفلوا على فكرة أن ما يقومون به في أسرهم جهاداً لا يقل درجة عن الجهاد بالسيف، وكما لم يمكنوا عدوهم من أن يكسر إرادتهم بالسيف، فهم لم يمكنوه من كسر إرادتهم، وإنسانيتهم بسجنه وظلم سجانيه !!

كل تلك الذكريات السوداء وحرصت على أن ينساها والدي، أردت أن أسري عنه، لكنه كان يهمس في أذني حين ينفرد بي، قائلاً: ياليتني مت يا ولدي ولم أقع أسيراً لدى هؤلاء الوحوش، يا هفهاف !! والله ما فعلناه في صفين كان جهاداً يسيراً لا يصل إلى ربع ما عانيناه في الأسر.

في اليوم الأربعين من مغادرتنا آخر القرى الشامية التي تقبع تحت حكم الأمويين وصلنا إلى الطريق الذي يضعنا على رافد لدجلة، الاختصار الطريق إلى البصرة من دون المرور على الكوفة، والكثير من المدن الأخرى، وعندها تبادلنا التهنة بسلامة الوصول إلى أرض العراق، ورأيت الحبور على وجوه جميع من في القافلة، حتى أن حملتدار القافلة الشامي اندهش لكل هذا الفرح، فأخبرناه أنها الفرحة بقاء الأهل والأصحاب، وأن ما قطعناه من مراحل الطريق كانت مملوءة بالمخاطر، وأكثر تلك المخاطر الغارات التي ينظمها أمراء من بني أمية، لإثارة الرعب في نفوس سكان أطراف الشام، غير الخاضعة لحكم الأمويين، وسرقة أموالهم وأنعامهم، لإشاعة الفوضى لغاية في نفوس الأمراء، لا تعدو عن الفت في عضد من يعارضهم أو يفكر بمعارضتهم.

وما أن بلغنا جوجو البصرة ومحط عكاظها، الذي تتعقد فيه اجتماعات العرب من الشرق والغرب وتباع فيه بضائع فارس والهند، وما يأتي من الشام وأفريقيا من غلات وأرزاق وكل ما يثير الدهشة من بدائع الصنعة واللبوس الثمين، اندهشنا لوجود عدة فصائل من جيش البصرة وعلى رأسها الوالي عثمان بن حنيف، الذي ضرب خيمته في بداية مراح عكاظ وأصطف حوله فرسان يحملون رايات الدولة، وعرفنا أن جنود جيش البصرة يرابطون منذ أيام بانتظار وصول قافلتنا، للترحيب بوالدي صديق عمر الوالي عثمان، والذي قاتل معه في كتيبة واحدة يوم الجمل وحرب صفين، وكان ظنه أنه لن يراه بعد يوم أسره في صفين كان أيضاً صديق طفولته، فما أن وصلت رسائنا من دمشق والتي أخبرناه فيها بأخبارنا، حتى هرع إلى حاجبه يرتب معه كيفية استقبال

أسرى صفيين المطلق سراحهم وشيخ الأعمشة المجاهد المعروف في معارك المسلمين كافة، وآخرها صفيين.

وما أن شعرت طليعة جنود البصرة بقدوم قافلتنا حتى علت أصوات نفيهم وقرع طبولهم وتزمير مزاميرهم، فرحاً بقدومنا، واصطفت عدة فصائل من الجنود لإداء التحية للقادمين، وكان في مقدمة المستقبلين الوالي عثمان بن حنيف، وكان طويلاً، واسع الجبهة له لحية شهباء، وعلى وجهه الأسمر ارتسمت آيات الهيبة، وفي عينيه نظرات حياء، فهو لا ينظر بوجه أحد لفترة طويلة بل يغض بصره حياء بعد كل نظرة تستمر للحظات قصيرة، وقد ارتدى ثوب الوالي المزركشة بآيات قرآنية عند الصدر، لكننا كنا نعرف أن تحت هذه الأثواب الغالية الناعمة الملمس التي يرتيها ثياب خشنة تم خياطتها من الخيش الخشن زهيد الثمن، وهذا ما يرتديه قادة وولاة علي بن أبي طالب المقرَّبون!! لكي لا تغرهم السلطة ومباهجها وأبهتها، وتذكرهم بفقرهم أمام أنفسهم وخالقهم، وكلما حَزَّ الخيش في جلد من ارتداه تذكر فقر رعيته وأعوانه وجنده، فيرتد عن غيه ويتأدب في الحديث مع من يحدثه من عوام الشعب وضعفائه!! فما ارتداه من ثياب خارجية ناعمة الملمس غالية الثمن، فهي لحفظ هيبة وظيفة الوالي عند العامة وبسطاء الرعية، وما تحتها تأسياً ومواساة لأبن عم الرسول وخليفتهم الذي لا يرتدي فوق جسده جبة إلا وكانت من الخيش الخشن.

وما أن وصلت طليعة القافلة حتى أخذ الجنود بالتكبير والتهليل وترجل الوالي وعانق والدي الذي سبقه بالترجل عن دابته، وسط دهشة حملتدار القافلة الشامي، ودهشة المسافرين الآخرين في القافلة من فختامة الاستقبال، وهم لم يتصوروا أن من كان مسافراً معهم، بهذه الأهمية، فيستقبله الوالي وكبار قادة البصرة، وشيوخها، وحيا بقية المستقبلين الأسرى وكانوا من أبناء عمومة وقبيلة الوالي، ومرت أكثر من ساعة والنفوس مملوءة بعواطف جياشة، وقد أخذ البعض في البكاء بدموع غزيرة، وتمالك أبي نفسه وكذلك فعل الوالي، وأخذ يهونان على الرجال ما وقع عليهم من أذيات ومكاره، ومخاطر. وعلا صوت النفير مجدداً وذبحت الذبائح تحت أقدام العائدين من الأسر، فداء لهم، واستقر الجميع في خيمة كبيرة نصبت، وفي بدايتها راية خضراء وقد كتب وسطها بخط كوفي " لا إله إلا الله، محمد رسول الله، علي ولي الله " وفي أعلى الراية كتب: يدُ الله فوق أيديهم!!

وعلت أدخنة طهو الطعام من طرف معسكر الاستقبال، وكان نهراً مملوءاً
بالفرح أنسانا ما واجهناه في رحلتنا إلى الشام من مصاعب ومخاطر، واعادت
لنا ثقتنا بمحبة قومنا لنا، فنحن لسنا أرقاماً وحيوات هامشية لا قيمة لها، كما
يفعل الأمويون مع اتباعهم، نحن سادة أنفسنا وقومنا، وكل واحد منا يجاهد
نفسه والظروف التي يجد نفسه فيها، ويبرز ما حباه الله من مواهب وقدرات
ليكون ممثلاً لإمامه، فلدينا المثال، الذي نجاهد لبلوغه بقهر أنفسنا لدهرنا
ومصاعبه بما يرضي الله ورسوله ووصيه، فإن نجحنا في تحقيق العشر مما
في شخص أمامنا فقد فزنا الفوز الكبير، وبلغنا الدرجة العليا في الإيمان وسننال
العز بعد فراق النفس الجسد لنصير ضيوفاً عند رب كريم !!

10 جمادي الأول 39 هجرية

"الموت آت تدرّعت له بثوب الغز أو لبست ثوب الذل"

الهفاهف الراسبي

في خيمة الاستقبال الكبرى رأيت أعمامي بوجوه منكسرة ومعنويات هابطة يسلمون على أبي مترددين تعلقو وجوههم قترة، وكان أبي كلما أراد أحدهم أن يعانقه اكتفى بمصافحته ولم يعانقه!! فقد عرف كل ما خططوه وفعلوه لأبعادي عن مشيخة القبيلة بعد أسرهم، ولم يكتفوا بذلك بل كادوا لقتلي بسيوف مأجورة لأشقياء لا هم لهم سوى كسب المال الحرام، وقد قلدت أبي فيما يفعله مع الأعمام والأقارب الخائنين للدم وللعهود!! وفطنت إلى وجوههم، وقد اصطبغت بصفرة وشحوب العار، لكنني وقفت مستقبلاً ابن عمي المخلص "بشر بن المفيد" وعانقته وغالبت دموعي، وأنا أرقب دموعه تبلل لحيتي، ومنديلي الكشميري الذي اتزرنر به، فقلت له:

- هون عليك يا أخي بشر، هون عليك!!

ولمحت في عيون أعمامي وأبناء أعمامي الآخرين، الذين أمتأ بهم نصف الأيوان، نظرات الحسد لبشر بسبب قربه مني ومن أبي!! وكان إلى جانب الرهط من الأقارب في الأيوان وجوه ولاية البصرة، مدير شرطتها، ومحتسب بيت مال الولاية، وماسك زمام شؤون المجندين والمجاهدين في الثغور، وقاضي القضاة، والقضاة، وشعراء البصرة وتجارها وساداتها ورؤساء قبائلها. أجلس بشر قربي، وقدمت له شراب التمر هندي بنفسي بعد أن ناوله لي ماسك زمام الخدمة في الأيوان، واقترب مني رجل من البصرة سرعان ما تذكرته "سهل بن سعد" الذي أدرك الرسول الكريم، والذي أخبرني تلك الباصرة ذات يوم في السبابة، عندما قرأت بختي، فذكرت أنه الرجل البصري الوحيد الذي سيكون في دمشق، ويصف لأهلي ولأهل البصرة دخول رؤوس آل بيت رسول الله من باب الساعات في سور دمشق، وسيروي لزوجي وعمومتي وأبناء عمومتي وقبيلتي، أن رأسي سيكون مجاوراً لرأس أبي علي الحسين، منتصباً فوق رمح طويلة، وسط مهابة عظيمة من رؤوس شهداء كثيرين

عرفوا بفضلهم وصلاتهم، وقربهم من رسول الله، يشرق النور من وجوه تلك الرؤوس المقطوعة، واللحي المباركة التي خالطها شيب وخضبت بالوسمة، وبدت بثغور باسمه وعيون نصف مغمضة ناظرة صوب الأفق، والريح تلعب بلحي المجزورين يميناً وشمالاً، كأنهم في موكب لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب يوشك على دخول دمشق!!

هل أنسى هذا الوصف المهيّب، الذي رددته الباصرة على مسمعي؟ لا أظن أني سأنساه وها أنا اسعى إليه ليلاً ونهاراً سائلاً الله أن يعجل لي به!! وقدمني والدي للصحابي سهل بن سعد، وقال له: "هذا ولدي الهفهاف يا سهل" فصافحني بكف باردة. همست لوالدي أني اعرفه، لكنه لا يعرفني!! وعلت وجهي غمامة حزن مما تذكرته، من أقوال الباصرة، فلموت رهبة مهما كانت شجاعتنا!! الموت حدث مرعب لا يودُّ الحي أن يتذكره!! وقد وصفه الله في محكم كتابه بالمصيبة، فقال مصيبة الموت، فشعرت بمشروب التمر هندي يقف في تجويف فمي فلا أستطيع أن أبلعه أو أمجّه، يا للموت من وقع رهيب على الأحياء، ويا لذائقتة الحريفة المرة، اللهم سهل أمرنا فأنت أرحم الراحمين. وأخذ بشر يحدثني عما حصل في غيابي وما حدث في السبابخة، وكيف أن ابنة عمي حسناء، التي كانت قريبة من قلبي، وتتمنى الاقتران بي، قبل أن يقع أبي في الأسر!! وكانت أخونة طعامنا مملوءة بالخيرات والأراضي تزهو بكل خير بهيج، لكنها قلبت لي ظهر المجن حالما دارت الدنيا دورتها عن عزنا، ونالنا الدهرُ بسهامه، فوقع أبي في أسر الأمويين، وأعمامي خلعوني عن رئاسة الأعمشة، ونفوني من السبابخة مسقط رأسي إلى البصرة، وأن لم أفعل ذلك لبعثوا من يغتالني هناك، وهم في النهاية فعلوا ذلك حين علموا بمسيرتي إلى الشام لإطلاق والدي من أسريه!!

أخبرني ابن عمي أن حسناء تزوجت صالحاً ابن عمها، لكثرة مال أبيه وما تملكه أسرته من عبيد، لكنه سرعان ما ملّها، وفضل عليها كرجية صهباء!! فطلبت منه الطلاق، فطلقها غير أسف عليها، فأخذت تجر الحسرات - كما أخبرني بشر - حين علمت بعودتي وأبي سالمين غانمين، وأن الدنيا ولا شك مقبلة علينا بعد إدارها، ولم أكن أفكر بشيء آخر غير فرحي بعودتي إلى الوطن والديار!! وأنا أنظر بين الحين والآخر إلى الصحابي سهل بن سعد!! الذي سيرى رأسي شامخاً فوق رمح من رماح بني أمية يدخلون به من باب الساعات بدمشق!!

كان ابن سعد لا يوليني اهتماماً، لأنه لا يعرف ماذا سيحدث لي في قادم الزمان !! ولم يسمع بحديث البصارة ونعيها لي، الذي تقدم ذكره !! وفي صميم نفسي أقول لها "يا نفساً يبقى حديث المنجمين كذباً وإن صدقوا !!" كان ابن سعد ينظر إلى والدي ويتملى من قسماته الهادئة، الراضية بما قسم الله لصحابها، أثناء حديث لأحد وجوه البصرة جاء مرحباً بعودتنا عن تجارة توابل له قادمة من الهند، وأخذ يعدد ما تحمله السفن من أنواع التوابل والأعشاب التي تزكي الأطعمة وتغير مذاقاتها، وتركت ابن عمي بشر جالساً يستمع لما يتحدث به أكابر الجالسين، واقتربت من سهل، لم يكن كبيراً بالسن، ويبدو أنه كان من أصغر صحابة الرسول سناً !! وما أن شاهدني مقبلاً نحوه حتى وقف لاستقبالي، قلت له هامساً:

- يا صاحب رسول الله، هل لك النية بزيارة دمشق قريباً؟

ابتسم سهل بن سعد وقال:

- لا نية لي، ولم أزرها من قبل !!

وسألته من جديد:

- وهل لك يا عم تجارة تنتظرها وصولها من دمشق أو ذاهبة إلى هناك؟

قال مبتسماً:

- لا والله يا ابن أخي !! لاشأن لي بدمشق ولم أعرفها من قبل !!

رددت بصوت واطيء:

- يفعل الله ما يشاء، سيفعل الله ذلك يوماً، وستذهب إلى هناك !!

- ما الأمر يا ابن أخي، ولم تطرح عليّ كل هذه الأسئلة حول دمشق وزيارتي

لها؟

فهمست له وعلى ثغري ابتسامة :

- يا عم ستري يوماً رأسي مقطوعاً ومرفوعاً على رمح طويل السارية يمر

من باب الساعات بسور دمشق !! وستكون حاضراً هناك، فتسجل للتاريخ

وصفاً دقيقاً لدخول أكرم الرؤوس وأقربها نسباً وقرباً ومحبة من رسول الله،

وسترى عائلات مسبية، صحبة الرؤوس في قافلة الأسرى والمسبيين تقصد

المسجد الكبير بدمشق !!

ارتسمت الدهشة على وجهه، وتساءل:

- لماذا تقول ذلك يا ابن أخي، وأنت بخير وأمان وقد عدت من دمشق وجنبتك

الله كل مكروه من الأمويين؟

- هي تصارييف الأقدار يا عم، وما جئت إلا لأطلب منك طلباً !!
أخرجت صرةً دنائير ذهبية، وقلت له:

- أن أراد الله وقدر فحدث ما حكيت لك عنه !! وكنت حاضراً أنت في ذلك
النهار، أسألك يا صاحب رسول الله، أن تقترب من حامل رأسي وجماعته من
حاملي الرؤوس، وأن توزع عليهم هذه الدنانير الذهبية، وتطلب منهم لقاء ذلك
أن يتقدموا موكب المسببات بمسافة كافية، حتى ينشغل الناس بروية الرؤوس
المقطوعة المعلقة على أسنة الرماح !! فلا ينظروا إلى النساء المسببات في
القفلة!! فهن والله أظهر وأكرم من يراهن بشر، وهن على تلك الحالة من
الحزن والذهول لفرط مصيبتهن برجالهن وأخوتهن وأولادهن !! وربما سقط
ستر إحداهن من دون أن تعلم، فلا أريد أن تقع عينا غريب عليهن بعد قتلنا،
وقطع رؤوسنا وحملنا للخليفة الأموي !! أقسم عليك يا عم أن تفعل ذلك، ولا
تخبر أحداً بخبره، حتى يأتي اليوم الموعود !!

ولم استطع أن أمنع دموعي من أن تهمل، فقال الصحابي:
- هون عليك يا ابن أخي، لا يعرف الغيب إلا الله !!
فقلت، وأنا احاول كتم حزني:

- تذكر ما طلبته منك يا عم، وإني لأراك كريماً صالحاً لا تحنث بوعده تقطعه
على نفسك !!

- اعدك يا ابن أخي بفعل ما طلبت، وإني لأظن أن كل ماذكرته أضغاث أحلام
لا أكثر !! ولكن أسمح لي بعدم أخذ المال فوحده الله يعلم من يموت قبل الآخر،
ولا أريد أن أموت مديناً لأحد !!

لم اعلق على ما قال، وشكرته، وتركته ولمحت في عينيه نظرات هازئة، وربما
كان يقول في نفسه " شاب غرير تحمل ما تحمل من رحلته إلى دمشق والشام
من مخاوف وأخطار، جعلته يصدق بكل ما يراه في منامه من كوابيس !! وما
أصابه من أغماءات حر الصحراء وشمسها اللاهبة، التي تصيب كل راكب
هودج يشق عباب تلك الصحاري، وتملاً عينيه صور سرابها الكاذب وحيواناتها
الخرافية !! التي يراها راكضة في السماء المشعة بلظاها، كل ذلك العنت يصور
لقاطعي الصحاري في رحلات طويلة أشكلاً من الرؤى السوداء والمصائر
تعززها حركة الركوبة التي يعتليها، فيرى الرائي أحلام يقظة أهولاً وحوادث
خطيرة قادمة، لا يستطيع ردها، ويعتقد أن ما رآه نبؤات حقيقية ستحصل له

ولآخرين يعرفهم !! وهي في حقيقة الأمر أضغاث أحلام لا يعتد بها، سامتها
ظروف صعبة لا تستطيع الأبدان تحمل وعثائها وعتها !!

قصر الخورنق الجديد

15 شعبان 40 هجرية

"الفرح الذي يذكر صاحبه بأحزان سابقة ليس فرحاً !!"

الهفاهف الراسبي

لم يمض وقت طويل لنا في البصرة حتى اشترينا أكبر قصور البصرة وأكثرها مساحة وغرفاً، من بين قصور فارهة تشرف على شط الأبله الكبير، وأيوانه الواسع يفتح مجلسه المرتفع عدة قامات عن الأرض على ساحل النهر، الذي سمقت عند ضفتيه أشجار النخيل وبينها نبتت أشجار الرمان، وداليات العنب، وامتلات الساحات حوله بالأنهار والسواقي الصغيرة التي تروي الأراضي الزراعية، وكانت معظم أشجار النخيل مثمرة بأفضل أنواع تمر البرني، والبرحي، معطرة بما تبثه أشجار الليمون من روائح عطرة. والنهر الكبير يعج بزوارق كبيرة تطوي أشرعتها الضخمة بسواريتها المنتصبه، وهي قادمة من بلاد السند والهند وفارس، حاملة تجارة تلك البلدان، تنتظر دورها بالرسو عند المرسى الكبير، لتفريغ حمولاتها من خيرات أرض وصناعات تلك البلدان.

القصر قريب من جامع البصرة، الذي أقيم تبركاً بمكان صلى فيه وخطب فيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، قبل فترة قصيرة في جمع من أهل البصرة واستحثهم فيها، لمواجهة معاوية والأمويين القادمين من الشام بجيش كبير، وذكر لهم شدة ظلم وأفك هؤلاء القادمين لحربهم، وذكرهم بما شنوه من عدوان على الرعية على امتداد الجزيرة، وفي كل مكان لا يجدون فيه ولاءً لمعاوية وعصبته، التي تتبعه وتذود عنه. وشجعهم للذود عن الإسلام ومنع من يريد التسبب بالفوضى وإشاعة النعرات القبلية الجاهلية !! التي حمل ظلمها ذلك الجيش القادم لحربهم، وبعد تلك الخطبة انطلق جيش كبير من المتطوعين من أطراف البصرة من جهة الخور العميق، وتوجهوا إلى الكوفة ليجتمع هناك جيش كبير توجه من يومه إلى الشام فحدثت معركة صفين.

عند أوئل الربيع من العام الماضي ولدت شهزاد بطفل ذكر سماه جده سلمان تيمناً بالصحابي "سلمان الفارسي" والي المدائن وصديق علي بن أبي طالب

خليفة المسلمين، ورزقت سهنازاد بطفلة جميلة سماها أبوها "زهراء" وضج القصر بمظاهر الفرح، وقد اطلقنا على قصر البصرة اسم "الخورنق الصغير" عن تسمية لقصر كان لجد أبي يقع على تخوم السباخة كان يستضيف فيه جدي الأول القادمين من كل أنحاء الجزيرة العربية من شمالها وجنوبها، ومن جزيرة "أوال" موطن قبيلة وائل في بحر العرب وخليجه الضيق !! الذين كانوا فخذاً من قبيلتنا الأعامشة، هاجروا إلى هناك لتسهيل التجارة مع البصرة والكوفة، والهند وفارس، واستقروا هناك وكان مقام تجارهم في الخورنق، قبل وفاة جدي الأول، وتغير بعد ذلك طريق التجارة، الذي صار عن طريق البحر، وتوجه سفن التجارة شمالاً في رافدي نهري دجلة والفرات، اللذين يصبان في مركز نهر الأبله، فتحول القصر بعد سنوات من هجره إلى خرائب وأطلال مهدامة.

كانت المأدبة التي إقامها أبي لأهل البصرة والسباخة بمناسبة انتقالنا للعيش في قصر الخورنق الجديد، مما لا ينساه أحد في المدينتين، طوال عقود، فقد ذبحنا لإعدادها أكثر من مائة بعير وخمسين بقرة وعشرين شاة !! بهذه المناسبة وحضرت النساء قبل الرجال للتهنئة، وكان أهل السباخة يعجبون من سعة وأبهة قصر الخورنق الجديد، وبهاء حجراته، وفخامة أثاثه وفرشه وأسفاط أغراضه المختلفة، وكثرة رمانات الأنوار فيه التي تم جلبها من خرسان وروما، والهند والسند، فهي مضيئة كالدرر الزاهية الألوان والأشكال من زجاج وبلور بقواعد من رخام موشى ناصع البياض. وفي ذلك اليوم الربيعي لا أظن أن بيتاً من بيوت البصرة لم ينل نصيباً من وليمة قصر الخورنق الجديد، وانطلقت الزغاريد وعلت دقات الدفوف وقرع الطبول من أكثر من عشرين فرقة أفرح تم استئجارها لإحياء الحفل، وكنا قد وزعنا على جميع خدم القصر والعاملين فيه من الطباخين والشوائين والجزارين ومحترفي الضيافة ملابس الحرير الأبيض والجبب بقلنسواتها وزنانيرها المذهبة.

وكنت في كل لحظة أحمد الله وأشكره على العز الذي صرنا فيه !! والفتيات الصغيرات من قبيلة الأعامشة ينظرن إلى شهنازاد بغبطة وهي حاملة إلى صدرها طفلنا العتيد !! وقد أزدان ثغرها بأجمل ابتسامات الأمومة، وتلألأ حضورها بأنواع الجواهر المرصعة بالألوىء والخرز الثمين، والأساور المتقنة الصنعة من الذهب، وملابس الحرير الموشى بالورود الذهبية، وقد تورد خداه، فغدت وردة جوري، متفتحة في جلوسها في أيوان النساء، وهي تنظر

بخفر واستحياء لجموع المهنئات، وقد طلبوا مني أن أجلس إلى جوارها، كما يقتضي عرف أسبوعية الطفل البكر في الأخماس، وعلى رأسي عمّامي البنية اللون، وجوهرة كبيرة متألئة من جواهر الهند ترصعها، وجلبابي الموشى بخيوط الذهب، وفوق وشاحي انعكست أنوار الأيوان، وكان أهل السباخة قد رأوا في هذه الشموع الهندية المضيئة إعجوبة من الأعاجيب، التي لم يروها من قبل!! فهي بلا هباب يوسخ الأثواب والوجوه، ولا يتذبذب ضوءها، فهي لا تستعر بشدة ولا تخفت شعلتها بين الحين والآخر، ثابتة الإضاءة كأنها كوكب دري، لا كما في شعلات البيوت في السباخة وبيوت البصرة ماعدا بعض الشعلات في بيوت أغنيائها وتجارها وإقطاعيها.

وكان قارئ القرآن يقرأ بصوت منعم، بغاية العذوبة، آيات من الذكر الحكيم، مختلطاً صوته العذب بأصوات خرير النافورات، ومدورات الطيور في أبهاء أيوان القصر، وامتلاً النهر جوار القصر بزوارق يقف عليها عدد من نافخي النار، فكانت شعلات اللهب تنطلق في الهواء، مخلفة ضوءاً ودخاناً في كل أبهاء الجادات، المطلة على النهر الكبير، وفروعه المندسة بين صفوف بساتين النخيل!!

وفي زاوية من حديقة القصر، وكنت قد ذهبت إلى هناك تاركاً مجلسي إلى جوار زوجتي وطفلي، لكي أشكر المهنيين وأرحب بالقادمين الجدد منهم، وكنت أراقب فرح أبي المهند، الذي جلس بهندام رئيس شيوخ القبيلة المزركش، وحوله جميع أخوته وهم رهن إشارته، وكانوا جميعاً قد أنكروا إخوته وأنكروا ابنه وكادوا له سابقاً، والآن أراهم يقبلون كفيه، ويسألونه في نظرات منافقة أن يمنحهم الصفح، عما بدر منهم سابقاً!! وكان يمد يده لكل واحد منهم، قائلاً وابتسامة لطيفة على شفثيه: لا تثريب عليكم اليوم، لا أقول لكم إلا كما قال يوسف على نبينا وآله وعليه السلام، لأخوته، غفر الله لكم، ولا تثريب عليكم!! واستغفرت الله لأنني شعرت بمتعة حقيقية، وأنا أشاهد أولئك الأوغاد المنافقين، وهم يطلبون العفو والصفح من أبي!! معترفين بذنوبهم، وأخطائهم، وهو يبصق كلماته عليهم، مكرراً: لا تثريب عليكم!!.. لا تثريب عليكم!! غفر الله لكم!!

ورأيتهم كيف يستقتلون على صحاف الطعام، وقصاع الشيزي وافتراس لصمان أعجاز الحملان، وغزوهم المريع لأخونة الآنية المذهبة، المحكمة الصنع، مزدردين الطعام اللذيذ، وهم يبعون ما يزدردونه من دون أن يلوكونه

بأسنانهم، وقد جذبهم إليه عزيز التابل الهندي، وأغراهم لحم سمك الرضراض، الخالي من الأشواك، والدجاج المتبل، والمحشو بلحم الطير والمشوي بتنانير تحت الأرض !! وكانت جيوب ثيابهم قد وسعوها لمثل هذه المناسبة !! ولهذه المأدبة، وكلنا نعرف أنهم ليسوا فقراء، فليس في البصرة فقير ! وأموال الزكاة ينادي محتسب بيت مال المسلمين في الأسواق بعد صلاة الظهر من كل يوم جمعة على من يحتاج مالاً فلا يلتفت إليه أحد !!

ولكن هؤلاء امتلأوا بما يسميه والدي بفقر النفوس، وهو أكثر أمراض زمننا أذى !! فقد فقد الناس قناعاتهم، وعدم مدّ أيديهم لأموال الزكاة والصدقات في الأسواق علانية ليس لعدم حاجاتهم إليها فقط بل ولكبر في نفوسهم !! فهم يفعلون في السر أشراً ما في نفوسهم من فقر ولا يفعلون في العلن ما هو مشروع ومقبول. أشاهدهم الآن يملأون جيوبهم بلحم الكباب واللقاق والفاخت !! بعد أن امتلأت بطونهم، وأوشكوا على الاختناق بما تناولوا، وفي جيوب أخرى من ثيابهم أخذوا يملأونها بأصناف الحلواء، من مستبطن للباب البر الحلو، والفقاس المعالج بالقلو، وأطباق مصنوعة من حلوى الفاكهة، وحلوى العود المحكم الخلق، المشتملة على محاج الشهد !! وهم يتلفتون لتحاشي رؤيتهم من قبل الخدم وسادتهم !! أولئك الخدم ورؤسائهم أخذتهم الآداب، وهذبتهم الدربة، فخفت حركتهم حول الطاعمين وسكنت أصواتهم، فلا تسمع منهم إلا همساً، وكل حركة يحسبها هؤلاء، ليقدّموا لصاحبها ما يحتاج من مساعدة بكل احترام وكياسة ومودة !!

وفي طرف البستان من القصر رمقتني حسناء أبنة عمي، وكانت بالغة الحسن، صبوح الوجه، لم يتغير شكلها كثيراً منذ غادرت السباخة إلى اليوم، وكانت حولها صويحباتها، فما أن قصدتني حتى نفرّت صويحباتها كغزلان متداريات في جنبات البستان، ليعطن الفرصة لحسناء للحديث معي، فسلمت عليّ بخفر، وهي تضع وشاحها حول نصف وجهها الأسفل وقالت بصوتها الأبح الهامس، الذي شغفت به منذ صبانا معاً في السباخة:

- يا ابن العم .. فضلت هذه الفارسية على أبنة عمك الصبوح ؟ !!

فنظرت إليها نظرة تأنيب وقلت لها:

- شهنزاد زوجتي أميرة من أميرات فارس، أسلمت وتقاسمت معي روحها، ففي بدنها نصف روح مني تكمله بنصف روح منها، وفيّ ما فيها. هي أميرتي وزوجتي وأم ولدي سلمان !!

قالت وكأنما ترثي نفسها:

- هي صاحبة حظ لا أكثر !!

فقلت لها مؤيداً:

- نعم الدنيا حظوظ يا حسناء، يا أبنة العم، من كان حظه موفوراً فاز بحلاوة الدنيا وبهائها، ومن كان بلا حظ تناوشته الأقدار والأقدار من كل جانب !! وقد كنت وقتها كذلك بلا حظ، فتخلي عني الجميع !! ولم يكتفوا بالتخلي عني بل ونفوني إلى خارج أرضي ومنبتي، إلى مدينة أخرى وقوم آخرين !! وكأنهم لا يعرفون فضلي وأصلي، فلم تبكيني البواكي !! ولا تحسرت على فقدي الجميلات من بنات القبيلة والأهل !! فقطعتني حسناء:

- وهل للمرأة رأي لدى أهلنا وقبيلتنا !! أم أن أمورنا جميعاً من المهد إلى اللحد بأيدي أبائنا وأخوتنا؟
فقلت لها:

- كم من أنثى كان لها موقف غير موقف أبيها وأخيها !!

ردت حسناء بصوت واطيء:

- لست من هؤلاء، فأنا لم أكن موافقة على تزويجي من ذلك الشحيح، لكنها إرادة أبي وأخوتي !!
- بارك الله لك في زواجك.

قالت معترضة معتقدة أنني لم أكن عارفاً بمصير تلك الزيجة:

- لقد تطلقت منه !! أنا حرة الآن، وأملك زمام نفسي، ولم أعد كما كنت يقرر لي حياتي أبي أو أخي الكبير !!

ومهري كان أراضٍ واسعة، هي ملكي الآن مع أكثر من ألف عبد يعملون فيها. ولي قصران في السبابخة يشرفان على نهر الأبله الكبير، ولدي من أموال تجارتي ما أن وضعتها بيني وبينك لحجبتك عني !!

نظرت إليها مؤنباً، فقد كنت أشعر بالخجل حين تعرض امرأة نفسها على رجل بهذه الطريقة الفجة !! وطبعاً هذا حق لها، ولكن لا اعرف لماذا شعرت بالخجل الشديد، مما دار في هذا الموقف بيني وبينها !! وأخذت أشعر بالدونية، كلما استمعت لعروض حسناء، وهي تذل نفسها أمامي. فغادرتها، متألماً لها، بعد أن همست لها بسلام مقتضب !! ورأيت في عينيها لصفة دموع بانة واضحة عندما اشتعلت المزيد من فقاعات النار التي أطلقتها أفواه فرقة إحياء

الحفل الكبير، وكنت طوال الوقت اتساءل: "هل يجوز إطلاق فقاعات النار هذه شرعاً؟ وكنا قد سألنا مفتي الديار البصرية الجعفي، فافتى بشرعية ما نفعل، لكنني كنت كارهاً لكل هذه الأفعال، وعارفاً أن ما يقوله هؤلاء المُفتون، لوجهاء القوم في حقيقة الأمر، قول ما يرضي الوجهاء وأصحاب الغرض قبل أن يرضوا الخالق تعالى، فهم يقولون ما يدر عليهم معاشهم! وإن لم تخلو البلاد من الناصح الأمين.

لم أرَ بعد ذلك حسناء، ولكن بعد شهرين سمعنا أنها تزوجت تاجراً من أصفهان، وسافرت معه إلى هناك لتكون سيدة قصره وعبده الذين يربون على خمسة آلاف عبد!! وهي الحياة التي تحلم بها منذ كانت صبيرة صغيرة السن تعبت مع أترابها من الصبيان والفتيات الصغيرات!! وهي تحكي لهن عن أحلامها وماذا تنتظر من الدنيا!!

عملنا منذ وصولنا إلى السباخة مجدداً إلى شراء الأراضي المستصلحة، وخصوصاً تلك الأراضي القريبة من النهر، واشترينا أغلب ما في البصرة من عبيد مملوكين، وحررناهم من عبوديتهم، واعطيناهم صكوك تحريرهم، وخيرناهم بين البقاء للعمل في مزارع النخيل بأجور يومية تدفع لهم وبيوت يسكنونها بلا سومة كراء، أو يغادرون إلى أمكنة أخرى ونساعدهم بالمال لفعل ذلك أو إلى تملك أراض غير مستصلحة يستصلحونها وتصير بعد الاستصلاح ملكهم، كما هو قانون الإسلام، المتبع، والذي أوصى به رسول الله، فيصيرون ملاكاً لتلك الأراض وغللتها، أسياداً عليها يورثونها لمن يزرعها ويديم صلاحها!!

وأقمنا لمن بقي ليعمل في أرضنا بيوتاً يسكنونها مع زوجاتهم وأطفالهم، وداراً واسعة لسمرهم، وجامعاً للصلاة وتعليم القرآن والفقهاء في طرف كل مزرعة!! وكنا نعمل على تعليم هؤلاء المحرومين وجعلهم يحترمون أنفسهم، لكي لا يقعوا مرة أخرى تحت طائلة العبودية. كنا نطلب من قراء هذه المدارس المبنية من القصب الفارسي المتين، والمنزوية بين بستاتين النخيل، وداليات الغب، أن يضعوا عنواناً كبيراً في كل مدرسة من هذه المدارس، يشير إلى أن الإسلام يحق العبودية للبشر ويجعلها لله وحده وأن المسلم الحقيقي هو المسلم الحر، الأبوي، الذي لا ينحني لمخلوق مهما بلغ سلطانه وبلغت قوته!!

كانت أسعد الأوقات التي يصطحبني فيها أبي المهندس، ونحن على جوادينا الأبلقين لنجوس بين هذه المدارس الصغيرة التي تعلم الناس كيف يكونوا

أحراراً وأن يصير كل واحد منهم أميراً معتداً بنفسه، يفضل الموت على ان ينحني لمن يدعي السيادة عليه من بني البشر ظلماً وادعاءً، فروح الإسلام محق العبودية، فإن وجد الأسياد تعددت العبوديات وفقد الدين روحه، وصار شيئاً آخر حاملاً اسم الدين فقط، وتصير عبودية البشر لبشر آخرين ويصير الوقوف للصلاة طقساً لا غير.

أعمامي الذين أحسنّا لهم بإقطاعهم إقطاعات واسعة من الأراضي المستصلحة، التي تغل غلات كثيرة ووافرة، وأخرى لرعي ماشيتهم وأبلهم، وسيدناهم على بقية القبائل، التي تقيم في جوارهم، فكلما كانت ثروة جارك كبيرة كلما مكنه هذا من التسيد ويصير رأيه مسموعاً وطلبه أمراً!!

مما جعل أهل البصرة الذين سكنوا حديثاً في مداشرها وحاتها وجاداتها يتوسطون إليهم بمن يعرفهم لكي ينالوا منفعة من المنافع، وكان هؤلاء الأعمام في العن يشيدون بأبي وبي، وينعتونا بالأطياب الكرام والمنقذين وأهل الكرم والجود!! وبينهم يصفوننا بأننا خونة، وممن اشتراهم معاوية بن سفيان بدنايره الذهبية!! وكانوا يغتابونني بالسر أيضاً وينعتوني بزواج الفارسية، وشمام أقدام عبدة النار، والمجوسي، ويكون ولدي سلمان بالفارسي!! والعرب عادة لا ينسبون أولادهم لأمهاتهم، ولكن حقد وحسد هؤلاء الأعمام والأهل فاق كل حقد وحسد!! وكان والدي يسمع ويضحك ملء صدره، ويوصني عليهم قائلاً: هؤلاء أهلك من دمك ولحمك!! فكن حليماً بهم، فهم فيهم جاهلية ستختفي من جيلهم القادم بإذن الله. كما أن الحسد والغيرة ملاً قلوبهم بالغل، أحسن إليهم يا ولدي كلما أسأوا لك. وكانت حكمة المهند تغلب عليهم، ولكنهم قوم لا يستحون ولا يرعون ذمة!! كالقردة أن اعطيتهم وضعوا أيديهم فوق رؤوسهم وإن منعت عنهم وضعوا أيديهم على أديبارهم!!

ويؤكد علي المهند بكلماته الحكيمة وصوته الهاديء قائلاً: "يا ولدي أنهم لا يعلمون بحكاية الكنز الذي عثرت عليه وصار سبباً فيما وسع الله به علينا، فمن حقهم أن يشكّوا بعائدية كل هذه الثروات، التي ننفقها منذ وصولنا البصرة والمهم يا ولدي أن لا يصل هؤلاء بكامل ما يقولونه إلى العن، لقد تعلمنا من علي بن أبي طالب وآله أن نحسن لمن أساء إلينا من الغرباء، فكيف وهم الأهل والأقارب؟ وكان حديث المعروف الذي يحدثني به والدي يُذهب عني الغضب، فأصمت ولا أجد ما أرد به عليه.

"كل حزن ماضٍ إلى نهايته إلا حزن فقدك يا مولاي فهو باقٍ إلى أبد الدهر"
الهفاهف الراسبي

ما أن حل رمضان، حتى بدأت استعداداتنا لإقامة الموائد لإفطار وسحور الصائمين في كل جادة من جادات البصرة بتشديد أيوانات واسعة، تذبح فيها الذبائح وتطهى لإفطار الصائمين طوال الشهر الكريم، وقد أطلق عليها البصريون " أيونات بيت الهفاهف " ولا أظن بقاء بيت من بيوت أهل البصرة لم تصله أعطيات أرزاق شهر رمضان المجانية، فكانت الألسن تلهج بالدعاء لنا عقب كل إفطار وصلاة، وما أن جاء اليوم العصيب في رمضان، الذي عرفنا فيه بضربة خليفة المسلمين وابن عم رسولنا علي بن أبي طالب !! من قبل خارجي مغمور الصيت يدعى عبدالرحمن بن ملجم المرادي، أحد تلاميذ إمام علماء اليمن معاذ بن جبل، وقد أمر عمر بن الخطاب في فترة خلافته بعثه إلى مصر، ليعلم جنود المسلمين الجدد هناك دينهم ويتلو عليهم القرآن الكريم، بطلب من عمر بن العاص، فقربه عمر بن العاص واصطنعه لنفسه، وجعله من عصبته الخاصة إلى فترة قريبة من حادثة ضربة خليفة المسلمين علي بن أبي طالب !! وقد وعدته قطام بالزواج وطلبت مهراً منه، ثلاثة آلاف دينار وعبداً وقينة ورأس علي بن أبي طالب !!

وقطام هذه هي ابنة وأخت لقتيلين من الخوارج قتلا في معركة النهروان، التي خاضها علي بن أبي طالب ضد الخوارج، بعد معركة صفين، وكانت صاحبة مال وجمال آخاذ، وقد قال فيها ابن أبي مياس المرادي، واصفاً ما حدث:

ولم أرَ مهراً ساقه ذو سماحة – كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبداً وقينة – وضرب علي بالحسام المسمم
فلا مهر أعلى من علي وإن غلا – ولا فتك إلا فتك ابن ملجم

وقد ساورت أغلب شيوخ وقراء البصرة وكبرائها أن ما فعله ابن ملجم ليس إلا من تدبير ابن العاص !! وقد كان عمر بن الخطاب يلقيه في جملة خطاباته إلى عمر بن العاص الذي صار والياً على مصر في عهده: العاص بن العاص !! وضجت البصرة ببكاء أهلها ودعائهم لخليفة المسلمين بالشفاء التام العاجل، للخليفة علي بن أبي طالب والبرء من جرحه وأن يمدَّ الله في عمره، ولكن ما وصلنا من الكوفة عن قوله لحظة وقع السيف على هامته في مسجد الكوفة: "فزتُ ورب الكعبة !! " جعلنا ونساءنا وأطفالنا نبكي متحسين الفراق !! فما قاله وصي رسول الله ينبئنا بأمر لا ريب فيه، ويخوفنا من فراق القريب، ولكن ماذا يفعل الإنسان غير أن يأمل بخبر سعيد يريحه، وما أن أصبح الصباح على جرحه، وكنا صائمين حتى رأينا الأفق يتحول إلى لون قرمزي !! واتخذت أشعة الشمس على الأرض شكل بقع الدم العبيط !! وهبت الريح حاملة غباراً له ملمس الزبد، وله لون أحمر معتم، وصعد مؤذن جامع البصرة الكبير، فسبح بحمد الله واستغفره وكان النهار مغبراً، والسماء مغطاة بستارة حمراء، يا الله كم من الرعب أصابنا وقتها. كنت اسمع سهيل الخيول وهي في مرابطتها، والماشية وهي تتغوا مصوتة كأنها شاهدت بوادر زلزال رهيب، وصار السابلة في جادات البصرة وطرقها الفرعية يخمطون وجوههم من الغبار الأحمر، الذي له ملمس الزبد عن وجوههم وثيابهم فيزداد انتشار ذلك الغبار ويصير لونها كنقيع الدم، ونما قرص الشمس في الأفق وبدا كما لو أنه يلامس الأرض من طرفها الغربي، وأكفهرت وجوه البشر، وكنا نتساءل مذهولين "هل حل يوم القيامة؟" وكنا نجيب أنفسنا "ربما حل هذا اليوم المخيف للبشر في مكان قريب وسيحل في البصرة قريباً."

وتساءلنا بحزن شديد "هل فتحت جهنم أبوابها السبعة لتبتلع هذه المخلوقات العاصية، التي تجرأت على وصي رسول الله؟" وانتابت الأطفال بالبصرة نوبات صراخ، وعويل طويل، لم يعرف أحد أسبابها، ولم تستطع الأمهات إيقافهم عن البكاء بكل طرق الأمهات المعروفة لهن. وما أن ارتفعت الراية السوداء فوق قصر إمارة البصرة، بعد يومين من ضربة الخليفة علي بن أبي طالب، وكان الناس يعرفون أن الراية لا ترفع إلا وقت المصائب والبلايا العظيمة، وعرفنا مما تواترت من أخبار عن طريق والي البصرة أن رسالة حملها له الطير الزاجل من الكوفة أخبرته كلماتها بنعي وصي رسول الله خليفة المسلمين علي بن أبي طالب !!

ضجت دروب البصرة وساحاتها وأسواقها ومعسكرات جندها بالبكاء والعيول، وندبت الندابات في كل محلة من محلات المدينة وفي جميع بيوت كبرائها وتجارها وقادة جندها الخليفة الشهيد!! وساد الحزن العظيم النفوس، ولم يذق الصائمون طعاماً تلك الليلة، واستمروا بصيامهم إلى اليوم التالي.

لم يصدق الناس في البداية وفاة ابن عم رسول الله، واعتبروا أن الخبر فرية ابتدعتها الأمويون للنيل من خليفة المسلمين، ولكن القراء أعلنوا، أن لا يبقى على الرض إلا وجه الله!! فطفق الناس يبكون في الجوامع والأسواق، وكان كل واحد منهم يعزي الآخر بهذه الخسارة الكبيرة لأمة المسلمين، وكل واحد منهم شعر بأنه صار يتيماً بعد وفاة وصي رسول الله، وأن شيئاً داخله يسمى الأمان قد تقوض، وأنهم فقدوا سلامهم السابق مع أنفسهم، وفقد الكثيرون أعصابهم فكانوا يتشاجرون لأتفه السباب، ويجردون سيوفهم بوجوه بعضهم البعض، وكل واحد يشعر أن لغيره سبباً في وفاة خليفته، كانت مشاعر فقدان طاغية على الجميع، لقد فقدت أمة الإسلام أباهما فهي يتيمة منذ يوم وفاته.

كنا نجلس لنتحرى أسباب قلقنا وخوفنا، فلا نجد ما نعترف به، وارجع البعض هذه المشاعر الجياشة لفقدان الخليفة في فترة الأوضاع المضطربة القادمة للدولة بعد وفاة خليفته الشرعي، ومخاوف عظيمة من التهديد المستمر القادم من الشام وهو يندر بالخطر كل يوم، لكل نظامنا المجتمعي وسلامنا، المبني على العدل والمساواة، وروح شرائع الإسلام الحقيقية التي جعلنا نطبقها من الألف إلى الياء، مجتمع متوازن إقامه علي بن أبي طالب، وجعل الجميع يشعرون فيه براحة البال: الفقراء والأغنياء، الأطفال والشيوخ والشباب، ولا ندري ما سيؤول مصير كل هذا إذا لم يجد الناس من هو بهيبة خليفة المسلمين علي بن أبي طالب ليقود الأمة الإسلامية بعده، ويصد عن مدن العراق وقراه ومدائره عدوان الأمويين، وكل يوم نسمع أخباراً تقشع لها الأبدان عن غزوات سريعة تتم في جنح الظلام على قرى لا تؤيد حكم معاوية، فتحرق البيوت ويقتل الأطفال وتسبى النساء وتسلب الأموال والأقوات، وما في تلك القرى من أنعام، فمن يقيم بعد اليوم مقام علي ليجمع الشمل ويصدهم ويمنع طغيانهم على الأمة؟ وتكاد الأنفس تلهج جميعاً بصوت واحد "لا أحد بعدك يا علي يقوم مقامك ويجمعنا حوله!! كما فعلت بعفوك وعدلك واحسانك وكرمك وسعة صدرك وسياستك الحكيمة مع العدو والصديق."

نعم لقد فقدنا السور المتين الذي كنا نلوذ وراءه عند الشدائد والفتن !! فقد كانت حكمته وفراسته وحلمه ذخيرتنا جميعاً حتى بركات السماء لا أظنها بعد أن رسم جسده الطاهر تحت التراب، ستنزل علينا، كما عهدناها في عهده. وارتدى الناس في البصرة السواد، وأقيمت سرادقات العزاء في كل مكان، وقد أقمنا عشرة سرادق للعزاء في السبابخة والأبلة والبصرة، وكان كل سرادق يستقبل ألفاً من المعزين من الصباح الباكر حتى المساء المتأخر، وكانت هناك مثلها سرادق لعزاء النساء، وقد امتلأت بالندابات والنادبين، المذكرين بسيرة خليفة المسلمين، ومكارمه، وفضله على الإسلام والمسلمين، وبدأت مدينة الأبلة ضاجة بالبكاء ومظاهر الحزن الشديد، ولم يغادر الحزن بيتاً ولا ساحة من الساحات. ووردنا أن الناس سألوا علياً بن أبي طالب قبل وفاته بجرحه ذاك "أنبايع الحسن؟" فقال لهم "لا آمركم ولا أنهاكم!!" فازداد الحزن على الناس، فقد أيقن الجميع أن خبر وفاة علي كان صادقاً، ولا أمل لهم بعد اليوم بروية وصي رسول الله في هذه الدنيا !!

كان أغلب أهل البصرة في ضيق شديد لا يعرفون كيف يتخلصون من ضيقهم. وبدأت بوادر الضيق باحتباس الأنفس في الصدور، حتى يوشك الإنسان على الاختناق، فهو يعب الهواء في صدره لكنه يشعر بالاختناق !! وعلل ذلك العارض قراء البصرة بقولهم "أن تلك من عبرات حزن لم تخرج من الصدور، ولم ترتو الأرواح في التعبير عن حزنها، بفقدان علي" ولذلك في اليوم التالي من خبر الفاجعة، وفي المعزى الكبير وسط سوق البصرة عند نهر البصرة الكبير، الذي أقامه والدي وكان حضوره من كبراء رجالات البصرة وشيوخ قبائلها وصلت حالة الضيق بوالدي إلى أقصاها، فشق ثوبه وصرخ بالناس قائلاً:

- المصاب كبير يا مؤمنين !! ولا يمكننا الجلوس هنا ولم نعبر عن حزننا بالفقد، أنا ماضٍ على قدمي، حاسر الرأس مشياً إلى الكوفة لأعزي سبطي الرسول !! فمن تبغني تبغني ومن رضي بالجلوس في بيته، فليخنتق حزناً وكمداً بعبراته على وصي رسول الله !!

فاستجاب لدعوته جمع كبير من أهل البصرة، وفعلت ما فعل أبي، فقد أقيت بعمّامي وخفي !! وانطلقت من ساعتني اتبع أبي، وشاهدت إلى جوار أبي يمشي والي البصرة الجديد عبدالله بن عباس القرشي، الذي ولاه الخليفة علي بن أبي طالب البصرة قبل شهر قليلة، وكان يسير حافياً، بلاعمامة، مغبر

اللحية، أشعث الشعر، ذاهل العينين، وهي حال السائرين إلى الكوفة في ذلك النهار الحزين !! وتبعنا جمع كبير من فقراء البصرة، وكانت الأخبار تتواتر علينا بأن رجال ونساء من قرى ومدامر محيطة بالبصرة خرجوا صوب الكوفة للتعزية بوصي رسول الله !!

والله والله والله ما رأيت منظرًا في حياتي أكثر هولاً وهيبة، وانتظاماً وحرناً نبيلاً مما رأيته في ذلك الحشد الهائل، الذي ملأ الأفق وتدفق على الطرق المتجهة صوب الكوفة، رجال عراة الرؤوس، حفاة الأقدام، يغذون السير فوق حصى باشط يجرح الأقدام وهم لا يباليون بالأمهم، عيونهم والهة، لا تنظر إلى شيء معين، كأنما ترى بصيص نار بعيدة، مشعلة لهداية الوافدين إلى مكان معزى آل بيت رسول الله !!

نساء معتمرات بالسواد، نادبات صارخات، يزدن من هول الفاجعة، وشعلات نار تخرج من قرى قريبة تقع على جانبي النهر، بأيدي أهلها يغذون السير بموازاة مسير أهل البصرة، فقد عرفوا الخبر، ومشوا للتعزية، وبقي من يخبز لهم خبزهم ليزودهم به في مراحل الطريق، فبدت الطريق ليلاً مشتعلة بأضواء الشعلات التي يرفعها الناس، وكأن خيطاً من النار يمضي متقدماً إلى الأمام ولا نهاية له !!

لا أقول أن عدد من يسير باتجاه الكوفة هو ألف ألف رجل وأمرأة وصبي !! إلا للتعبير عن كثرة الناس، ولكن عددهم أكثر من ذلك بكثير، يا لحزنك يا بصرتنا بفقد ولينا، وسيدنا، لقد ثكلنا بفقدك يا أمير المؤمنين، وغدونا أيتاماً تطاردنا ذئاب الأرض يا ابن عم رسول الله !! وبين فترة وأخرى يصرخ البعض ملتاغاً، قائلين: " الأمان الأمان يا أمام !! " وتتردد الأصوات مدوية في تلك الفلاة الموحشة !! وتتطاير الفواخت الرمادية، هاربة من أعشاشها من شدة الأصوات النائحة، نادبة مع البشر: يا قوقتي.. يا قوقتي..

كنت اتسائل ماذا سيحل بأمة الإسلام بعد علي؟ فقدنا أماننا وأماننا بعد اليوم !! وسننوح على فقدانه ما حيننا، ولك يا فواخت أن تنوح معنا فقدان هذا الرجل المهيب، فنوحك يهون علينا أحزاننا.

وفي مراحل الطريق إلى الكوفة أخذت تستقبلنا حشود من القبائل براياتها السود وثياب الحزن على رجالها ونسائها، فكنا كلما مررنا ببطاح قبيلة من قبائل الطريق أنضمت إلينا برجالها ونسائها، وكان ذلك الضيق في صدورنا يتلاشى كلما تقدمنا صوب الكوفة !! ذلك الحزن المحتبس في الصدور يتأخى

مع حزن الجمع فتحل محله السكينة والهدوء وترديد كلمات " أنا لله وإليه راجعون. " كما ولو كان ذلك الحزن بصاقاً يخنقنا، فنلقيه على بعضنا البعض، فتخف على كل واحد منا عبرات الحزن، وما أشبه ما أشاهده بيوم ذكره الله تعالى في القرآن الكريم بيوم القيامة، هذا الذي أشاهد شكلاً مصغراً من ذلك اليوم العظيم، وسنكون وقتها بلا مال ولا ركائب ولا يظلنا بظله سوى الله تعالى !! كان مسيرنا يوماً من أيام الله التي امتحننا بها الخالق، وعرفنا من خلاله أن الله لم يقل في محكم كتابه إلا الحق حين وصف الموت بالمصيبة !! وكيف لا تكون كذلك، والذي نفارقه أمام الأمة ووصي نبيه علي بن أبي طالب !!

16 ذو القعدة 40 هجرية - 4 بهمن ماه 29 سنة جلالية
"ليالي المحبين باقية في قلوبهم مهما قصرت لياليهم وقلت"
"شهنزاد اسفندياري"

وما أن استقرت بي الأمور وزوجي الهفهاف في بصرة الخير، مدينة النخيل ومطر العسل، حتى كتبت لأختي الكبيرة شيرزاد اسأل عن أحوالها وأخبرها عن طفلي سلمان الذي رزقنا الله به، وأعددت لها الخيرات التي ننعم بها، والحب الذي يغمرني به الهفهاف، وأخبار أختنا سهنزاد التي رزقت بطفلة جميلة أسمتها شيرين ووصفت لها جمالها، فكتبت لها واصفة: "شيرين جميلة يا شيرزاد الحبيبة، أنها كحيله العينين من دون أن يكحلها أحد!! واسعة الجبهة بعينين ملونتين واسعتين كالأزورد الأخضر، وخداها فيهما غمازتان، وشفتان ورديتان تبتسمان للريح، بأعذب ابتسامة، بكاؤها قليل، وتأملها لما حولها كثير، وطلعتها كلها جمال يشرح صدر من يراها، وتفك حزنه!!" وسألته المجيء مع زوجها وأبنها، فتوجد لهم دار واسعة للسكن، وأرض يستطيع زوجها أن يصلحها ويمتلئها، كغيره من أهل البصرة، وذكرتها بأيامنا السالفة، وحبنا لها أنا وشقيقتي، وأنا نعتبرها بمثابة أم رؤوم لنا، فكيف لها أن تنام الليل بعيداً عن أختيها الحبيبتين؟ .

وأرسلت لها مع إحدى القوافل الذهبية إلى خرسان صكاً بمال كثير يصرف من أحد تجار خرسان بعد أن دفعنا لوكيله في البصرة الدنانير الذهبية ما يكفيهم لتسوية أمورهم في خرسان، والمجيء إلى البصرة، ليعيشوا معنا بأمان واستقرار.

ولم تمر سوى شهور قليلة حتى جاءت أختي شيرزاد وزوجها وأبنهما واصطحب زوجها معهم والده الشيخ وأمه العجوز، فلا أحد لوالديه في خرسان غيره، ورحبنا بهم، وفرح سيدي الهفهاف بلقاء شيرزاد وزوجها، وقبل ولدهما، وسلم على الجدين، وأفرغنا لهم أحد البيوت الفارغة التابعة لمزرعتنا، والمطل على النهر الكبير، وإقطعهم الهفهاف أرضاً مستصلحة من أرضنا، زرعت بنخيل البرني وأشجار البمبر، والنبق، وفيها عدد كبير من عرائش

الكروم وهي تغل كل صيف خيراً كثيراً، وعاشوا معنا عيشة رحية هائلة. وكان سيدي الهفهاف بالرغم من مشاغله الكثيرة ومراسلاته مع وجوه أهل الكوفة، ودمشق، وحلب، إلا أنه لم يهمل عائلته يوماً، ولم يترك مخالطتنا، في فطور أو غداء أو عشاء، فقد كان يجلس في صدر خوان الطعام، وإلى يمينه أبننا سلمان، وأنا إلى يساره، وكان يدعو القائمات على القصر، في تهيئة الطعام ونظافته، بالجلوس معنا، وكن يعتذرن باستحياء بأنهن تناولن طعامهن، لكنه يحلف عليهن بالأيمان المغلظة أن يجلسن لتناول لقيمات معهم، وكنا نأكل ما يقدم لنا من ألوان الطعام، ولكن سيدي الهفهاف يكتفي بلون واحد من الأطعمة مع قرص خبز تم عمله له من دقيق الشعير !!

وكان من الصعب على غيره تناول قرص خبزه، لجفافه وصلابته !! ولا نعرف كيف يتمكن من تناول هذا النوع من الخبز، ولدينا خبزنا من القمح الطيب المذاق والسهل المضغ. وكنت أذهب إلى مخبزة القصر، وأحدث سلمى المسؤولة عنه سراً، طالبة منها أن تضيف دقيق القمح إلى قرص الهفهاف، لكي يستطيع الهفهاف مضغه، فمعدته لا تحتمل كل ذلك الخبز الجشب، ولو علم الهفهاف بهذه الإضافة لما رضى عليها وللاّمنّا عليها !! فقد كان يدرّب نفسه على تناول الخبز الجشب والطعام البسيط من لون واحد، كالذي يطعمه فقراء البصرة، فهو يرى في تنوع الأطعمة، مفسدة للنفس، وقتلاً لمشاعر اللطف في الإنسان، فلكل نفس طاقة محددة في الحب وقدرة عاجزة عن توزيع المحبة على كل شيء من دون أن تنقص، فإن أحببت ألواناً عديدة من الطعام وأشكالاً مختلفة من اللباس، وأكثر من زوجة للفراش، فرغ فؤادك من الحب !! فلا يجد الفقراء والمساكين منه شيئاً لديك !! فتصير جباراً عتياً لا رحمة في قلبك لأحد، محباً للدنيا وبذخها ولا تطيق الموت أو خبره ولا تأمل بالآخرة وما قسمه الله للمؤمنين الصادقين من خيرات هناك. كان منطقته غريباً لكنني أصدقته في كل كلمة يقولها، ولكن كيف أقلده وأنا لا أجد القدرة على كل هذا العنت، فأنا ما أن أفرغ من لون من ألوان الحلوى إلا وذهبت إلى غيره كالمجنونة !! ولا أستطيع كبح جماح نفسي مهما حاولت. لكنني أقدر ما يفعله، فهو يقلد في هذا الفعل رسول الله محمد، وآل بيته وصحابته الخالصاء !! فما يفعله، فهو من باب إكمال الدين، ولديه ما انتهجه خليفة رسول ووصيه علي بن أبي طالب، منهاجاً وطريقة للعيش !!

لم يكن ينغص علينا عيشنا في قصر النهر الكبير سوى سلمان ولدنا، فقد لاحظت أنه لا يسلك السلوك الحسن مع أبناء الخدم في القصر، فهو متكبر، غيور، حقود، لا ينسى ثأراً ولا يعفو عن أحد أساء إليه، ولا يطيع في الكثير من المرات إرشادات أبيه أو معلمه الشيخ مسعود !! وكان لا يهتم بالعقاب، الذي أعاقبه به، وينظر لي عقبه شزراً، كأنما يتوعدني بالثأر لنفسه مني، وفي مرة من المرات، قال لي بعد أن عنفته لفظة غير سوية منه:

- أيتها الفارسية، من انت لتؤدبي سيداً عربياً مثلي ؟ !!
وصرخ في غاضباً:

- من أنت لتفعلي هذا ؟ !!

فصرختُ به والدموع في عيني:

- الفارسية يا سلمان هي أمك التي كرمها الله بنعمة الإسلام !! وكرمها الله بزواج عربي وولد عربي، أمك التي حملتك تسعة أشهر كرهاً ووهناً بعد وهن، ووضعك كرهاً، وكان حملك وفصالك ثلاثون شهراً، من المشقة والسهر والحرمان، وما أن بلغت رشذك حتى جنّت لتعيرني بأصلي وفصلي ؟!!.

فنظر صوبي متشفياً من علامات الألم التي ظهرت على وجهي بسبب كلماته الجارحة، وغادر المكان من دون أن يعتذر أو يطيب خاطري بكلمة، وشعرتُ بعدها بقدمي لا تستطيعان حملي، وبدني يرتجف فلا قدرة لي على إيقاف ارتجافه، أو تهدئة نفسي.

فقلت في نفسي محاولة أن أجد تبريراً لما قال، لقد تعلم "سلمان" كل هذا القول السيء، ممن يخالطهم من أولاد الأعمشة في السبابخة. كنت متأكدة من هذا، فليس في قصرنا ممن يختلط بهم من يجروء على قول هذا المقال !! فيتعلم منه. وشعرت بالإحباط ولا اعرف ما هو التصرف معه، ولا كيف أمنع تدهور أخلاق سلمان ومناكفاته !!

20 ربيع الآخر 41 هجرية

"يا نفسي تريثي ففراقك بدني غير هين"

الهفاهف الراسبي

مضت الأيام بسرعة بعد تلك الفجيرة وبدأت القلوب الحزينة تنسى أحزانها وتنشغل بأيامها، وما يمر بها من عسر المعيشة ومشاقها، وامتلت النفوس بالاحباط بسبب الأخبار المتناقلة بين الناس التي تشي بالخianات، والمكائد، ولم تستقر القلوب على ما أفته الناس في حياة الخليفة علي بن أبي طالب، وصار الكثيرون في شغل شاغل عن الدين وأهل الدين، ولكأنه صار علماً على أسنتهم، فتغيرت الأخلاق، ووهنت النفوس عن قبول الحق، وذلك ما حصل في آخر سنوات حكم عثمان بن عفان إذ تفرغ الناس لطلب الثروات، من دون أن يميزوا بين حلال وحرام، وقد مهد ذلك للصعوبات التي واجهها الإمام علي بن أبي طالب في سنوات خلافته، فقد كان يكافح في محو عادات وأخلاق وطبائع خلقتها تلك السنوات ليكرس دولة الخلافة الدينية الرشيدة، ولكن كانت قد ترسخت في نفوس الناس دولة الملك بكل مساوئها، فوردتنا الأخبار من الكوفة بعد شهور قليلة على وفاة خليفة المسلمين ومبايعة ولده الحسن بن علي بن أبي طالب خليفة للمسلمين، ففرحنا غاية الفرح!! لأننا نعرف مقدار كرم وعدل وحكمة، وقدرة الحسن بن علي بن أبي طالب على فض النزاعات، وربما فاق كرمه الكثيرين ممن نعرف من الصحابة، وقد حكى لنا أبو الحرير الجزيري. وكان يسكن بجوار الحسن بن علي بن أبي طالب، وقد أصابه الفقر الشديد، فنصحته زوجته بالذهاب إلى الحسن، وهو كريم لا يرد سائلاً، فقال لزوجته أنه يخجل من أن يفعل ذلك، فخبرته بين ذهابها هي إليه لطلب المعونة أو يذهب هو، فأجابها، بأنه سيكتب حاجته في بيتين من الشعر ويرسل الرقعة له، فوافقته على مضمض، فكتب:

لم يبقَ عندي ما يباع ويشتري - يكفيك رؤية مظهري عن مخبري
إلا بقية ماء وجه صنته عن - أن يباع وقد وجدتك مُشترى!!

وأرسل البيتين إلى الحسن، فقرأها الحسن، فبكى، وجمع ما عنده من مال وأرسله إليه، وكتب له رداً على ظهر رقعة، قال فيه:
عاجلتنا فأتاك عاجل - برنا طلاً ولو أمهلتنا لم نقصر
فخذ القليل وكأنك لم تبع - ما صنته وكأنا لم نشتر !!

هذا هو الحسن بن علي بن أبي طالب وهذه إحدى مناقبه من مناقب كثيرة وفقه وعلم كثير استقاه من أبيه وجده، والذي وردنا مؤخراً للأسف، أن قادة جنده يتأمرون عليه بعد أن رشاهم معاوية وأجزل لهم العطاء والوعود بعطاء آخر أكبر، حالما يوول الأمر إليه كاملاً في الكوفة والعراق !! فأخذ بعضهم يتأمر للقبض على الحسن بن علي بن أبي طالب وإرساله إلى معاوية أسيراً !! وكان الوضع خطيراً في الكوفة لما يشيعه أولئك الخائنين من إشاعات وأخبار كاذبة عن قرب غزو الأمويين للكوفة والانتقام من أهلها شر انتقام إن لم تنزل عند حكم معاوية !!

وبلغنا أن الكثيرين من أكابر وجوه أهل الكوفة نقضوا بيعتهم للحسن التي أعطوها له غب وفاة خليفة المسلمين علي بن أبي طالب، وكادت الفتنة التي لا تذر ولا تبقي بين ناقض للبيعة وباق عليها للحسن أن تقع في الكوفة، فلم يكن بداً للحسن المحب للسلام والباغض لقتال الأمة بسببه، فبعث بسفرائه إلى معاوية يفاوضونه لعقد الصلح، وحقن دماء المسلمين !! ولكن معاوية أبي الصلح واشترط أن يتنازل الحسن عن الخلافة له، فاشتراط مبعوثو الحسن أن تكون له الخلافة طوال حياته ومن بعده يحكم الحسن، فوافق معاوية بناء على نصيحة سرجون الرومي وزيره، على أن يعالج الزمن هذا الشرط الذي وضع لتنازل الحسن، وتم الصلح بين الطرفين على هذه الشروط.

كان والدي يستمع لتلك الأقاويل وما نقله القادمون لنا من أخبار الكوفة، فيمتعض ويشعر بالحزن الشديد، لما ستؤول له أمور المسلمين من حكم عضوض، لبني أمية لن يبقى من إسلام محمد إلا اسمه !! وحين كنا نراه حزينا لا نجرؤ للحديث معه، ولا يفعل ذلك سوى حفيده سلمان، فهو بالرغم من حزنه الشديد وانقطاعه عن الحديث مع أحد يقبله بين عينيه، ويضعه على صدره ويشم ثغره طويلاً. وكان الصغير أشبه الناس بصورة جده المهند، وكان ذلك الشبه يزيد من محبة الجد للحفيد.

وكنت أرقب والدي الذي كانت صحته تتردى يوماً بعد آخر، وكان الطبيب الذي يزوره بطلب مني يؤكد لي أن ما يعانيه أبي بسبب أيام أسره في الشام، وأن

جسده ورث من ذلك الأسر أمراضاً عديدة، وأولها جرح روحه من أن يكون المسلم أشد قسوة على المسلم من الكافر!! كما جرب ورأى ما يحدث في الأسر، له ولغيره من الأسرى. وأن معالجة كل تلك الأمراض التي يعانيتها المهند ، تستغرق وقتاً طويلاً، وكان يعطيه أنواعاً كثيرة نقوعات الأعشاب، والأطعمة المضاف إليها نثار أوراق جافة لنباتات شتى، حريفة الرائحة، ولكن كل ذلك لم يجد سوى في تهدئة ألامه، فنام عدة ساعات بعدها يستيقظ وتهيج مع صحوته ألامه!! وأخذت صحته تتدهور يوماً بعد آخر، وهو لا يشتكي من شيء لأحد، كان صامداً صموداً كجلمود صخر في مواجهة بحر هائج من الأوجاع، وكان وحيداً لا يطلع أحداً عما يفكر فيه، وهي حالته منذ وفاة أمي، حال علمها بأسره من قبل الأمويين في معركة صفين، فقضت بعده بشهور قليلة حزناً عليه، وما أن علم بعد عودته من الأسر بأنه فقدتها، وكأنه بفقدتها لم يجد في النساء من تعوضه حبيبة صباح، فقد كان يحكي لي في كل مرة أذكره فيها بضرورة أن يوجد من يؤنسه في وحدته، فكان يحكي لي عن طائر النورس الذكر، الذي أن فقد أنثاه، فهو يبقي بلا أنثى وحيداً حتى يحل أجله، وحيداً مخلصاً لذكرى أنثاه!!

وهذا ما فعله أبي، وقبل وفاته بوقت قصير، أخذ يعني بصوت مبوح أبياتاً من الشعر حفظها منذ كان يافعاً، تحكي كلماتها عن الحب والحياة وجمال فترة الشباب، والموت وتمجد الشرف والرفعة والنبيل، والكرم!! كان جالساً في أيوانه الكبير في فترة مجلسه اليومي، ويديه عصاه ذات القبضة الفضية، التي أهداها له الخليفة علي بن أبي طالب وكانت من بعض ما غنمه المسلمون وكانت من حصة الخليفة، لكنه أهداها لوالدي حباً به وتكريماً له!! كان ممسكاً بالعصا بكلتا كفيه، وهو مغمض العينين، وكنا ننتظر أن يفاجئنا بفتح عينيه بعد قليل، وهو يفعل ذلك دائماً حين يفكر لدقائق، فيغمض عينيه، فيعتقد من حوله أن النعاس غلب عليه، ونام جالساً!! لكنه يفاجيء الجميع بفتح عينيه ويطلق لقباً على أحد الخدم أو الأصحاب من حوله، ويكررك ضاحكاً مذكراً ذلك الذي أطلق عليه اللقب بحادثة قديمة عاشها معه، ويشارك بعد ذلك بالحديث الدائر بين الجالسين. لكن في هذه المرة كان الأمر مختلفاً، فقد نام المهند ولكن هذه المرة إلى الأبد، وحين حركناه سقط من كفه العكاز وبقيت القبضة الفضية في كفه لشدة قبضته عليها. لقد مات المهند الراسبي أبو يتامى البصرة، وعائلهم، وصاحب الخليفة علي بن أبي طالب وفارس فرسان معركة

صفين، البطل الذي خلدته أشعار أهل البصرة، ورددت سيرتها مجالسهم
الشتائية العامرة بأهل الرماية والنايات والحكاين المهرة، والشعراء، وأهل
المقال العذب والكلمات الصادقة، عن بطولات أهلها وكرم أهلها !!

5 جمادي الأولى 41 هجرية

"نخترع قداسة بعض البشر للتغطية على عجزنا من بلوغ تضحياتهم"
"مسعود الأعمشي"

مضت أيام الحزن على المهند الراسبي وعرف الكثيرون من فقراء البصرة، أن ذلك الجواد الذي يقترب من أبواب بيوتهم ليلاً ملثماً وهو يقود تخترونه، وقد لف حول قوائم جياد التخترون قطع القطن، لئلا يسمع من يريد الإحسان إليهم بوقع حوافرهما، حاملاً الأقوات من كل لون وصنف، ويضعها أمام أبواب بيوتهم، ويمضي بعد ذلك بهدوء، ليفرحوا في الصباح بما جاد به عليهم المحسن الغامض!! الذي لا يعرف هويته أحد، لكنهم اليوم بعد وفاته وانقطاع الإحسان لهم عرفوه، أنه المهند الراسبي يرحمه الله!! ولن يأتي بعده أحد ليضع أمام بيوتهم شيئاً من فضل الله وورقه!!

أتذكر بعد أيام العزاء بشهرين، والتي أقيمت بالكوفة عند وفاة خليفة المسلمين علي بن أبي طالب اجتمع سيدي الهفهاف بالسبطين الحسن والحسين، لكي يودعهما لنعود إلى البصرة، وقد طلبت من سيدي الهفهاف أن يقدمني لهما، فاتعرف عليهما وأسلم عليهما، ففعل ذلك يرحمه الله!!

كان ذلك اللقاء بهما لا ينسى بالرغم من قصر مدته وسط تلك الحشود الحزينة من البشر، التي وفدت على الكوفة من كل حدب وصوب، للتعزية بوفاة أمير المؤمنين، وكان السبطان يسلمان على الجميع ويشكران تجشمهم مكاره السفر من بلدانهم وقراهم للتعزية بالمصاب الأليم، ورأيت سيدي الهفهاف ينفرد بالسبطين، ويعلمهما بأحوال أهل دمشق وتذمر كبار الأمويين مما يفعله معاوية ومجموعة من أمراء الأمويين بالناس، ويخبرهما بأن قسماً من شيوخ بني أمية وساداتها لا ترضيهم أفعال معاوية!! فهم يخططون بالسر لخلعه، وبعث السفراء من طرفهم إلى الكوفة لمخاطبة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وكان سيدي الهفهاف قد طلب مني أن أكتب رسالة بلسانه بهذه التفصيلات الخطيرة إلى الخليفة علي بن أبي طالب قبل استشهاده، وضح له فيها أحوال دمشق وحكامها وأخبارهم، وأراء من قابلهم هناك من رجالها

وقادة جندها، بمعاوية ومعرفته رفضهم وإدانتهم لعصيانه لخليفة المسلمين بدعوى الثأر لمعاوية وهو يعلم أن هذه ليست إلا ذريعة للمنازعة على الخلافة!! وكل ما كان يسعى إليه باطل، لا يوافقون عليه، وهم متدمرون مع كثرة كاثرة من أهل الشام!!

وكانت إجابة علي بن أبي طالب لرسالته برسالة جوابية سريعة نقلها الوالي بلسانه، وهي واضحة كل الوضوح لا لبس فيها، فقد قال والي البصرة لسيدي الهفهاف: "أنا لسنا سعاة فتنة وشقاق بين الأهل، حتى لو كانوا من الذين بغوا علينا!! هداهم الله جميعاً لما فيه خيرهم وخيرنا!!" وبذلك أقفل الباب أمام سيدي الهفهاف وغيره ممن حاولوا إيصال الحق إلى صاحبه من خلال خلافات تقع بين العصاة!! يفتختلط حابلهم بنابلهم حتى يقولوا أن الله حق، ووصي رسول الله حق، وعلي بن أبي طالب خليفة المسلمين حق، كما يقفل عادة أهل الحكم والسياسة في العهود التي سبقت والتي ستأتي، وهذا شأن السياسة والحكم دائماً. ولكن علياً غير كل هؤلاء ولن يأتي الزمان بمثله!!

وتساءلت وأنا استمع لإعادة طرح الموضوع ثانية مع ولدي علي بن أبي طالب، فهل سينجح سيدي الهفهاف مع السبطين حيث فشل مع أبيهم الخليفة؟ وكانت إجابة السبطين لا لبس فيها، كما عرفت من سيدي الهفهاف بعد ذلك بزمن في قول الحسن وتأييد أخيه لقوله "لا رأي إلا رأي مولانا أمير المؤمنين في حياته وبعد مماته!!"

كانت الوفود تترى على السراشق الذي أقيم لتلقي التعازي قريباً من مسجد الكوفة، وقد ساهم أهل الكوفة بضيافة الوافدين في بيوتهم، وأطعموهم من طعامهم، وألبسوهم من ثيابهم.

وكانت العديد من المعازي قد أقيمت في كناسة الكوفة، لكنها كانت أقل سعة من ذلك السراشق الكبير، الذي اختص به سبط رسول الله، وقد أشرف على تلك المعازي شيوخ قبائل الكوفة، وأشرافها ووجوهها، وقراؤها، ومما شعرتُ به وسبط رسول الله الكريمان يستقبلان المعزين، والمودعين العائدين إلى مدنهم بعد إداء التعزية، وتهوينهم المصاب على الناس، وطمئناتهم، إلى أن البلاد في أمان!! وكأنهما ليسا صاحبي المصاب، وأن من فقدها أباهما بل وكان المفقود أبو من يعزيهما به!! كان وجهاهما ينطقان بالوسامة، والورع والبشاشة، وعلو الهمة، ما نظرهما أحد وكان قد شاهد رسول الله إلا وهمس "سبحان الله ما هذان إلا طاقتا نور من وجه الحبيب!! الذي أنقذنا من ضلالتنا وجهلنا وسوء

أحوالنا !!". لكنهما كانا بشرين مثلنا، يأكلان ويضحكان، ويمرضان، ويفكران قبل أن يجيبا، لم يكونا مقدسين كما روج البعض ممن لم يرهما ويحادثهما، ربما قداستهما عند الناس جاءت من أفعالهما الحسنة مع الجميع، ولو استطاع أحد من البشر أن يفعل ما يفعلانه في يومهما وليتتهما من خير لصار مقدساً!! هما بشران مثلنا يتألمان ويفرحان ويحزنان، وكل من تحدث عن وجودهما اللا بشري وعزاه إلى صفات الملائكة، فهو واهم.

قداسة البشر تصنعها أفعالهم، وما يفعله بعض أهل الكوفة من الحرص على التبرك بثياب السبطين أو تناول أي شيء ينالونه من أحدهما ليوضع في حرز مكين، وينظر إليه على أن سراً فيه، وطاقة قادرة على تغيير أمر من أمور حياتهم، ليس إلا مبالغة، وجهلاً وقلة معرفة!! وهذا ما توصلت إليه، وأنا أنظرهما واسمع حديثهما، عما يؤذيها من حر وبرد وقارص وذباب، ومن أقبالهما على المحيطين بهما. فهما يفعلان ما نفعه جميعاً!! ولا تشعر بفرق أبداً بينك وبينهما سوى علمهما الغزير!! وسماحتهما وصدقهما وحبهما المخلص للجميع!!

وجاء في المعزى ذكر حادثة مقتل الزبير بن العوام، وقال من قائل يذكر بان المقتول كان مظلوماً، وكأنه يرمي إلى ذنب ما يلحق بفقيدنا علي بن أبي طالب، فقال سيدي المهند ذاكراً أيام علي بن أبي طالب، فقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يعلن عن نفسه بأعماله!! ولا يعرف عنه سواه إلا ما فعله للإسلام، ولا يعرفه سوى الله والرسول حق المعرفة، وهذا ما روي عن رسول الله أنه قال لعلي "يا علي لا يعرف الله إلا أنا وأنت، ولا يعرفني إلا الله وأنت، ولا يعرفك إلا الله وأنا!! هذا فضل علي يا أبا العرب، ثم ذكر بعد ذلك معركة الجمل، وما حدث فيها فقال، بقي الزبير بن العوام باستمرار من المنحازين للإمام علي!! لكنه في الشهور الأخيرة من حياته، أراد أن ينافس علياً منافسة سياسية، إذ رأى في نفسه أنه ند له!! وقد زين له بعض الحاسدين ومشعلي الفتنة أن ينال حصته من الخلافة. فحشد أكبر تجمّع إسلامي، متصوّراً أن بإمكانه الإنفراد بالخلافة عن علي بن أبي طالب.

ويوم وقعة الجمل والتقاء الجيشان في البصرة، وكنت حاضراً وفي صفوفها الأولى إلى جانب وصي رسول الله علي بن أبي طالب. ومن دون مقدمات تقدّم علي بن أبي طالب صوب الجيش المقابل، واقترب منه، وطلب أن يكلم الزبير، فبرز له الزبير!! كان علي حاسراً بلا سلاح. وكان الزبير مدججاً بالأسلحة.

وقد اقترب منه الإمام حتى تعانق الفرسان. ولا يُعرف ما الذي دارَ بينهما في تلك اللحظة الحاسمة، لكنني أظن أن علياً ذكره بحديثٍ للنبي " أنه سوف يحارب علياً ظالماً له." ومهما كان الأمر، فقد انسحب الزبير من المعركة بعد ذلك اللقاء، لكنَّ ابنه عبد الله أنبأه بأنه جيشَ الجيوش، ثمَّ تركهم وهرب!! فانكفاً الزبير عائداً إلى ساحة المعركة!! وفطن علي بن أبي طالب لذلك، فطلب من أتباعه ألا يواجوه. وبعد ذلك انسحب الزبير من المعركة عائداً إلى المدينة، وبذلك فقد رصيده الرّمزيّ بأسره. فقد علاقتَه بعليّ، الذي لم يحاربه، لكنه جندَ الجيوش لحربه!! وخسرَ أبناءه وأتباعه، لأنه تخلى عنهم في لحظة الاشتباك مع عليّ!! ولم يجد له رفيقاً في الطريق سوى أعرابيٍّ جلفٍ اسمه " عمرو بن جرموز"، استغلَّ انشغالَ الزبير بالصلاة، وأهوى عليه بسيفه وقتله!! وبعد انجلاء غبار المعركة، أخذ عمرو بن جرموز سيفَ الزبير، وذهب إلى عليّ. وحين رأى علي سيفَ الزبير قال: سيفٌ طالما جلى الكرب عن وجه رسول الله!! إني سمعتُ رسول الله يقول: بشرّ قاتل ابنِ صفية بالنار. وأعلن الإمام أنه على استعداد لتسليم قاتل الزبير إلى أهله، إذا طالبوه به!! لكنَّ أهلَ الزبير لم يطلبوا عمرو بن جرموز بدم الزبير على الإطلاق، لا في زمن الإمام عليّ، ولا بعد ذلك. فلا لومَ وصي الرسول بما حدث للزبير بن العوام!! وذكره بزمن غير بعيد حين انكسر المسلمون في معركة أحد ولانوا بالفرار تاركين الرسول لوحده في ميدان المعركة، فجرى له ما جرى وقتها، فدعا الله طالباً المَدَد، صارخاً بأعلى صوته " المَدَد يا الله منك المَدَد!!" فلم يمضِ وقت طويل حتى جاء علي بن أبي طالب، فابتسم رسول الله فرحاً بمقدمه!! وقال علي!! وكانت سيوف كفار قريش مشرعة للنيل من رسول الله " طلبت المَدَد من الله .. فكان مَدَد الله بك يا علي!! وقد سمع هذا الحديث القصير بطلان شجاعان دافعا عن الرسول في ذلك اليوم هما "أبو دجانة" و"أم عمارة" نسيبة بنت كعب، فنقلا ما دار بعد أنقضاء المعركة ونجاة الرسول!! وقد جرح علي في هذه المعركة في دفاعه عن الرسول أكثر من ستين جرحاً، وهو يزود عن رسول الله والإسلام، ومنذ ذلك اليوم وأصحاب علي يرددون ما قاله الرسول محمد عندما يقعون في ضيق شديد" يا علي مَدَد!!" ولم يعلق القائل بعد قول المهند بشيء وانصرف من مجلس الغزاء.

كان سيدي الحسين أكثر طولاً من الحسن، وأكثر نحافة، وأشد حزنًا وصمتًا، وهو قليل الابتسام، وأن ابتسم يشعرك بفرح عظيم يملأ نفوس كل من رأى

ابتسامته، "ولكن أليس كافياً لهذه الصفة العجيبة وحدها أن تجعل الناس يعتقدون بقداسة هذا السبط وأخيه؟! " كان سيدي الحسن كان أكثر بدانة من أخيه، وهو يتكفاً في مشيته، كما كان يتكفاً أبوه وهو يسير!! ولم يكن يدقق بوجوه الناس، لئلا يخلجهم نظره، وكان على وجهه نمش خفيف يزيد وسامة من مرض جلدي أصاب بشرته في حرب المسلمين عند فتحهم شمال أفريقيا في خلافة عثمان بن عفان وكان تحت إمرة عبدالله بن سعد بن أبي السرح، وبراً منه، فترك نمشاً خفيفاً في فؤديه وجبهته.

سيدي الهفهاف لم يكن راضياً وكان له رأي آخر، فقد صارحني بما يشبه الاعتراف، فقال: " السياسة وإدارة الدولة لا تجري هذا المنوال!! ولا تؤخذ بالنظر إلى الخصوم، كما النظر إلى الأبناء العاقين!! هذا ليس تدبيراً صائباً في السياسة من سبط الرسول!! السياسة مكر، ومكائد، ومؤامرات في الخفاء، وكذب وعهود باطلة!! ورجال يتشرون بالدينار والذهب والعطايا!! وآخرون يؤخذ ولاءهم بالسيف، وعند الاضطرار يتم قطع رؤوس المتمردين، وهي الحل الأخير لأي حاكم يريد توطيد سلطان دولته. وما يحدث حالياً في دمشق والشام له خطر عظيم على الإسلام، وسيستمر عطفه طويلاً إن لم يعالج اليوم.

إسلام أموي يحكم الرعية بلا إسلام حقيقي!! والله التسليم بهذا الأمر هو الردة الحقيقية عن الإسلام، وما بعدها ردة، ستحرق الأخضر واليابس، وستجذر هذه الفتنة، وتورث للأبناء، ما لم يعرفوه عن الإسلام، إسلام أمبراطوري!! جل غايته الحكم والتوسع، وبناء مجد الحاكم، وعائلته، وتمتيع طبقة حاكمة على بشر منهوبين!! واتساءل يا مسعود كيف نسمح بهذا؟ كيف نسمح بضياح جهود رسول الله ووصيه؟ " ومنذ ذلك اليوم الذي قال لي فيه ما ذكرت وسيدي الهفهاف حزين يفكر ويفكر، لكنه يقول، مردداً بصوت مسموع: " أن الله فاعل ما يشاء سبحانه. لا مرد لأمر الله. وقد رنا آت آت مهما حاولنا أن نرده!! "

مضت الأيام يوم يتبع يوماً آخر، وأنا مشغول بحلب ضروع البقر وتربية سلمان الصغير، أعلمه في وقت الفراغ من أعماله في المزرعة الرماية بالنشاب، والقتال بالسيف. كنت استعين بسيفين خشبيين لتعليمه، فعوده لم يشتد لكي يتمكن من حمل سيف حقيقي، وعلمته ركوب الخيل، وفنون القتال راجلاً وفارساً، وكان الصغير يتعلم بسرعة في مزرعة جده الواسعة، وكانت

أمه وخالته تراقبان تدرّياتي للصبي، بعيون مترقبة وجلة من أن يحدث للصبي مكروه أثناء ذلك !!

وكنت أنصت لما يقوله لأمه حين تسأله عقب كل تمرين: هل علمك عمك مسعود شيئاً جديداً من فنون القتال؟ فيجيب ساخراً:

— " هذا الأعرج المسن لا يفقه شيئاً في فنون القتال، أنا من علمه اليوم شيئاً جديداً، وقد صرّعه مرتين، وكدت أن أبطش به لولا شفقتي عليه، وعلى خالتي أن تترمل بعده !! هذا الأعرج لا يصلح إلا لحلب الماعز، وتقفيف الدجاج في الحقل !! "

فتهره أمه وتطلب منه أن يتكلم بأدب عن عمه الشيخ مسعود، وهي لا تعرف من أين تعلم كل هذه الفظاظه وهذا الكم من الكلمات السمجة بحق من هو أكبر سناً منه !! لكنها عزت تلك الفظاظه لقضائه وقتاً طويلاً في بعض الأيام مع صبيان الأعمشة، الذين أسكنهم المهند الراسبي يرحمه الله قريباً من قصر العائلة، وإقطع لهم إقطاعاً زراعياً واسعاً يمتد بمحاذاة النهر.

وكانت لا تزال الإشاعات تدور على أسنة أعمام الهفاهف، وتنعت به بأنه دسيسة الأمويين في البصرة !! وأنه رجلهم وصاحبهم، وتزداد هذه الإشاعات كلما عرفوا بأمر رسالة قادمة من الشام يبعثها بين الحين والآخر مناوئون لحكم معاوية والأمويين !! وهم من عليّة قوم معاوية، كعبدالرحمن بن خالد بن الوليد، خير رجال الأمويين، وأكثرهم صلاحاً وكذلك من أمير أمراء حلب "سبهان الأزدي" والشيخ المؤمل، شيخ مشايخ دمشق وقرائها، وغيرهم، وكلما وردت لسيدي الهفاهف رسالة من دمشق أو حلب أو حمص، شعرتُ بفرحه وكان في بعض الأحيان يطلب مني أن أكتب ردوداً لما يصله من رسائل، وأغلبها ردود مجاملة، أو تهنئة بعيد أو مناسبة من المناسبات كعقد الراية لأحد أولادهم، أو زواج جديد لذرياتهم، أو مولد ذرية جديدة لهم، أو أبلالهم من مرض. أو توصية لقضاء حاجة لأحدهم، فيطلب تجهيز راحلة ليبعث عليها مع قافلة مغادرة إلى الشام ما طلبوا.

وكانت تلك السفارات بين سيدي وأهل الشام تصير محط إشاعات للجاهلين، وأهل الأغراض اللئيمة من الأعمشة، ولولا الخيرات التي يقدحها سيدي عليهم، لفعلوا به ما فعلوه أول مرة، حين نفوه من السبابخة في ليلة سوداء لا تُنسى.

"تغيّرت الأخلاق فتبدلت المصائر"
15 جمادي الأولى 41 هجرية
"مسعود الأعمشي"

لا يزال سيدي الهفهاف مشغولاً تماماً بالفتن التي تتوالى بعد غياب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وقد التبست الأمور على كثيرين، ممن كان يظن فيهم الصلاح والسداد، فما ان عقد الحسن بن علي بن أبي طالب الصلح مع معاوية حقناً لدماء المسلمين، وإضطراره لفعل ذلك إضطراراً، لما وجده في نفوس أهل الكوفة من تغيير كثير في قناعاتهم، فقد تغيرت أمزجة القوم، كلما لوح لهم معاوية عبر سفرائه الذين يصلون الكوفة بالعطايا والوعود!! وكلما ضمن طرفاً منهم أجزل له الأموال، وصار الحسن في آخر أيامه في الخلافة قبل الصلح يخشى على نفسه من قادة جيشه ذاتهم أن يسلموه إلى معاوية، وكان ثلاثة أرباع قواد جيشه غادروه إلى دمشق وبيعوا معاوية!! ونكثوا بيعتهم السابقة له، وكانوا قد قبضوا ثمن مبيعتهم لمعاوية أموالاً وصكوكاً بالولاية على أصقاع مختلفة تقع في مناطق قبائلهم!! لذلك لم يجد الحسن بداً من عقد الصلح مع معاوية، لوقف تدهور أخلاق الناس، وانحدارهم إلى الخيانة إلى هذا المقدار المخجل، وليحفظ دماء أصحابه ممن بقوا على ولائهم لآل بيت رسول الله، وليبعثه. فصالح معاوية بشروط كثيرة، أهمها صلاح الحكم، والحفاظ على الرعية، وأن يعد بعدم توريث الحكم من بعده، وأن يحكم الأمة بعده.

وافق معاوية على جميع شروط الحسن، ولكن هذا لم يرض الكثيرون من اتباع الحسن المخلصين، ومن هؤلاء والي البصرة "حمران بن أبان" الذي كان من خيرة مشايخ أهل البصرة، ومن أبرز محبي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وقد رفض الصلح، وجمع حوله قراء البصرة، وجمعاً كبيراً من شيوخها وأعلنوا العصيان على الحسن وعلى معاوية، واستقلوا بالبصرة عن الكوفة ودمشق، ومنذ إعلانهم ذلك صارت البصرة لا تآمر إلا بأمر واليها حمران بن أبان، وقد اصطحبني سيدي الهفهاف، وذهبنا إلى قصر الإمارة في البصرة، ودخلنا على الوالي وسلمنا عليه، وقال له سيدي الهفهاف، بعد الدعاء له

بالصلاح والعاقبة الحسنة، أما جئت إليك وأنا على يقين تام من عدم صواب ما قمت به، فإن رفضك لوثيقة الصلح بين الحسن ومعاوية، هو حق أريد به باطل!! فمن جانب أنك مُلزم شرعاً بإطاعة من ولاك، وقد ولاك الخليفة علي بن أبي طالب، ومن بعده من بايعه الناس، الذي هو الحسن بن علي!! فولأوك لأمر الصلح هو واجب لا غبار عليه ولا تثريب ولن يلومك عليه لائم، فواجب المولى مطاع، فهو أدرى بمصلحة العباد، ولكن الوالي "حمران بن أبان" ثار وأزبد وأرعد واتهم سيدي بذات التهمة، التي كان الأعمشة يتهمونه بها!! وهي أنه صنيعة معاوية والأمويين، وما بحوزته من أموال هي بعض مما جادوه عليه!! وأنه دسيصة قديمة للأمويين على بيت آل رسول الله زرعت في البصرة!! ولولا حشد القراء الذين يدرسون علومهم الفقهية في أقبية بناها لهم الهفهاف، والذين تجمعوا في باب قصر الإمارة لطلب الوالي من حاجبه ضرب عنقينا بلا رحمة!! لكنه لم يرغب في الدخول بمعارك جانبية في البصرة، وقد وصلتته الأخبار قبل وقت قصير أن معاوية بن أبي سفيان سير إليه جيشاً من دمشق بقيادة "بسر بن أبي أرطاة" بمئة ألف جندي!! ليضيف البصرة إلى البلاد التي يحكمها، فتركنا نخرج من قصر الإمارة، طالباً من سيدي الهفهاف أن يعتصم في قصره وأراضيه، وأن لا يجاهر بأرائه أمام الناس، وأن لا يتدخل بأي شأن من شؤون البصرة، وما يقوم به الوالي من استعدادات لصد الأمويين عنها. فإجابه سيدي الهفهاف، محاولاً أن لا يثير غضبه:

— ولاؤنا لك جزء من ولائنا للحسن بن علي ابن أبي طالب. فلك ما ترى ولنا ما نرى، وما قلت قولي ونصيحتي هذه إلا حباً بك وحفظاً للبصرة من الدمار وأهلها من القتل الشنيع على أيدي الأمويين!! فهم ما أن دخلوا ولاية بالسيف إلا عاثوا فيها فساداً، وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وأحرقوا دورها وزروعها، ولم يبقوا شيئاً فيها إلا محقوه أو حملوه معهم إلى بيوتهم في الشام!! فما أدراك بأبن أرطاة وكيف يفعل بمن يأخذهم بالسيف لا بالسلم؟ أنه والله ليفعل الأفاعيل فهو لا يخاف الله، وقد أطلق الأمويون يده في البلدان المفتوحة بالسيف يفعل فيها ما يشاء. وهذا رأينا وسمعنا الكثير عن أفعاله الرديئة، في الجزيرة العربية من اليمن إلى مدينة الرسول!!

أحرق القرى والمدن التي مر بها جيشه، فهو لم يسبقه في الوحشية جيوش الروم ولا جيوش فارس. يحرق ويقتل ويسبي بلا رحمة. كأنه غضب نزل على الأمة ولا راد لوحشيته راد. ونسأل الله تعالى أن يجنب البصرة وأهلها شره

ونسأله لك السداد والصلاح. وسلم على الوالي الذي كان الغضب قد أجمعت عينيه، وعصر وجهه فغدا كالليمونة !!

وحمران بن أبان هذا ولاء الحسن البصرة بعد رفض عبدالله بن عباس الهاشمي القرشي العودة إلى تولي إمارة البصرة، وقال قولته المشهورة " أن بعد علي بن أبي طالب ليس لي إلا الحزن والتفرغ للعبادة حتى يأتي الأجل المحتوم " فأبكى جميع من كان في مجلس الحسن !!

ومن ذلك اليوم لم يتدخل سيدي الهفهاف بأمر من أمور ولاية البصرة، ولم تمر سوى شهور قليلة حتى وصل جيش بسر بن أبي أرطاة تخوم البصرة !! فخرج إليه الوالي "حمران بن أبان" على رأس جيش البصرة من عدة آلاف من الجند، وعدة أفواج من الموالين الفرس، والقسم الآخر من قبيلة الشمكان قبيلة الوالي، وبقية قبائل البصرة، ممن يتعيش على غنائم الحروب ولا تطلب حرباً لا فوز فيها ولا غنائم !!

والتقى الجمعان في نهار غائم ينذر بمطر كثيف بمرحلة قبل جامع الأبله الكبير عند أطراف البصرة من ناحية الغرب، وما أن رأت القبائل الجيش الأموي الضخم الذي يقوده ابن أبي أرطاة، فعرف رجال القبائل وشيوخها أن لا سبيل للنيل من غنائم من هذا الجيش العرمم، وأن خير ما يفعلون أن لا يكونوا وركائبهم غنائم لأهل الشام !! فارتأوا أن من الأسلم لهم التخلي عن واليهم، والنجاة بأنفسهم، ما دامت الفرصة موجودة الآن قبل أن يسد عليهم جيش الشام الطرق والمعابر، ويحيطهم كالسوار للمعصم !!

فتفرقوا في الأنحاء المختلفة لا يلوون على شيء غير النجاة، وبطريقة تعلموها من هزائم مشابهة جربوها، فتصعب على عدوهم مطاردتهم !! وبقي عدد قليل من منكودي الحظ مع الوالي حمران بن أبان، فالتف عليهم جيش الشام وضربوا أعناقهم بلا رحمة، وأخذوا "حمران بن أبان" أسيراً وسحلوه أولاً على الأرض الحصباء ووضعوا بعد ذلك قيود الحديد حول عنقه، فأدمته، وأركبوه بعد أن أهانوه بركل دبره والبصاق على وجهه، جملاً هزياً ظاهر العظام ومن دون ركاب ولا هودج يقيه الشمس والمطر !! واتجه به الفصيل الخاص بالأسرى المهمين صوب دمشق ليرى الخليفة رأيته به !!

ودخل الجيش الأموي مدينة البصرة من ثلاث جهات واستباحها لثلاثة أيام، فلم تسلم تجارة إلا وسرقت ولا مخازن حبوب إلا ونهبت، وأشعلت النيران في الحوانيت وزرائب الحيوانات، ونهبت مخازن الحبوب والتمور، ودار الوالي

وسبيت نساءه وبناته، وكذلك فعلوا مع مالك زمام بيت المال، ومالك زمام الجند والسجون والعسس، ولم تسلم مراكب التجار، فأحرقت بعد نهب ما تحمله من بضائع ونفائس الثياب والحاجات، وأحرقت الأشرعة العظيمة التي تنشرها المراكب، فصار الداني والبعيد يرى حرائق البصرة على عدة مراحل من كل الطرق المؤدية للبصرة !!

وضج الناس بالبكاء وازداد الهلع، وكان لشدة خوف أهل البصرة من جيش أرطاة أن واحداً من هذا الجيش كان يطلب من خمسين فرداً من أهل البصرة أن يبقوا واقفين في شمس الظهرية حتى يرى أمرهم من قائده الأعلى، فيتركهم ويمضي ويبقى هؤلاء ينتظرون أجلهم من دون أن يفروا أو يتفقوا على الإمساك بهذا الجندي وتقييده والخلاص من شره وشر قائده !! فيبقون على هذا الحال بعد أن سلبهم الجندي كل ما يحملون حتى ثيابهم وأثناء بحثه عما يحملون يقتل من لا يعجبه شكله ويطلق الباقيين، قائلاً: أطلقكم يا عصاة يا فسقة في سبيل الله وطلباً لعلو المرتبة عند الله وخليفته في الأرض معاوية بن أبي سفيان ابن عم الرسول الكريم وكاتب وحيه !!

وما أن استقرت الأمور للأمويين في البصرة حتى بعث ابن أرطاة فوجاً من الجند يطلبون حضور سيدي الهفهاف إلى قصر الإمارة لمبايعة خليفة المسلمين معاوية بن أبي سفيان، تنفيذاً لأمر الخليفة الذي ورده من دمشق، واستقر الفوج عند بوابة مزارع سيدي الهفهاف، واحتشد القراء الذين كان يعني بهم سيدي في مزرعته، وكادت أن تقع مذبحه مهولة، ولكن أمر سيدي الهفهاف القراء بالهدوء، واصطحبني مع ثلاثة من كبار القراء، واستقلينا التخترون الذي بعثه الوالي الجديد، وكان القراء الثلاثة يقرأون آيات من القرآن الكريم لحفظ حياة سيدهم وحياتهم من الوالي الأموي ولاحظت شفاهم ترتجف فرقاً، ورعباً مما سيلاقونه عند والي معاوية الظالم !! ولكن سيدي الهفهاف كان رابط الجأش لا تتحرك عضلة واحدة في وجهه فرقاً وقرأت على ثغره ابتسامة غامضة بدت لي وكأنها استهزاء وسخرية مما يحصل لنا في العهد الأموي الجديد !!

وغد بنا التخترون السير حتى وصلنا دار الإمارة، التي رفعت فوقها رايات بني أمية الخضراء والتي كتب عليها "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وخلال مرورنا على الطريق شهدنا ما حل بمدينة البصرة من خراب بفعل الجنود الشاميين: خراب لا يوصف، فالرماد في كل مكان وآثار الحرائق في أغلب دور

البصرة وأسواقها، وفي أكثر دور الحكومة، ودور الإصلاح واليتامى، ودور القراء بالولاية، وخانات المسافرين، وصوامع الحبوب، ومرفأ المدينة، وكنائس النصارى، ودور الاستشفاء، التي خصصتها الولاية للمرضى والعاجزين ودور الفقراء التي تم تخصيصها للفقراء وأهل العاهات، وحتى بيت مال المسلمين نهب وأحرقت محتوياته وسجلاته !!

وشاهدنا العديد من الجثث المتفسخة في جنبات الطرق تأكل منها الكلاب السائبة والضباع وسحالي النهر !! وبعض تلك الرمم لنساء وأطفال وشيوخ !! ورائحة التفسخ منتشرة في كل مكان من البصرة بالرغم من أنه كان موسم القداح ورائحة الليلك والعمور المنثالة من زهور الليمون والبرتقال، التي كانت تعطر أجواء المدينة في مثل هذا الموسم من السنة . وشاهدت في عيني سيدي الهفهاف دمعين عصيتين، لم تسفحا، وتلتمعان في عينيه على طول طريق الخراب ذاك، وسمعت سيدي يتمتم، بصوت هامس:

— كل قطرة دم سألت في رقبته يا معاوية بن سفيان، ويا حمران بن أبان !! ألم يكن الأولى بكما احترام معاهدة الصلح مع الحسن بن علي ابن أبي طالب، وتحقتان بذلك دم هؤلاء المساكين الذين لا ذنب لهم سوى أنهم يعيشون في هذه المدينة في زمنكم الأغبر !! لا حول ولا قوة إلا بالله. لكنه السفه وبيع الدين بالدينا، أغراكما وكرسى السلطة، ففعلتم بعباد الله ما فعلتما، مما تشيب له الولدان هولاً ورعباً. قلتما في نفسيكما لنخلط أمور الدنيا بالدين، ولنقض حوائج دنيانا ببيع ديننا !! وهذه النتيجة دفع الناس فدية طيشكما وكبر نفسيكما، وتنهت متسائلاً:

— كم من الوقت سيمضي لكي تستعيد البصرة عمرانها وسلامها ؟ لا أظن أن ذلك سيكون قريباً، وسيكرر على طول الزمن مادام في الحياة حمقى وبائعين لدينهم بدنياهم !!

في قصر الولاية، عزفت الأبواق وارتفعت رايات بني أمية، وأقبلنا على بسر بن أرطاة، وكان مرتدياً لامة حربه وقد أشهر سيفه، واعتمر عمّامة القيادة الحمراء، وهذا اللون ما يعتمره حين يكون غاضباً وحاد المزاج ومقداً على أمر خطير !! وقد بدت لحيته الشهباء مسترسلة على صدره كقلادات حلقيه من ذهب خالص، ولم يخلو وجهه من آثار طعنات قديمة لسيوف أو ندوب لجروح من نبال تلقاها، كما أن جبهته امتلأت بالثأليل الصغيرة السوداء، كرية المنظر، فيحاول بسر تغطيتها بطرف العمامة لكنها تبرز من الأسفل كحلمات

الأثناء !! وبدت عيناه خرزيتان ملونتان تتلونان بلون الثياب التي يرتديها، وقد كانت جبته تميل للزرقة، فتلونت العينان بلون الجبة وحمرة خفيفة من الأعلى من لون العمامة !! كان منظره عجباً فتخيلته شيطاناً مريداً تمثل بشكل بشر والعياذ بالله !!

كان بسر بن أرطاة يجلس على سرير "حمران بن أبان" الوالي السابق، فقال سيدي للوالي الجديد وهو يسلم عليه، ورجال الوالي وحاشيته وخدمه وأركان حربه يحيطون بتخت الولاية، فقال ابن أرطاة بصوت جهوري، فيه نبرة تهديد ووعيد:

— أخيراً تقابلنا يا ابن المهند الراسبي !!

وكان مزماً شراً بسيدي لولا أن أحد تشريفات الخدم أقبل على بسر وهمس بأذنه، فانفرجت أساريره، وقال بعد فترة صمت قصيرة:

— عرفت من عيوننا في قصر الإمارة أنك نصحت الوالي السابق حمران بن أبان أن يسلم أمور الولاية بعد أن عقد الحسن بن علي الصلح مع سيدي خليفة المسلمين معاوية بن أبي سفيان !! ولكنه لم يرددع وركب هواه فكان مصيره ومصير الولاية كما رأيت يا ابن المهند الراسبي، وهذا الموقف يحسب لك لا عليك !!

فقال سيدي الهفهاف بعد أن حمد الله وشكره، وسبح وبسمل:

— يا ابن أرطاة، لم تسألني لماذا سبحت بحمد الله عند دخولي عليك في ديوانك، ولو سألتني لأجبتك بالتالي: " كنت قبل شهور قليلة أحدث حمران بن أبان والي الحسن بن علي بن أبي طالب على البصرة، وكان يجلس على ذات التخت الذي تجلس عليه الآن !! ويحيط به جمع أعظم من الجمع الذي يحيط بك الآن، من رجال حاشية وقادة جند وشرطة وفقهاء البصرة وتجارها وقراءها وشيوخ قبائلها وحراسه الغلاظ الشداد، فسبحان الله مهلك الملوك والأمراء ويغير من يشاء بما يشاء، وقد نصحته أن يمثل لبنود معاهدة الصلح بين الحسن بن علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، فأبى واستكبر، وغلبته حميته الجاهلية، فالزمني ببיתי وأن لا أخرج منه، ولا أحدث أحداً من أهل البصرة، وأن لا يكون لي شأن بالبصرة وأهلها !! واليوم أنت طلبتني لأمر أجهله، وربما ستتهمني بموالاتة علي وآله !! وأنا أقول لك إنني من مواليهم اليوم وغداً، سلمهم سلمي وحر بهم حربي، فمن سالموه سالمته ومن حاربوه حاربتهم، أبي من أبي وشاء من شاء !! ولست خائفاً من إعلاني هذا، وأصدقك

القول لولا معاهدة الصلح التي جرت بين الحسن ومعاوية لكنت أول المحاربين لجيشك، ولكن شاء الله وما شاء فعل!! أنفرت أسارير بسر وقال:

— هون عليك يا ابن العم!! أنت ضيف كريم وابن عم كريم، وما جاني من معاوية خليفة المسلمين إلا كل خير بشأنك، فوصية الخليفة أن أجعلك من رجالنا المعتمدين!! فأنت أحد أبطال معركة صفين، وكنا نحسب لك ألف حساب، وقد أذقت جنودنا في كرك وفرك الويل، وفر من وجهك الأبطال، وقد وصلت مولاي معاوية أخبار نصحك لحران بن أبان!! وعرف بحجزك وأهلك في حياض قصر ك وأرضك، وجعلوا عليك العيون والحراس، فلاتحدث أحداً ولا أحد يحدثك، ولو كان اجراً الأمويين في البصرة لما استطاع أن يقف أمام حران ويقول له " أتق الله بالمسلمين وأن لا تهرق دماءهم بالباطل لأجل هواك!!" وقد أوصى بك خيراً وليس الخليفة وحده من أوصانا عليك، فذاك مقدم الأمويين في دمشق مولاي "عبدالرحمن بن خالد بن الوليد" والي حمص طلب مني عند توجهي إلى البصرة أن أكرمك وأرعاك وأهلك، وكذلك مقدم حلب وأمير أمرائها "سبهان الأزدي الأموي" أوصى بك وأهلك، ولكثرة التوصيات الطيبة بحقك ظننت أنهم سيولونك البصرة، مكاني بعد أخذها من حران، فأنا قائد جيوش الأمويين مهمتي فتح المدن، وتسليمها لمن يديرها ممن يوصي بهم خليفة المسلمين، فأسلمها وأذهب إلى شأن آخر وحرب أخرى أخوضها. أمض في سلام إلى دارك وأهلك يا هفهاف وأنت عندنا من المقربين الأخيار، ورأيك ومشورتك واجبة علينا!! فقال سيدي الهفهاف بعد أن حمد الله وشكره على فضله:

— " أنه لا حاجة لي بشيء، لكنني أطلب لأهل البصرة الأمان، فهم أهل دنيا وسلام، لا أهل حرب وفتن، واعجب لكل من يجندهم لقتال!! فهو لا يعرف أن أهل هذا الثغر أخذوا من نخلتهم، مشاعر الدعة والسلام والطيبة والانتظار الطويل لرحمة الله، فهم أهل دنيا ودين لا يريقون دماً ولا يهددون أحداً!! فكل من جاءهم من الغلاظ القساة سقوه بطيبتهم وهذبوه بأخلاقهم وصبرهم عليه، حتى يمر الزمن عليه بينهم فيتمدن ويتهدب وينظر ما ينظرون ويعتقد ما يعتقدون!! فاتق الله بأهل البصرة!! فهم مسلمون مسالمون، منذ فتحها الصحابي صاحب الكرامات "عتبة بن غزوان" يرحمه الله ويجمعه بسيدنا رسول الله، وتذكر أنك لم تدخل مدينة للمجوس أو لعابدي الأوثان!! وإن كانوا كذلك، فقد وجب عليك دعوتهم إلى الإسلام، فإن استجابوا فيها وأن لم

يستجيبوا فعليهم دفع الجزية لا غير، أما أن تستبيحوا المدينة وتستحلوا حرماؤها، وتقتلوا رجالها وتحرقوا أقاتها، فهذا ليس من فعل المسلمين، بل هذا فعل الجيوش الغازية، التي لا دين لها والتي يبغى امرؤها الدنيا ولا يعنيه الدين بشيء !!

فقال ابن أرتا وقد نكس رأسه مصغياً لما قاله سيدي الهفهاف:

— إكراماً لمجنيك ساعفيهم من عقاب ادخرته لهم ولغيرهم من المدن التي كانت لا تباع سيدي معاوية بن أبي سفيان !! ولن يمضي الوقت طويلاً لنسكن في البصرة قبائل عثمانية موالية لخليفة المسلمين معاوية بن أبي سفيان يستحقون خيراتها وطيب أرضها، بدل سكانها الحاليين، الجاحدين لفضل الأمويين، لتكن سيوف القبائل العثمانية تحت طلب سيدي خليفة المسلمين معاوية بن أبي سفيان.

كانت المناظرة بين سيدي الهفهاف وأبن أرتاة حديث الأعمشة !! فقد تسرّبت إليهم من القراء، الذين حضروا ذلك المجلس، فمنهم من شكر سعيه لإنقاذ ما تبقى من اهل البصرة من انتقام عظيم !! وبعض هؤلاء من أعمامه وخاصته ومن حاسديه، الذين غمزوا ولمزوا، مذكّرين الناس بما روجوه في الأيام الماضية عن ولاء سيدي الهفهاف للأمويين ومبايعته بالسر لمعاوية بن أبي سفيان !!

وكانت سيدتي شهنزاد مهمومة وخائفة، وأسرت إلى زوجتي أن الهفهاف فقد كل لذات العيش !! وهو طول الوقت بادي الهم والغم، ويتساءل: لماذا يا مولاي الحسن؟ لماذا؟ كان بإمكاننا أن نجاهد في سبيل الله حتى يحق الحق أو نستشهد في سبيله، أن في هذا الصلح حكمة لا نعرفها !! وعلينا أن نتحمل تبعاته لنعرف ما شاء الله وقدر له. وأضافت سهنزاد أن سلمان الصغير كان هماً آخر في صدر الهفهاف، فهو لا يطيق التعلم، وفي أكثر من مرة كاد للقارئ الذي يحفظه القرآن وجعله إضحوكة لدى حافظي القرآن ومقرئيه، ومن كان بسنه قد حفظ القرآن وأجاد تلاوته، وعرف أحكامه، والكثير من تأويله وفقهه، وسننه، ونسأل الله أن يهديه لطلب العلم، ويمدّ فيه زمن أجداده بعلم نافع، ودفاع مجيد عن الإسلام.

5 صفر 42 هجرية

"كل نتيجة لها مقدمة، فمن قَبْلِ المقدمة، عليه الرضا بالمآل، فهو مبتغاه، وإنْ

أنكره !!"

"الهفاهف الراسبي"

وردت لي رسالة من سيدي أبي علي الحسين يخبرني فيها بما بعث في قلبي الحزن الشديد، وكانت نذيراً ومفتتحاً لعصر جديد، وحده الله يعلم كيف سيكون تحت حكم الأمويين !! كانت الرسالة قصيرة، وقد كتبت فيما يبدو على عجل، وبعثت من مكان قريب من منطقة نواويس الكوفة. كتب لي فيها أنه وأخوه أبا القاسم وآل بيتيها جميعاً غادروا الكوفة قبل ليلة بعد أن ودعوا أهلها وهم الآن يتجهون بقافلة صوب يثرب !! فلا مقام لهم في الكوفة بعد اليوم، التي تذكرهم كل لحظة يعيشون فيها بمصرع سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب !! وخصوصاً بعد أن وفد الوالي الأموي الجديد يزيد بن أبيه من طرف معاوية بن أبي سفيان، واستقر في دار الإمارة بالكوفة، وابتدأ أيام حكمه بقتل صاحب رسول الله "عمرو بن الحمق الخزاعي" و"حجر بن عدي الكندي" وضيق الخناق على محبي علي ابن أبي طالب في الكوفة !! ففي يثرب أهلهم من الهاشميين، الذين ألحوا عليهم بمغادرة الكوفة، لئلا يقع عليهم الحيف من واليها الجديد، وهم فيها بلا عصبية ولا أهل يذودون عنهم !! ويرهب وجودهم من ينوي التجاوز عليهم ومس كراماتهم، ولمنع أن تقع الفتنة بين الطرفين، والكوفة كما عرفها الهاشميون دار اختلاف واجتهادات تصل درجة الخبل !! وأهلها لا يستقرون على رأي ولا يعجبهم العجب العجيب، ولا يؤمن أهلها إلا بمن يشكم جماعهم ببيض الصفاح، وسوء الطوية، وقساوة التدبير، أو يقر عيونهم وصدورهم بلصف دنائير الذهب، ويسمعهم رنين الدراهم !!

همت دموعي وأنا اقرأ عبارة أبي علي الحسين التي خصني بها فقد قال: يا أبا سلمان عرفتك أماً عزيزاً ذت عن حمى الإسلام، وآل بيت رسول الله منذ يفاعتك، وبعد ذلك في شبابك، منذ كان نقيبهم أمير المؤمنين يخوض المعارك ضد الطامحين والطامعين والفاسقين، ووقتها كنت قليل خبرة في القتال، فقال

في حَقِّك وأمثالك من شباب المؤمنين، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب" من شب على الذود عن الحق شاب على ذلك!!" وحين أراد أبوك المهند الراسبي أن يمنعك من المشاركة في حرب صفين، لأنك ابنه الوحيد، ولم تنل التدريب اللازم، لقتال الفرسان بعد، فأكد على أبيك قائلاً " أتركه يا مهند فهذا سفير البصرة!! ونجم الأوفياء لعهودهم في يوم كرب وبلاء، لولدي أبي عبدالله وآل بيتي!! وأن السنوات ستمضي، وسيبقى ذكره مشعاً عامراً بمحبة آل بيت رسول الله إلى يوم القيامة!!"

لم أفهم ولم يفهم والدي شيئاً مما أراد به أمير المؤمنين، لكنه أطاع أمر الحق، وسمح لي بالمشاركة في تلك الحرب الضروس إلى جوار أولاده وأصحابه. وأكمل أبو علي الحسين: ربما يا أبا سلمان لن نلتقي ثانية بعد يومنا هذا في العراق!! لكننا سنلتقي في أم القرى ومدينة الرسول، ولا أظن أن سنة ستمر دون أن تحج أو تعمر عمرة- فيكون لقائنا هناك قريباً من نور الهدى قبر الرسول الكريم أو بيت الله العامر، فلا تحزن ولا تضيق نفسك سنلتقي يا أبا سلمان!!

وما أن أكملت الرسالة حتى شعرت بقلبي فارغاً، وأني أكاد أن أسقط إلى الأرض، فجلست على دكة إلى جوار أرضنا، كانت تموج بالخضرة. وتذكرت يوم سألتني ابن أرتاة، المزهو بفتحها للبصرة!! وهو جاس على سرير الإمارة وسط أشياعه وأتباعه، وقادة جنده: أصدقني القول يا أبا سلمان، ما الذي حببكم بعلي ابن أبي طالب!! وهو من قبيلة، وأنتم من بطون قبائل أخرى. قاتلتم في حضرته حد الموت في الدفاع عنه، ولم تتركوه إلا حين لبي نداء بارئه؟ فابتسمت، فقال مستغرباً: أبتسم في حضرة سؤال قد يوردك جوابه موارد الهلاك، أو يبوأك عند أهل الحل والربط في الشام أعلى المراتب لما عُرف عنك من خصال الشجاعة والكرم، والعلم والفق، والفراسة؟. فقلت له: والله يا ابن أرتاة لا تخيفني الهلكة في حب علي وأتباعه حياً أو شهيداً عند رب كريم!! ولا تهمني من هذه الدنيا مراتبها، ومزاياها، وساقول لك أن ابتسامتي أتت عفواً لمحبتتي سؤالك، فهو باب للطف يمس سائله ومن يجيب عنه، برقته، فيصير رقيقاً محبباً يأمل خيراً من محبة وصي رسول الله، وآل بيته!!

أن الله تعالى حصر نسل رسولنا الكريم بنسل علي ابن أبي طالب، فبنات النبي لم ينجبن سوى فاطمة الزهراء من أم المؤمنين خديجة، ليحصر نسل الرسول بنسل علي من أبنته فاطمة، وهذا تكريم ما بعده تكريم. هذا أولاً، وثانياً

كيف لنا أن ننسى قول رسولنا الكريم في وقعة الخندق، وكان المسلمون وقتها في رعب وخوف ما بعده خوف بوجود الآلاف المؤلفة من كفار قريش وحلفائهم وهم يحيطون بيثرب!! وحين جادله صحابته حول أمر اختلفوا به مع علي، فجاءوا يسألون عن أيهم مع الحق؟ فجاء جوابه مجلجلاً، لا تأويل له، ولا تحريف لمعناه: علي مع الحق كيفما دار يدور، وبالمعنى الفقهي يا ابن أرطاة نتساءل: مَنْ الذي دار ومن الذي يدور؟ علي الذي دار والحق يدور حوله، لأن من النسيج القرآني أن الفاعل الأول هو الأهم والأبرز!! وهو علي والفاعل الثاني هو الحق، وهو يدور حول الفاعل الثاني هو الحق، وهو يدور حول الفاعل الأول، فهو مرشد ودليل له يا ابن أرطاة، وهذا كلام الرسول ودليل أكيد علي عصمة علي بن أبي طالب!! وأمر آخر ورد في حديث آخر لرسول الله خص به علياً جاء في وقت معركة خيبر، إذ قال الرسول بعد حملتين فاشلتين على الحصن الحصين لليهود في خيبر: " أني مرسل لهم رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، كرار غير فرار، لا يرجع إلا وفتح الله عليه!!" قال الرسول قولاً في أوله لا يثير بالرغم من وثيقة الحب التي أثبتها الله ورسوله من قبل علي، ولكن المعجز في القول، ما ورد من خبر لا نعرفه من قبل!! وهو ما ورد في قول الرسول في شطره الثاني، الذي أكد فيه حب الله لعلي، والسؤال، الذي يتبادر لكل عاقل لبيب: كيف عرف الرسول أن الله يحب علياً؟ بالتأكيد كانت من الله لرسوله تصريحات وتلميحات وإشارات نبته بحبه لعلي بن أبي طالب، وهذا القول لم يرد في أحد غير علي بن أبي طالب، فنكس ابن أرطاة رأسه، وقال مطأطأ:

— علمكم من علم الرسول وابن عمه علي، فمن يقدر على الرد عليكم، أو رد حججكم؟

وغادرت مجلسه، وهو لا يزال مطأطأً، وحاشيته يتبادلون الهمسات، فمعظمهم يعرفون الحق، لكنهم عنه صامتون، أغرتهم زينة الحياة ومتاعها!! وكل ذلك زائل، وأيامهم قصيرة وستطويها وقائع الدهر، يوم يكونون ذرات سابحة في الهواء لا أجساد عامرة بالصحة.

وسمعه يقول وهو يصفق بكفيه: لهذا السبب أمرني مولاي معاوية أن لا أترك الشاميين في جيشي يختلطون بالعراقيين، وأمرني أن لا أترك الجيش في مدينة عراقية أكثر من أسبوعين لنلا يحتك الشاميون بالعراقيين، فيفسد

العراقيون عقولهم .. وتبع ذلك بضحكة وصرخ جذلاً : علينا بالقيان وجلسة
الأنس !! فقد حان وقتها.. اليوم خمر وغداً أمر !!
وتمتم هامساً للقرييين منه:

— بعد أسبوعين فقط إن تركت جنودي مع العراقيين، فسيرفعون سيوفهم
بوجوهنا.

وقلت في نفسي وأنا أغادر آخر حارسين في قصر الإمارة:

— أن أكثرهم للحق كارهون !!.. يد الله فوق أيديهم !!

وكتبت لأبي علي الحسين في يثرب ذاكراً له أحوالنا بعد فقدنا لأمير المؤمنين،
إذ تحولت كل عطفة من أحياء البصرة ودواويرها وجاداتها مرتعاً للصوص
والصعاليك !! وانتشر بنو غطفان وبنو الشيبه في أغلب قرى ومدامر البصرة
بثيابهم البيض القصيرة، ولحاهم الأثيثة يقتلون الناس على الشبهه بالدين أو
يطلبون منهم شتم علي ابن أبي طالب وذم أيام خلافته !! وحالما يرفضون
يقتلونهم، ويلقون بالهالكين في فج عميق في جبل سنام عند تخوم الصحراء
مع بادية الجزيرة عند وادي الجن، وكل ذلك يتم بتشجيع من والي البصرة ابن
أرطاة.

وبدأت هجماتهم لإجتثاث محبي آل بيت رسول الله من كافة نواحي البصرة
ومدائرها وقراها، وقد اضطررت إلى تسليح القراء والشيوخ من العاملين في
الدعوة إلى الله، في كافة الأراضي المحاذية للخلاء، ومن جهة نهر العرب،
المنحدر من الأبله صوب البحر الكبير، وخلجانه الثلاثة، للدفاع عن أنفسهم من
غارات هؤلاء الهمج على بطاح البصرة ونواحيها، وقد بلغت بالعثمانيين الهوى
من القبائل التي أسكنها الأمويون في البصرة الجرأة الوصول إلى دكاكين
البصرة ومركز تجارتها مع الهند، فسلبت التجار بضائعهم وأموالهم، وقتلوا
عبيدهم وعمالهم، وفي كل غارة كانوا يجندون لها المئات من الصعاليك
والمأجورين، الذين لم يجربوا حياة المدينة، فكانوا غلاظاً أشداء لا رحمة في
قلوبهم لشيخ مسن ولا لطفل صغير، ولا لأمرأة لا حول لها ولا قوة !! وكانوا
وهم يقتلون ضحاياهم سعداء زلفى إلى الله تعالى، يفعلون ذلك بأسم الله
ورسوله ويظنون أنه يقربهم من الله ورسوله، وذلك ما حكاه لي عنهم من نجا
من سيوفهم ورماحهم ونبالهم التي لا تخطيء إلا فيما ندر. وهم لا يتورعون
عن تلويث لحاهم بدماء ضحاياهم تقرباً لله كما يزعمون، وقد أقسم من عرفهم،
نهم بلا دين ولا عقيدة ولا تجمعهم غير عقيدة وحيدة هي عقيدة السلب والنهب

والقتل بسبب أو من دون سبب، أما حكام الولاية وماسكو زمام شرطتها ومدبرو فقهاها، ومسجلو خراجها، ومحتسب أموال بيت المال فيها، فكلهم في خدمة دمشق، فهم يجبون الأموال ويحافظون عليها من النهب ثم يرسلونها إلى دمشق مع كتيبة كبيرة من الجنود، والأمويون منذ فتح البصرة إلى اليوم لم يصلحوا طريقاً ولا أقاموا قنطرة ولا جسراً، ولم يشقوا ترعة ولا نهراً ولا حتى ساقية، ولم يكتروا فروع النهر الكبير من الرواسب، فعلقت سفن التجارة الكبيرة القادمة من الهند، فصارت الكثير من السفن الكبيرة تتجنب الدخول إلى نهر البصرة أو المكوث فيه فترة طويلة خوفاً من السلب والنهب والقتل لبحارتها، أو غرس سفنها في الغرين والرواسب، أما القضاء في البصرة فقد صار هرجاً ومرجاً لا سلطان فيه لعقل أو لدين أو لعرف !!

فمن ملك المال ورشى به القضاة ومسجلي القضاة، يصير صاحب حق، حتى ولو كان ظالماً لمن ادعى عليه !! خربت الذمم في البصرة يا أبا علي، وصرنا ننتظر صاحب الحق والخضر أن يحضرا ليصلحا الحال !! كما بشر بذلك رسولنا الكريم، فلم تعد كلمة الناس واحدة، فقد فرقوا القبائل وجعلوا، ما يفرق بينهم أكثر مما يوحد بينهم، فهم في معارك دائمة لأتفه الأسباب وأوهاها.

ضاع الأمان وفقد معه الإيمان، منذ تولى الحارث بن عبدالله الأزدي ولاية البصرة، قادماً من دمشق، ويقال أنه اشترى ولايته من الأمويين بألف ألف دينار !! فهو يطمح أن يجمع أضعاف هذا المبلغ، مما يمكنه تبوؤه مركز الولاية أخذه من الناس، ومن تعشير تجارة الميناء، فكل سفينة تمر بميناء البصرة له منها عشر ما فيها من بضائع، فصار الناس في الولاية يغلقون أبواب بيوتهم بالمتاريس بعد صلاة العصر، حتى لا يستطيع اللصوص الدخول إليها وسلب أقوات أطفالهم وعيالهم، أمام أنظارهم !! فلا شرطة في الدروب بعد صلاة العصر، والسلب والنهب يبدأ في مركز المدينة وقريباً من قصر الإمارة بعد الغروب بقليل !! لقد ضاعت البصرة وضاع أهلها، يا أبا علي وحل الخراب فيها ونعق البوم في خرائبها صباحاً ومساءً. وحفظكم الله من كل مكروه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

4 صفر 44 هجرية

" فساد الأحوال أصله الاستبداد "

الهفاهف الراسبي

بلغت البصرة أسوأ أيامها في عهد واليها الجديد الحارث بن عبدالله الأزدي، فقد فلتت الأمور من بين يديه، واستولى قطاع الطرق على الكثير من القرى والمداشر، وصار من الخطر التنقل من البيت إلى السوق من دون أن تكون في صحبة، وأن تكونوا بكامل أسلحتكم !! وصار السارقون يدخلون بيوت البصريين، فيسرقون ماخف وزنه وغلا ثمنه ويقتلون كل من يقاومهم، ويسبون النساء والأطفال، لبيعهم إلى النخاسين في أرض المستنقعات شمال البصرة، الذين بدورهم يحملونهم في سفن كبيرة لنقل العبيد الجدد والسراري لبيعهم في الهند والسند. وبعض هؤلاء المخطوفين يتم نقلهم إلى بخارى وسمرقند، وحتى إلى بلاد الصين، وبلاد التبت وجزر الظلمات في المحيط.

وكنت اعرف ماسك زمام شرطة الولاية في عهد الأمويين في البصرة، منذ كان شاباً في نواحي البصرة، وقد كان سكيراً خليعاً من الذين يتعتهم الشرب، فينسبون اسم أبيهم بعد ذلك، فلا يعرفوه إن سألتهم عن نسبهم، أو قبيلتهم. وكان في صحوه كثير الكيد واسع الحيلة، وقد ولي من قبل على حلب، فأقام فيها حمماً كبيراً يسع لألف إنسان مرة واحدة، وجعله مختلطاً للنساء والرجال بدعوى أن النظافة من الإيمان !! فكان يدر عليه في اليوم الواحد أكثر من ألفي دينار، إلا أنه حين مسك زمام شرطة البصرة لم يتغير سلوكه، عما عرفته عنه من قبل، فقد عمد إلى إرشاء رؤساء اللصوص وطغاتهم بجرايات وعطايا، ليصيروا مع عصاباتهم في طوعه، وتنفيذ ما يؤمر به، وما يقومون به بمشورته وتخطيطه، وعملهم يتم بثياب شرطة الدولة الأموية، المزركشة !! وسلحهم بسلاحها، وصار معظم لصوص البصرة وعياريتها وفسقتها وقواديتها وصعاليكها وغاياتها وطباليها وهم كثرة كاثرة، منذ "رحلة الفافونج" إليها من أصقاع بعيدة من بحر الظلمات، وهم لا شغل لهم ولا حرفة لديهم غير الرقص والسماح لبناتهم ونسائهم بمنح المتع لمن يطلبها بثمن!! فهو يبعث

لزمرة من هذه الزمر بمن يريد سرقة أمواله أو قتله أو خطف عياله، فيفعلون ما يريد من ساعتهم بلا تأخير!!

وأقام في أقرب مكان من ساحل النهر الكبير حمّاماً كبيراً للسباحة، وشغل فيه أجمل بنات الفافونج والفارسيات والكرجيات، ليعملن فيه لخدمة من يتحمّمون فيه من أغنياء البصرة. وكان لغانيات البصرة جادة تسمى بجادة المتعة تحيطها بيوت كنيبة، من القصب المغطى بالصلصال، يعشن فيها، ويمارسن الرذيلة بالسر حين تقوى شوكة الحكومة، وبالعلن حين تضعف ويحل الفساد والإنحلال بدل الحزم، وحساب الرعية على كل صغيرة وكبيرة. وفي كثير من الأوقات حين يبلغ العمر آخره بهذه الغانيات ويفقدن بريقهن يعملن بالبصّارة، وقراءة الحظ ومزاولة الحجامة والعرافة بالأعشاب وعمل مراهم العلاجات.

وما أن حل الولاة الأمويون في البصرة حتى أمروا ببناء دور الأجر الضخمة وأسكنوا هؤلاء في حي قريب من دار الإمارة ووضعوا فوجاً من الجند لحراستهم، والأشراف على مواردهم، فلقوادهم نسبة مما يردهم من أموال، وعطايا، أما تنظيم دكاكين الخمور، فقد كانوا أول الولاة بعد دخول الناس في الإسلام يسمحون ببيعها وشربها علناً!! وشجعوا الفتيات على العمل بتقديم الخمر في الحانات ودور اللهو، ومنذ ذلك الحين أخذ معظم أهل البصرة ينامون مخمورين، وفي صحوهم يروون موبقاتهم وما اقترفوه في ليلهم مستغفرين ربهم!! ولكن حالما يحل الليل يعودون لما سلف من أعمالهم التي يستغفرون الله عنها في صباحهم وضحاهاهم!!

كتبت لأمير أمراء حلب أعلمه بأحوال البصرة في عهد واليها الجديد الحارث، فكتب لي " لا حول ولا قوة إلا بالله، ما عمر الباطل إلا قصير!! أرسلت رسالتك إلى سيدي ومولاي عبدالرحمن بن خالد بن الوليد. والله قادر أن يغير حالاً بحال. والسلام في الختام."

ويبدو أن رسالتي إلى أمير أمراء حلب قد سرّبت من بعض المشكوك في ولائهم لأمير الأمراء، ونقل فحواها برسالة من حلب إلى والي البصرة الحارث!! فأرسل عيونه إلى مزارعنا في الحوز وخورة النهر وعند ساقية الجمل، التي كلما مررت قريباً منها تذكرت ما دار عليها من قتال في معركة الجمل!! وانتصر فيها الحق على الباطل، وتم أسر البقية الباقية من ذلك الجيش، الذي قدم من يثرب ليحارب علياً ومن أتبعه بحجة المطالبة بالقصاص من قتلة عثمان، ولم يخيفني هذا الوالي الدعي، لكنني كنت أخشى على شيوخ

القراء أن يقتلهم !! وهؤلاء الثروة العلمية التي نختزنها لمستقبل الأمة، فهم حفظة القرآن ومدونو أقوال رسول الله، ووصيه وآل بيته، وحفظة كل وصايا ومسائل طرق الصالحين في معرفة الحق وأتباعه، ووظيفة هؤلاء تعليم أطفال البصرة ما جاء في القرآن من فقه وشرائع وتفسير ورواية سيرة الصالحين من زمن آدم إلى يومنا الحالي، فإن تمكن منهم الوالي، وقتلهم لا سامح الله، فستقع البصرة في الجهل والرذيلة إلى ما شاء الله بعد أن أشيع شرب الخمر وأبيح الزنى، وتحول بيت مال المسلمين إلى خزينة للصرف على المبادل والفواحش، فمحتسب هذا البيت يعتبر الأموال أمواله الخاصة، وهو حر باتفاقها كيفما يشاء، فهو لا يتورع عن ملء حوض جارية بالدنانير الذهبية، لأنها أجادت هز خصرها أمامه، وأصحابه فآثرت فيهم الغرائز وامتعتهم ساعة من الزمن !!

ولم تمض على ولاية الحارث سنة شديدة السواد أقام خلالها ماسك زمام الشرطة خمسة قصور سامقة واسعة الأبهاء تجري الأنهار تحت شرفاتها لخمس غانيات من غانيات الفافونج المشهورات !! وكان لا يطيب له مساء إن لم يقضه في أحد قصور غانياته يرقص ويغني ويسكر بلا عمامة ولا جبة شرطة تستر عريه مع غيره من كبار رجال الولاية ووجوهها وعشرات الجواري ودنان الخمر تسكب بلا حساب، فهي تجيء كهدايا ورشى له في دنان ضخمة مع سفن التجارة، ولهذه الدنان صنابير معمولة من قصب الهند تغلق وتفتح بخيط يقع طرفه في أعلى كل دن منها.

عمدت من فوري إلى تشتيت شيوخ القراء إلى مدن أخرى في العراق قريبة وبعيدة وزودتهم بالمال اللازم، لكي يقيموا الجوامع وحلقات العلم، ويعطوا الدروس لأهل تلك المدن، وذكرت لهم أن ما يقومون به سيصب في مستقبل الأمة، فلا يستطيع أمثال هؤلاء الفاسدين الذين يحكمون البلاد دفن رسالة محمد أو محو ذكر وصيه وآل بيته الأطهار !! وكما توقعت فلم تمض سوى شهور قليلة على إرسال رسالتي حتى داهمنا جنود الوالي، وأحاطوا بمزارعنا وضربوا الحصار عليها، فالداخل إليها والخارج منها عليه أخذ الأذن من قائدهم بعد أن يحدد المكان الذي يقصده، وما غرضه من الزيارة.

لقد حولوا أراضينا إلى سجن كبير، من دون أن يتحملوا مؤونة إطعامنا أو إكسائنا، وأرسل لي الوالي يطلب مني وقف تدريب الناس على السلاح، وإيقاف جميع الدروس الدينية والتوجيهية في الجوامع التي بأرضنا، فقلت في نفسي ساخرًا، ما نفعه سيحد من توسع نشاطات أهل المغنى والتطريب، وأضاف

الوالي، أن مانفعله يصب الزيت على النار، ويثير الناس ضد حكم الأمويين، ويشجع الخوارج على المزيد من شق عصا الطاعة لمولانا الخليفة!! وكنت اعرف أن معاهدة الحسن بن علي بن أبي طالب لا تزال ملزمة شرعياً لي بإطاعة الوالي الأموي، كما نصت وثيقة الصلح بينه وبين معاوية بن أبي سفيان، والتي ذكرت أن ولاية معاوية يمثلون معاوية في كل مصر من الأمصار، فأوقفنا ماطلبه الوالي على مريض!! لمنع الاصطدام بقواته، من الجند، واقتصرت الجوامع على أداء الصلاة في أوقاتها وصلاة الجمعة، وكان أمام الجامع يتلو خطبة قصيرة، تأتي فحواها مكتوبة من فقيه قصر الأمانة، وقد أراد فقيه الوالي أن يفعل ما يفعله فقهاء وشيوخ الشام على منابرهم في يوم الجمعة من شتم وتدليس على ابن عم رسول الله علي بن أبي طالب، فرفضنا هذا رفضاً قاطعاً!! وكاد القتال يقع بين من ناصرنا وبين جيش الولاية، ولكن تدخل بعض أصحاب السياسة ووجوه أهل البصرة في الأمر ونصحهم الوالي من أن يطلبه هذا إن أصر عليه سيتسبب بثورة كبيرة في كل العراق على الأمويين!! فلا يزال الناس يتذكرون عدل علي بن أبي طالب وبركات حكمه، فهم يترحمون عليه ويحنون لأيامه الأمانة الرخية!! وكان الحارث يعرف أكثر من غيره معنى أن تبلغ أخبار تزعزع الأمن في العراق إلى الخليفة في دمشق، وليس بعيداً أن يعزله من الولاية، ويولي غيره وما أكثر حاسديه وكارهيه في دمشق، فسيفخون النار في صدر معاوية ضده، وهو صاحب أموال وأحوال وعقار ورخاء في البصرة، وكلها تدرُّ عليه وأسرته وقبيلته أموالاً طائلة!! لم يكن الوالي الجشع يحلم بها، فلذلك طلب من فقيه إمارة البصرة أن يجد حلاً وسطاً في هذا الموضوع، فأوصى أن تكون:

خطبة الجمعة محددة بموضوعات هامشية لا تمس حياة الناس، ولا توغر صدورهم على الأمويين، وأن يتم الدعاء في بدايتها لأمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، فكان مشايخنا يبدلون اسم معاوية باسم علي بن أبي طالب، ويترحمون على الرسول الكريم وعليه، وعلى صحابة الرسول. وبقينا هكذا في شد وفتور مع الحارث، وقد حاول بعد شهر قليلة استمالة الكثيرين ممن يديرون المزارع والجوامع، وأصحاب الحرف كعصاري الدبس وكابسي التمور وناسجي الليف، وزارعي القمح والشعير وصانعي السرة والسفوط والمفارش وجامعي العسل، وعاصري الزيتون، وأصحاب الصناعات في البناء والتشييد، وصانعي الجواهر ومبدلي العملات، وموثقي العقود. وكان يرشيههم بالمال

ويخوفهم بالسجن، ويهدي الجواري لكبرائهم وشيوخهم، ويعمد إلى تشغيل أولادهم ورجالهم كعيون له في مزارعنا، ومصانعنا، وكنت وبعض الفطنين من أصحابي نتابع ما يحصل، ونعمل كما يعمل مطفئو الحرائق، فمن استطعنا تنبيهه لما يراد منه في حقيقة الأمر أن يبيع آخرته بدنياه، فكان البعض يهتدي ويعزف عن طريق الغواية، ومن يبقى على ضلاله ونرتاب بتصرفاته نعطيه بعض المال، ونطلب منه المغادرة، ليعمل في مكان آخر، فيصير هذا الذي اتقينا شره من أشد الأعداء لنا، وكأننا طردناه من الجنة، وبالفعل فمن صلح باله ممن كانوا معنا، يشعرون بأحدى اللذائذ التي وصفها الله تعالى لنا في محكم كتابه، ومن فقد راحة باله صار ذلك الفقدان آفة وجحيماً لا يطاق، فهؤلاء المنبوذون يحدثون ذواتهم، فيصلون حتماً إلى حقيقة أنهم بدلوا جنتهم بدنيا فانية لا قيمة لها، لم تبق لفلان وفلان قبلهم، فقد غادروها كما جاءوا إليها عراة لا يستترهم شيء !!

4 رجب 45 هجرية
"كل لحظة هي فراق لما قبلها"
الهفاهف الراسبي

حل طاعون "الجارف" في البصرة فقطع الألسنة التي شتمت علياً من فوق منابر البصرة، وجعلت الناس يلوذون ببعضهم منشغلين بأنفسهم وعيالهم خوفاً من الجارف، وسمي الطاعون بـ "الجارف" لكثرة من مات فيه من الناس. مات فيه قراء ومشايخ ووجوه البصرة وقاضياها المكحل، ومحتسب سجونها الجمهوري، وكبير نحاتها المزوري الأبيض، وشيخ القبائل أبو المحاسن الأزدي، وجميع عائلته وفرّ عبيده في الصحراء لا يلوون على شيء. وقل الناس في المدينة وعجز من بقي عن دفن موتاه، وكانت الوحوش تدخل الأزقة وتأكل الجثث المتعفنة، بحيث أن أم أمير البصرة الحارث ماتت، فلم يتهياً من يخرج جنازتها سوى أربعة رجال!! بل أن كثرة القتلى بلغت في البصرة لدرجة أن في يوم الجمعة لم يحضر الصلاة سوى سبعة رجال وامرأة، فقال الخطيب: أين تلك الوجوه الموردة التي نراها كل جمعة؟ فأجابته المرأة: تحت التراب يا مولاي!!

ومضت شهور صعبة على أهل البصرة، وانحسر المرض بعدها، وعادت القبائل التي هجرت البصرة، وهربت بحلالها إلى الصحراء لالتقاء الجارف، وأهل الحضر الذين هربوا صوب المستنقعات عادوا من جديد إلى بيوتهم، وأخذت أحوال المدينة تعود إلى طبيعتها يوماً بعد آخر، وأخذت السفن والزوارق المحملة بالبضائع تزدهم في مينائها من جديد.

وفي منتصف السنة ذاتها هلك الحارث بن عبدالله الأزدي والي البصرة، وتولى الأمور أخ معاوية بن أبي سفيان، زياد بن أبيه، فهو ابن أبي سفيان من غير زواج، ووصلتنا أخباره قبل مجيئه إلينا، فهو خطيب مفوه، وخزيه المستتر يعود أنه بلا أب!! فأطلق عليه زياد بن أبيه من يوم ولادته في السنة الأولى للهجرة، وكانت أمه سمية جارية عند حكيم معروف في مكة، وسمعنا

حين كنا في يثرب قصة ولادته من أبي المهند يرحمه الله، فذكر: أن أبا سفيان بعد إسلامه أنه اعترف أنه من قذف في رحم سمية ولده هذا !! وكان فخوراً بأبوته له، حين سمع الناس تثني على جزالة خطبته في أحد المجالس، وتمكنه من الإفصاح عما يجول في خواطر الناس وما يكتُمون، وقال لبعض صحابة الرسول هذا ولدي، ومن هؤلاء الذين أخبرهم علي بن أبي طالب، فسأله علي: ولماذا لا تعترف بأبوته؟ فقال له، بسبب ذلك الرجل الذي يخطب على المنبر، ويعني عمر بن الخطاب !! وقد بايع زياد بن أبيه علياً أثناء خلافته، وعمل كاتباً لأبي موسى الأشعري عندما كان والياً على البصرة، وتولى بعد ذلك ولاية فارس وكرمان في خلافة علي وتزوج مرجانة، وقيل أنها كانت من بنات كسرى، وقيل غير ذلك، أنها أحدى جوارى قصره، وقيل أنها كانت غانية لأبناء الذوات في عهد كسرى يزدرج، فولدت له عبيد الله، وما أن تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة بعد صلحه مع الحسن بن علي بن أبي طالب أعلن علي الملام أن زياداً هو أخوه من أبيه !! وبعث إليه أن أقدم إلى دمشق، فبايع زياد معاوية واعترف به كبار الحاضرين من بني أمية أبناءً شرعياً لأبي سفيان وأخاً لمعاوية، فولاه البصرة وخرسان وسجستان، فصار من يومه يدعى زياد بن أبي سفيان، وما أن وصل البصرة بموكبه، وشاهد بأعينه الفسق ظاهراً من الرأس إلى أخمص القدم فيها، فخطب خطبته البتراء، وقد سميت بهذا الاسم، لأنه وعلى غير عادة الخطباء لم يسبح ويحمدل بحمد الله، فقال في خطبته:

" أما بعد، فإن الجهالة الجهلاء والضلالة العمياء والي الموفي بأهله على النار، مافيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم من الأمور، التي يشب فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير، كأنكم لم تقرؤوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته. قربتم القرابة وبعدم أهل الدين، كل امرىء منكم يذب عن سفيهه صنعه ممن لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً، ما أنتم بالحلماء وقد اتبعتم السفهاء !! حرام علي الطعام والشراب، حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً .. أني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله، لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، وإني أقسم بالله لأخذن الولي بالمولى، والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمدير، والمطيع بالعاصي، والصحيح بالسقيم، حتى يلقي الرجل منكم أخاه، فيقول: أنج سعد فقد هلك سعيد. أو تستقيم قناتكم، وأياي ودلج الليل، فإني لا أوتي بمدلج إلا سفكت دمه، وإياي ودعوى الجاهلية، فإني لا أجد داعياً بها إلا قطعت لسانه، ولقد

أحدثتم أحداثاً لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة، فمن غرق قوماً غرقناه، ومن أحرق قوماً أحرقناه، ومن نقب بيتاً نقبنا قلبه، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً، وأيم والله أن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل منكم أن يكون من صرعاي."

وحكى لي من حضر خطبته تلك من أهل البصرة اختلف عليه منظر خفه من خف جاره، فوضع في قدميه خف جاره، ومن كان يضع المسواك في فمه أخذ لشدة خوفه يضعه بين خصلات لحيته، فهو لم يهتد إلى فتحة فمه!! وحسب حنكه هو فمه، وأصفرت الوجوه حتى حاكت وجوه الموتى، ولم يقف أحد منهم وفي عروقه ذرة نخوة أو شجاعة، ليقول له، أن ما أردى البصرة وأهلها هذه الموارد من الهلكة، هم من سبقوه من ولاية الأمويين!! فهم أرادوا أن يزيلوا حب علي بن أبي طالب من قلوب البصريين، فمسحوا قلوبهم مما جاء به الإسلام من حلال وحرام!! واستبدلوه بالضلالة وحب المنكرات وما حرمه الله ونبيه، ولا حظت ما جاء في خطبته بالتذكير، أن عليهم أن ينسوا ما حدث في الجاهلية من منكرات، وقد استمع فيما يبدو لهمس الهامسين، حين وفد عليهم، وذكروا فيها أن الوالي الجديد لا والد له معروف، فهو ابن فراش سمية جارية الحارث بن كعدة الثقفي الطيب المعروف في الجزيرة العربية!! وسمي بابن أبيه، لجهل الناس لأسم أبيه، فأدعاه أبو سفيان لنفسه، وقال لأحد الطاعنين في السن، الذي قال عنه في أحد المجالس، انه مجهول الأب ولا يصلح لرئاسة ولا لولاية!! فقال أبو سفيان محتداً: "ويحك أنا أبوه!!" ومن دهاء معاوية وسياسته المداهنة أنه اعترف بأخوته لأنه كان بعد صلحه مع الحسن، كان زياد بن أبيه والياً على الشرق كاملاً: خرسان وكرمان، وكانت هذه من أغنى الولايات في ذلك الوقت، وكان بإمكانه رفض مبايعة معاوية وتجيش الجيوش والإنفاق عليها لتقضي على ملك معاوية في الشام!! وتمحو ذكره من التاريخ، ولكن زياد كان داهية أيضاً، لأنه عرف انه مجهول الأب ولا تقبل العرب أن يسوقها من كان مجهول الأب مثله، فعقد صفقته مع معاوية، أن يعترف له بأبوة أبي سفيان له، وأن لا يتغير وضعه كوالٍ في الشرق، مقابل الولاء التام لمعاوية ومبايعته واعتبار أن خلافة معاوية هي خلافته وخلافة أسرته ونسله من بعده!! وهكذا تمت الأمور.

ووردتني رسالة من الأمير سبهان الأزدي، قائد الجيوش في حلب وحمص نقل فيها سخرية خصوم معاوية من شيوخ الأمويين بتسمية زياد بن أبيه،

وربطه بنسبه والاعتراف بأخوته، وذكر في الرسالة، مقالة يزيد بن المفرغ الحميري التي سخر بها مما فعل معاوية، فقال: ألا أبلغ معاوية بن حرب مغلظة عن الرجل اليماني أتغضب أن يقال أبوك عفو وترضى أن يقول أبوك زاني؟ فأشهد أن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان. وبعد أن قرأت رسالة الأزدي استلقيت على قفائي ضاحكاً، وأنا اتخيل شكل الفيل وشكل الأتان فأزداد ضحكاً حتى أغرورقت عيني بالدموع، وكانت شهزاد قربي تقمط محمداً، فقالت أضحكنا معك يا أبا سلمان، أضحكك الله سنك!! فقرأت لها ما جاء في رسالة الأزدي، فلم تضحك، وقالت بحكمتها الفارسية، مثل هؤلاء غير الأصليين ولم يعيشوا أسوياء لحظة في حياتهم يتولون شؤون الأمة، يا هفهاف؟ هؤلاء سيقودون الأمة إلى الهلاك والفتن الدائمة، ومن سوء إلى آخر، ومن نكبة إلى نكبة، وسيختارون أختيار هذه الأمة، ليجعلوهم أمثولة لغيرهم بقتلهم وتشريدهم من غير حق، ولسبب وحيد أنهم أختيار وصالحون، فلا أظن الأيام المقبلة إلا سواداً وسوءاً ما بعده سوء، ما قرأته من من تاريخ الفرس وممالكهم القديمة، وما قادهم إلى اندثار دولتهم وسلطانهم، أراه يحدث في دولة المسلمين، فالقادم عليها أدهى وأمر، في حكم الولايات والبصرة ضمنها، ومن ساد البصرة اليوم وفي داخله كل شقاء اليتيم والحياة الدونية والاتهامات بالزنا لأمه التي عاشها زياد بن أبيه، لا أقول لك يا هفهاف لنترك البصرة ونغيرها بمصر آخر نعيش فيه بسلام، بل انتظرها منك رحمة بولدينا وحياتنا وسعادتنا.

فسألتها: هل نترك وطننا يا شهزاد؟ وماذا عن دورنا في هذه الحياة هل ننسأه؟ ونسلم أمرنا للمقادير تعبت بنا في بلاد جديدة وحكام لا نعرفهم؟ ألم يقل الله تعالى "الذين إن مكانهم في الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور" الحج 41 وقال تعالى "وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض" فهوني على نفسك يا شهزاد أن وعد الله حق، فالبصرة بصرتنا مهما فعل القادمون ومهما فسقوا فيها!! فإن الباطل أيامه معدودة وذكره خامل، فلا تبتئسي يا أم سلمان ومحمد، فاكثفت شهزاد بالنظر صوبي بنظرة ذات مغزى، وتتهدت ووضعت طفلنا الحبيب في سريره، وحركت السرير بخيط من نسيج الخوص، لكي يغفو ويغرق بأحلامه، وملائكة الرحمن تحيطه بلطفها من كل جانب، فترتسم على شفثيه أجمل الابتسامات وأسعدها على قلبي!! وبالرغم من من حر البصرة ورطوبة هوائها في المساء، ولكن في هذه الساعة من الليل هبت نسفات باردة

منعشة من نهر البصرة الكبير، فأنعشت النفوس التي أكتوت بقيظ الظهيرة،
وشمسها اللافحة، ومن بعيد كنا نسمع أصوات كلاب تنبح وهي تذود عن
مزارع القمح حالما تشعر باقتراب سرب من الخنازير البرية قادمة من
المستنقعات، وغابات القصب.

ما أن وردت لي رسالة سبهان الأزدي أمير أمراء حلب وقرأتها حتى تأكد لي أن الله يمهل ولا يهمل، فقد أمر معاوية بن أبي سفيان بسبّ أبي تراب" ويقصد علياً بن أبي طالب" على المنابر، فامتنع الصحابي سعد بن أبي وقاص عن تلبية أمره، فقال له معاوية: مامنك أن تسب أبا تراب؟

فقال : أما ما ذكرت ثلاثة قالهن رسول الله، فلن أسبه لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم. سمعت رسول الله يقول له وقد خلفه في بعض مغازيه، فقال له علي: يا رسول الله خلفتني مع النساء والصبيان، فقال له رسول الله، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدي، وسمعتة يقول يوم خيبر، لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فتناولنا لها، فقال، ادعوا لي علياً، فأتي به، وهو أرمد، فبصق في عينه ودفع الراية إليه، ففتح الله عليه، ولما نزلت هذه الآية " فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم.. " دعا رسول الله علياً وحسناً وحسيناً، فقال هؤلاء أهلي !!

وكانت من وصايا معاوية للمغيرة عندما ولاه الكوفة: " أما بعد فإن لذي الحلم قبل اليوم ما تقرر العصا، وقد أردت إيصاءك بأبياء كثيرة، فأنا تاركها اعتماداً على بصرك.. ولست تاركاً إيصاءك بخصلة لا تتحم عن شتم علي وذمه والترحم على عثمان والاستغفار له والعيب على أصحاب علي والاقصاء لهم !! بعد هذا الظلم لعلي والعدوان على شخصه وأصحابه، فقد أصيب معاوية قبل أيام قليلة بمرض "اللقوة" فأنحرف فمه في نصف وجهه الأيسر من الأعلى، وظهرت نصف أسنانه، فكان لا قدرة له على تغطيتها بنصف شفته اليسرى، ولم يعد بقدرته إغماض عينه اليسرى، فهي مفتوحة ليلاً ونهاراً، وتحول نصف وجهه الأيسر إلى لوح خشبي أصفر خال من التعابير، فلا عضلة فيه تتحرك، ولا حياة فيه !!

وقد جمع بني شيوخ بني أمية من كل مدن الشام واستضافهم في قصره، وأغدق عليهم العطايا من الجواري والأموال، وأثواب الدمسق والحريير، وقال لهم في اجتماعه بهم، بحروف ثقيلة تخرج من فمه، فلا يفهم إلا القليلون ما يقول !! وقد سألتهم مَنْ يرشحون لولاية عهده، ليخلفه على رأس الدولة الأموية؟ فاجتمع رأي الجميع على خير الأمويين وأكثرهم عقلاً وتدبيراً وتديناً " عبدالرحمن بن خالد بن الوليد" وقد رأوا كما عبر الأزدي في رسالته عن "كسرة نفس لمعاوية !! " لهذا الاختيار، فاعتقدنا أن ما سمعته لمن يخلفه، جعله يشعر بدنو الأجل، فيفوز من خلفه بما تعب من أجله وخاطر، وارتقى سلم الأعمال الرديئة التي لا يرضاها الله والجيدة التي يرضى بها المستفيدون من الدنيا ومباهجها. "

وختم رسالته بالسلام والتمني على الله تعالى أن يجعل الفرغ قريباً لأمة المسلمين على يدي خادم المسلمين عبدالرحمن بن خالد، فهو رجل لا يرضى في دين الله ما يشين، ولا ينقص من الحدود التي أمر الله بها، وسيختار اتقى المؤمنين وأكثرهم حليماً وعلماً وشجاعة لإدارة الأمصار والمداشر.

وصحت من ساعتني على أم سلمان وطلبت منها أن تقرأ رسالة سبهان، لتعرف ما فعله سبُّ علي ابن أبي طالب من أذى لمعاوية، فقد حوّل الله نصف وجه معاوية إلى لوح خشب وعلق نصف فمه الأيسر إلى الأعلى، فلا يستطيع قولاً ولا قبيلاً !! فرأيتُ في عينيها الدهشة. وأخذت تقرأ الرسالة صامتة، حتى انتهت منها، وقالت:

– اللهم لا شماتة !! وقد عرفت من شيوخ القراء أن في الحديث القدسي " أن الكثير من الأمراض جنود لله يذلُّ بها الجبابرة، ومنها تلك البعوضة الضئيلة الحجم، التي نفذت إلى تجويف أذن النمرود، فجعلت عذابه لا يطاق، فلا يكف رفيف جناحيها في تجويف أذنه إلا بالضرب على رأسه بخف ثقيل، فكان يأمر حرسه بضربه على رأسه بما ينتعلونه من صندل ثقيل حتى هلك !! وسألتني:

– أوتظن ياهفهاف أن معاوية سيسلمها لقمة سائغة إلى هذا الأموي، الذي ذكره صاحبك الحلبي ؟
فقلت وأنا موقن بما أقول:

– لا أظنه يفعل هذا، فقد عرفناه متمسكاً بكرسي الحكم، كتمسك قارون بمفاتيح كنوزه، حتى ولو خسر آخرته، وهو الخسران المبين كما تعرفين، وقد أدخل في

روعه منذ طفولته، أن محمداً نزع ملك أبيه !! وصار مكانه في عز وجاه وسعة سلطان، وترك أبيه إضحوكة بين القبائل العربية وأكثر من تهكم به من كان من بطون قريش في مكة ويثرب والطائف، فهو لا يريد أن يعاد نزع الملك عنه وعن أسرته!! وأن كان ولداه يزيد وعبدالرحمن لا يصلحان لملك بسبب تهتك الأول وسفاهته ولهوه وحمقه، وأنغمسه بكل ما يبغده عن الناس والدين، والآخراً لا همة له ولا صيت، وقد بدا للكثيرين من المقربين لبیت معاوية مصاباً بعاهة وقصور في مداركاته العقلية!! فلم يبق له سوى يزيد، الذي لا يرغب به شيوخ الأمويين ولا عامة أهل الشام، لما عرفوا عنه من سفاهة وسوء خلق، فقد تحولت قصص تهتكه والأبيات الشعرية، التي قيلت على لسانه تبرهن على مجونه، ودائرة على السنة الجميع، لذلك بدأ معاوية بالدعوة لولده يزيد بولاية العهد منذ سنة 51 هجرية!! فبعث الوفود إلى المدن الكبرى والمداشر لإقناع أكابر ووجوه هذه الأمصار بضرورة مبايعة ولي عهده يزيد!!

وصدق ظننا، بعد أيام قليلة، فقد وصلتنا رسالة من الشيخ المؤمل شيخ الجامع الكبير الدمشقي يخبرنا فيها عن مصرع الأمير عبدالرحمن بن خالد بن الوليد بالسم!! وقد اتهم أهل عبدالرحمن عدي بن أثال طبيب معاوية بتسميمه، واشتدت العداوة بين أسرته ومعاوية ومن ساند معاوية من الأمويين، وانقسم البيت الأموي، وعدد الشيخ صفات المغدور ومقدار علمه وشجاعته، وكياسته وصلاحه، وختم رسالته بقوله أن الأمة الإسلامية سائرة إلى فج عميق وفتنة كأداء وهاوية لا خروج منها، ووحده الله يعلم ما ستصير إليه الأمور، وختم رسالته بالصلاة على محمد ومن تبعه بإصلاح.

تسارعت الأحداث في البصرة، فقد أصابها منذ مطلع العام وباء الجدري مجدداً، فتجدرت الناس وماتت، وقتل المرض من بين كل عشرة ثلاثة، ما بين رجل وامرأة وطفل!! وهجرت القرى من سكانها وأغلق البعض بيوتهم عليهم، وأوصدوها بالأقفال من الداخل والخارج، فلا يدخل عليهم أحد ولا يخرج منهم إلى خارج الدار أحد، وقد أكتفوا بما خزنوه من قمح واعتمدوا على آبار البيوت في تلبية احتياجاتهم اليومية من الماء، وكانوا يخشون العدوى من أي قادم لزيارتهم من الأقارب والغرباء، فكانوا يطردونه من وراء الأبواب الموصدة، فإن لم يرجع نعتوه بأقذع العبارات وأشدّها بذاءة، طالبين منه الابتعاد عن دارهم ويخوفونه بأن بينهم مريضاً كثيراً العدوى لكل من ينفخ بوجهه، تظهر

علامات المرض دامل تحت أبطه، فإن لم يرجع جعلوه ينفخ بوجهه عن كوة في الباب ليصيبه الجدري !!

وبدا أهل المدينة يموتون على قارعة الطرق، وهم يئنون ويشخرون ويتغوطون في ثيابهم وتملى أجسادهم بالدمامل المتقيحة، وكانت الكلاب تفرس الجثث بشراهة وتنتشر المرض في المدينة، وبعض ممن لم يموتوا بعد، فكانوا يصارعونها بقدر ما يتمكنون ليمنعوها من أفتراسهم !! لكنها تنجح في النهاية بقتلهم وافتراسهم، وكانت طريققتها المؤكدة بالنجاح تبدأ بعض الضحية من مؤخر الرقبة حتى تقطعها !! فيفارق المريض الحياة بعد دقائق معدودة. وقد تحوّل نباح الكلاب المألوف إلى عواء عال يشبه عواء الذئاب و بكاء النساء المتكولات !!

وأغلقت أبواب أووين الحكومة وبينها أيوان القضاء، والمال، والعشر، ومنع الناس من ارتيادها، لقضاء حاجاتهم وتسوية قضاياهم، وحتى قاضي قضاة البصرة عبدالرحمن بن أدينة غادر المدينة إلى مكان منعزل بالصحراء مع زوجاته الثلاث وأبنائه العشرة، ومعه ركائب الحكومة والحرس والخدم، فتوقف التقاضي بين الناس واحترأ الأحياء بتقسيم إرث الهالكين !! فقد كثرت الأملاك التي لا وريث لها لأن كل من ينتمون لجدوع تلك الأسر هلكوا مع الهالكين، ولم يطمع أحد بما تركوا فقد كان هم الجميع النجاة من هذا البلاء الذي لم ينجوا منه سوى حلبي الأبقار والجاموس من الرجال والنساء !! وصاروا هم من يعول عليهم بتغسيل الموتى ودفنهم، من دون أن ينال منهم المرض، ففرضت على جميع من يعمل في مزارعنا أن يبادر بتعلم حلب الأبقار والجواميس وتعليم الأطفال لتدارك خطر هذا المرض القاتل، الذي لم يبق ولم يذر !! وقد فرضنا حين يزول هذا البلاء على كل وليد ذكراً كان أو أنثى أن يتدرب على حلب الأبقار والجواميس لكي يكون ذلك سبباً في نجاتهم من هذا المرض إذا عاد من جديد ليقتل الأحياء ويفرق الأحياء في الصحاري والمستنقعات المعزولة، الخالية من البشر. استمر الداء اللعين في المدينة ثلاثة شهور، فأفناها عن بكرة أبيها، وقضى على معظم أهلها، وبقيت رممهم في دورهم تفتك بها الضباع والكلاب والديدان والذباب الأصفر المتوحش، وتضخمت كل ذبابة من هذه الذباب فصارت بحجم الحمصة فهي تأكل من لحوم الضحايا بشراهة أضعاف وزنها، ولا يستطيع حي أن يدفعها على ترك الرمم والمغادرة مهما حاول من طرق لطردها، بالدخان ومشاعل النار، وذكرنا هذا البلاء بوباء جستنيان الذي حل في

خرسان قبل ولادة الرسول محمد بمئة سنة وأصاب الأمبراطورية الساسانية، وكل سواحل البحر، وما حولها وكان للأخماس النصيب الوافر، وقد بدأ بالامبراطورية البيزنطية وأبلى في عاصمتها القسطنطينية ما لا يوصف من الموت، فوصفه أحد مؤرخي روما قائلاً " أنك إن سرت في شوارعها فلا تستطيع المرور لكثرة الجثث المرمية على قارعة الطريق، فقد حملت السفن التجارية حاملة المرض المميت لكل مدينة ترسو فيها هذه السفن !!

وبعد الشهور الثلاثة السوداء بدأ المرض ينحسر ويختفي من المدينة، وبدأ البشر يظهر في الشوارع والدروب وقد بدأ على أجسادهم النحول وعلى وجوههم الصفراء تجاعيد الشيوخوخة وعلى عيونهم الزيغ وهم يسألون بعضهم البعض عن هلك أو من لا يزال على قيد الحياة !!

وبذل الخيرون من أهل البصرة جهودهم بمساعدة حلابي الأبقار والحلابات على طمر رمم الميتين في حفرة عميقة خارج المدينة، ومن تبقى من أيتامهم وزوعوهم بين الأحياء، فكانت حصتنا مائة وخمسين طفلاً وطفلة، وزعناهم على البيوت لتتم رعايتهم، وجمع الأغنياء أموال زكاتهم لمساعدة من توقف عن عمله طوال فترة انتشار الوباء، وبدأت الطيور التي غادرت المدينة وقت شدة الوباء بالعودة إلى أعشاش جديدة أقامتها بين مراوح النخيل وأشجار السدر والنبق والبمبر، وسبحان الله وكان تلك الطيور علمت بحلول الوباء، وموعد إنصرافه عن المدينة لتعود مجدداً إليها تاركة أعشاشها القديمة مهجورة !!

20 ذو العقدة 49 هجرية
"الأعراب أشدُّ كُفراً ونفاقاً"
"قرآن كريم"
مسعود الأعمشي

منذ سبع سنوات وسيدي الهفهاف يرتب أمور القراء، من الشيوخ والشباب، ويطلب منهم في أوقات فراغهم من الاستزادة من الدرس بتعلم القرآن وفهم تأويله، ومعرفة الحدود الشرعية فيه، وأهتم بمن عتق من العبودية، والصبيان من أبناء الفلاحين، وطلب منهم أن يتدربوا على السلاح للدفاع عن أنفسهم، عندما يباغتهم اللصوص، الذين انتشروا في هذه الأيام في كل مكان من البصرة، وصار من المؤكد لجميع من سكنوا البصرة أن الأمويين يهدفون إلى خلق هذه الفوضى في المدينة منذ سنوات!! لكي لا تجتمع كلمة الناس على نبذهم، وألهاهم بالدفاع عن حياتهم، وما يملكون من متاع وأموال، فلا يفكرون بأمور السياسة والحكم، والله يحق الحق قريباً، ويرفع عن مخلوقاته الظلم، ويمحق الظالمين!!

وضعت سيدتي شهناز كل وقتها وطاقتها في الشهور الماضية بالأشراف على إعداد وجبات الطعام، للدارسين والقراء، والعاملين في الأراضي، مع نساء الفلاحين ورعاية الأطفال وتلبية حاجات من يستغيث بها من أهل البصرة، ومع الأيام كان حملها الجديد يرهقها!! لكنها قالت لأختها شهنازاد "كلما أتذكر فرح الهفهاف بالحمل الجديد هانت على الأم الحمل ومتاعب الأشتغال مع زوجات الفلاحين والقراء لتهوين مصاعب الحياة عليهم!!" تساعدها في كل ذلك أختها شهنازاد وشيرزاد أما سلمان، الذي بدا لنا أكبر من سنه، فقد فرض عليه حبه للتدريب على ركوب الخيل، واللعب بالسيف والرمح والتنشيين بالنشاب، فكان يصيب هدفه عن بعد. ويتقرب لي بهدايا من فخار مملوء برطب البرني، القليل الحلاوة، لكي أعلمه المزيد من حيل الفروسية!! وجهد نفسه بالاستزادة من تعلم تفسير سور القرآن، وما روي عن رسول الله من حديث وحكم ومواعظ، وأحداث عاشها الرسول منذ طفولته حتى بلوغه الأربعين،

ونزول جبريل عليه في غار حراء، وبعثه الله رسولاً للناس، فلم تصدقه العُربان وحاربتة حتى نصره الله على المشركين منهم، فأسلموا والسيف فوق رقابهم، ولكن بقيت قلوبهم مريضة يتحिनون الفرص لإعادة الشرك إلى باديتهم يساندتهم في ذلك الآلاف من المنافقين، وقد استطاع الرسول بعد فتح مكة أن يغير قناعات أكثر من ألف من منافقي المدينة، وجعلهم مؤمنين صادقين في إيمانهم، ولكن بقي الآلاف من المنافقين غيرهم لم يتح الزمن الكافي للرسول لتغيير قناعاتهم، وانتقل إلى جوار ربه، وبقي هؤلاء العُربان على نفاقهم يراؤون ويمنعون الحق، ويناصرون الباطل عليه، يهدفون إلى أطفاء نور الله وأعادة ما كان في زمن الوثنية إلى سابق عهده.

سمعتة يقول لوالده عندما ورد خبر تسميم الحسن بن علي ابن أبي طالب في يثرب، ومفارقته الحياة بتدبير من الأمويين، بعد أن وعد معاوية زوجة الحسن بثقل وزنها ذهباً إن فعلت ذلك بالحسن وتزويجها من ابنه يزيد!! فدست له السم وأسلم الروح بعد يومين، وأبى قبل أن يوافيه الأجل على أخوته وبني هاشم أن يتهموا أحداً بقتله!! لئلا تقع الفتنة بين الناس وتراق الدماء، قال سلمان منتصباً بطوله أمام أبيه، وكلماته الغاضبة:

— سأخذ بثأره من قاتليه يا والدي!!

فذكر له الهفهاف، أن الحسن ليس أول أو آخر ضحايا الأمويين!! بل هناك كثيرون، كمالك الأشتر النخعي، الذي تناول العسل المسموم من يد الخانसार، متولي الخراج في إحدى قرى مصر بتدبير من معاوية وعمر بن العاص، فقال معاوية عقب وصول خبر مصرع الأشتر: أن لله جنوداً من عسل!!

وفي قائمة ضحايا الأمويين غيره يا ولدي: هموم كثيرة يا سلمان أمض لأصحابك لتلعب وتلهو وتمرح، فانطلق سلمان إلى أصحابه!!

كلما نظرت إلى سيدي الهفهاف لمحت خصلة جديدة من شعر رأسه الأسود تتحول إلى البياض!! عرفت أن السنوات تمضي بسرعة!! وأن سيدي يتفاعل مع ما يحدث في البصرة، وتمر عليه أيام وأسابيع وشهور من دون أن يمسك قصبه الخط أو يقرب دواة الحبر، ليخط كلمة عما يدور حوله من وقائع الدهر في تاريخ العُربان أو يصف كيف نعيش وسط كل هذه الفوضى والمصائب، لكنه يطلب من زوجه أن تكتب ما يحدث لنا من حوادث، وما يردنا من أخبار أهل البصرة، والفظائع التي تحدث بعد وقوعها بعد أن صارت البصرة تحت رحمة العُربان ولصوص المستنقعات، فصار الناس لا يأمنون على أرواحهم وأموالهم

إلا إذا كانوا برفقة من يحرسهم، وعندما لا تجد سيدتي الوقت الكافي للكتابة في البرجمان الضخم، لأنشغالها بوليدها الجديد محمد!! فتعهد بأمر الكتابة لي، فسهنازاد لم تنجب لنا سوى شيرين، التي صارت شابة وبدت للجميع وردة زاهية، جمعت جمال أهل البصرة وخرسان، فكنت لا يطيبُ يومي إلا بمرافقتها إلى البستان لنقطف الرمان الناضج، أو لنرقب عملية تلقيح نخيل البرني. وكنت أفخر بجمالها الآخاذ، وأقول لشيرزاد أخت زوجتي متسائلاً: مَنْ هي بجمال ابنتي شيرين!! فتقول شيرزاد مناكفة: ابنتي سمية هي الأجل والأكثر رقة ودلالاً، ألا ترى أنها تسكب الدمع لمراى الجراء الصغيرة المجتمعات حول أمهن ليرضعن، فمن بربك برقتها ولطفها ودمائة أخلاقها؟ - تقول كل ذلك بالفارسية، فهي لا تزال لا تجيد العربية إجابة تامة، وإذا تحدثت بالعربية أضحكت عليها كل من يسمعها، ممن يجيدون الحديث بالعربية وأولى الضاحكات عليها أختها شهنازاد التي تجيد العربية والفارسية واللاتينية، وقد حرمت من التعلم في الطفولة، لأنها أظهرت بلادة في التعلم ولكنها أظهرت مهارات كثيرة في أعمال البيت!! فلم يكلفها أبوها فوق طاقتها وتركها لما جبلت عليه من مواهب بيتية كما حكى لي زوجتي عن أختها بعد زواجنا - !! ولأترك مناكفات ومناكفات شيرزاد وزوجها جاشميد، الذي لا يزال لا يعرف من اللغة العربية سوى كلمات قليلة أيضاً، فأحير عندما أحدثه بأمر أو أطلب منه حاجة أثناء عملنا في إصلاح الأرض أو تدبير شؤون القراء وشيوخهم أو حضور جنازة أحد الميتين ممن يعملون معنا أو في حفلة قران أحد الشباب.

أما سلمان ابن سيدي الهفاهف، فهو لا يهمنه شيء في هذا الوجود غير الاعتناء بالخيول وركوبها، وقد سمعت أستاذة الشيخ المقرني يحدثه مع أحد أتراه عن الخيول العربية متفاخراً، فذكر له أن أول فرس في الجزيرة، وقد كانت مهرة كحيلة العينيين اقتناها النبي إسماعيل جد رسولنا محمد، واستطاع أن يصطادها في منطقة النفوذ الكبرى، وقام بترويضها وتوجيهها، وقد كانت مهرة متوحشة لا تطيق شيئاً حياً يتحرك قريباً منها!! وقد أطلق عليها اسم كحيلة العجوز، بسبب سواد جفون عينيها، وتساءل صاحب سلمان: هل هذا حق؟ فقال الشيخ الذي أحنث ثمانون سنة من عمره ظهره: أي والله أنه لحق يا ولدي!! وكان الشيخ المقرني كما روى عنه عمي المهند يرحمه الله من فرسان العرب المعروفين بشجاعتهم، وكثرة الغارات التي شارك فيها قبل الإسلام على القبائل المعادية لقبيلته!! وقد نذر نفسه بعد أن جاء الإسلام

واهتدى إلى طريق الإيمان تعليم الصبيان القرآن الكريم وركوب الخيل والعناية بها !!

فقلت في نفسي هذا الولد سر أبيه حقاً، وكأني أرى أباه صبيّاً يجادل أباه المهند يرحمه الله عن عدد السلالات الأصيلّة المتبقية في الجزيرة من الخيول، فيجيبه:

— أنها عشرون سلالة يا ولدي، وأكثر من ثمانين سلالة مولدة، وكلها سلالات تنحدر عن الكحيلان والصقلاوي والمعتاقي !!
ويسأله:

— وأيها يُعتمد عليها في الحرب؟
فيجيب:

— الصقلاوي والمعتاقي، هي السلالات التي يعتمد عليها في سوح الحرب، لأنها خفيفة وتناور بمهارة وسرعة وصبرها على التعب والظماً لا حد له !! كما أن وفاءها لفارسها لا مثيل له، فهي تموت دونه إن شعرت ما يهدده من مخاطر تمرُّ بسيدي الهفهاف أوقات يكره فيها الكتابة والتدوين، فيوصيني بتدوين ما يمرُّ بنا من حوادث، وما نسمعه من أخبار، وأنا مقصر في نقل الكثير من الأحداث، فلا أمسك ريشة الكتابة وأضع الدواة قربي إلا حين أكون في أحسن حال، وقد بدأ الكبر علي وضعف بصري، وأمراض كثيرة أخذت تنهش بدني، فلا تترك لي مجالاً للتفكير أو الكتابة، وسيدي الهفهاف يرغب أن يخلف ذكر ما عشناه لأولادنا من بعدنا، لأنه يعتقد أن الأمة مقبلة على أمر عظيم بعد أن أخذ فقهاء الزور من عبيد الدينار والدرهم يزينون للناس حكم الأمويين ويدبجون الأحاديث الكاذبة، وينسبونها إلى نبينا محمد وقد ذكروا مؤخراً في مساجد البصرة أفكاً جديداً، نسبوه إلى نبينا محمد، حاشاه من ذلك الهذر السقيم، فقد قال أمام جامع الإمارة البصرية المعتمد من خليفة المسلمين في دمشق، أن الخلفاء بعد الرسول يحكمون ثلاثين سنة، ومجموع عدد سنوات هؤلاء الخلفاء، كالآتي، أبو بكر حكم سنتين وخلافة عمر عشرًا وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة، وخلافة علي ستًا، ومجموع سنوات حكمهم ثلاثون سنة، وبعدها يتحول الحكم إلى مُلك، وهذا يعني ان معاوية ينوي الترتيب لتحويل حكم الخلافة في الأمة إلى مُلك عضوض له ولمن يأتي بعده من أولاده وأحفاده !!

وهذه كما قال سيدي الهفهاف ما أن سمع بهذه الفرية الأموية أن الأمة مقدمة على تحول خطير سيضعها بين طريقين، أحدهما طريق حق والآخر طريق

زلق، يقود إلى الظلم والآثرة وسفك الدماء بغير حق، وسنتعرض جميعاً للاختيار، فمن اختار طريق الحق نجا بآخرته ودنياه ومن اختار الطريق الآخر هلك في دنياه وآخرته !!

أمورنا هذه السنة والله الحمد جيدة، وما نسوقه من خيرات بساتيننا لتجار المدينة والقرى والمداشر ولأصحاب الأبوام الخشبية والسفن الكبيرة الراسية، التي تسير بين الهند والسند يكفي ويزيد وجميع الزارعين يلهجون بالدعاء لسيدي الهفهاف، وأسرته بطول العمر، أما أعمام وأولاد عمومة سيدي، الذين مالوا كل الميل لزياد والي البصرة، فهم مريبون في كل أمر يتخذونه !! وسيدي الهفهاف واع لهم ولأفعالهم الرديئة، وأغلب أولادهم قد تطوعوا في جيوش بني أمية بسبب الجرايات المرتفعة، التي تعطى لكل مجند شهرياً، وما يناله كل واحد من نصيب السلب والنهب من الأمم التي يتم فتحها أو تلك التي تقف بوجه الأمويين، ولا تدين لهم بالولاء !! وكانت كل معركة ينتصر فيها جيش الأمويين تعلقو الزغاريد وتندق الطبول وتعم الأفراح في مرابض قبائل الأعامشة من دون أن يطلبوا الذن من سيدي الهفهاف شيخهم، وموجه قبائلهم، وقسم كبير من أولاد الأعامشة عملوا في شرطة الوالي، وصاروا عيوناً للأمويين في السبابة والأبلة والبصرة، وكانوا أكثر عيون الأمويين فجاجة ووقاحة وظلماً وكيداً لكل من عاداهم أو انتقص منهم، وكانوا فاقدوا الأمانة والذمم فلا تستطيع أن تأمنهم على قبضة شعير، فهم سيسرقونها دون أن يرف لهم جفن، ويتهمونك بسرقتهم ويأتون بالدليل عليك من بينهم وبطانتهم والشهود الزور، فلا تسلم من العقاب، ولذلك تفضل أن تقدم شكواك إلى الله تعالى وتفوض أمرك إليه، ولا يحفظ هؤلاء العُربان شرف جيرة تستأمنهم عليها !! ولا على حرة كريمة، فهم يزنون بها مهما حاولت أن تصون نفسها منهم، فإن لم يكن برضاها فاغتصاباً، وفضحها بعد ذلك بالزنا بالشهود، وإظهار الدلائل ضدها ولا يهدأ لهم بال حتى يوقع بها الوالي عقاب الحد، رمياً بالحجارة حتى الموت !! وقائلهم يقول تتعفف والله خلقها لهذا الفعل وحده دون غيره !! قاتلهم الله من عُربان باعوا آخرتهم بدنياهم، ولعنوا في الدنيا والآخرة لعناً كبيراً متواصلاً إلى يوم القيامة !!

ما أن وضع الوراقون من أهل الألسنة الفارسية الترجمة بالبصرة لبرجمان الأمبراطور الروماني السادس عشر "ماركوس أوريليوس" الذي ملك العالم في 270 قبل ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام، وباللسان الفارسي والعربي، حتى وصلني البرجمان المترجم مع ما وضع بهاتين اللغتين من جواهر القول والحكم من قبل عيسى بن هيلان تاجر الوراقين في سوق الميناء بالبصرة.

كان البرجمان الروماني بعنوان "إلى نفسي" باللسان الرومي، وباللسان العربي جاء العنوان "بيني وبين نفسي"، فاعتزلت الناس والعائلة في سقيفة تطل على الشط الكبير، الذي يفتح على بحر العرب الكبير، صوب دلمون وما يجاورها من جزر وأراضٍ صحراوية شاسعة، ولا شيء عندي أنشغل به غير قراءة هذا البرجمان، الذي تحدث فيه الأمبراطور عن نفسه وزمانه، وما آمن به، وما لقيه في حياته من معجزات لا يمكن إرجاعها إلى قوة غير قدرة تفوق قدرة البشر !!

شدتني صفحات عذابه وشكه بأمراته "أخوليات" التي كانت جميلة الجميلات، وأكثرهن رقة ودلالاً بين بني جنسها، فقد كان يظن بها الظنون !! لكنه لم يرَ في يوم من الأيام في سلوكها ما يشين، وربما شدة حبه لها، ومشاعره الطافحة بغرائز الامتلاك، هي ما كنت تفجر داخله كل مشاعر الشك والغيرة عليها !! فقد كان يغار حتى من الماء الذي تستحم فيه ويلامس جسدها والهواء الذي تتنفسه، ونظرات الخدم في القصر لمفاتها، وانتشار عطرها في ممرات القصر وغرفه !!

ويستمع لوشايات نساء قادة جيوشه، وهن من فرط غيرتهن من جمال "أخوليات" ورقة مشاعرها وحب الأمبراطور لها، يؤلفن حولها قصصاً كاذبة عن مغامرات عاطفية مع ضباط حراس القصر، ومدبري حمايته من كبار حماة العرش الروماني !! وكان وحده الملام في انتشار هذه الإشاعات، لتنتقله بين

مخدع امرأة إلى أخرى، ابتداء من زوجات قادة جنده، إلى حكام ولاياته وخادمت القصر ووصيفات الأباطورة!!

صفحات أخرى كتبها هذا الأمبراطور المخدول كنادم كبير، لم يطق فسقه وجوره!! لأنه أمر بأزهاق أرواح كثيرة بلا سبب حقيقي سوى أنه يريد إرساء هيبة الحكم الروماني في نفوس رعيته، وروى كيف أنه في العادة يختار ذوي العقول النيرة لأعمال شتى لا تناسب قدراتهم، لكي يفتنهم ويمنع أي فرصة لتهديد حكمه في المستقبل من قبلهم، وفي كل صفحة من ذلك البرجمان يبدي الأمبراطور ندمه على ما فعل!! لكنه في الصفحات التالية روى كيف استطاع أن يحكم الأمبرطورية المترامية الأطراف بالخداع والكذب وإشاعة حفلات صراع الأسود مع العبيد لكي يمتص نقمة الشعب على حكمه وظلمه، من خلال رؤيتهم لمصائر العبيد المأساوية، والأسود تفترسهم أمام أنظارهم، وحين تشح الأسود والنمور، يطلب من عماله أن يجعلوا العبيد مجموعتين، ليقتتلا حتى الموت أمام الجمهور!! وبذلك فقد أشغل الرعية عن قتال بعضهم البعض في حروب أهلية، بتضحيته بالعبيد، الذين يتم إرسالهم مكبلين من مختلف الولايات والبلدان التي يحكمها الرومان، ليقدموا كقرابين في تلك المباريات الدموية، ومرّ بخاطري ما فعله الأمويون بالقبائل اليمنية والقيسية من العرب!! وكيف جعلوهم يقتتلون بينهم لأجل أسباب واهية، ولمجرد إثبات أي أكثرهم ولاء لهم!!

فقلت في نفسي هذه المذابح لليمنية والقيسية، هي ذات تلك المباريات الدامية بين عبيد روما التي اقترحها الأمبراطور الروماني الظالم. وواصلت القراءة في البرجمان، فعرفت أن الأمبراطور وضع وصية لمن يخلفه، من الحكام الرومان أن يبنوا وسط روما بنياناً ضخماً في المكان الذي تجرى فيه المباريات، ليبقى رمزاً شامخاً يعبر عن سيادة روما وقوتها وازدهارها!! ووضع من نقل البرجمان بلغته اللاتينية إلى عدة أسن منها اللسان الفارسي، والهندي، ومما عرفته بعد قراءة الكثير من المخطوطات القديمة، أن خلفاء الأمبراطور ماركوس بنوا بداية 72 ميلادية، بناية ضخمة تقبع خلف سور ضخم فيه طبقات للجلوس تخص العامة، وأهل الجاه ومن كان في أعلى مراتب الدولة. البناء العجيب ذاك، أطلقوا عليه اسم "كولوسيوم" في مركز روما قبلة الشرق والغرب ومركز الحكم الروماني، وأكملوا بناءه في سنة 80 ميلادية، تنفيذاً

لوصية الأمبراطور، كما وردت فيه، لمواصلة تشجيع مباريات القتل بين العبيد أمام أنظار الشعب الروماني!!

تأملت طويلاً ما ورد في هذه الصحيفة من البرجمان، وعرفت أهمية أن تترك شيئاً مكتوباً لمن يأتي بعدك!! سيرشده إلى عمل الشر أو الخير، فعظم في نفسي حب التدوين في البرجمان، الذي اعتمده لسيرتي ووقائع الدهر في تاريخ العُربان منذ بواكير شبابي، لتسجيل كل صغيرة وكبيرة مما أعيشه كل حول، ومن يعيش من حولي، فلا تدري أي حادثة سترونها ستكون لمن بعدك سبباً في نجاتك في الآخرة، وتنال عنها أجراً عظيماً غب موت جسدك، وارتفاع نفسك إلى الله تعالى!! والحقيقة أن برجمان هذا الأمبراطور كان مميزاً، لأنه تحدث فيه عن أمور كثيرة، وروى فيه حكايات جمّة عن حياته، كإنسان عاش تقلبات الحياة السياسية خيرها وشرها، وما دار في قصره ابتداءً من مناكبات زوجته، وغيرها عليه من وصيفاتها!! وما وقع للملكة فيه من حماقات وخروجاً على المألوف من العادات الأمبراطورية، الملكة المتوّجة أمام جميع الرومان كملكة لهم، ولبقية الرعية في العالم، ولكن القيمة الروحية لهذا البرجمان كانت أقل بكثير، من برجمان آخر قرأته في العام الماضي وحولته إلى قصيدة شعرية بقيت حبيسة أوراقي، ولم أذعها على أحد، وامتنعت عن إرسالها لحافظي شعري ورواته من الوراقين وأهل الأدب، ولم أطلب نسخة منسوخة من عطاري النسخ والخط والتوشية في سوق الجمعة بالأبلة، لأنّ ما كتبه يحتاج إلى الكثير من الإعادة والتصويب!! وأن أمدّ الله في عمري سأكمل في يوم ما تصويبه وعرضه على الحافظين في الولاية.

البرجمان السابق الذي قرأته كتبه الحكيم المسيحي، الأسقف "أوريليوس أوغسطين" عن سيرته التي عاشها بين سنتي 345 - 430 ميلادية، قبل مولد الرسول محمد بمئتين وخمسين سنة!! وكانت قد تحولت روما قبل ولادته بمئتي سنة من الوثنية إلى الديانة المسيحية، وكان عنوان برجمانه "اعتراف" تحدث فيه عن طفولته وعائلته، وعن مرحلة عاطفية مرت به في شبابه المبكر، وصف فيها مدرسته التي تعلم فيها، وذكر فيها أساتذته، والعلوم التي درسها، ففصل تلك العلوم، وذكر فوائدها، وأجمل ما حكى عن نفسه، ما ذكره عن هواياته في ذلك الزمن البعيد!! وكيف كان يستمتع خلالها بالهواء الطلق، وخضرة الربيع، وجمال الطبيعة، وأنواع الأطعمة التي يتناولها

بعد أن يعود جائعاً ومتعباً، بعد أن يمارس كل هواية، وما يلقاه من والده ووالدته من الرعاية والمحبة.

وكتب بالتفصيل ما يُذكر حول مائدة الطعام من حكايات الخدم والجيران!! والوضع السياسي في روما، ومصير المسيحية كدين وسط التردّي الأخلاقي وخصوصاً تردّي أخلاق الأساقفة!! واستخدامهم الدين من أجل أغراض دنيوية، وأطلق عليهم اسم "السفلة" وعرفهم بأنهم من استخدم الدين لأغراض سياسية وتجارية وحكي كيف تحوّلت المسيحية من دين إلى وسيلة حكم، مستبد وظالم، للناس بأسم الدين وشرائعه!!

هذا البرجمان الفريد الذي حصلت عليه من تاجر نصراني، بعد أن نُقل من لسانه اللاتيني إلى اللسان الفارسي، ومنعته حكومات الرومان المختلفة واعتبرته من الكتب المجدفة بالمسيحية!! واعتبرت كاتبه مارقاً على المسيحية، وطلبت من الرهبان والأساقفة حرقه أينما وجدوه ومعاقبة مقتنيه، بسبب فضحه للحكومات الرومانية، واقتراف تلك الحكومات المفسد باسم المسيحية!!

ويبدو أن الدول الظالمة وإلى عهد الأمويين بالمرصاد لكل من يجرؤ على البوح بالحقائق والتشكيك بنهج الحاكمين الظالمين!! واعتباره من المفتتين للأمة والسبب في بذر الشقاق في صفوفها. وعرفت من صفحات السيرة أن الدين والدولة أي دين وأي دولة لا يمكن أن يتوافقا!! ولا يستطيع أي منهما أن يقوم مقام الآخر أو يحكم البشر بنفسه، فاللدولة ما للدولة وللدين ما للدين!!

وتذكرت عندها حاجة اليهود لسيدنا المسيح حين أرادوا استعلاء سلطة الرومان في أورشليم ضده، فسألوه عن رأي شريعته الجديدة بالضرائب التي يجتبيها الرومان من أهل أورشليم، فقال لهم " ما لله وما لقيصر لقيصر!!".

لقد أراد سيدنا عيسى أن يقول أن الدولة وشؤونها، هي غير الدين وشؤونه، فالدولة في واديهما، الذي تحكمه قوانين السير الدنيوية، والدين لبني البشر، يمارسونه كيفما أَرْضَى اللهُ!! وكل الذي يفعلونه هي لمدِّ حبال الوصل بينهم وبين خالقهم، دون وصاية دولة عليهم في هذا الأمر، وكذلك من دون أن يتوصوا هم على الدولة وشؤونها التنظيمية، فاللدولة من يسوسها بكفاءة وعلم وحكمة وقدرة ونزاهة، فهي للأمر المحسوسة والملموسة، التي تحقق العدل

والآمان لرعيتهما، والدين يتطلب النية الصالحة، ومعرفة الله واتباع سبيله،
والمؤمن يبني علاقته بالله قبل أي علاقة أخرى في كل تصرف يتصرفه أو شأن
يقوم به، وفكرت أن كتابة البرجمان الشخصي لكل من له رأي وعقيدة ووجهة
نظر وعلم من بني البشر من أفضل ما نترك من إرث لمن يأتي من بعدنا، من
أجل تراكم المعرفة !!

ومن استطاع فعل هذا الأمر، وترك شهادته عما عاشه ويعيشه من عاصروه
من ملوك وقادة وعلماء وأهل رأي، فقد ترك بصمته في رمل الصحراء، التي
تعلم أهلها النقل الشفهي، فضاعت على الأبناء والأحفاد حقائق، وسبل حل
لمشاكل عانى منها الأجداد قبل الأحفاد، ولن تزول بصمته مادام البرجمان
نابضاً بالحياة من خلال كلماته، وبيانه، فهو يدور من يد إلى يد ومن لسان إلى
آخر، ومن مكان في العالم الواسع إلى آخر، ومن دهر لدهر ومن مدينة إلى
أخرى، وسبحان الله الذي علم الإنسان بالقلم ما لم يعلم !!

تحدث "أوغسطين" في برجمانه الفريد عن حياته الروحية، ووضح كيف
اهتدى إلى الإيمان، وفيما كتب عبرة لكل من قرأ البرجمان، وقد ذكر الكثير،
مما يتوراد لبني البشر من أفكار، وهو اجس تبعد بني آدم عما جبله الله عليه،
من خير وحياة طيبة !!

شيرين وسلمان

15 ذو الحجة 53 هجرية – 21 اسفندار ماه 42 سنة جلالية
"الوردة وعد بثمره والثمره وعد ببذرة طيبة"

شهنزاد سفندياري

كلما مرّت السنوات على سلمان ازداد ولعه بكل خطير من الأفعال، فمن ركوب الخيل وأداء الألعاب البهلوانية، التي يؤديها على ظهور الخيل، خصوصاً وهو يرمح على فرسه الهدبان أو مهرته الحمدانية، وكنت كلما رأيته في سباق مع أترابه من الأعامشة شعرت بقلبي يتوقف عن النبض، فأمره بالتوقف عن ذلك فيتوقف، لفترة حتى يغافلني ويعود إلى هذا الأمر، وفي مرات كثيرة يستغل أنشغالي بأخيه الصغير محمد، فيغادر القصر متوجهاً إلى الحماد حيث بيوت الأعامشة في منطقة الكسرة، فيخرج إلى هناك وهي فلاة شاسعة، ليس فيها إلا شجيرات الأثل الواطنة، ولأنني أحبس عنه فرسه الصقلاوي، فهو يعمد إلى التسلل إلى الخلاء بفرس أقل أصالة من الدهمان أو أبو عرقوب أو على فرس المعناقي.

وأشد ما كدرني وأخافني دخوله البحر مع ثلة من أصحابه في مركب صغير متهاك في يوم عاصف أدركتهم فيه أهوال وأهوال لم يكادوا يسلموا منها لولا

رحمة الله، ودعائي ودعاء والده، ولا اعرف من أين أتى هذا الولد بكل هذا التمرد والهيجان والبحث عن كل وسيلة ممكنة لكي يخيفني ووالده، ولكن لم يكن كل ما يفعله سلمان يخيفني، ويجعلني ارتجف من أخصص قدمي حتى قمة رأسي، فقد كان يمر بأوقات يصير فيها رقيقاً، حالماً يأخذ بكف ابنة خالته شيرين ويذهب بها إلى البستان الكبير عند النهر، وقد سبق وأن عقدنا مهرهما، وصارت امرأته، لكنه لم يدخل بها وكنا ننتظر أن ينضجا ويصيروا مؤهلين ليعيشا كزوجين صالحين، حسبما رأى سيدي الهفهاف، وحين سألته: "لماذا طلبت أن نعقد نكاحهما، وهما لا يزالان صغيران في السن؟ فقال: يا شهنازاد هما في بواكير شبابهما، وأخاف أن يزلهما الشيطان، فيقعا بالمعصية، فإن فعلا شيئاً يغضبنا فلا أريدهما أن يغضبا الله !!

كان يسعدني أن أرى وجنتي الجميلة شيرين يتوردان حين يستعجلها سلمان للجلوس معه تحت شجرة النبق المتدللية الأغصان في مجرى النهر، وأشاهدها وهي تمشي على استحياء متعثرة بثوبها الطويل، الموشى بتطريزات الورود والطيور، فأرى في وجهها الناصع البياض الموشى بحمرة خفيفة، وفي عينيها الخضراوتين، فرح الأنوثة حين تكون محبوبة ومفضلة من ذكر معين تهواه، ويميل فؤادها إليه !! وألمح في وجهها شبهاً مستوراً لا يتبين بسهولة بأختي سهنازاد في بواكير شبابهما.

راقبتهما مرة تحت شجرة النبق الضخمة، المستكينة عند فرع نهر كارون سريع الجريان، والمياه تحمل معها من جبال فارس الأشجار الغضة المقتلعة والزهور والأعشاب والطحالب، وفوق كل تلك الطافيات استقرت أسراب النوارس البيض، مستمتعة بذلك المسير السريع الهادئ تحت أشعة الشمس الذهبية !! وسمعت شيرين تعاتب سلمان، عن مطاردته لفتيات من قبيلة الأعامشة، الطامعات بماله وجاه أبيه الهفهاف.

فقهقه ضاحكاً، وأخذ يسخر منها، فبدت لي حزينة ودموعها تهمل من عينيها، فعمد سلمان إلى مسح دموعها بكفيه، واصفاً دموعها بالألء الغالية عليه، والتي تسكبها جزافاً على تراب الجرف، وشاهدته وهو يحاول استرضائها، وإضحاكها، فلانت وهدأت بعد فترة، فتوسد حضنها فغطت وجهه بشعرها الطويل بعد أن أزاحت منديل رأسها الكشميري قليلاً عن جبهتها، فقلت في قلبي حسناً فعل الهفهاف حين عقدهما بعقد النكاح !! وأراحنا من عبثهما وطيشهما، وشعرت بالفرح يملأ روحي، فقد أفرحني بلوغ ولدي سلمان مبلغ

الرجال، فخط شاربه واعتدلت قامته، ونما جسده، وهو الآن يجرب العيش مثل ذلك الطائر الذي يجرب الطيران لأول مرة، مبارك لك يا ولدي في فرحك وصبرك على الأتي القريب من تقلبات الحياة، وكثرة مخاطرها !!

أنا والهفهام نقول ذلك أيضاً حين يضمننا المضجع، بالنظرات ومن دون أن نتكلم كلمة واحدة، فأحوال أهل البصرة مع الأمويين لا تبشر بخير، فمجازرهم لمن يعارضهم لا تنتهي، فقبل أيام قليلة وجد الفلاحون على الطريق إلى أطراف أرضنا مقبرة كبيرة لرؤوس تم دفنها قبل فترة قصيرة، وجميعها رؤوس رجال تم جزها من الأبدان ودفنها وحدها بغفلة عن الناس تحت جناح الظلام وخبنا أنهم كانوا من المعارضين لحكمهم، وقد فعلوا هذا الفعل الشنيع من قطع رؤوس أربعائة معارض لبني أمية وتفريقها عن الأجساد لنلا يهتدي أهل المقتولين إلى معرفة أولادهم من بين الأجساد المجنوزة الرؤوس الملقاة في كناسة المدينة.

وليس هذا وحده فقد ابتدع الأمويون لتعذيب معارضيهما ما يقشعر منه البدن من صنوف العذاب والإذلال ما لا يوصف ولا يذكر، وفرضوا على بقية الرعية ضرائب عديدة، وما أن هلك زياد بن أبيه بعد أن قرصته بعوضة في طرف أنفه، فتحولت القرصة إلى دمل كبير عجز عن علاجه أطباء البصرة !! وبعث معاوية على وجه السرعة أمهر الأطباء وعلى رأسهم طبيبه اليهودي عدي بن أثال المشهود له بالحنكة والمعرفة في معالجة جميع الأمراض، وما أن شاهد دمل زياد حتى أشر لمن يحيط به ولأبنة الشاب عبيد الله ابن مرجانة، الفارسية من ذات القرية التي كنا نعيش فيها بخرسان، وقد جبلت على بغض كل من يحيط بها حتى أنها بغضت مولاها، وكانت جارية عند تاجر بخيل كبير السن، فأخذت عنه كيدته ومكره مع قسوته ودنائه ولؤمه، فهمس الطبيب بأذنه كلاماً، فارتفع صوت بكائه، كما ذكر شهود تلك الحادثة من الخدم والأتباع، ومن ساعته جمع الطبيب حاجاته التي جاء بها، وعاد إلى دمشق في صباح اليوم التالي ولم تمض سوى أيام قليلة على تلك الواقعة، حتى ارتفعت الراية السوداء فوق قصر الإمارة بالبصرة، معلنة للرعية هلاك زياد بن أبيه، وأمر الحراس بحرق المشاعل فوق منارات جوامع الثغور في البصرة دلالة للأفلاك الكبيرة في عرض البحر، القادمة من الهند والسند والصين والذاهبة إلى تلك البلدان، أن عليها أن توجل الدخول إلى ميناء البصرة، فالولاية في حزن على واليها، وأن أهل العشر وبقية ماسكي زمام الموائء في حداد، وسمعت من سيدي الهفهام

وهو يحدث بعض الأعمشة، أن "سمرة بن جندب" سيكون الوالي الجديد بعد زياد بن أبيه للبصرة، وأنه كما عرفه سيدي أكثر غلظة ومكراً من الوالي الذي سبقه، فهو يتدخل في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الرعية، ولا تهمة الرعية ولا شؤونها، فهو يجمع لسيده في دمشق أموال الخراج، التي تجمع بأرهاب الدولة وقمعها، لأصحاب الأراضي والفلاحين وتجار المدينة. واهتمامه ينصب على حراسه وأهل دولته وذخيرته من القوت والطباخين والصقارين والبهاليل والحكائين وأصحاب البصارة وقد جاء معظمهم من الهند وفارس.

وقد تربح البصارون في البصرة من تنقلهم من جارية تاجر إلى أخرى ومن سرية إلى أخرى لقراءة نجومهن لمعرفة فألهن، وما ستؤول إليه أوضاعهن كما رأوا في علوم التنجيم، التي اتقنوها، وما تخطه لهن مقادير الحياة من حظوظ وأيام نكد.

-47-

القَوْمَةُ

20 رجب 60 هجرية

"تصير الأجساد تراباً وتبقى أفعالها فوق التراب حية"
الهفاهف الراسبي

ما أن حل العام 60 للهجرة وكنا نوشك على تسويق حصاد القمح من المزارع، الذي جمع منذ شهرين في المطامير، وكانت الغلة وافرة والحمد لله على أفضاله، حتى وصلت الأخبار إلى قصر الإمارة في العشرين من شهر رجب ناعية الخليفة معاوية بن أبي سفيان. ومشى الناعون في الشوارع وهم يقرعون على طبول ضخمة تم تخصيصها للقرع عليها عند وفاة الخليفة أو والي الولاية، وهم يرددون خبر هلاك معاوية بن أبي سفيان، ومبايعة ولده يزيد بن معاوية للخلافة بعده.

فسمعتني سهنازاد أردد بصوت عال، الحمد لله على بلاء أنصرف والحمد لله على بلاء قادم، فبعد بلاء الطاعون حل علينا بلاء جديد اسمه يزيد الذي صار خليفة للمسلمين، ومصيبة البشر أنهم ينسون ما حل بهم من بلاء، حالما يغادرهم !!

الكتاب الذي وردني من يثرب يشير إلى ما يتعرض له بنو هاشم وأبا علي الحسين من وسائل الضغط والإكراه والتهديد بالقتل إن لم يبايعوا يزيداً خليفة للمسلمين !! وكان عدم صلاحه الظاهر للعيان يمنعهم عن أداء هذا الأمر. وكان

أبو علي الحسين كلما قلب الأمر مع بني هاشم وجد أن هذه المبايعة إن تمت، فأنها تعني فيما تعنيه موافقة على فساد الأمة، وأشار ابن عمي بشر بن المفيد الراسبي، الذي خرج للحج هذه السنة في رسالته لي من هناك عن الفوضى التي وجدها في يثرب، فأغلب صحابة الرسول وأولادهم لم يبايعوا يزيد بن معاوية !!

كما أن واليها الجديد "يزيد عمرو بن سعيد الأشدق" الذي بعث إليها منذ وقت قصير لا يعرف كيف يتعامل مع أهل يثرب، فقد أراد أن يبايعوا يزيداً علانية وتنص المبايعة على أنهم عبيد ليزيد يبايعون ويشترون، وأن أولادهم وما ملكوا ملك ليزيد !!

فصعب على الناس أن يعودوا عبيداً لغير الله بعد أن حررهم الإسلام من العبودية للبشر، فأعلمهم على مضض منه، أنه مأمور بهذا، ومن يخالف ولا يبايع على هذا ليزيد فليس له إلا ضرب عنقه، وكائناً من يكون !!

فضاق الخناق على أبناء صحابة الرسول، فترك أغلبهم يثرب، وتوجهوا إلى مكة تقية من حماقة هذا الوالي، وكذلك للخلاص من دعوة مبايعة يزيد، وقد ذكر بعض الحاضرين لمجلس الوالي، وقد أرسل في طلب الحسين بن علي بن أبي طالب، لكي ينتزع البيعة منه ليزيد، وفيما ذكره من حضر، أن ابن سعيد طلب من الحسين البيعة ليزيد، بيعة تامة لشخصه، ولمن يتبعه من أخوته وعمومته وأبناء عمه وأبنائه، لأنه قيمهم وكبيرهم المطاع فيهم !!

ووضح فقرات البيعة التي تنص أن كل قطرة دم في عروقهم هي ملك مباح ليزيد يهرقها أنى شاء، وكل مال لديهم أو أملاك في حيازتهم، جميعها ليزيد، وما هم إلا وكلاء له عليها، وكل حرة أو جارية له تعود لسراريه وخدمته أنى شاء، وأن يقاتل هو من تبعه دفاعاً عن يزيد ودولته أنى شاء، ويقر ويعترف به أماماً له في دنياه وآخرته !!

فقال له الحسين: على هونك يا ابن سعيد !! أوتظن أني أبايع على ما أسلفت؟! أم أراد مولاك، وهو يعرف أني لا أرضى على شيء من هذا الذل والصغار، أن أرفض فتفعل بي وأهلي ما أضمر هو لنا، فيصير ذنبنا وهو ذنب عظيم في رقبتك لا برقبته؟! والله يا ابن سعيد، من كان مثلي لا يبايع مثله !!

فنظر إليه ابن سعيد شزراً، وقد كان الحكم حاضراً المجلس، فحذر الوالي من ردة فعل الحسين بن علي بن أبي طالب كرد على ما صارحه بما صارح به أولاد الصحابة الآخرين عن معنى المبايعة، التي يريدونها ليزيد لنفسه، فأولئك ليس

كالحسين عزة نفس ودمائة خلق، وكرهاً للحياة في سبيل العزة والكرامة !! وهو لا ينادى بهذه الشدة والصلف، وعليه أن يلاينه في الكلام، وأن يعتبر بقرابته للرسول محمد، ولا يطلب منه إلا إشارة إيجاب لاستقبال عهد ابن عمه يزيد!! ويذكر له وعداً من يزيد أنه سينصفه ويرعاه !! فهو لا ينسى خواصه واتباعه والحسين بن علي من رؤوس العرب ووجهائهم. وذكّر الحسين بأن وفود الدول جاءت لتبايع يزيد من السند والهند وخرسان وأنطاكيا والكوفة والقيروان وحدود المغرب !! وجميعهم بعثوا صكوك مبايعتهم لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية !!

فرد عليه الحسين، أن ما يطلبه الوالي ابن سعيد ليست المبايعة، التي تعارف عليها المسلمون منذ الخليفة الأول وإلى يومنا الحالي، فهذه التي ذكرت صكوك عبودية لمن حرره الله من عبودية أهل الدنيا، وجعلهم أكرم من ذلك، بعبودية خالصة إلى وجه الله وحده !!

وأكمل: يا ابن سعيد أنك تعرف يزيداً؟! ولأظنك تعرفه خيراً مني، أتقبل أن تبايع علي أن تكون عبداً لبشر مثلك، حتى لو كان يزيد من الأفاضل، وتوقع له صكاً بتأويل حيثياته كما زعمت !! وتسائر فيه شهوات الحاكم وأغراضه، التي لا حساب فيها لدين أو شريعة؟ فكيف يرضى مسلم أن يكون عبداً يباع ويشترى من قبل سيده، وقد حرره الله بالإسلام، يريد لها يزيد هرقلية جديدة !! فاحتد ابن سعيد ورأى أنه لن ينال مبايعة الحسين، وقد قربت ساعة المكاشفة، فقال، إن لم تبايع ابن عمك يزيد، فالسيف هو الفاصل بيني وبينك، وضرب عنقك أسهل من ذبح كبش عندي، وهمس الحكم للوالي أن يهدأ، واستطاع أن يهديء المتحاورين بعد أن علت أصواتهما في المجلس !!

وسمع بنو هاشم ارتفاع الأصوات في الديوان !! فاقتحموا عليهم المكان، فأسقط في يد الوالي، وحجابه ومن حضر من بني أمية مجلسه، واصطحب بنو هاشم الحسين من دون أن يبايع، وأكمل بشر في رسالته: يا ابن عمي، الأمور لا تبشر بخير، وليس بعيداً أن يبعث يزيد من يقتل كل من لا يبايعه من أولاد الصحابة وأولهم الحسين بن علي بن أبي طالب، وأن قومة كبيرة ستقوم ضد حكم بني أمية في يثرب وحواليها، فقد تأبط اتباع الأمويين شراً، وحدوا أسناتهم قبل سيوفهم على عباد الله !!

وعلمت بعد أن سارت قافلتنا مرحلتين باتجاه مكة المطهرة، أن أهل العراق بعثوا للحسين آلاف الرسائل التي تبايعه وتطلب منه القدوم إلى الكوفة لتولي

أمر المسلمين، وكل الرسائل موهورة باختام رؤساء القبائل، وشيعة أبيه علي بن أبي طالب، ممن قاتلوا معه في معركة الجمل وصفين والنهروان، وذكروا له أنهم كلهم عزم للتصدي لظلم الأمويين ومنع يزيد من تولي الخلافة!! وأنهم يستعجلونه للقدوم إلى العراق، فقد اجتمع أنصار علي بن أبي طالب في الكوفة في بيت سليمان بن سرد، وكتبوا إلى الحسين ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

"للحسين بن علي من سليمان بن سرد والمسيب بن نجبة ورفاعة بن شداد وحبیب بن مظاهر وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة. سلام عليك، فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد الذي انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها، وغصبها فيئها، وتأمروا عليها بغير رضا منها، ثم قتل خيارها، واستبقى شرارها، وجعل مال الله دولة بين جبارتها وأغنيائها، فبعداً له كما بعدت ثمود. إنه ليس علينا إمام، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق. والنعمان بن بشير في قصر الإمارة لسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه إلى عيد، ولو قد بلغنا أنك قد أقبلت إلينا أخرجناه حتى نلحقه بالشام إن شاء الله، والسلام ورحمة الله عليك."

وعرفت كل هذه الأخبار المؤكدة ممن حملوا هذه الرسائل إلى يثرب وجمعني بهم الطريق والمأكول والمشرب، وعلمت أن أنه بالرغم من من هذه الرسائل الكثيرة، التي وردت للحسين إلا أنه لم يلتفت لما جاء فيها، لأنه يتذكر ما فعلوه بأبيه من نكران وجحود لفضله عليهم، وخيانتهم لأخيه الحسن حين بايعوه وتولاهم وبعد فترة قصيرة من الخيانات المستمرة ومماطلته في الاستعداد لحرب معاوية، وخلال ذلك كادوا له، ولولا لطف الله لسلمه وقتها قادة جنده أسيراً لمعاوية.

أولئك الخائنون الذين اشتراهم معاوية لو نجحوا لا سامح الله لسيروا الحسن إلى دمشق وفي رقبته خشبة الأسر الثقيلة تخز عنقه، فتدميها، لقاء حزن دنائير ذهبية رشاهم الأمويون بها. هؤلاء قوم عبدوا الدينار والدرهم ولا شأن لهم بإصلاح أو دين!!

وقرر الحسين الخروج لحج بيت الله، وعرفت بعد ذلك أنه غادر يثرب ليلاً متوجهاً صوب مكة، ولم يتركه والي المدينة عمرو بن سعيد فقد وردته رسالة من يزيد بن معاوية بعد أن علم برفض الحسين مبايعته وعزمه على الخروج

إلى بيت الله للحج، جاء فيها: "إن لم يبايع الحسين فاسفح دمه حتى لو كان متعلقاً بأستار الكعبة!!"

فبعث الوالي بثلة من بني أمية لتنفيذ أمر يزيد، وأمرهم بالتوجه إلى مكة لفعل ذلك الفعل الشنيع.

وبعد رسالة بشر بأيام قليلة بعث لي أبو علي الحسين رسالة من يثرب، قرأت فيها ما مر بنا في شبابنا بمدينة يثرب من حوادث، وما فكرنا به كشباب ونحن نبحت حولنا عن يجيبنا عن اسئلة حائرة لا نعرف إجابتها بعد وفاة الرسول محمد، وكنا نتداول ما دار في السقيفة، وما جرى فيها من جدال حول تولي الخلافة، فرأينا تجهم الوجوه ونظرات الغضب في عيون أبائنا!! فقلنا حين كبرنا أن ما حدث هناك سيغير وجهة الأحداث وسيجعل المسلمين في فرق متنازعة إلى آخر الزمان، وكل فرقة تظن أن الحق معها، والحقيقة أن معرفة الحق لا تحتاج إلى كل هذا الاختلاف بل أن ما كان يتصارع حوله أصحاب محمد تحت السقيفة هو صراع من أجل حياة الفياء القادم من كل الجزيرة العربية، فارتدى الطمع بأموال الفياء أثواباً من العصبية القبلية والتباهي بجاه القيادة، وإن كان طالبها لا يفي بشروطها من الزهد والعلم والفقه وسعة المسايسة، والمعرفة العميقة بأحوال الناس.

ويبدو أن الحسين ستتوشه سهام اتباع يزيد، و هي في حقيقة الأمر سهام أنطلقت من ذات السقيفة، ومن يومها ووصلت إليه الآن!! وقلنا وقتها ونحن لم نزل أطفالاً نتعلم من الكبار، أننا سنعرف بعد حين لماذا وجوه صحابة الرسول متجهمة في ذلك اليوم؟ ولماذا يتفاوض الكبار بينهم بكل ذلك العنف والشدّة والعصبية؟ كانوا وكأنما يتناقلون أخبار كل هذا الفرع الذي نعيشه اليوم!!

وتساءلت إن حان موعد القومة ضد يزيد وقد وردت آلاف كتب المبايعة من الكوفة تطلب منه القدوم، وقد بعث الحسين ابن عمه فقيه بني هاشم أبا حبيبة مسلم بن عقيل بن أبي طالب، إلى الكوفة ليستطلع الأمر، ويأخذ البيعة من أهل الكوفة!!

وقد كتب لي ابن عمي بشر من مكة بعد أن أخبرني بخبر مسلم ومسيره إلى الكوفة، لأخذ البيعة للحسين وكتب لي "أما سفارة البصرة، فقد قابلت الحسين في رحاب بيت الله، وأخبرته ما يعيشه أهلها من ظلم في ظل حكم الأمويين، وأن ليس غيرك يا هفهاف بن مهند الراسبي أجدر بسفارتها، فأنت سفير الحسين

إلى البصرة، فاحشد ما استطعت من قبائلها عربها وعجمها وتوجه بهم إلى الكوفة لاستقبال الحسين ومبايعته!! فهؤلاء الذين يقوم ضدهم الحسين لزموا طاعة الشيطان، واستأثروا بالفيء، فكل خراج الدولة قد استأثر به يزيد وجماعته، وحرموا أمة محمد منه، وأحلوا حرام الله وجعلوه حلالاً، ظالمين أنفسهم والناس، والمؤمنون أحق بذلك منهم، وهيهات من الحسين الذلة. أحسم أمرك فوالله يا أخي رحلة الخلود لا تتطلب سوى ساعة نعص فيها على النواجذ ونصرخ: الله أكبر.

قبلت الرسالة ووضعتها على رأسي، ودموعي لا تتوقف عن الانهال، رأيتني أم سلمان، فقالت:

- أراك تبكي يا مولاي؟ هل حان وقت الأمر العظيم الذي انتظرته طويلاً؟!
فقلت لها وأنا اجهش بالبكاء:

- نعم يا أم سلمان!!

فقلت:

- والله أنه لأمر عظيم!! فلا تضع آخرتك بدنياك. كنا عازمين على عقد قران أبنا سلمان على شيرين ابنة أختي، وهي فرصة مناسبة لتخبر أبناء عمومتك وقبيلتك وبقية القبائل المتحالفة مع الأعمشة بخبر قومة الحسين، والسعي إلى الكوفة لمبايعته بالخلافة!!

فقلت لها، وأنا غير واثق ممن سادعوهم إلى هذا الأمر:

- يا أم سلمان نصف الأعمشة هم من عيون والي البصرة الأموي عبيد الله بن زياد، وهو كما تعرفين من أقرب المقربين ليزيد بن معاوية، فلا يتم ما عزمنا عليه بهذه الطريقة، لأن الخبر سيصله وسيجهض كل ما هدفنا له، وللأسف لو كان الأزدي في حلب كما كان مقدماً وأميراً للأمرء في عهد معاوية، لصار بالإمكان أن يشير بوضع وال آخر، لا يدين ليزيد بالولاء، ولكن قبل أن يهلك معاوية، أشار لولده يزيد أسماء من يظنهم سيكونون عثرة في طريق توليه الخلافة بعده، فطلب منه أن يجمعهم في مكان واحد وأن يمنع إتصالهم بأحد!! فلا رأي لهم اليوم يسمع ولا أمر لهم يطاع، فصار أمر خيار البيت الأموي، الذين لم يرضهم اغتيال سيدهم عبدالرحمن بن خالد بن الوليد بالسم، فقاموا بقتل طبيب معاوية عدي بن أثال اليهودي!!

لأنه من أعطى السم لعبد الرحمن، فهلك مسموماً، وبهلاكه اطمئن معاوية إلى أن أمور الخلافة ستؤول ليزيد بيسر ودون معارضة من البيت الأموي، أما

أتباع عبدالرحمن ومحبوه، فقد أولى أمرهم لرئيس شرطته وأمره أن يحزم أمره في منعهم من كل أمر ينوون فعله !! وأن تصحبهم عيون رجاله وتبقى مفتوحة على سعتها، لتأتيه بكل خبر عنهم حتى لو كان خيراً لا يثير الاهتمام !!

وطلب من سرجون وزير بلاطه أن يحدثه عما أصاب دولة الروم من معارضة وثورات، وما عملته الدولة الرومانية، لتثبيت أركانها عند ولاية كل إمبراطور جديد لكبح جماح المعارضيه والمتمردين على الإمبراطور الجديد !! فأخبره بالخطط التي أتبعها أباطرة الرومان لعزل معارضيه من عليه القوم !! فأمر معاوية وزيره سرجون بضرب الحصار على بيوت معارضيه ومن يشك في ولائهم وعلى عيالهم في مناطق معزولة تقع خارج دمشق، فلا يتصلون بأحد ولا أحد يتصل بهم، وعين بدلاً منهم من رآه مناسباً من أتباعه وخلصائه من البيت الأموي. ولم يفلت من كل ذلك سوى المؤمل شيخ الجامع الكبير، الذي كتب لي يخبرني بكل هذه الأمور، ويطلب مني أن أصبر واستكن حتى يقرر الله أمراً معلوماً لديه ومجهولاً لنا !!

أتعلمين يا أم سلمان أن عبيد الله بن زياد منذ توليه ولاية البصرة قبل خمس سنوات، وهو لا يألوا جهداً في عمل مناقلة للقبائل التي كانت موالية لعلي بن أبي طالب وآل بيته، فيغريهم بأراضٍ في خرسان عوضاً عن أراضيهم الزراعية في البصرة، وأغدق عليهم الأموال للانتقال إلى هناك، وكان يأتي بقبائل عربية عثمانية الولاء، وقد أعطى شيوخها العهد على أنفسهم أن يكونوا عبيداً لمعاوية، ولمن يوكله عليهم يباعون ويشترون !! أتعلمين يا شهزاد أن ثلاثة أرباع قبيلتي رضوا بهذه المناقلة !! التي ملأت أحضانهم بالدنانير الذهبية وأغراهم جمال النساء الفارسيات في خرسان، والحقول الخصبة هناك بالموافقة على الصفقة، والمسألة أقدم من هذا !! فقد صارت البصرة مصدراً لقلق معاوية قبل هلاكه بسنوات، لكثرة أتباع علي بن أبي طالب فيها، وبالرغم من تنازل الحسن عن الخلافة له، إلا أنه دعا إليه أحد وجوهها المعروفين هو "الأحنف بن قيس" وواليتها السابق "سمرة بن جندب" فقال لهما عند حضورهما أمامه:

- أني رأيت هذه الحمراء قد كثرت وأراها قد قطعت على السلف، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان الأموي، وهذا أمر غير بعيد، وحدثهما بنيته : أنه ينوي قتل نصفهم، تاركاً نصفهم الآخر عبيداً مملوكين لسلطة الوالي للقيام على الأسواق وعمارة الطرق، وقد وافق والي البصرة سمرة على ما

نواه معاوية لأهل البصرة، وهو الذي كان معروفاً عند البصريين بطغيانه وجبروته المفرط، أما الأحنف بن قيس، فقد دافع عنهم وابتغى لهم السلامة، وقد أخذ معاوية بعد أن راجع نفسه وكبار الأمويين برأي الأحنف، واكتفى بسياسة المناقلة، فنقل نصفهم إلى مناطق أخرى من بلاد فارس، وقد أكمل أعمال معاوية عبيد الله بن زياد، حين أسكن البخارية القادمين من مدينة بخارى، التي تقع في أواسط آسيا، وأسكنهم البصرة، وأجرى لهم العطاء والأرزاق.

وكان عددهم أول الأمر أربعة آلاف نفس ثم ازدادوا خلال ثلاث سنوات، فصاروا عشرين ألف نفس، وسكنوا منطقة واسعة من البصرة أطلق عليها سكة البخارية!! كما فعل أبوه زياد بن أبيه في السنوات الماضية، وقبل هلاكه بعامين، بأن جعل البصرة خمسة أخماس، هي اعلاية التي اسكن فيها من وفدوا من الشام والحجاز واغلبهم عثمانيون الهوى ومن أتباع الأمويين المخلصين، وأسكن في القسم الآخر قبيلة ثقيف وهي قبيلة معروفة بمناصرتها لبني أمية، وفي الخمس الثاني أسكن الأزدي، وهي قبائل استقدمها من عمان، وفي الخمس الثالث أسكن قبيلة بني بكر بن وائل، وهؤلاء فخذ رئيسي من قبيلة ربيعة، وقد كانوا حراساً لطريق الحج من البصرة إلى مكة، وحراسة القوافل التجارية، الذاهبة إلى شبه الجزيرة العربية حتى خراسان وبلاد الترك، وقد اشترى معاوية ولأثمهم بأن جعل أولادهم عرفاء في الجيوش التي يسيرها لقتال أعداءه والخمس الرابع جعل فيه قبائل تميم التي تنقسم إلى قسمين، هما قبيلة دارم، وفيها فخذ الأحنف بن قيس وأتباعها من الطبقات الفقيرة من العرب المتشيعين لعلي ابن أبي طالب، والفرس الأساورة الموالي، أما القسم الثاني من سكنة الخمس، فهم قبيلة حنظلة التي ضمت فقراء العرب، والسيابجة والنزط، الذين أصولهم من الهند والسند، وأما الخمس الأخير، فهو لقبيلة عبدالقيس وأفخاذها قبائل من تميم وعامر وأسد، وقد منحوا القطائع في الأباطح والأراضي المغمورة بالمياه، وأغلبهم من محبي علي وآل بيت رسول الله.

وتنهدت عميقاً لتعرف أم سلمان الصعوبات الكثيرة، التي تواجه من ينوي جمع الأتباع والأعوان لعمل فعل ما أو قومة ضد الظلم، ونص آل بيت رسول الله، وأكملت بعد أن رأيت على وجهها أمارات قلق وخوف، وهذه من طبيعة النساء، فقلت لها ضاحكاً، يا شهزاد أني أظن أن الله يدبر أمراً عظيماً، لا

نعرف ما هو، وقد بدت تبشيره في أيامنا هذه !! فقد ذكر رسول الله "إِنَّ اللَّهَ
يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةٍ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا" وهذا ما سيحصل
يا ام سلمان وعلينا أن نهتم اليوم بعرس ولدنا سلمان، فهذا يوم فرح انتظرناه
طويلاً، فلنفرح به الآن والله ما أعطى وما أخذ.

20 - 21 رجب 60 هجرية

"ليالي الأفراح في البصرة قصيرة، قليلة وليالي الأحزان طويلة، عديدة

العدد !!!"

مسعود الأعمشي

كانت ليلة فرح حقيقية لسيدي الهفاهف، ولمحبيه ولأسرته من قبل أولاد أعمامه وقبيلته، وضيوفها من القبائل الأخرى، وكان العريس سيدي سلمان بين المدعويين بثوبه الأبيض، وعمامته الحريرية المائلة للزرقة، ووسامته بين الحاضرين ملفتة للنظر، وحيويته وفتوته بادية لكل لَمَّاح، حتى أنني خفت عليه من العيون الحاسدة، وما أكثرها في هذا الحشد.

كان جالساً في صدر الديوان إلى جوار والده، والقراء يتلون آيات من سور القرآن والنساء في ديوان مجاور ضم نساء يرددن أبيات الزجل في محبة رسول الله وفاطمة الزهراء وآل بيت الرسول من صغيرهم إلى كبيرهم، ويضربن على الدفوف مواكبة مع تنغيم الأصوات بأصواتهن العذبة. وجلست وسطهن العروس أبنتي شيرين، بثوب وردي اللون موشى بخيوط الذهب والفضة، وقد جمعت الجمال العربي والفارسي، وكانت ابتسامتها الحية، الطفولية تزيد من جمالها. بعض صاحباتها أنشغلن بوضع الحناء في كفيها وقدميها حسب تقاليد قبائلنا العربية، وامتلاً ديوان النساء بأدخنة قناديل البخور وأعواد تشتعل، فتنشر روائح زكية في المكان، وتنتثر رائحة المسك والعود من ثياب الفتيات الصغيرات الحاضرات إلى جوار العروس آملات أن يلفتن أنظار أمهات الشباب الحاضرات في ديوان العرس من أجل أن تخطبهن لأولادهن طامحات أن ينلن أعجاب الحاضرات بجمالهن ورقتهن وخفة أرواحهن وعلو همتهن، وقدرتهن على ملء المكان بالفرح والحيوية بخفر ودمائة خلق.

كانت العروس بين خالتيها، شهزاد وشيرزاد وبدت أمها سهانزاد كالحمامة تطير في سرب من أهلها ومحبيها، ممتلئة بالفرح والاطمئنان، لم أرها من قبل

.. أنا زوجها ولم أَلحظ سوى هنيهة من فرجة باب ديوان النساء، فعرفت مقدار الفرح، الذي وهبنا الله إياه في هذا اليوم، فالحمد لله والشكر له !!
عقد قران سلمان على أبنتي شيرين قاضي قضاة البصرة "عبدالرحمن بن أذينة" الذي وفد على مجلس سيدي الهفهاف بعمامة بيضاء كشيميرية، كبيرة الحجم، لتمييزه بين قضاة البصرة، لكونه رئيسهم وماسك زمام القضاء في الولاية، وعلى بدنه المترهل جبّة رمادية، وهبها له والي البصرة السابق "هشام بن هبيرة" قيل أنها تعود إلى أحد المقربين من كسرى يزديجرد، وقد سلبت من قصره، وتوارثها الوالي عن أبيه، فوهبها لقاضي القضاة لعلو همته في تدعيم القضاء في البصرة ومنع رشوة القضاة وفضح من لم يرتدع، فاعتدل القضاء فيها لفترة من الزمن، قبل ان يسوء مرة أخرى ويصير أسوأ من قبل بكثير !!

سمعت سيدي الهفهاف يحاور قاضي القضاة حول شخصية أموية مثيرة للجدل، وصاحبها من أكابر الأمويين هو "مروان بن الحكم" وكان بنو أمية من كبار السن يعتقدون أنه أحق بخلافة معاوية من يزيد، فرد عليه سيدي الهفهاف، مذكراً بما حدث في وقعة الجمل حين وقع في الأسر، فاستشفع الحسن والحسين إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فكلما فيه، فأخلى سبيله وأطلقه من الأسر، فقالا له: يبايعك يا أمير المؤمنين؟ فقال علي: أو لم يبايعني بعد قتل عثمان، ونكث بيعته، وجاء مقاتلاً لي؟ لا حاجة لي ببيعته. أنها كفّ يهودية، لو بايعني بكفه لغدر سبته، أما إن له إمرة كلعة الكلب أنفه، وهو أبو الأكبش الأربعة، وستلقى منه الأمة منه ومن ولده يوماً أحمرأ !!

ورد عليه قاضي القضاة غامزاً، هذا أفضل القوم !! وتركه الهفهاف ليهتم بضيوفه، وكنت أراه يختلي بشيوخ القراء ممن وفدوا من بطائح البصرة ليخبرهم بخبر سفارته للبصرة، من قبل الحسين بن علي بن أبي طالب، ومبايعة كبار الشيعة ومشايخ وقراء وزعماء القبائل في الكوفة للحسين، بعد أن بعثوا للحسين آلاف كتب المبايعة، طلبوا فيها حضوره إلى الكوفة للقومة ضد يزيد وظلم الأمويين، وقد بايعوه على خلافة المسلمين بعد هلاك معاوية.

فبايع سيدي الهفهاف كل من أخبره، وأخذ العهود منهم، على مبايعة الحسين بن علي خليفة للمسلمين، وعيّن علي كل جماعة منهم أميراً، وحدد يوماً للالتقاء بهم وبمن يتبعهم من رجالهم لكي يتوجهوا إلى الكوفة لاستقبال

الحسين عند وصوله إلى هناك ومبايعته، وأخذ يوصيهم بالحنز الشديء من عمال عباء الله بن زياء، وعبونه المبنوءة في كل أرجاء البصرة !!
فاليوم ابن زياء هو قائء جيوش بني أمية في الشرق، والكوفة !! وجمعتُ لسايء الهفهاف وءوه الأعامشة وعمومته في سراق و أبناء عمومته في سراق آءر، وما أن آءتهم سايء الهفهاف بآءيئ القومة القاءمة، ومجبيء الحسين بن علي إلى الكوفة، والطلب منهم مبايعته، بعء أن عرف المسلمون بأن يزياء لا يصلح لأمر الآلفة، وتوليئه آروج على المعاهءة التي عقءها الحسن بن علي بن أبي طالب مع أبيه معاوية عند تنازله عن الحكم له، والتي كان الشرط الرئيسي فيها، أن لا يورث الحكم إلى أولاءه من بعءه، وأن يجعل الأمر شورى بين أكابر المسلمين وأفقههم لآختيار الصالح من المسلمين للآلفة بعءه.

أوصاني الهفهاف "أن أبقى ولا أءار البصرة لكبر سني وبسبب عرجي الآفيف الآي أعاني منه منذ جرحت في تلك المعركة التي آءءت قبل عشرين سنة ضء الصعاليك، الآين تبعونا من البصرة لكي ينالوا من سايء الهفهاف."
قال ذلك آين عزمنا على الآروج إلى بطائح البصرة للقاء شيوخها، ومن تبعهم من قبائلهم حسب الموعد المضروب لشد الرّحال إلى الكوفة لاستقبال ابن رسول الله، الحسين. فقلت له:

- أتبل عليّ يا هفهاف، وأنا في هذه الشيوخة، وأنا لا أءري متى آحين آجلي، وفيما اعتقء أنه قرب، من رؤية ابن رسول الله والفرآ برويته !!
فقاطعني والألم يعصر قسامات وآهه:

- يا مسعود، يا شآخي الطيب، لا أظنه استقبالاً لعزير آاب عنا طويلاً بل أن الأمر أعظم من ذلك بكثير، ووآءه الله يعلم ماآا يعء عباء الله بن زياء لاستقبال الحسين !! فلهؤلاء الأمويين من العيون ما لا آحصى ولا يعء، ممن باعوا ذممهم ووآارهم، وصاروا وشاة على آل بيت رسول الله، ومن تبعهم بأحسان من شيعتهم ومحبيهم.

وآين شاهد الوجوم على وآهي وعلامات الآزن، ظن أني رضيت بما أراءه مني، وأنني باق مع النساء والصبيان، كما أراء وقرر !! لكنني كنت أخطط لغير هذا، فآلبي يشير عليّ أن أمضي معه مهما كلفني ذلك من غضبه !!

وبعء آروج الهفهاف إلى آسفة الأعامشة، الواقعة على بعء فراسآ قليلة من الأبلة للقاء بمآبين لآل بيت رسول الله ممن بعث لهم الحسين بكتب طالبا منهم

نصرته، ولم يذهب كعادته على فرسه الأبلق الكحيلان بل اختار الصقلاوية التي
يميل لونها إلى السواد، وهي فرسه التي يعتليها في أوقات الشدة والخطر.
وقد تشاءمت لهذا الاختيار لفرسه، أولاً لكونها ليست فرساً أصيلة كالبلقاء
التي ورثها عن أبيه المهند، وثانياً بسبب لونها، فالعرب لا يتفائلون بالسواد !!
ويعتبره الكثيرون منهم من ألوان الحزن، وتعودت من الشيطان، وعند ساقية
القطائع التي يعمل فيها المئات من الفلاحين، وكانوا ينتظرون دورهم للحصول
على حصتهم من مياه السقاية الخاصة بأراضي الأعمشة، التقيت هناك عريسا
سلمان بن الههاف، وبدا لي وكأنه كان ينتظر مروري من هذه الجادة لكي
يحدثني بأمر خاص فكر به طويلاً !!
ألقي عليّ السلام، فسألته:

- أتترك عروسك في صباح اليوم التالي لعرسكما ؟ !! عجبت لبلادتك يا ابن
أخي !!

فرد سلامي ببرود وقال مهموماً:

- يا عم مسعود أني أنتظر مرورك من هذا الطريق منذ الصباح الباكر!!..
وأريد أن تجبني بصدق " ما ينوي أبي فعله، هل هو واقع فعلاً.. فعلاً..؟ أم هي
لقلقة لسان لا أكثر؟ "
فسألته:

- وما هو الأمر الذي ينوي أبوك فعله كما تعتقد يا ابن أخي؟
فقال سلمان:

- أنه ينوي الذهاب إلى الكوفة لمبايعة الحسين بن علي بن أبي طالب على
الخلافة بدلاً من يزيد !!؟

- أو في هذا ما يعيب يا ابن أخي؟ !!

فقال سلمان بعد أن صفق كفاً بالأخرى :

- أتعرف نتائج هذا الفعل إذا حدث يا عماء ؟ !!

- رضى الله ورضى الصالحين يا ولدي !!

لكنه لم يسمع ما قلت وتابع:

- أن هذا يعني أن أبي سيقف بوجه دولة لها جيوش منظمة، وجنود جوعوهم
وجوعوا عيالهم، فصاروا مثل الكلاب المسعورة !! التي تنهش لحم من تجده
أمامها دون أن تعرف من يكون وما فضله !!؟

يا عم أتوسل إليك أن تطلب من أبي أن يترىث، فاليوم الجيوش غيرها في أيام الرسول وعلي بن أبي طالب!! فهي لا تحارب كما كانت تفعل من قبل، فقد صارت لها أنظمة قتال، وخطط مأكرة، ولم يعد للشجاعة والفروسية والشجاعة الفضل في الفوز فيها!! بل صار الفائز فيها من كان صاحب مكر ويدفع من المال أكثر لجنوده وفرسانه!!

فلم يعد الناس يبحثون عن الجنة كما كانوا يفعلون في عهد الرسول، وإنما جنتهم اليوم الدينار والدرهم!! ومنتهى حلمهم أن يعيشوا ميسورين في قصور منيفة ونساء جميلات ووفرة من الخدم والأكل والشرب، ورحلات الصيد والقتص!! إنما الناس على دين ملوكهم، وأنت أدري بمن حكم البلاد منذ عشرين سنة وكيف حكم وأدار رعيته.

قادة الجند ووجوه القوم أعمتهم العطايا!! فصاروا يحلمون بحيازة ما أمكنهم من ثروات وإقطاعات أرض ونساء وسلطة على العباد وجوار حسنات من شقر الروم وخرسان، وصقلية، وبحر الظلام!!
توقف قليلاً عن الكلام ليبلغ ريقه ثم تابع:

- هؤلاء يا عم لا يهمهم شيء غير رضى السلطان عنهم، ليتمتعوا في دنياهم بما كسبوه من عطايا السلطان، يا عم مسعود لك الكلمة النافذة على أبي، فوضح له ما خفي عليه!!

فإن من الحكمة أن ننتظر ما ستؤول إليه الأمور، أما ان يذهب إلى الكوفة مع مجموعة من الفلاحين ومنظفي الأسباخ وفقراء البطائح ومربي الأبقار والجواميس لمبايعة الحسين!! فسيقطع عليهم جيش عبيد الله بن زياد الطريق في كل منفذ يولونون به، فقد عرفت من أصدقاء لي من عرفاء هذا الجيش أن عبيد الله أمر بتوزيع جيشه الضخم في كل مراحل الطريق من الأخماس إلى الكوفة، وهو يتلقى أوامره مباشرة من يزيد بن معاوية في دمشق، بما يحمله الحمّام الزاجل من كتب، وقد نشر عماله في كل القرى المحاذية للبصرة أو تلك المنتشرة على حافة الصحراء باتجاه طريق الحج ظناً منه أن قافلة الحسين ستأتي من هذه الطريق، فيكون أول هبوط له في البصرة قبل أن يتوجه إلى الكوفة، لكثرة أنصار علي بن أبي طالب في البصرة.

فلم يكن أمامي وأنا أرى الجزع في عيني سلمان إلا أن اطمئننه وأخبره بما قال، ولن أتركه يمضي إلى الكوفة حتى لو اضطررت إلى متابعته إلى الخسفة

والتقيه هناك، ولكن سلمان لم يتوقف عن الحديث في ذات الموضوع، فقال كأنما لم يسمع ما قلته:

- وصلني من ذلك العريف في جيش عبيد الله أيضاً، أن عبيد الله أعطى أوامره لكل قواده وعامليه في القرى أن يواجهوا أي تجمع مشبوه لشيعه علي بن أبي طالب، ويفرقونه بالسيف!! ولا يبقوا فرداً حياً منهم من دون الرجوع إليه!! وهذه هي أوامر عبيد الله بن زياد قائد جيوش بني أمية في الشرق.

-49-

لبيك مَوْلَاي الإمام

5 شوال 60 هجرية

"يا حبذا الجنة واقتربها طيبة وبارد شرابها"

الهفاهف الراسبي

وصلتنا الأخبار المفرحة من الكوفة صباح اليوم، منبئة بوصول فقيه بني هاشم أبي حبيبة ابن عم الحسين "مسلم بن عقيل بن أبي طالب" سفيراً للحسين، وقد عرفت من قبل ابن عقيل مقاتلاً صليداً وخطيباً مفوهاً وفقياً لا يشق له غبار.

ومن شجاعته لا يستطيع أشجع الفرسان وأمههم في القتال الوقوف في وجهه في ميدان القتال إلا لفترة وجيزة حتى يسقط مضرجاً بدمه تحت قدميه. ومن واجهه في ساحة الوغى ونشد السلامة، ففر من ساحة المعركة مولياً الأدبار ناجياً بنفسه، وكان كالأسد الغضنفر في ساحة الحرب والمطاوله ومن قوته أنه يأخذ الرجل بيده فيرمي به إلى الأعلى عدة خطوات!!

وكنا إذا أردنا أن نطفئ ظمأنا إلى رؤية رسول الله نظرنا إلى مسلم، فما رأينا من ولد عبدالمطلب أشبه بالنبي من مسلم بن عقيل!!

وأذكر في موقعة صفين في شهر صفر من سنة 37 هجرية كنا نلوذ به، وهو على ميمنة جيش علي بن أبي طالب مع الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر الطيار، فلا نخاف مادماً لائذين بحماه. كما أنه زوج رقية ابنة علي بن أبي طالب، فقيهة نساء يثرب وسيدة الكلام وقارئة القرآن وأم حبيبة ابنة مسلم.

ومن المفرح لنا أن أخبار الكوفة تشير إلى مبايعة مسلم من قبل أكثر من ثمانية عشر ألفاً من محبي علي وآل بيته، وكلهم محاربون أشداء ساهموا في معارك كثيرة، ولهم خبرة طويلة في القتال، ومنهم من كانوا قواداً في جيش علي بن أبي طالب بموقعة صفين، وهذه الرسالة التي وصلتني من صاحبتي القديم "ضباب بن عامر" أفرحتني أخبارها الطيبة، مما جعلني أشد الرحال على فرسي العبيان المرقط لأصل إلى تخوم البصرة من جهة البحر للمرور على جماعة من الأزدي وشيخهم "المؤمن بهاوي نجم الله الهندي" لكي يصاحبونا في رحلة المبايعة إلى الكوفة، وهم من محبي علي بن أبي طالب المعروفين !! ما أقلقتني من أفراد عائلتي مشاعر الجزع والخوف من ولدي سلمان، الذي يرى الدنيا بعين الشاب الذي لم يرتو من الحياة ومتعها ولعبها. ولا ألومه على شيء، فالأمر عظيم وعدونا لا يستهان به، وحروب بني أمية لم تعد كما كانت في موقعتي الجمل وصفين !! كما وصفها ولدي سلمان لعمة مسعود، والجزع بدا على كل كلمة قالها، ونقلها مسعود لي، وربما وجدت على وجه مسعود هدوءاً واطمئناناً أكثر مما أجده، فيمن قابلتهم من محبي علي وآل بيته، وأنا أطلب منهم البيعة للحسين، والاستعداد للالتحاق بيوم المبايعة للتوجه للكوفة، فبنو أمية يحشدون صفوفهم، ومناصريهم لقطع الطريق على محبي علي وآل بيته، من الوصول إلى الكوفة، لمبايعة سبط الرسول، وهم يعلمون لو تم الأمر بوصول جميع المحبين للكوفة، لصعب عليهم تفريقهم، مما يفرض عليهم البيعة للحسين، بغلبة الجموع !! وهي ممارسة عرفوها بمبايعة علي بن أبي طالب، بعد مقتل عثمان، فانتصرت غلبة الجموع على من كان رافضاً ومنافقاً ومداهناً، فلم يجدوا أمامهم غير المبايعة بغلبة الجموع، وقد تمت مبايعة علي بن أبي طالب وقتها من دون إراقة دماء !!

وبعد أن وصلت إلى أطراف البحر بانت لي زروع أشجار الحناء والنخيل، ومدخن قبيلة الأزدي، واستقبلني جمع منهم عند تخوم القرية، مرحبين بقدومي إليهم، ومعظمهم يعرفونني ويعرفون والدي يرحمه الله حين كنت أقدم معه لزيارة شيخهم، المؤمن، الذي استقبلنا عند مدخل ديوانه الكبير، وما أن استقر مقامي في الديوان وانتهى السؤال والجواب عن الأحوال وأخبار الأهل والأحباب في الأحماس والأبلة، حتى حكيت للشيخ ولرجالته المقربين الغاية من زيارتي لقبيلتهم، في أن أجمع البيعة للحسين بن علي بن أبي طالب، للخلافة، واصطحب معنا في رحلة المبايعة إلى الكوفة، من استطاع للسفر سبيلاً، للتوجه

إلى الكوفة. فوعدني الشيخ المؤمن على المبايعة والمصاحبة إلى الكوفة مع أبناء القادرين على السفر إلى هناك، وكان يهز رأسه موافقاً على ما ذكرته له، من أخبار الكوفة ومكة وعزم الحسين القدوم إلى الكوفة، وكان وقت الغداء قد حان، فحمل الطعام رجال الأزدي إلى الديوان، وكان طعاماً كثيراً من كرم هذا الشيخ وقبيلته، وقد اتفقت مع الشيخ المؤمن على موعد اللقاء ومكانه، للانطلاق إلى الكوفة لمبايعة الحسين.

وغادرت مضارب الأزدي متوجهاً إلى مضارب قبائل أخرى تقع إلى الجنوب الغربي من أراضي الأزدي، وهم أبناء عمومة لنا سكنوا ذلك البر البعيد من عدة عقود وأصلحوا الأرض هناك وعمروها بالبناء، وتكاثروا، فغدوا في أكثر من قرية ومدشر، وقد حملني الشيخ المؤمن بكيس مملوء بالحناء الجيدة من زرع أرضه هدية أحملها معي للسباخة، فقبلت الهدية على مضض لاستعجالي الوصول إلى بقية القبائل والمداشر، للغرض نفسه الذي قضيته مع الأزدي.

وما أن وصلت مضارب أبناء العمومة وشيخهم "المفيد الراضي شبيب" وعرفوا الغرض من زيارتي، فوعدني شيخهم المفيد بمبايعة سبط الرسول، وفعلت ما فعلته في كل مضرب قبيلة في جنوب الأخماس مرتت به. حددت لشيخه الوقت والمكان الذي ستلتقي به القبائل للانطلاق إلى الكوفة لمبايعة الحسين خليفة للمسلمين، وكل من قابلته من الشيوخ والشباب في القرى والمداشر والمضارب ابتهج أن ابن حبيبهم علي بن أبي طالب سيتولى أمر المسلمين بعد أن ظهر الفساد في البر والبحر من حكم معاوية والأمويين، ومن ولاته وحكامه وقضاته ومحتسبي خراجه.

عدتُ إلى السباخة وقد أظلمت الدنيا وأنا في غاية التعب والإجهاد بعد هذه الرحلة الطويلة، فقصدت دار ابن عمي بشر بن المفيد، فاستقبلني أخوه مرحباً بقدمي، وكان معه جمع من أبناء العمومة والأصحاب، فطلبت منه أن يتفق مع عشرة أدلاء من الماهرين الذين يعرفون الطرق المؤدية إلى الكوفة من دون المرور بنقاط التفتيش والمحاسبة التي ابتدعها عبيد الله بن زياد على أغلب الطرق المؤدية إلى الكوفة، ليمنع مرور أي مبيع للحسين، وإبعاده إلى طرق لا توصل إلى الكوفة بل إلى أمكنة أخرى بعيدة عن الكوفة، فبعث أحد عبيده المخلصين ليجمع لنا الأدلاء المعروفين في القبائل المجاورة لأراضي الأعمشة، ولم يمض على مجلسهم وقت طويل حتى عاد العبد ومعه ثمانية أدلاء، فاتفقت معهم أن يكون اللقاء في الطرف الشرقي من السباخة والانطلاق

من هناك في عدة طرق ومنها يتجه سالكوها إلى البطائح وأرض المستنقعات
والصحراء ومن نهاية تلك الطرق خطت المكان الذي تلتقي عنده المجموعات
في منطقة قريبة من الكوفة، فسألني الراضي أخو بشر :
- هل هي الحرب يا هفاهف؟ أم هي مبايعة لابن رسول الله؟
فقلت:

- هي مبايعة يا ابن العم، فإن لم يقع الرضى في نفوس من تولوا الأمر،
وسلموا برغبة الجموع وما تريد، فهناك أمر آخر، ونحن أنما نذهب لنقف مع
الحق الذي طال أنتظار إحقاقه !!

كانت أغنية مربية ولدنا سلمان التي ترددها كلما أرادت أن ينام ولدي سلمان
في سريره القصبى، ولا زلت أتذكر شكله، وأسمع صرير أعواده عندما تضعه
في فراشه في شهور عمره الأولى. كنت أسمعها تردد بصوت رخيم:

يا شبلي الحبيب
يا بعد القلب والرئة
أهديتك للرسول الحبيب
أمك ما تنام الليل
يا ربّ إني ناشدة محمدا
حلف أبيه وأبينا الأتلا
إن أمية نقضونا الموعدا
وذبحونا ركعاً وسجدا
فانصر هداك الله نصراً أيّدا
وادعُ عبادَ الله يأتوا مددا
يا حيذا الجنة واقترابها
طيبة وبارد شرابها

تردد تكنيتها له ب" شبلي" وهي تريد كأي أم بديلة محبة لرسول الله محمد أن
يكون أبنا كشبلي الأسد ضراوة في الدفاع عن آل بيت رسول الله في الملمات،
ومنذ عزمت على الخروج من البصرة لمبايعة الحسين والصوت يصاحبني أينما
ذهبتُ، وأنا أتخيل وجهها المدور والوشم الأزرق تحت حنكها، وعينيها
المتسعيتين، الملائنتين بالدموع بسبب ومن دون سبب !! يا لحزنها الدائم
الممض، فهي دائمة التذكر لأبيها وأخيها اللذين نالا الشهادة في أحد المعارك

ضد الفرس، وكان صوتها المنغم الحزين يصاحب صوت خبب جوادي أينما
اتجهت !!

9 مُحَرَّم 61 هجرية

"إذا خذلنا الحسين سنبقى كالذي باع ثوبه وبقي عارياً إلى آخر الزمان!!"
مسعود الأعمشي

في اليوم الموعود تبعت سيدي الهفهاف وكان معه أكثر من ثلاثين فارساً خرجوا من السباخة متوجهين في الطريق المؤدي إلى البطائح. كنت أرى سيدي ورجاله من بعيد، وهم لا يرونني، وقد أفاد تسلي خلفهم انتشار النخيل الكثيف وأشجار الرمان السامقة التي كانت تستر فارساً بل تخفي جمهرة من الفرسان!! وما أن بلغوا قنطرة الخر غرب البصرة بثلاث مراحل حتى خيموا هناك، وتركوا خيولهم ترعى وكان من الواضح أنهم ينتظرون آخرين قادمين من أمكنة عديدة من الأحماس والبطائح والأبلة والبصرة، وما أن حل وقت صلاة الظهر حتى اجتمع في ذلك المكان خلق كثير، فغلبني الشوق والفرح أن أعلن عن وجودي القريب لسيدي الهفهاف، فتفاجأ بظهوري حين لمحني قادماً صوبهم، وحالما اقتربت منه أقسمت عليه بروح أبيه المهند أن يسمح لي بمصاحبتهم، أول سؤال سألني كان عن ولده سلمان، فأخبرته أنه مشغول بزوجته وسعادتهما بظهور علامات الحمل عليها، كما أن أم سلمان ودعتني وطلبت مني أن لا أفارقك، وأن أكون حامياً لك في حلك وترحالك، ولم تتركني حتى أقسمت لها أنني سأصاحبك خطوة بخطوة حتى نبلغ الكوفة ونقابل الحسين بن علي بن أبي طالب، ورأيته يدير وجهه عني وكأنه رضى عن وجودي وإن كان ذلك على مضض!!

كان السفطاط الذي أعدّ يضم مئات الرجال بينهم عدة شيوخ من قبائل البصرة" كقبيلة تميم وبكر وعبدالقيس، وقد صاحبهم عدد من أهل القيافة الشاطرين، الذين يقصّون الأثر، وصاحبهم عدد من السوافة، الذين يعرفون أماكن روافد الأنهار ونهايات السواقي، ومواقع خانات الطريق، وهم عادة يسبقون أي جيش لمعرفة الطرق الآمنة لسلوكها من قبل من يتبعهم، فيتركون للقيافين علامات ترشدتهم وتحذرهم إن كان في الطريق ما يعترض طريق من كان في صحبتهم، وتحرك الموكب بحذر بعد أن ربط الرجال قوائم الجياد إلى

تحت الحوافر بصوف الغنم لئلا يسمع وقع حوافرها على الأرض وانتقلنا إلى مكان آخر يقع على ضفاف المستنقعات شمال البصرة لاستقبال عدد آخر من مبايعي قبيلة بني أسد، وتركوا فيمن ينفد إلى المكان السابق من يرشدهم إلى موقع التجمع الجديد، وكان سيدي الهفهاف يلتقي كل مناصر جديد بالترحيب به وبالرغم من الأعداد كانت في تزايد، ولكن ما جعله يقلق وصول رسائل مُحذرة من السوافة، وقد بعثوها من أمكنة مختلفة، وهي تخبر عن وجود جنود وحاميات لعبيد الله بن زياد في أمكنة عديدة من مفارق الطرق وتقطع معاير الأنهار، ويراقب سوافة من الجيش من طوامير طينية مرتفعة الطرق، وروافد الأنهار. ويحقق عرفاء تلك المجموعات مع كل مغادر أو قادم من تلك الطرق بعد أن تستولي على سلاحه!! وتمنعه من التوجه إلى الكوفة حالما ترتاب به وتسمح له بالذهاب إلى أي مكان آخر غير الكوفة!! وكنت اعرف أن جيش عبيد الله بن زياد الذي خرج من البصرة يزيد عدده على التسعين ألفاً، وقد قسم إلى أفواج وسرايا، والسرايا قسمت إلى كمائن من الخيالة، وكمائن من المشاة وفرق من رماة النشاب، وكمائن لأصحاب القسي الطويلة المدببة، التي تقتل من رمية واحدة، وتسقط الفارس عن جواده مجندلاً على الأرض.

وفي هذه الأثناء دخل الخيمة أحد السوافين، وقد بلغ الزبد الأبيض في زاويتي فمه شأواً، فكان دليلاً على أنه قطع مسافة طويلة، ليوصل لنا خبراً مهماً من أخبار الكوفة، وما يحدث فيها، فعرفنا مما قال بصوت متعب ومتقطع بسبب اللهاث، أن أهل الكوفة ومن بايع منهم مسلم بن عقيل سفير الحسين إلى الكوفة، قد تخلوا عنه، وتركوه وحيداً، وأن معركة حامية وقعت بينه وبين حامية من جنود زياد، فقاتلهم مسلم بن عقيل قتال الأبطال الشجعان بالرغم من كونه وحيداً، وكانوا حوله بالمئات فرساناً وراجلين!! وحين ينسوا من الانتصار عليه خدعوه بصك الأمان، الذي أذاعوه عليه، وما أن ألقى سلاحه بعد أن أثنى بالجراح، فأمر عبيد الله بن زياد بقتله وإلقاء جثته من فوق قصر الإمارة، وأمر أن يسحل جثمانه في كناسة الكوفة ليرى الكوفيون مصير من يتمرد على خليفة المؤمنين يزيد بن معاوية!!

فضج الحضور بالبكاء وصاح صائحهم:

— إنا لله وإليه راجعون!!

ولم أستطع حبس دموعي على أبي حبيبة، يرحمه الله ويجعله في عليين، مع رسول الله ووصيه علي بن أبي طالب، لقد عرفنا مسلماً في مدينة الرسول

فقيهاً مفوهاً منذ يفاعته، وكان آل بيت هاشم ينادونه بفقيرنا وحامينا من الوقوع في الزل في حقوق الله وعباده !! كان حافظاً للقرآن الكريم، شجاعاً كريماً، فكم من متعسر رفع عنه عسرتة، وكم من طالب حماية حماه، وكم من بيت قصده في ظلام الليل وستره لكي يوصل إليه ما قسم الله من صدقة ومتاع. رحم الله مسلماً وجعله شهيداً مقرباً من رسول الله !!

فاجتمع سيدي الهفاهف بشيوخ القبائل التي صاحبتنا في خروجنا في خيمة صغيرة أعدت على عجل عند ضفاف مخاضة البطائح، من جهة نهر الفرات، وكان من أولئك الشيوخ "نوفل البداعي" شيخ تميم، و"الأزرق بن باتع" شيخ عبد القيس والشيخ "عمر البكر الفدعي" شيخ بكر، و"منعع الفرهاد" شيخ ثعلبة، وجلل وجوه الحاضرين الوجوم، وبدت لي لحاهم البيض معبرة عن حكمتهم، وورعهم وفهمهم العميق لما يدور حولنا، فبادرهم سيدي الهفاهف بالقول:

— " كما سمعتم مثلي من أخبار القيايين، الذين بعثناهم أن عبيد الله بن زياد أعطي أوامره بقتال كل من يحاول المرور عنوة، وقد جمعتم في أول الأمر لرحلة لمبايعة الحسين بن علي ابن أبي طالب، الذي بايعتم وناصرتم أباه وأخاه من قبل، وأخلصتموا لهما في بيعتكم، حتى شاء الله ما شاء، ولا أظن كما سمعتم وعرفتم أن مبايعتكم للحسين ستتم من دون غلبة جنود عبيد الله بن زياد وتفريقهم للمبايعين عن طريق منع مرور من تشك في ولائه لآل بيت رسول الله، فوالله أنها بوادر حرب يا أبناء العم، وليس بيعة وبعدها نعود إلى بيوتنا ومزارعنا غانمين سالمين !! كما تبدى الأمر للبعض منكم، ولا أريد أن أتحمل دماءكم في رقبتني، فأنا دعوتكم للبيعة، فلا أريد أن أضعكم أمام عدوكم وأقول لكم دافعوا عن أنفسكم فأنتم أما مقتولون أو مأسورون أو فائزون بأذن الله ولا أمل لكم إلا بالكفاح، لأجل أن تربحوا معركتكم، لتعيشوا معززين مكرمين مع من بايعتم !! والآن وقد عرفتم قبل أن أخوض بكم إلى المهالك على الأرض والنجاة في الآخرة، وأنا بانتظار قراركم، وأني لأظن أن يزيد بن معاوية لن يسلم ببيعة جموع المسلمين للحسين بن علي، حتى لو حدث هذا بوفرة الكثرة منكم، وإقرار الغلبة من دون إراقة دماء المسلمين !! وقد بلغني أنه جيش الجيوش، وبعثها إلى الكوفة، فاليوم أخبركم أخبار المحب الناصح والمنذر، أن خروجنا اليوم على إرادة يزيد بن معاوية هو خروج المقاتلين في سبيل الله لا خروج المبايع المسالم، الذي يدلي بعهده لمن أرتضاه ولياً له ولقومه في الحكم !!

والحرب كما تعلمون يا شيوخ البصرة وساداتها، فيها القتل والحرق والجراح وتهديم الدور وسبي العيال، أنا لا أريد أن أخوفكم!! لكنني أريد أن أضعكم على بينة وإبلاغكم بالأمر العظيم القادم، الذي سيحدد مصير البشرية جميعاً من حولنا!! ولأجياننا القادمة، فأما دولة المُلْك والطغيان أو دولة الخلافة والعدل والرشاد، ورضى الله ولطفه ورحمته تنزل على الأرض، بتولية الحسين بن علي على المسلمين من عرب وموالي رومان وفرس وهنود، وما خلق الله من عبيد له على ظهر الأرض من مغاربها إلى مشارقها، وتعديل مسار التاريخ الإنساني وجعله أكثر عدلاً وإنسانية وسعادة لقرون وقرون قادمة على الأرض باختياره خليفة وأماماً؟ أو عكس هذا من عبودية وسفك دماء وظلم وطاغوت وكل ما يغضب الله، فمن ارتضى منكم أن يتبعني للدفاع عن الحسين وآل بيته، فهو تابعي على طريق الحق الذي اختاره قبلنا الصالحون، ومن رأى أن يحرص على سلامته ودنياه، والرضى بالعيش كما عيش ديدان الأرض وحيواناتها!! بلا كرامة، فاقداً لمرضاة الله، فوالله لا نزال نحن على البر والرجوع إلى الأهل والأصحاب والعيال لا يزال سالكاً وآمناً خلفنا، فما رأيكم بما أسلفت يا أبناء العم والأهل وأخبروني الآن ماذا تختارون واي الطريقين تسلكون!!؟ "

وعندها تنح الشيخ "نوفل بن تبع البداعي" شيخ تميم في منطقة الأحماس وما حولها، وقال:

- يا ابن أخي المهند نحن لم نخرج إلى قتال ولم نستعد لذلك!! فقد خرجنا لمبايعة ابن رسول الله، فإذا كان ولا بد من القتال في سبيل ذلك، كما أشرت وإعلنت، فأمهلنا حتى نعود إلى قبائلنا، ونجمع أمرنا ومن تبقى من أهلنا للقتال، فالعدو لا يستهان به عدة وعدداً، وتنظيماً، ونحن كما ترى لا يتجاوز عددنا الخمسين ألفاً، وفينا كبير السن الذي لا يستطيع القتال وفينا الشاب الغرير، الذي لم يخض حرباً من قبل ولم يتعب نفسه في فروسية، ومران. يا ابن أخي سنعود إلى أهلنا وذراريها، فنجمع شملنا ومن يصلح للحرب من القبائل المجاورة لنا ولنا عليهم الجاه والمحبة، ونأتيهم بقوة لا يقفون بوجهها ولا يستطيعون!!

والتفت شيخ فخذ تميم إلى الأزرق بن باتع من قبيلة عبد القيس، وكنت أعرفه خطيباً مفوهاً لعبد القيس تخشى لسانه القبائل، لكنه للأسف يقول ما لا يفعل، وكل ما يهذر به لقلقة لسان لا تضر ولا تنفع!! وكان ينتظر من خروجه لمبايعة

الحسين، كما أعلن لخلصائه من قومي، أن يقول خطبة رنانة في حضرة الحسين يشجع فيها الناس على مبايعته، عسى أن ينال صلة من الحسين ومكافأة بالمال، وقد نال من الأرزق الفقر مبلغه، فصار يعلي من شأن من كان أدنى في خدمة والي البصرة بخطابه لأجل طعام يومه، أو قطعة قماش يتصدق بها عليه، فيسرع إلى السوق لبيعها والعودة بثمنها إلى داره ليقيه المبلغ الصغير غائلة الجوع في الأيام التالية!! وقد عرض سيدي الهفاهف عليه العمل في مزارع الراسبي لكنه رفض بأبأء مزاولة أي عمل غير الخطابة، ومدح من لا يستحقون المدح والتنويه!!

فاستنذن الأزرق من بقية الشيوخ في الكلام، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وسأله السداد له وقومه وجميع من حضر، وقال:

— "سنعود ياهفاهف الزمان وبطل البصرة المغوار!! كما أشار شيخنا الجليل، نوفل كبير بني تميم وحكيمهم، ومدبر أمرهم، وفارس فرسانهم ومفرق جيوش العدا من حياضهم بصيته وحكمته!! فهو لاء الحاضرون ومن سيأتي معهم بعد الاستعداد والتأني، سنكحل النجوم بمراود رماحنا بهم، ونجعل ليل العجاج ممزقاً ببروق الصفاح، وسنتخذ رؤوس بني أمية وأتباعهم ومن بايعهم لصولج القوائم لرماحنا كرات تصطدم ببعضها البعض، فتخيف العدا ويفر من رعبه كل صنيدي رآها، وسنفرج مضايق الحرب بتوالي كرات الخيول وعطفنا إليهم الأعنة، وخضنا جداول السيوف، ودرسنا شوك أسنتهم، وقلقتنا دروعهم بالصرخات، وأسلنا العبرات بالرعبات، ولكن أين الغاية من هذا المدى المتطاول أمام خيولنا ورجالنا، وأين الثريا من يد المتناول، فمالنا يا سيدنا الهفاهف إلا العودة والتجهز بالعدة والعديد، فيزحف معنا من أهل البصرة مئات الآلاف، ومعهم عددهم التامة وخيولهم المطهمة ورماحهم القيسية ونشاباتهم الرومية، وعربات المؤونة التي تكفي لسنوات من الحرب الضروس تجرها البغال القوية والثيران المدربة، وبعد أن نترك وراءنا من يمدنا بجنود الدعاء الذي يرفعه أهلنا وذوونا وهم على توجه صادق، فتتعرفه ملائكة القبول، فتستجيب، فتمد زحفنا بالنصر والتوفيق!!

وكنت أقف في باب الخيمة أستمع لهذا الخطيب الآفاق، فخلعتُ نعلي وأوشكت أن أضربه على فمه، إلا أن بعض القريبين مني منعوني من فعل ذلك، وضح الحضور في الخيمة بالضحك من الخطبة وصاحبها الآفاق!! فقلت له غاضباً:

- الطريق إلى الله واضح لا لبس فيه، وهاهو طريق الحسين محاط برضى الله ونصره !! إن لم يكن في الدنيا ففي الآخرة، وأني لأظنه نصر في الدنيا ونصر في الآخرة، فما الشهادة في سبيل الحق ودين محمد سوى نصر مؤزر، لا شبهة فيه ولا مراجعة !! فمن بايع الرسول ووصيه عليه أن يبايع ولده، وأن الله أن مبايعتكم له في يومك هذا هو أحوج إليه من مبايعتكم له وقتالكم في صفوفه غداً !! فلا أحد يحزر ما سيحدث بين ليلة وضحاها !! وما تقدره يد القدر، وما يمتحننا به الله، أنه اختبار لتمحيص أجوادنا ومن يتبع الحق منهم، وفاز في دنياه وآخرته، فماذا أنتم فاعلون إن قتل الحسين وأصحابه !!؟
فتمتم الخطيب الآفاق:

- ما قلت إلا ما رغب به القوم في دخيلة أنفسهم !! فنحن أهل طرب وغناء وفرح وكلام وفخر نصدح فيه بالمجالس فننال ثواب ذلك لقيمات نسد به رمقنا وأرماق عيالنا !! نحن أهل خضوع وخنوع للقوي لا أهل قتال ودم وفواجع، فلم تلمني على ماقلت سامحك الله أيها الأعمشي الأعرج.. قرأت في وجوه الحاضرين أنهم يريدون هذا !! وأن نقوله مجاملة ونفاقاً لهم، حتى يسلمون على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ويقعدون متأملين منتظرين قدرهم في بيوتهم، ما سيقدره الأقوياء عليهم، الذين كُتب لهم الفوز في الدنيا، فيهتفون بحياتهم، ويذلون رقابهم لهم، ويدفعون الأتاوات لعرفائهم وتابعيهم لسمحوا لهم بالعيش الذليل.

فأشار سيدي الهفهاف لي بطرف عينه أن لا أزيد على ما تفوهت به بحق الخطيب !! وأترك للشيوخ حرية الاختيار والقرار. إن كانوا سيكملون الطريق معنا أم يعودون إدراجهم إلى بيوتهم !! بعد أن رأوا بأم أعينهم أنهم مقدمون على أمر عظيم !! سيخوضون غماره تمحيصاً لما في نفوسهم، وما أدلوه من قبل من أحاديث عن حبهم لرسول الله ولوصيه علي ولولديه الحسن والحسين !!!

فقال سيدي الهفهاف للمجتمعين وأنا أقف في باب الخيمة بعد أن كففت دموعي بطرف عمّامتي:

- يا أهلي وأعمامي لقد قررت مواصلة طريقي صوب الكوفة، لاستقبال الحسين ومبايعته، فقد وقع المحذور الذي كنا نخشاه، وسال الدم بين الفريقين، وصار الحياض بينهما حراماً على كل مؤمن !! فمن يريد أن يتبعني إلى الحسين،

فأنا ماضٍ لمبايعته حتى لو كان ذلك على أسنة الرماح !! ومن يريد أن يؤثر السلامة، فهذا البر الرحب أمامه سالكاً للعودة إلى أهله وعياله. فعلت المهمة بين الشيوخ، وأكمل السواف، الذي أخبرنا عن مصرع مسلم بن عقيل:

— لقد عزل يزيد بن معاوية "النعمان بن البشير" والي الكوفة، وولى عليها إضافة إلى ولاية البصرة "عبيد الله بن زياد" وهو ماضٍ إلى حرب الحسين، ومنع مناصريه في الكوفة من اللقاء به !! وقد نصب "عمر بن سعد" قائداً لجيشه، وقد أعطاه وعداً من يزيد بملك الري إذا تمكن من الحسين بن علي بن أبي طالب وقتله، وأجهض قومه !!

وما أن خرج سيدي الهفاهف من الخيمة ليمتطي صهوة جواده حتى رأيت الشيوخ يعتلون خيولهم ومعهم أتباعهم ميممين إلى جهة البصرة !! ولم يبق قريباً من تلك الخيام التي تم نصبها إلا من أنشغل بطيها وجمعها، ووضعها فوق الركائب، ولم نجد أحداً يتبعنا أنا وسيدي الهفاهف. وأخذنا نطل على المغادرين من رجال القبائل، الذين كانوا بصحبتنا وكانوا قبل يومين نفوسهم مملوءة بالشوق والشجاعة لمبايعة الحسين بن علي بن أبي طالب قبل أن يدخل الذعر في قلوبهم عند سماعهم خبر مصرع مسلم بن عقيل وخذلان أهل الكوفة له !! لقد خافوا من الموت وغمر نفوسهم حب الدنيا، فجعلهم هذا يرتعدون خوفاً من الموت وحباً بالدنيا !!

ومن فوق مرتفع من الأرض الصحراوية كنت والهفاهف نرقب أنسحابهم صوب البصرة. كانوا يسرون بخط طويل مستقيم من البشر والركائب، وقد بدوا لنا وهم يسرون عائدين إلى البصرة مثل مجموعة كبيرة من البقر الوحشي في هجرة جماعية مذعورة تقودها فيها غرائرها. فسمعت سيدي الهفاهف يردد بصوت مسموع:

— " كلهم خاسرون !! خمسون ألفاً من الخاسرين !! خسروا دنياهم وأخرتهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله وللأسف أضعت وقتاً ثميناً في دعوتهم وجمع شملهم. اسأل الله أن أنال ثوابه ".

أبطئت السير حتى حاذى فرسي جواد سيدي الهفاهف، فقال لي:
— إلا تعود إلى عيالك يا مسعود فقد وفيت لي خير الوفاء جزاك الله خيراً، وكنت خير الأصحاب، فقلت له:

- كيف أتركك يا أبا سلمان ؟ أنت الأخ والريبب ومن مشى في ركابك أنه والله
لظافر في الدنيا والآخرة !!
فقال مصححاً:

- في الآخرة بإذن الله يا صاحبي سيكون جزاؤك كبيراً عند الله على وفائك لآل
بيت رسول الله !!

ورأيته يمسح دموعه بطرف عمامته. وسرنا على فرسينا خيباً على ضفاف
مستنقع البطائح، لم أكلمه. كان صامتاً وقد تجمع كل حزن الدنيا على قسّمات
وجهه وبعد ساعات من المسير توقفنا عند ظل نخيلات عجفاء على ضفة ساقية
عريضة، وجلسنا على العشب نطلب راحة قصيرة، قبل مواصلة مسيرنا، فقلت
للهفهاف معاتباً :

- لماذا أخفت قومك الذين صحبوك لمبايعة الحسين، ففروا راجعين إلى دورهم
ونسائهم!!؟!!

فنظر صوبي وكأنه يقول لي لقد انتظرت سؤالك طويلاً يا مسعود، قبل أن
يقول لي:

- يا مسعود إنما خرج معي الناس لمبايعة الحسين، وهذا الأمر أمر لا قتال
فيه، أما وقد بان الأمر واتضح في أن من يذهب لمبايعة الحسين سيقاتل أو
يسجن ويعذب !! فهذا شأن آخر، وكان عليّ أن أخبرهم بحقيقة الأمر، وأقول
لهم أنكم مقبلون على قتال جيش أبي عبيد الله بن زياد، وهذا جزاء مبايعتكم
للحسين، وكان عليّ أن أفعل هذا، وهذا ما يستوجبه الدين والشرع والأخلاق
أيضاً !! فلست من يخدع قومه أو يكذب عليهم ويضعهم أمام عدوهم ويقول لهم
دافعوا عن أنفسكم !! فيصير قتالهم دفاعاً عن النفس وليس دفاعاً عن قضية
يؤمنون بها ويضحون بأرواحهم في سبيلها، فقد سمعت من والدي يرحمه الله،
أن رسول الله بعث عبد الله بن جحش ومعه كتاب أمره ألا ينظر فيه حتى يسير
يومين، وفحواه أن " سر حتى تأتي بطن نخلة على اسم الله وبركاته، لا تكرهن
أحدًا من أصحابك على المسير معك، وأمض فيمن تبعك حتى تأتي بطن نخلة،
فترصد بها عير قريش، وتعلم لنا من أخبارهم"

والله يا مسعود لن أكرهن أحدًا على فعل غير مؤمن به، أن ما نفعله الآن
سيكون قضية الفصل بين الحق والباطل فوق الأرض من يومنا وإلى آخر
الزمان !! وستكون القضية التي قام من أجلها الحسين هي الفيصل بين نار
الحياة وجنتها، وبين الجنة والجحيم في الآخرة !!

صمت قليلاً ونظر صوب طائر رصاصي الريش يهدل فوق سعة صفراء في قلب نخيلة عجفاء وربما كانت فاخنة تنوّح بصوت عالٍ: " يا قوّقتي... يا قوّقتي "

وأكمل:

- عليّ يا مسعود أن أمحص دين المتطوعين على أمر عظيم، كأمر مبايعة الحسين، التي هي مبايعة للحق، والوقوف بوجه الباطل، فهذا ثمن وثمانه حيواتهم، أننا ذاهبان إلى أمر عظيم، فإن انتصر الباطل، فهو متسيد في هذه الأرض لآخر الزمان نعم لآخر الزمان، وأن نصرنا الحق فانتصرباذن الله. صار الناس يأكلون من فوقهم ومن تحت أرجلهم ولأخضرت الأرض من الكوفة حتى دمشق!! ولمشى الناس من هناك إلى هناك بأمان، لا يخشون لصاً ولا ضارٍ من ضواري الأرض، ولتسيّد المسلمون على كل أركان الأرض يأمرّون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا تسمع إلى أذان الإسلام في كل بقاع الأرض!!

فقلت متعجباً:

- إذا انتصر الحسين يحدث كل هذا الأمر العظيم؟!!!
- أي والله يا مسعود وأكثر من ذلك أكثر من ذلك كثيراً لآخر الزمان!!
صمت لحظات ونظر صوب الأفق وتابع:

- حين ودعتُ أم سلمان أخبرتها أنني ربما أعود أو لا أعود، فأرادت الاعتراض، فقلت لها، أنه الأمر الموعود، الذي انتظرته طويلاً، فأوصي ولديّ سلمان ومحمد أن يراعيّا من كان في معيتنا من القراء وشيوخ الجوامع، وأن لا يفرطوا بما فعله أجدادنا من شيوخ الأعمشة في إغاثتهم للملهوف ونجدة المحتاج، ونبذ العبودية وتحرير من أمكنهم من تحريره من العبودية، فالله خلقنا أحراراً ولسنا عبيداً لسوانا، وأن عالماً فيه الأسياد والعبيد هو أسوأ عالم، لا فرح فيه ولا مستقبل له وإيمانه ناقص. صمت قليلاً وهو يراقب الفاخنة مرفرفاً فوق مظلة السعفات، وذكر ما قالته زوجته له، ليلة وداعه:

- قالت لي يا مسعود: أمض يا ابن المهند فمثلك لن يضيعه الله!! أذهب إلى ابنة رسول الله وطمئنها بوجودك إلى جانب أخيها، فو الله أنت أولى الناس بمبايعته!! فأنت الحر الكريم الجواد ابن الحسب والنسب، فمن أولى منك يتصدر صفوف الحسين ويقف بين أصحابه وأهله ومحبيه؟!!! والله يا هفاهف أن تقف مع الحق وتنصره خير من حياة ذليلة تعيشها في أكناف دولة خليفتها

يزيد بما عُرِف عنه، وما لا يعرفه إلا الله !! وأن كنت تملك فيها كل شيء من أموال وخيرات، ولكنك بغير عزة النفس وسوددها، فلا قيمة لكل ما تملك ولا خير فيما تعيشه !! أمضِ رعاك الله برعايته !! وقد أعددت لك زاداً يكفيك، ومن معك طول الطريق إلى الكوفة، ووضعته في خرج فرسك الأبلق.

في تلك المرحلة من سفرنا على الضفة الأخرى من الساقية التي جلسنا نستريح عندها كنا نرى وحدات متتابعة من فرسان ومشاة من جيش عبيد الله بن زياد تمر متوجهة شمالاً نحو الكوفة، يحمل فرسانها رايات ورماحاً طويلة، تتبعهم عربات مؤونة الجنود وأخرى تحمل علف الركائب وأخرى تحمل جراراً، وكل ظني أنها تحمل جراراً من الخمر، فمعظم جنود وعرفاء هذه الوحدات تدمن الخمرة !! فلا تغمض عيونهم ليلاً إلا وقد أفنوا مطراً من هذه الجرار، فأذهبت عقولهم وأبصارهم، فهم كالبهائم يهرفون بما يعرفون ولا يعرفون !! نظر الههفاهف صوبي، وتنهّد وقال:

- هل اخطأ سيدي الحسن بن علي في صلحه مع معاوية؟! لا أظن أنه كان خاطئاً، ولكن أراد الله أن يمحصَ دين العُربان ويقومَ منهم من يقومه ويخزي من كان دينه علق على لسانه !! وكل ما كان يقال عن الإيمان ليس سوى لقلقة السنة لا تضر ولا تنفع في دفع الظلم وإقامة الحق مكانه !!

لم أجبه فقد قال الحق، ولم أجد ما أجيب به، سوى هز رأسي موافقاً لما قال. اضطررنا بعد أن سرنا ربع مرحلة للمرور من خلال طرق غير مسلوكة لا تقطعها مفارز جيش الأمويين، ولا تسلك الطريق المباشر المعروف إلى الكوفة، فعلق سيدي الههفاهف على مسيرنا في طرق غير سالكة، قريبة من المستنقعات، وعلى سواقي لا قناطر فوقها فنضطر عندها إلى العبور في المياه الموحلة بجوادينا، وأسوأ المراحل التي قطعناها في فترة الليل، فقد كان علينا أن نعوض ما سرناه في الطرق البديلة، لتجنب المرور على حراس وشرطة ابن زياد، فنضطر إلى قتالهم، وهم كثرة ونحن فردان، فيتكاثروا علينا، فلا نستطيع ردهم، ويخيب مسعانا، الذي خرجنا لأجله وهدفنا مبايعة الحسين بن علي بن أبي طالب بالخلافة والوقوف في خدمته، حتى يحق الله الحق وينصر المؤمنين أصابنا لفح الهواء الساخن في النهارات وسلقتنا بعرقنا شمسها القائظة، فاحترقت جلودنا وتغير لون وجهينا فغدونا أقرب للسواد !! ولا يمكن تفريق شكلينا عن عبيد نحيلين فارين من سيدهما !! لكننا لم نقل أف ولم نكره ما نحن فيه من عذاب، فلهذا الحسين محبة في قلوبنا لا يعرف سرها إلا العاشقون،

الهائمون بحب ما ألهموا محبته، كنت أشعر بهذا الحب من دون أن أترجمه إلى كلمات، ولكن سيدي الهفهاف، قال هذا مبتسماً، وكنا في طريقنا لمغادرة قرية المدشر، وصرنا قريبين من عتبة النواويس وقبور الصالحين المنتشرة حول القرية، وبحثنا هناك عن قبر سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فلم يرشدنا إليه أحد، فقد أمر بدفنه لولديه الحسن والحسين وبعض المقربين من أهله، وطلب منهم أن لا يدلوا على موضع لحدّه أحد، لغاية لم تُعرف، وعندما تعبنا من سؤال البطارقة والرهبان، الذين يسكنون في نواويس هذه المناطق عن روضة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فلم يجبنا أحد عما سألنا عنه. ولم تبق أمامنا سوى مراحل قليلة لبلوغ الكوفة، قال سيدي نعم للحسين محبة خاصة في نفس كل من رآه أو حدثه، والغريب أن محبته تمتع عن غضب الله عليه، وطرده من رحمته!! ما شاهدت أحداً من محبيه، قد غادرت الهداية قلبه، واطمأنت روحه بالإيمان وما رأيت فاجراً، منحرفاً عن دين الله الحق أحب حسيناً قط، فمحبته وربّي الفيصل بين هؤلاء وهؤلاء!! فهو لا يصاحبه منافق ولا يهواه فاجر أو قاسي القلب!!

وتابع فقال، بعد أن تنهد تنهيدة عميقة:

- يا مسعود إن قتلت في حب الحسين وأنت بقيت حياً، فإن الله ذخرك ليوم آخر أن تبلغ من يحبنا أن لا يتركوا ثأر الحسين!! فوالله أن دمه براقبنا جميعاً، فقد نادينا وطلبنا منه الحضور، وحين حضر لم نكن بقدر ما عزمنا عليه وقررناه على أنفسنا!! ولعل الله يتوب علينا جميعاً إن خذلناه، ولم نقم بما يجب لمبايعته ولم نسع بين يديه والتضحية في سبيل دعوته.

هذه وصيتي لك وأضيف إليها أن تحفظ هذا البرجمان حفاظك على نفسك وأهلك حتى تبلغ به مأمناً لتحتفظ به أجيال الأعمشة جيلاً بعد جيل، ويعرفوا من خلال صفحاته سيرة الهفهاف، وليطلعوا على حكايات ما عشناه من أجل أن ينتصر الإنسان ولا يصمت أمام ظالميه ومستعبديه، وتحريره من الخوف، وبعث أرواحهم وروح الأمة من جديد لعيش حياة كريمة، في ظل خلافة راشدة لا دولة مُلك تورث للأبناء والأحفاد الضالين، وأن يحسنوا فهم دينهم، الذي هو حياة وأفعال قبل أن يكون نصوصاً جامدة، لا معنى لها من دون فعل حميد.

يا مسعود أوصيك بالبرجمان إذا رايتني أقتل فلا ترفع سيفاً ولا تطعن برمح ولا تصب بنبل، فأنت والله تحمل في رحل فرسك ما هو أمضى من السيوف المجتمعة والنبال الماطرة والرماح النافذة، أنه البرجمان يا مسعود!! فيه

رسالة مهمة للناس ليطلع عليها الصالح والطالح، فيحسن عمل الصالح، ويتعرف الطالح على خسفه، فيصلح خطله، يا مسعود أنظر مصيري وما ستؤول إليه الأحداث، ولكن لا تشترك فيها بقتال!! فانت فرد مهما بلغت من الحذق والمهارة ولكن البرجمان أمة أفكار ستتقل جيلاً بعد جيلاً من ضمير إلى ضمير، ومن روح أبية إلى أخرى أكثر أباءً ونبلاً وتضحية، فيصان حق من ضحى حتى ولو بعد ألف سنة من سنوات الظلم والخسف والتعدي على حرمان الله وحقوق الناس، فإن قتالك الحقيقي يا مسعود في حفظ كلماتنا المبتوثة بالبرجمان، ونقلها إلى البصرة وعرضها على من يحفظها ويصونها، ويعيد بثها في كل عصر!! في كل لون، من ألوان الفكر والأدب شعراً وحكمة وفلسفة وسيرة، وأني لأظن أن أمر الحياة لن يؤل بعد أيامنا هذه سوى إلى جهاد طويل بين الأسياد والعبيد بين من يتبع سيرة رسول الله محمد ومن يتبع من اصطنع له هواه سيرة وديناً آخر له ذات الأسم وبمكنونات لا تختلف عما حارب المسلمون الأوائل لتغييرها.

هؤلاء يريدون أن يركبوا ظهور أولئك، فيحرمونهم الفيء والعيش الكريم، ويركبونهم كما تركب البهائم لغايات يبلغونها وحظاً ينالونه من الدنيا دون سواهم من خلق الله، فهم يحرصون أن يبقوا في أملاق وفي أعناقهم قيود الذل والعبودية... يا مسعود أنظر مصيري من بعيد وسجله في البرجمان!! ليعرف الأهل والأصحاب أن الحب موقفٌ وتضحية وليس لقلقة لسان وكلمات فارغة الروح تتردد في كل صلاة!! أو سلوى وراحة في عكوف طويل في بيوت الله. الحب أسمى من ذلك وأكثر جلالاً!! يرضاه الله ويرضاه المؤمنون بجمال وقدسية ما خلق الله في مخلوقاته بل هو جوهر الخلق الإلهي، وما بُعث رسوله الأكرم إلا لإظهاره وفرضه كظهور حقيقي ملا لا نراه، فهو يطهر الحياة من أدرانها ووحشيتها ويكسب المرء قداسة في حياته وبعد مماته. كدت أنشج بالبكاء وأنا أسمع كلمات الهفاهف، وقد بدا لي وكأنه يرثي نفسه، فقلت له:

- سنعود إلى أهلنا بعد أن نؤدي واجب البيعة للحسين، ولا اظنهم يجراون على سبط الرسول!! وسنرى في طريقنا إليه الآلاف المؤلفة من المبايعين يقفون معه كالسد المرصوص، يحيلون بينه وبين أذى جيش عبيد الله بن زياد، وأني لأظن أن من يقف عقبة لمبايعة الحسين لن ينسى جده الرسول الكريم، الذي أنقذ الأمة من الضلال والغي وذل الأمم الأخرى لنا من روم وفرس وأحباش،

وأني لأظنهم لن ينسوا فضل أبيه علي بن أبي طالب، وهو من هو من رسول الله ودين الله، وقد مكث بينهم سنوات، فعاشوا في ظل عدالته وورعه وزهده وعلمه، والله أنهم لحمقى أن لم يجعلوا سيوفهم وقبلها قلوبهم تحت قدمي سبط الرسول، فما قيمة مملكة أمام صفة واحدة ومن صفات الحسين؟ ما قيمة كل ما أقيم على الأرض من دول إن لم نول حسيناُ أمرنا؟ فالظلام سيعم إلى ما شاء الله أن لم نول حسيناُ أمر المسلمين!!

نظر بوجهي، وقال:

— يا مسعود ما قلته هو ما يشير به العقل السوي وأصحاب الحكمة البالغة، لكنني أظن أن فيهم راشدين وأهل حكمة وقول، لكنهم قليلو الحظ والإيمان!! وسيفرطون بسبط الرسول، وستضيع من أيديهم إلى الأبد فرصة نصره الحق، فإني والله آراه غريباً لا ناصر له ولا معين مسلوب العمامة والرداء يتلفت في صحراء الكوفة باحثاً عن ناصر ومعين، تجلله هيبة وكبرياء وصبر جده وأبيه على الأهوال، وليس أمامه غير ذلك، فهو لا يسلم إلى ظالم ولا يهادن باغياً كيزيد. وليس لهؤلاء العراقيين غير نصر الظالم، وإدخال الأمة في خراب من الظلم والعبودية لألف سنة وأكثر، فما أن يخيب سعي الحسين لإنقاذ الأمة وإصلاحها، فو الله سيخيب أمل مظلوميهها وستغدو أرض العراق أرض فتنة وبلاءات وأمراض، فلا يمر حول عليها من دون محنة أو جائحة تهز أطرافها من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها، سماؤهم لعنة وأرضهم نقمة، وشمسهم سعير لا ينطفئ، لا الأب فيها أب ولا الأخ فيها أخ ولا الكبير فيها كبير ولا العالم فيها عالم، الكل سيكذبون على الكل، شريفهم مرذول ومرذولهم يتريس عليهم، ليلهم ليل قارص ونهارهم لافح حارق، لا بركة في خبزهم ولا سلام يحل في أرضهم، الكل سيقاتل الكل، صغيرهم متممر، وكبيرهم خائف من جور قويهم هارب إلى حتفه، وسيكون هذا حالهم حتى يرث الله الأرض، سيندمون نعم، ولكنه ندم المنافق الذي سيعود إلى فعل ما ندم عليه إن أتته الفرصة ثانية، نادمون ولكنهم مقتولون بندمهم، مطعونون في دينهم مهما حاولوا أن ينكروا هذا، ما يقولونه عن الله والإيمان لعق على ألسنتهم حيث تدر عليهم معاشهم لا أمان لهم، ولا ذمة، وبعد الحسين ستأكلهم الكلاب المسعورة أينما وجدوا أو حلوا."

تعب سيدي الهفهاف من الكلام فصمت صمتاً طويلاً وسرنا صوب الكوفة مرحلتين، فصادفنا بعض الرعاة، فسألهم سيدي الهفهاف عن أحوال الكوفة،

فاعرضوا عنا ولم يجيبوا، ولكن سيدي لوح لهم بصرة من الدراهم !! فقال كبيرهم:

— أن الحسين حسبما سمعوه من قبيلتهم التي تسكن في الجوار لم يبلغ الكوفة بعد !! فقد منع من المرور وحوصر في مكان قريباً يدعى كركبيب، ويدعوه البعض " كركميش " وقطع جيش الأمير الأموي الحر بن زيد الرياحي الطريق عليه، فلم يسمح برجوعه إلى مدينة جده رسول الله، ولم يتح له الدخول إلى الكوفة، وأن جيش عمر بن سعد دخل الكوفة وجمع عمالها ومختاريها، وإعلن النفير العام لنصرة واليها الجديد عبيد الله بن زياد، ووزع على من حضر وقبل الانضمام إلى جيشه لمحاربة الحسين وأصحابه الأموال ووعدهم بمثل ما أعطاهم عند انتهاء الأمر من الحسين وأصحابه، وكبح جماح فتنته، ومبايعته لأبن عمه يزيد بن معاوية، وأن مع الحسين أكثر من ألف فارس وخمسمائة راجل، وهم يرفعون راية رسول الله التي رفعت في معركة بدر.

وأن قلوب أهل الكوفة مع الحسين وسيوفهم عليه !! ومعظم أهلها يقولون: "مالنا والدخول بين الملوك، ولماذا نخوض حروبهم على كرسي الحكم، ذاك ابن خليفة وهذا ابن خليفة، مالنا والدخول بين أميرين يتصارعان من أجل الملك، فلننعم بعطيات عمر بن سعد ونأخذ جراياته، ويفعل الله ما يشاء !! " ومن اعترض وبان من أفعاله التمرد والخطر وسوء النية أمر ابن سعد وواليها الوليد بن عتبة ضرب عنقه أو سجنه في إحدى طامورات الكوفة تحت الأرض، وأكثرها ظلمة وسوءاً الطامورة الرئيسية، القريبة من الكناسة، فأهلها لا يرون شمساً ولا نجوماً، يعيشون ظلاماً دامساً وسط الآهات وأصوات التوجع، وأصوات قرقعة السلاسل الحديدية التي تقيد الأيدي والأقدام !! وينالهم ضربات موجعة من مقامع الجلادين، فإن كنتم ممن تريدان نصرة الحسين، فعليكما بالحذر الحذر من عيون عبيد الله بن زياد !! فقد نشر عيوناه على طول الطريق الواصل إلى الكوفة، وحتى صحراء كركميش، ويكفيهم إطلاق سهم ناري فيشع في ظلام الليل، حتى يأتيكم الفرسان من كل جهة، فلا تعرفان أين توليا وجهيكما !!

لم يسمع سيدي الهفهاف المزيد من حديث الرعاة، فهمز جواده، فأسرع الجواد يسابق الريح في عدوه وخلفه جوادي، كنا نسبق الزمن لبلوغ كركميش، ولقاء الحسين قبل أن يقطع الطريق علينا فلا نصل إليه أبداً، وما أن

بلغنا سدة نهر ازعيلان حتى شاهدنا خمسة من الفرسان يتبعوننا، ويحمل
مقدمهم راية جيش عبيد الله بن زياد، وسمعنا مقدمهم ينادينا:
- توقفا .. إلى أين تمضيان !!؟
فقال لي سيدي الهفاهف:

- لا تستمع لهذا الجلف الأجير عند عبيد الله بن زياد !! وأهمز جوادك ليسرع
أكثر، فأخذ الفرسان الخمسة يزيدون من سرعة جيادهم ليبلغوننا، وأخذنا نهمز
جوادينا، فنزداد سرعة، والغبار يحيط بنا ويحجبنا عن رؤية الفرسان، وما أن
بلغنا بساتين كوفان، وإقطاعات المزارعين القريبة من نهر الفرات، فعرفنا أننا
استطعنا تضليل متابعينا، وسمعت سيدي يقول ونحن نخفف سرعة جوادينا:
- والله يا مسعود لولا استعجالنا للوصول إلى الحسين، لما تركت هؤلاء
الأجلاف إلا مجندين في هذا البيد !!

وأخذنا نتوغل بين صفوف النخيل وأعواد القصب الكثيف، الذي يزداد كثافة
وعلواً كلما اقتربنا من النهر وسواقيه الكثيرة المتفرعة، التي تسقي قطاعات
مزارعي كوفان على طول نهر الفرات، وما أن بلغنا الجانب الضيق من النهر،
حتى خاض فيه الجوادان، فغطت المياه صدري جوادينا وخضنا في النهر حتى
وصلنا إلى الضفة الأخرى، فسرنا غير بعيدين عن الضفة، قاصدين أرض
كركميش، وسالت سيدي:

- أظن أن اسمها قرقميش الأرض التي نقصدها ؟
فسمعتة يجيب، وظلال سعفات النخيل تجلج وجهه ونسمات من هواء رطب
تملأن صدرينا.

- الأحبار والكهنة والقساوسة من سكنة النواويس يسمونها قرقميش، لكن
عرب البادية يسمونها كركميش وبعضهم يطلق عليها كربلاء لسهولة اللفظ
وجزأته، ولكن معظم أهل الكوفة يطلقون على تلك الأنحاء منذ القديم كركميش.
وانطلقنا في سير حثيث بمحاذاة النهر، متجنبين الاصطدام بمجموعات من
جنود عبيد الله بن زياد تأتي بجحافل من جهة المدائن للالتحاق بجيش بن زياد
في الكوفة، وكنا حين يبلغ بنا الظم والأعياء مبلغه، ويحل وقت الصلاة نترجل
عن جوادينا ساعة، فنغسل وجهينا بماء النهر ونعب الماء بأكفنا حتى نرتوي،
ونتوضأ ونصلي، وبعد الصلاة نبرد جوادينا بدلق الماء عليها وتركها ترعى
لتشبع فلا زالت أمامنا عدة مراحل للقاء الحسين.

وواصلنا المسير بعد ساعة راحة، وكانت الشمس تؤذن بالغياب شيئاً فشيئاً، والأفق يصطبغ بلون أحمر كامد، كلون الدم الخاثر، والأتربة ملأت الأفق، وبدأ كما لو أن يوم القيامة قد حل، فقال سيدي الهفهاف معلقاً على ما رأينا:
- عاصفة تراب صحراوية قادمة من الغرب، لكنها لن تثبتنا عن المسير خلال الليل، فعلينا أن نبلغ موضع الحسين وأصحابه، فوحده الله يعلم ما جرى عليهم، مع ما شاهدناه طوال رحلتنا من تحضيرات وحشود لجيوش ابن زياد. أن ما سيحدث أمر عظيم، وعليّ أن أشهده، فلا يفوتني ما سيقع، وأكون من الناديين لحظي مع الناديين.

كنت أرى وجه سيدي يتغير لونه وشكله كلما تقدمنا مرحلة جديدة من كركميش، فقد أخذ لون وجهه يتغير إلى بياض موشى بحمرة خفيفة، ولحيته تزدان بالفضة وعيناه تشعان بألق غريب، وروحه كأني أراها تسابق حركات الجسد بل أنها تنفصل عن جسده لتسبقه، فأرى هيتين للهفهاف، أحدها تسبق الأخرى، فكنت أمسح عيني واعزو في نفسي ما أراه للتعب الذي عانينا منه طوال رحلتنا العجائبية هذه، وأخذت اتساءل، هل من أصحابه هو سيدي الهفهاف أم هو شخص آخر؟ وأخذت أشكك بما أرى من تغييرات على شكله وثيابه!! فحتي الثياب أخذت تشع بأنوار لا يستطيع أن أفصلها عن نور القمر حين يكون بديراً، وما أن شاهد الهفهاف في عيني نظرات الاستغراب، قال:
- ماذا بك يا مسعود لماذا تنظر لي هكذا؟

فقلت له مبتسماً:

- أرى تغييرات شتى في هيئتك، وكأني أرى شخصاً آخر لا اعرفه، أكثر فتوة وأقوى عزماً وأشد فرحاً، حتى مما كنت فيه حين أطلقنا سيدي المهند يرحمه الله من أسره!!

ابتسم الهفهاف وقال:

- لا تعجب يا مسعود، أنها فرحة قرب اللقاء بالحسين، أنك لم تعش معه كما عشت أنا في مدينة جده أو في الكوفة.. لهذا الرجل منذ طفولته نور القلب ورجاحة العقل، ونبيل المشاعر، وكرم الأخلاق، وقد اقتبس من لطف جده رسول الله، وأنت قربه تنسى أمك وأباك وأهلك وكل ما عشته!! وستعيش لحظات استثنائية لا أسعد منها وستبقى تلك اللحظات في مخيلتك، كأنها مقتطعة من لحظات حلم سعيد!! والله لو عرف الحكام سعادة الاقتراب من الحسين لحاربونا بالسيف والرمح وزاحمونا عليها لأجل نيل عشر ما نناله من سعادة القرب منه

ثم سألتني:

- أجريت حب أمك وأبيك وحبهما لك؟

- نعم أي والله جربته وعشته.

- هذا الحب الغزير مجتمعاً من المحب والمحبوب معاً تجده في شخص الحسين بن علي بن أبي طالب، وأني لأراه رجلاً عظيماً في الدنيا والآخرة!! فاز من أحبه في دنياه وآخرته، وخسر من لم يعرف حبه، وعجبت لمن يعاديه، فهو لا نظر عنده ولم يفهم شيئاً من قيم الحياة قبل فهمه الإسلام ولم يدخل الإيمان قلبه قط!!

حل الصمت بيننا وجوادانا يخبان باتجاه كركميش، وقبل أن يحل الغروب بقليل شاهدنا خيمة لبدوي من قبيلة السويلم النبطية، فقصدنا خيمته لتأدية الصلاة قبل مواصلة طريقنا.

استقبلنا شيخ كبير السن يتوكأ على عصا قصيرة، فيميل إلى الشمال كلما مشى، ورحب بمقدمنا، وقدم لنا جرتي حليب من عنزة له شاهدناها مربوطة عند وتد خيمته، وبدأ لنا أن تلك العنزة كل ما يملك الشيخ في هذه البدياء، سألتنا الشيخ بعد أن ارتويينا مما سقانا، عن مكان قدومنا، فأخبره سيدي الهفاهف، فأجابه سيدي، فرحب بنا الشيخ مجدداً، وسألنا عن غاية مسيرنا، فأخبره سيدي، أننا ذاهبان إلى الحسين ابن رسول الله!! فصمت قليلاً وتكلم بعد ذلك، فذكر لنا أن شيخاً طاعناً في السن يقترب عمره من المائة سنة مرّ بخيمته قبل ثلاثة أيام قادماً من الكوفة ومعه عبد أسود، وعرفت منه أنه ذاهب إلى كركميش، وسألته أيضاً عن هدف مسيرهما، فأخبرني أنه ذاهب وغلماه إلى نصرة الحسين بن علي بن أبي طالب بعد أن خذله من بايعه من أهل الكوفة!! وحاول الشيخ أن يتذكر اسم الشيخ الذي سبقنا، وذكر أنه كبير بني أسد، وهذا ما أخبرني به غلامه، فقال سيدي الهفاهف:

- والله أنه "الحبيب بن مظاهر الأسدي" فهو شيخ جليل يقترب من المائة سنة، وهو سيد بني أسد وشيخهم. وهو يا عم أسد الأسود رأيتَه يحارب في كل معارك الخليفة علي بن أبي طالب، وكان في كل معركة يطلب الشهادة ولا ينالها!! ويسأل سيدنا علي عن موعد نيته الشهادة، فيرد عليه علي، سمعت من رسول الله بأوصافك وهيئتك وذكرك الطيب على لسان الرسول يخبرني أنك ستنال الشهادة مع ولدي الحسين في يوم كريمة من مكاره الدهر، وأكثرها فيصلاً للرجال والنساء بين الجنة والنار وستكون يا مظاهر ممن اختاروا الجنة

وفازوا بها!! فلا تسألني متى الشهادة؟ ولا تستعجلها فهي قادمة إليك كعروس حرة تنتظر عريسها، وعند حلولها ستفرح بنبأها وسيوفها ورماحها التي ستقطع بدنك!! وتكون عند رسول الله مضرجاً بدمك!!
صن الشيخ قليلاً وقال:

- الشيخ تجاوز المائة، فأى قتال يستطيعه وهو بهذا العمر؟
فإجابته سيدي بأن لكل حادثة من حوادث الزمان ما يبررها ويستوجبها الحال يا شيخ.

وبعد صلاة المغرب والعشاء التي صليناها قصراً وجمعاً، ورأى الشيخ أصرارنا على السير إلى الحسين، فأرشدنا إلى الطريق الذي علينا أن نسلكه لنصل إلى مبتغانا، وكنا قد قطعنا مراحل الطريق بشكل خاطيء، مما أبعدنا عن موقع الوصول إلى الحسين وأصحابه!! ولكن الشيخ كان عارفاً بكل الطرق التي تؤدي إلى الموقع، الذي حوصر فيه الحسين وأصحابه من جيش الأموي الحر بن زيد الرياحي، وطلب منا لكي لا ترانا عيون ابن زياد أن نجعل من الليل وقتاً لقطع ما تبقى من مراحل الطريق، وأن نخلد إلى الراحة في النهار، وهكذا فعل حبيب بن مظاهر الأسدي، وغلماه ليتجنبنا جيش بن زياد.

فخرجنا من خيمته واعتلينا جوادينا ومضينا على الطريق الذي أشار به علينا مضيفنا الشيخ، وكنت اسمع بين الحين والآخر سيدي الهفهاف يردد إرجوزة كانت ترددها أمهاتنا لأطفالهن وهن يهددهنهم في أسرة الخوص ليناموا، وقد أثنهم لسع الناموس وسلخ جلودهم حر الصيف:

" يا شبيل .. يا شبيل

أهديتك فداء للرسول يا شبيل..

أمك ما تنام الليل .. يا شبيل..

نم قرير العين يا شبيل

عينا الرسول تحميك ... يا شبيل

يا شبيل يا نور العينين

صل على الرسول وقل آمين

يا شبيل يا بهجة الروح والعين "

كنت اعرف أن كلمة " شبيل " هي تصغير لأسم شبل الأسد. وواصلنا السير طوال الليل، وما أن لاح الفجر، وهو يوم العاشر من محرم، وقد قطعنا شأواً من مسيرنا إلى كركميش ترجلنا عن جوادينا قرب مخاضة من مخاضات الفرات،

فتوضأنا وصلينا، وقد شاهدنا خلال الليل مقدار انتشار جيش الأمويين حول الفرات، واللسان الصحراوي من خلال نبال النار التي تطلق في السماء كرسائل بين وحدات ومفارز جيش ابن زياد، وكان بعضها للتنبيه من وجود مناصرين يقصدون الحسين وأصحابه !! أو عند الأشتباه بقافلة تمر من هناك مصادفة قاصدة خرسان أو منطلقة صوب بلاد الشام، فهم بهذه الإشارات الليلية ينبهون إلى ضرورة تفتيش القافلة، ومعرفة مقاصدها من المسير وحرف اتجاهها لئلا تعطل مسير الجيش.

تذكرت نصيحة الشيخ البدوي التي أوصانا بها "أن نخذ إلى الراحة في النهار لئلا يرانا أتباع عمر بن سعد وعيونه" فأخبرت سيدي الهفاهف، وأنا أشاهد مدى حاجته للنوم ساعة أو ساعتين، ليسترد نشاطه، ولكن الهفاهف حالما فرغنا من صلاة الفجر امتطى جواده لنواصل المسير، فلم أقل شيئاً، ولم نسر سوى مسافة قصيرة، حتى مررنا ببيوت مهدمة وأخرى محروقة ولا يزال الدخان يتصاعد من خرائبها ونساء وأطفال شاردين فوق ركائبهم، وقد وضعوا فوقها النزر القليل من المتاع والأغطية، وعرفنا من بعضهم أنهم البقية الباقية من شواهد قبيلة بني أسد، وقد مر بهم شيخهم حبيب بن مظاهر الأسدي وطلب منهم نصره الحسين وآل بيته، المحاصر من قبل جيش عمر بن سعد في القاذرية على بعد عدة فراسخ من مضاربهم، فتهياً معظم رجال القبيلة لمصاحبة شيخهم لنصرة الحسين ولكن أثناء نفيهم للخروج، أطبقت عليهم فرقة من فرسان جيش عمر بن سعد وصلهم خبر تحشيدهم لنصرة الحسين من أحد الوشاة في القبيلة، ولم يشعر الرجال بعدوهم القادم، فقد ربط فرسان جيش ابن سعد حوافر وقوائم خيولهم بلفافات من الخيش، فلم يسمع بنو أسد ديبب الجيش ووقع حوافر خيله على الأرض، فأصابوهم على غفلة وتكاثروا عليهم بمدد من المدائن، ففرّ من فرّ وقتل من قتل، وأحرق جنود بني سعد دورهم وسرقوا دوابهم، وما خف وزنه وثقل ثمنه من متاعهم، وغدا الباقون من القبيلة شرادات في أصقاع البيداء يطلبون النجاة من هذا البلاء، وهؤلاء الذين تراهم ما تبقى من الفارين، الذين عادوا لينقذوا ما تبقى من متاعهم الذي أحرقت النار، وهم غادون صوب مساكن قبيلتهم الرئيسية قرب بطائح الفرات ليطلبوا منهم الغوث، وسألهم سيدي الهفاهف عن مصير الصحابي مظاهر بن حبيب الأسدي، وكان خائفاً إن إصابه مكروه، فأخبروه أنه لم يصب وغادر مكان المجزرة إلى القاذرية مكان تخيم الحسين بن علي بن أبي طالب،

وأصحابه بعد أن تيقن أن قضاء الله قد حل بهم، وأن الله كتب أمراً، لا سبيل إلى تغييره أو الأفلات منه أو رده !! فحمد الهفهاف الله على سلامتهم وسلامة شيخهم، وذكرهم أن الله بالغ أمره مهما كاد الكائدون أو حاول من حاول، فأمر العالم ومستقبله يتقرر على هذه الأرض هذه الأيام !!

وواصلنا المسير باتجاه القاذرية وقلباناً ينبضان شوقاً لرؤية ابن رسول الله والاستئناس بما يشير علينا به. قال سيدي الهفهاف:

- الحرب واقعة لا محالة يا مسعود بين جيش الأمويين والحسين بن علي وأصحابه، فقد سال الدم من بني أسد وهذه علامة من علامات حرب واقعة لا ريب في هذا !!

فقلت محاولاً تهدئة غضبه:

- لن يجرأوا على ابن بنت رسول الله !!

نظر بوجهي نظرة لن أنساها ما حييت، وقال:

- يا مسعود هؤلاء لا يعترفون بدين ولو كان الرسول حاضراً لحاربوه وهم يعرفونه يقيناً رسول الله وخاتم أنبيائه !! هؤلاء دينهم الدينار والدرهم، وقد جعلوا السلطة سبيلهم لهذا، وفعل كذلك من تبعهم من العوام، فقد تبعوهم خوفاً أو طمعاً أو أملاً بجاه أو منصب !! وأرجو أن لا تعجب كل العجب، فقد كان الرسول حياً وصارت المدينة ومكة للمؤمنين وأغلب الجزيرة العربية، وكان وقتها في المدينة ومكة آلاف المنافقين !! والرسول محمد يعرف هذا !! وقد بذل الجهود واستطاع أن يعيد ألفاً منهم إلى الإيمان والدين الصحيح !! أما من بقي على نفاقه فالآلاف غيرهم، وهؤلاء تضاعف عددهم في زماننا فلا تعجب من التجروء على ريحانة الرسول الحسين بن علي بن أبي طالب !!

وما أن بلغنا مسقى الفرات حتى ظهر لنا حشد كبير من عساكر الأمويين وهم يتهيئون لعبور المسقى باتجاه القاذرية، فترجلنا عن جوادينا، واختفينا في منخفض الأرض لكي لا ترانا عيونهم، وكانت أصوات أحاديثهم تصل إلى أسماعنا، وبدوا لنا مستعجلين ومرتبكين، وبعضهم يلوم الآخر صارخين، وكان أمراً عظيماً وقع عليهم، أو تم طلبهم لأمر عظيم، وأخذت أرتالهم تتابع، فصيل بعد فصيل، مدججون بالسلاح والدروع والشمس تشوي الوجوه. تمت سيدي الهفهاف:

- علينا الاستعجال يا مسعود أن الأمر العظيم يوشك على الوقوع، لقد قدر الله وما شاء فعل، أني لأظن مع ما رأيت من وقائع أو سمعت بها أو عشتها، وكلها

تشير إلى أن الله يريد أن يفعل الفاعلون ما فعله أصحاب ناقة صالح بالناقة، ليحل بعد فعلهم الشنيع غضبه وانتقامه !! أريد أن لا يفوتني شيء مما أدرني الله له !!
فقلت له مهوناً الأمر:

- يا ابن سيد عرب البصرة أن ظهوروا علينا ضاعت منا الفرصة وضيعنا ما بذناه من جهود طيلة الأيام الماضية، فعلينا بالصبر حتى يمضي هؤلاء الأوغاد ويخلون لنا الطريق.

فصمت الهفاهف على مضمض. ارتفعت الشمس إلى كبد السماء، وكنا نسمع جعجة الدروع وصليل سنابك الخيل، وهي تعبر في خبب رتيب، متوجهة صوب القاذرية، ومدد الجنود لا ينقطع عن المرور، ومن الشرق علت غمامة أتربة كثيفة أثارها حوافر الخيل، ووقع أقدام الراجلين من الجيش الأموي، وهي تسير على حصباء القاذرية، وما أن مضى آخر جحفل من جيش عمر بن سعد، القادم معظمه فيما يبدو من معسكرهم الدائم في المدائن، حتى صارت الشمس عمودية وحل وقت صلاة الظهر، وكنا نحمل القليل من الماء فتوضأنا به، لئلا نكشف وجودنا لجنود الأمويين، الذين أقاموا لهم موقفاً قريباً من النهر لسقاية القطعات المتقدمة، وارشاد ما تبقى من فصائل متأخرة من جنود المدائن إلى موقع التحشد في القاذرية. التي كان من المخطط أن تتم مواجهة الحسين وأصحابه، وإجبارهم على الرضوخ والاستسلام لرغبة يزيد بن معاوية. صلينا صلاة الظهر والعصر قصراً وجمعاً، وبعد الصلاة قال سيدي الهفاهف مبتسماً ووجهه يشع بالفرح:

- هذه آخر صلاة أؤديها يا مسعود، اسألك أن تبرء ذمتي وتعفو عني إن كنت قد أخطأت معك يوماً خلال عشريننا الطويلة !! ولا تنسى وذكر غيرك بأن الحسين بن علي بن أبي طالب فكرة عبقرية إبداعها حاجتنا لمثله !! قبل أن يكون بشراً يحيا ويموت وينسى !! هو فكرة عظيمة يا مسعود ابتدعها الورع في الإسلام والكرم والتضحية بالنفس والفقہ والعلم والشجاعة والأصالة العربية !! فكرة عن كل شيء جميل في الحياة ويمكن نثق بها كدواء لما نعيشه من أمراض الظلم والاضطهاد والعبودية والتسلط، ونرجو أن نعيش هذه الفكرة نحن وأحفادنا ومن يأتي بعدنا !! وإلا فالحياة لا معنى لها ولا تعني إلا كما تعني الحياة للبهائم، فهي من الزريبة إلى المرعى ثم بعد أن تسمن تؤخذ إلى الذبح لتقدم شهية على موائد السلاطين والظالمين !!

فانهملت الدموع من عيني، وأجبتة:
- يومي قبل أن أرى يومك يا ابن الطيبين.
فقال بحسم:

- لا يا مسعود ستبقى حياً بإذن الله، فأمامك مهمة توصيل برجماني هذا إلى البصرة !! فالأمر إلهي ولا يستطيع أحد رده، أن تدابير الخالق واضحة من أول خطوة خطاها الحسين وآل بيته وأصحابه باتجاه الكوفة أن !! الأمر محتم وقوعه، ولا بد منه لدين محمد، ففداء إسماعيل بكبش عظيم، ورفع سيدنا عيسى إلى السماء ومنع الكافرين من إهراق دمه، فهما لهما فدائهما البشري بتقديم كبش الرب "الحسين بن علي بن أبي طالب" سبط محمد، "الذبيح المقدس" الذي ينتظر المشاركة في إنقاذه من قاتليه ونصره على أعدائه، المؤمنون من اليهود والنصارى والمسلمين، وهذا أمر يطول شرحه في هذا الوقت وهذا المكان. مهمتك يا مسعود أن توصيل برجماني هذا إلى البصرة. تناوله مني الآن وضعه في رَجُل جوادك !!

أخرج سيدي الهفهاف البرجمان من رَجَله وقدمه لي. كان البرجمان الذي تناوبنا الكتابة على طواميره وكل طأمور من تلك الطوامير، فرجة حياة، وفيها نحكي ما حدث لنا طول السنوات الماضية، وقد غُلف البرجمان من الخارج بلحاء شجر سميك، ليحفظه، وأحيط بجلد خروف سميك حريف الرائحة. تناولته منه وشعرت بثقله، فوضعتة في رَجُل جوادتي، وسمعت الهفهاف يؤكد عليّ:

- أوصله إلى البصرة إلى ولدي سلمان ومحمد، فهذا برجماني هو جسدي الحي، الذي لا تفنيه الأيام والدهور، هذا جسد من كلام وأحداث سيتداول مضمونه الأولاد والأحفاد وأحفاد الأحفاد إلى ما شاء الله، هذه وصيتي لك فلا تستهن بما أوصيتك به وافعل ما طلبته منك بأخوتي لك لا تخذلني في طلبي هذا ولم أستطع الإمساك بدموعي فانهملت من دون أن أمسحها بطرف سائب من عمّامتي. ركب الهفهاف جوداه بقفزة واحدة بحيوية شاب في العشرين من عمره، ففعلت مثله، وأسرعنا بجوادينا صوب القانرية. وما أن سرنا قليلاً حتى بدأنا نسمع ضجة عظيمة ولغظاً غير مفهوم قادم من الغرب، ورآينا غمامة من الأتربة الحمراء التي أخذت تصبغ الأفق وتتصاعد إلى السماء. فاعتقدنا أن يوم القيامة قد حل وأن مقدماته أخذت تبدأ بالظهور واحدة بعد أخرى، قبل أن يطبق على الكون الخراب العظيم !!

كنا كلما تقدمنا إلى الأمام خطوات صوب القاذرية تكاثف الغبار الأحمر، وليته كان غباراً بل كان غباراً دقيقاً مدافاً بالدم، فيه لزوجة شديدة، فيلصق بالوجوه والأيدي، وبدأنا نقشطه عن وجهينا، كما نزيل زبداً أحمر، له رائحة الدم، فأخذ الخوف يحيلني إلى قطعة قماش بالية تعبت بها الريح، لم أكن أستطيع منع كفي من الارتجاف!! وأقول لنفسي هامساً " أن للموت رعدة وله في النفوس سلطان!! ومن مظاهره، ارتعاش الأبدان وهبوط في القلوب، وحرارة في الصدور، وجفاف في الأفواه، وقرقرة في البطون لا تهدأ."

كان وقتها فرس سيدي الهفهاف يسبق فرسي، وكان الهفهاف غير هياب لما ينتظرنا من مصير، كأنما هو ذاهب إلى عرس، وليس إلى أسنة الرماح وبواشط سيوف، وصفير نبل قاتل، يا الله كلما تذكرت تلك اللحظات عرفت أكثر ما معنى قوة الإيمان!! أنها قوة قاهرة لا يملكها ولا يعرفها إلا من كان قلبه عامراً بها!!

وأخذنا نسمع دمدمة الجنود وصراخاً لنساء وبكاء لأطفال، ونداءات عالية، مختلطة بأصوات قرع طبول الحرب، تهز الصحراء!! وتجفل من قرعها العضاءات وزواحف البيداء، كنت مرعوباً، ونحن نصل إلى أرض المعركة. كان ذلك الميدان يدعى من أهل القاذرية بأرض الطف!! ولم يكن يفصلنا عن رؤية موقع المعركة سوى تل رملي مرتفع.

وما أن اعتلينا الهضيب الرملي بجوادينا، حتى شاهدنا منظرًا مرعباً، مجللاً بالدم وبالأجساد المجدلة فوق الرمال، والخيول المبتورة الأطراف!! وصفوف الجنود المترأصة، وعيونهم مصوبة إلى نيران متصاعدة من هنا وهناك لخيام محترقة، رماحهم شاكة ورايات خضر، وعلى مرمى نشاب منهم كانت الخيام المحترقة، ودخانها الأسود يعلو إلى عنان السماء، ويجوس بين أسنة النيران فرسان، وهم يطاردون نساء متلفعات بالسواد وأطفالاً يحاولون الهرب من النار وخوفاً من حممة الخيول وصهيلها!!

وكان بعض الجنود الراجلين يسلبون ما في الخيام، من ثياب وحوارج، فلم يطل الهفهاف الوقوف بل تقدم مسرعاً قبلي، فوصل إلى أقرب فصيل من جنود عمر بن سعد، فتوقفت أراقب ما يدور تاركاً بيني وبين سيدي الهفهاف ثلاثين ذراعاً حسبما أوصاني بهذا سيدي الهفهاف وشدد عليّ في طلبه هذا الأمر بالرغم من توسلي إليه أن يتركني أشاركه القتال، لكنه قال لي بحزم وقتها "ما ستفعله بعد استشهادي أكثر نفعاً من استشهادك معي!! ودورك سيكون أعظم

يا مسعود في نصره الحسين وقومته اليوم، وبعد ألف عام وأكثر من ذلك، بما ستقوم به بإنقاذك ما تحمل من أمانة غالية في رحل جوادك، برجمان سفير البصرة الهفهاف الراسبي، رسالة قومة أمة وأئمتها للسمو والارتفاع عالياً بين الأمم. " كان كل جسدي يرتعش خوفاً على سيدي ونفسي، أنه يوم القيامة بحق وهذه مقدماته، اللهم نجنا، مما نراه !!

وسمعت أحد عرفاء فصائل جيش عمر بن سعد يصرخ بسيدي:
- مَنْ أنت أيها الفارس؟ هل أنت معنا أم مع الحسين؟
فصرخ به الهفهاف:

- أنا الهفهاف بن مهند الراسبي، شيخ أعامشة البصرة جئت لنصرة الحسين بن علي بن أبي طالب !!

سمعت أحد الجنود، ويبدو أنه من قبيلة الأعامشة، يقول بصوت عالٍ لعريفه:
- هذا الفارس من قبيلتي !!.. قبيلة الأعامشة .. نعم هذا سيدها وشيخها، فاتركني أرشد ابن عمي إلى سبيل النجاة، وأنقذه من الموت المحتم !!
فسمح له عريفه بالخروج عن الصف ليحدث سيدي الهفهاف، واقترب من سيدي وسلم عليه وعرفه بنفسه، فرد سيدي تحيته بفتور، فقال:

- يا ابن عمي مرحباً بك، وقد خرجت لك لكي أحقن دمك، فمن جئت لنصرته انتقلت روحه إلى خالقه !! وكذلك آل بيته وأصحابه جميعاً، قبل ساعة من قدومك !! ولم يبق من حزبه سوى الأطفال اللائذين خوفاً من سنابك خيلنا أن لا تدوسهم فتجري أجسادهم بحفر البيداء وكتبانها، وما تسمعه الآن، هو عويل من صحبه من النساء !! وهن يحاولن أنقاذ من تبقى في الخيام المحترقة من الأطفال والعيال، والعاجزين عن القتال. خيام صاحبك سُلبت وحُمِل ما لديهم من ثياب ومتاع فصار غنيمة لجنود الصفوف الأولى. مَنْ جئت لتنصره لم تعد له قائمة لتزيق دمك من أجله !! فأمض أنت وصاحبك وعدّ إلى أخماسك سالماً !! لا عين رأت ولا أذن سمعت !! وفي هذا نجاتكما !! ولو لم تكن شيخي وأبن شيخي لما سعيت لك هذا السعي، ولما جازفت بالظهور كأحد أهلك، وتحملت مخاطرة تتيح للوشاة من هذا الجيش العرمرم أن يشوا إلى عمر بن سعد قرابتي لك !! فيحرمني من جائزة النصر على الحسين وأصحابه، وقد وعدنا بها، حين يتم وأد فتنة الحسين ويولى مُلك الأمير سعد مُلك الري الذي وعده به يزيد بن معاوية كجائزة لقتله الحسين بن علي بن أبي طالب.

وسمعت سيدي يرد عليه:

- ثكلتك أمك يا من تدعي أنك ابن عمي !! واعلم أنكم بقتلكم الحسين قد قتلتم أنفسكم وذرائعكم!! وضيعتم مستقبلكم وصرتم هدفاً للقتل والسبي، وقد حطت عليكم وعلى الأرض التي تربيتم عليها لعنة الله الأبدية !! فلا يمر عليها حوّل إلا وهي منتقلة من بلاء إلى بلاء أشد منه !! تقتلون ابن رسولكم، وتقولون درأنا الفتنة والله الفتنة سيدكم يزيد ومن نصره، وما أنتم إلا أكباش ترعى لساعة وتقاد للذبح ولكم في الدنيا خزي وفي الآخرة عذاب مقيم.

ما قولكم لجدّه حين يسألكم لما ذبحتم سبطي؟ وأي جريرة اجترحها ليراق دمه ودم أهله وأصحابه؟ أتظنون أن الجائزة التي وعدكم بها عمر بن سعد ستكون مقابلاً معقولاً للعار الأبدي والعذاب الأبدي الذي أنتم مقدمون عليه!! أنا بريء منك يا من تدعي بأنك من دمي ولحمي !! أتشارك في قتل ابن رسول الله وريحانته وتفتخر بأنكم فعلتم هذا قبل ساعة!! أي فاجعة اقترفتم!! وأي جرم تكاد الأرض تميد والسماء تنطبق على الأرض!! ألا ترون الدماء النازلة من السماء فتلتصق بوجوهكم وأيديكم!! أنه غضب الله عليكم لمصرع ابن رسوله !!

فأجاب الجندي وهو يتململ على فرسه:

- أنا لا أدعي أنني قتلت الحسين يا شيخي !! أو حتى شاركت في قتاله، فقد اكتفيت بالتفرج على ما يحصل أمامي مع كثيرين من فصيلي، ودموعي تهمل على مصيره وآل بيته، يعلم الله أنني ما فرحت قط بما آلت إليه الأمور !! - لم تقاتله نعم، ولكن أنت وأمثالك أزدتم من السواد حوله !! فأرعبت كثرة سوادكم عياله، وحسابكم عند الله كحساب من قتله !! فأبشر بنار جهنم خالداً فيها مع كبرائك ومن جاء بك إلى هنا !! فقال الجندي ملايناً:

- يا شيخنا بايع يزيداً !! وأمض إلى الأخماس بسلام !! فأنت شيخ كريم ابن شيخ كريم، والأعامشة بحاجة إليك ولحكمتك، فلا تتكلهم بفقدك !! فكم من آلاف العائلات في الأخماس والأبلة هي في رعايتك، وقد جعل الله أرزاقها بما تجود به يداك الكريمتان عليهم، فأمض في سبيل حالك يا شيخي !!

وتعالى من جهة الخيام المحترقة عويل النساء وصراخ الجنود وهم يسلبون ما تقع عليه أيديهم. وفي مكان غير بعيد عن موقع المخيم المحترق كانت الخيول تطأ صدور صرعى معركة الطف !! وتجهز بالرماح على من كان لا زال نفس في صدره يتردد، فينقطع بعد ذلك الأنين والشخير !!

تلفت سيدي الهفهاف يميناً وشمالاً فلم ير سوى الأجساد المجندلة على الأرض والعويل على أشده يأتي من جهة المخيم المحترق، فصرخ بالجندي:
- أنا لا أبايع القتلة أمثال يزيد!!؟

- أذن سنأخذك أسيراً إلى عمر بن سعد وهو يقرر في أمر حياتك أو موتك!!؟
فسمعت سيدي الهفهاف يصرخ به غاضباً:

- كلا الحالين لا يليقان بالهفهاف!!..أبايع من قتل حسيناً!!؟ جئت من أرض بعيدة كي أبايع حسيناً ثم أنقلب على أمري، فأبايع قاتله!! والله أن فعلت هذا فأنا شخص آخر لا يمت للهفهاف بصلة، أنها لمهزلة المهازل أيها الجندي!!.. ألا ترى في هذا ما يमित ضحكاً بالرغم من المأساة التي تدور فصولها حولنا الآن!!؟ أم أنك كأصحابك ومن جئت لتقاتل في أمرته فقدتم كل أحساس بما يضحك أو يبكي وتحولتم إلى آلات قتل لا غير!! كم من حسين سيأتي وتقتلونه مرة بالدفاع عن ملك يزيد وأخرى عن ملك عبد وعبيد!! ويصير الأمر أكثر جنوناً حين تقتلون الناس بعد ذلك حباً في الحسين وجده كما تدعون!!؟

- لا تعجب يا هفهاف فقد فعلها كثيرون قبلك يا هفهاف فلم العجب!!.. لقد كان مع الحسين في مخيمه أكثر من ألف وخمسمائة فارس منذ يومين يأكلون ويشربون وتسمع هتافهم بحياة الحسين!! ولم يمض على كل ذلك النفاق سوى يومين، وبعدها ركبوا ظلام الليل وفروا بجلودهم تاركينه لمصيره، وربما تجدهم الآن في جيش بن سعد وقد أخذوا منه الأمان والعطيات، ولم يبق مع الحسين حتى فجر هذا اليوم سوى سبعين فارساً قتلوا جميعاً في ساعة زمان!! وتلك جثثهم مجندلة على الرمضاء على طول الطريق إلى أرض الطف!!
وسمعت سيدي الهفهاف يصرخ به :

- أمض إلى فصيلك، فلست راغباً أن أبدأ بقتلك، أمض فحسابكم عند الله قريب. كانت السماء تمطر دماً مختلطاً بالغبار الدقيق، وشعرت بدماء تسقط فوق رأسي فتلون عمّامي بلونها القاني، فألمسها بأصابعي متوجساً، فيلصق بها شيء من ذلك الدم العبيط!! الشمس حجبها غمامة لها منظر كئيب، كانت شديدة الحمرة تميل إلى السواد، وكان لفتح الرياح الساخنة يشوي الوجوه، وبالرغم من هذا الجحيم كنت أتابع كالمذهول ما يصنع سيدي الهفهاف وسط هذا الجحيم!! وكل عضو من أعضائي يرتجف، ولم أخف في حياتي خوفاً كهذا الخوف!! خوف عجيب حل عليّ وحب غامض للحياة لم أفهمه غمري!! أنا الذي كنت أسخر من الحياة وعيشها ومكابداتها الدائمة، صرت محباً و متمسكاً

بها تمسك الفارس بلجام فرسه الرامح !! ولمع سيف الهفهاف وهو يشهره
بوجوه فصيل الجنود القريب منه، وسمعتة يصرخ بهم:

- أنا الهفهاف الراسبي، والله لأذيقنكم الموت الزوام غصة غصة ثأراً لشيخي
أبي علي الحسين بن علي بن أبي طالب سبط الرسول، وليسجل التاريخ أن
واحداً مثلي قاتل جيشاً كاملاً منكم، ولم تخفه جموعكم !! فما الحياة بعد الحسين
هانئة ولا الأيام بعده آمنة !! ويا روح بعد الحسين هوني !!

وما أن صار وسط ذلك الصف من جنود عمر بن سعد حتى بدأت الرؤوس
تتطاير هنا وهناك !! والصف يتشتت أمام صولته، وكان الهفهاف على فرسه
الجامح، كما لو كان فارساً سماوياً هبط للانتقام من الضالين من فوق الغمام،
الذي علا كرة الشمس الملتهبة ليوزع الموت بين أعدائه وأعداء الله ورسوله.

ويبدو أن خبر الهفهاف وصل إلى عمر بن سعد سريعاً !! فأمر صفوفاً أخرى
بالتوجه صوبه لحصاره من كافة الجهات، فشاهدته وأنا أدعو الله له أن ينصره
 ويفرق الجماعات من حوله عن يمين وشمال !! ورأيته يحاول ما أمكنه من
الاقتراب من المخيم المحترق ليدافع عن النساء والأطفال الذين يطاردهم جنود
أبن سعد، مناوراً بجواده الملتفين حوله، ومطارداً من يهرب أمامه، فرساناً
وراجلين !!

وظهرت مجموعة أخرى من جهة المخيم أحالت بينه وبين الوصول إلى
المخيم، وأمر عمر بن سعد فصيلاً آخر من أمهر رماة النشاب لمعالجة الأمر
المستجد، فكمنوا له في بداية الطريق إلى المخيم، وأرسلوا إليه سرباً من نبالهم
!! فأصاب بعضه جسده، وأصيب فرسه في أكثر من موضع، فوقف الهفهاف
ينتزع من جسده النبال التي ناشته في كتفه وعند قدميه، وكان بعضها غائراً
في لحمه، فكانت نهايات النبال الحرة تتكسر بين كفيه ويبقى نبلها نابتاً في
لحمه!! وبالرغم من جروحه الكثيرة، فقد رأيته يصلو عليهم صولة أسد
جريح، ويصرع شجعانهم !! فلا يقف بوجه أحد بل يفرون من بين يديه،
ويتركون قتاله إلى رماة الرماح والنبل الذين يتحينون الفرص للنيل منه،
محاذرين من مواجهته عن قرب.

وظالت المعركة بينهم وبينه إلى أكثر من ساعة، حتى بدأ الجنود يخشون من
الاقتراب منه خوفاً من أن ينالوا حتفهم بضربات سيفه، وبقوا ينتظرون بعيداً
عنه بانتظار أن يسقط أعياء بفعل جروحه الكثيرة !! وعرفت أن سيدي
الhfهاف يجود بأنفاسه، وسط الغبار والدم الذي ينزف من كل مكان من جسده،

وأخذت فصائل من الجنود تتجمع من جديد بعد أن تفرقت بسبب ما أصاب أفرادها من زعر من قتال الهفهاف وشراسة قتاله، وصبره على كل تلك الجروح التي أصيب بها في المعركة.

وأخذوا يعاودون الهجوم من جديد، ورأيت سيدي الهفهاف ينظر إلى السماء وبدا كما لو كان يحدث شخصاً ما لا أراه، وحاولت أن أهمز جوادي لا تقدم نحوه لإنقاذه مما هو فيه، ولكن الجواد حَرَنَ ولم يستجب لي كما أن صوت الهفهاف كان يتردد في ذاكرتي ان أبقى بعيداً!! وأن أحافظ على الأمانة التي أئتمنها عندي، فكانت الدموع تنزل من عيني مداراة وأردد بصوت عالٍ:
- الغوث يا ربي الغوث!!

وشاهدت على جبهة الهفهاف خيطاً من الدم والنور!! ربما كان لمعة سيفه في تلك الظهيرة القائظة، لكنه بقي شامخاً على فرسه رافعاً سيفه بالرغم من أن النبال قد شكت أبطه وساعده في أكثر من موضع، ومنعته من إنزال ذراعه، فبقى السيف معلقاً بذراعه في الهواء!! كأنه يذكر الظالمين بالقصاص العادل القادم عما قريب، وإن فعل بقوة وأنزل ذراعه، فالمزيد من الألم والدم سيشخب من جروحه!!

رأيته يترجل عن جواده، واتفأ على رقبة الجواد!! لم أر في حياتي جواداً مثكولاً على فارسه كجواد الهفهاف في تلك اللحظة!! فقد أخذ الجواد يصهل، ويدير رأسه صوب فارسه، كأنما يحاول مساعدته بنزع النبال عن جسد سيده، وحين نظر أصحاب عمر بن سعد ورأوا ضعفاً في الهفهاف، حتى طمعت نفوسهم بحز رأسه وتقديمه لأبن سعد لينالوا جائزته، وكان قد وعد بألف دينار لمن يستطيع منهم أحضار رأس الهفهاف، ليضمه لباقي الرؤوس، التي سيسيرها إلى عبيد الله بن زياد في الكوفة، لينال الجائزة الكبرى "ملك الرّي" الذي وعده به يزيد بن معاوية!!

كان الفرسان يتدحلبون كاللصوص من خلف الهفهاف محاولين الاقتراب منه، لينالوا منه، فصرخت بالهفهاف منبهاً، لكنه لم يكن يسمعي!! فقد رأيت شفثيه تتمتان بكلمات لا أستطيع سماعها، وأنا على هذا البعد عنه، وصرخت به أن يعتلي جواده ويعود لنمضي في أرض الله الواسعة!! وبدا لي أنه لا يسمعي، لكنه التفت صوبي وأشار لي بكفه القابضة على السيف أن أمض عدّ إلى البصرة يا صاحبي. أتركني وأمض فقد أدخرك الله لأمر آخر، غير الشهادة هنا!!

وكان الله خلقتي لأظهر فضل الهفاهف في هذا اليوم، وما عاشه هذا الرجل والشجاع الكريم من أيام حياته !! فتعالى بكائي عليه، وأخذت أكفكف دموعي الغزيرة بردن ثوبي، وكنت في صراع بين ما تريده نفسي وما أمرني به سيدي الهفاهف !!

وانتبه جواد الهفاهف لوجود جنود عمر بن سعد الذين اقتربوا منه متلصقين، فترك سيدي الهفاهف وهاجمهم، بقائمتيه الأماميتين فولوا هاربين !! ولكن سيدي الهفاهف لم يحتمل ألامه فجثا على ركبتيه، فأسرع صوبه فصيل من رماة النبال !! وصاروا على بعد خطوات منه، وصوبوا عليه نبالهم، فانطلق سرب من النبال صوبه ليصبه في أمكنة مختلفة من جسده وأحدها أصابه في مقتل في صدره وسمعته يقول بصوت عال:

- يا فرحتي بلقائك يا رسول الله !! يا فرحتي بصحبتك يا أبا علي !! ما أنعمني بحضورك، والله أني أسعد خلق الله !! أني سعيد الدنيا والآخرة !! وأسرع إليه أحد المهاجمين حين سقط على ظهره فوق الرمال الساخنة، وشاهدته يحتز رأسه بلحظة خاطفة، ويرفعه عالياً ليشاهده بقية الجنود، فرحاً بما سيناله جائزة عمر بن سعد !!

كانت الشمس تغيب والأرض قد ملئت بجذازات محترقة خلفتها الخيام المحترقة، والسماء لم تتوقف عن مطر الزبد الدامي، وسمعت الجنود يتنادون فيما بينهم للنيل مني، وسمعتهم يرددون "أما يبايع هذا الهرم أو يؤخذ أسيراً مع رأس صاحبه !!

فهمزت جوادي عائداً إلى الأخماس من دون سيدي الهفاهف !! الذي تركته صريعاً على أرض كركميش، وفي رأسي كانت تدوي صرخات اليتامى من أطفال معسكر الحسين !! والتفت فشاهدت الجنود يتركون مطاردتي بعد نصف فرسخ، ويعودون طمعاً بسلب ما تبقى في الخيام المحروقة مما يسلب !! أخذ الظلام يحل على أرض الطف، والقاذرية، والكوفة، وبدا نهر الفرات الذي كنت أسير إلى جواره على جوادي، أكثر ظلمة، وأشد وحشة، وشعرت أني قد قتلت أيضاً مع سيدي الهفاهف !! وما هذا الحطام الذي يسير فوق الجواد ليس إلا ظل لي، وكانت الروح تنبض في البرجمان برحل جوادي !! وكأنما الهفاهف يذكرني بوصيته، أن أظهر فضله ليعرف الأسياد والعبيد أن على هذه الأرض من كان يحيا ويوحد الله ويأمر بالعدل والأنصاف اسمه الهفاهف الراسبي من أهل البصرة.

ومررت قرب قرية يبدو الفقر الشديد على أهلها، وكان معظمهم من العبيد المملوكين لصاحب الأرض، وهم يعلمون في الأرض ويقف بينهم وكيل صاحب الأرض، وقد أمسك بسوط يلوح بطرفه في السماء، وهو يطلب منهم إتمام عملهم، وبرز له من بينهم عبد أسود مفتول العضل، فأمسك بطرف السوط وصرخ بذلك الوكيل القاسي القلب:

- أتق الله في خلقه، أنهم صائمون ولم يذوقوا الطعام منذ البارحة!! وبالرغم من الفجيرة التي كنت أعاني منها، وبالموت الذي كان يزحف إلى كل عضو من أعضائي، إلا أنني تابعت ما يجري، وفرسي يسير ببطء، وقد بدأ الأعياء عليه، فهو لم يذق علفاً منذ يومين. ورأيت الوكيل ينتزع طرف سوطه من الشاب الأسود، وأخذ يجلدته بمنتهى القسوة، فلم يكن له غير أن يرفع كفيه فوق رأسه ليتقي لسعات السوط، فأسرع عبد أسن منه إليه، وأخذ يطلب منه بذل شديد أن يقبل كف الوكيل، فالتفت إليه العبد الشاب وقال بصوت عالٍ:

- مثلي يا عم لا يُذل نفسه لمثل هذا!!

فقلت بصوت واطيء :

- وصلت رسالة سيدي الحسين إلى ملح الأرض عبيد الأسياد!! .. وصلت الرسالة إلى عبيد الأرض ومظلومياتها. لم تضع دماؤك سدى سيدي الحسين!! وهمزت جوادي من جديد ليسير بسرعة أكبر!! فقد غيرت اتجاه سيرتي عائداً إلى أرض معركة الطف متغلباً على تعبي وحزني وخوفي. كان عليّ أن أعود إلى هناك!! لأفعل شيئاً لمواراة أجدات من سقطوا في المعركة، فليس مثلي يهرب خوفاً من أمثالهم!! لقد علمني ذلك العبد ما لم يعلمني أياه أحد: الوفاء لإنسانيتي!!

وكان عليّ أن أجد من يساعدي في مواراة أجساد الشهداء. وسمعت هاتفاً يقول لي بصوت واضح النبرات: "استعن ببني أسد!!" وتذكرت أن إقطاعيتهم قريبة وشيخهم وكبيرهم الحبيب بن مظاهر من بين أصحاب الحسين الذين ضحوا بحياتهم دفاعاً عنه، فهمزت جوادي متجهاً صوب مضارب بني أسد!! وكلما اقتربت من مضاربهم ازداد عدد النخيل واشتدت كثافة الزروع، وعلت سيقانها، فهم قد أصلحوا هذه الأراضي فصارت من أجود الأراضي الزراعية، قريباً من نهر الخبخب، وما أن صرت بين مضاربهم، حتى قصدت أعلى البيوت الطينية، وأكثرها سعة، فصرخت قريباً من بابه ذاكراً واعية الحسين وآل بيته وأصحابه، وقلت منتخياً، رجالهم:

- يا بني أسد ياشجعان العرب !! استشهد الحسين، وأظنكم سمعتم واعيته قبل يومين، فقد امتلأت الأرض بصرخات نسائه وأطفاله وسمعتم صكك السيوف ونياح المثكولات !! فأرض الطف غير بعيدة عن دياركم، فإن قصرتم في نصرته، فما هي أحداث من صرعوا تنادي خياركم أن يقيموا لها واجب الصلاة عليها ودفنها !! ولأظنكم أفضل من الغراب معرفة بدفن أشلاء ابن أبنه رسول الله، فماذا أنتم قائلون لفاطمة الزهراء حين تسألنكم إن قصرتم عن هذا ؟ وشاهدت جمعاً من بني أسد يجتمعون حولي مستفهمين عن خبري، وسبب نياحي، فأكملت:

- هاهو الحسين مجدلاً على رمضاء كركميش بعد أن دعوتموه لنصرتكم، فلبى النداء وخذلتوه !! والله أنتم أكثر ذنباً من اليهود الذين قالوا لنبيهم موسى " اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون !! "

فهلا ليبتم نداء ما يقتضيه واجب الدين وداعي الشرف والرجولة والنخوة بتكريم رُفات أجساد طاهرة بمواراتها التراب؟! ولا أظنكم مثل قابيل، الذي لم يكن يعرف كيف يوارى سوءة أخيه، فعلمه الغراب. أجساد طاهرة سحقها حوافر الخيل وأمغت بها السيوف والرماح طعناً وتقطيعاً في الفلاة القريبة من دوركم، وما أن تنتهي أيامكم وتحل أيام غيركم سيعاتبكم رسول الله بما قصرتم به اتجاه سبطه، ولا أدري كيف ستواجهون أمه فاطمة الزهراء وأبيه علي بن أبي طالب وأخيه الحسن إن لم تفعلوا ما أملاه الدين والواجب عليكم ؟ !! وصرخت منفعلاً وأنا أرى التردد والخوف على وجوههم:

- شيخكم وكبير قبيلتكم الحبيب بن مظاهر الأسدي وغلماه من بين الذي استشهدوا بين يدي أبي علي الحسين بن علي بن أبي طالب، والله أن بقيتم في جحوركم واستسلمتوا لجبنكم من عبيد الله بن زياد وجيشه عيرتكم العرب !! وفضحك قوائهم بترككم جدث شيخكم في الفلاة تأكلها الطير، ولأصبحتم مثلاً للزرقيين الذين تركوا شيخهم لنهش الذئاب وما دفنوا سوءته خوفاً من عدوهم !! فلم تقم لهم قائمة بعد ذلك اليوم وانتشروا بين العرب وقد أنكروا أصلهم وصاروا أرومات أخرى كثيرة لا تفتخر بجودها ولا من كان أصل وجودها في هذا العالم !! وقد صار أسم قبيلتهم "الزرقية" مثلاً بين العرب للجبن والخسة والدناءة وقلة المروءة !!

فها سمعتوني ورافقتوني لنؤدي واجب التكريم لأبن أبنة رسول الله، فننال شفاعة جده يوم القيامة، وأني لأظن أن هذا اليوم صار قريباً، وأكثر مما تظنون.

وما أن سمع بنو أسد ندائي حتى أخذوا يتداولون الرأي بينهم ويبدو أن بضعة نساء من بني أسد سمعن استصراخي لقومهن، فقالت أحدهن وكانت متزملة بحجاب أبيض يغطي كل هيئتها، من دون نساء بني أسد اللائي كن يرتدين ثياباً سوداً :

- أمض بنا يا أخي إلى مكان المعركة !! فهؤلاء الذين لم ينصروا ابن رسول الله حياً أعجز من أن يقدموا واجب العزاء بدفن جدته وأجدات من استشهدوا معه لأمه فاطمة الزهراء !!

ثم صرخت تلك المرأة طالبة من نساء بني أسد الخروج معها لمواساة فاطمة الزهراء باستشهاد ولدها، وموارة أجساد شهداء معركة الطف التراب.

وأخذت نساء بني أسد بالتجمع في ساحة القرية، فقد كانت المرأة مسموعة الكلام بين نساء قبيلتها، بينما كان الرجال لا يزالون يتداولون الأمر بينهم !! ولم تنتظر صاحبة الوشاح الأبيض بل أسرعت وطلبت من أولادها أن يحضروا لها الفأس والتلاع الذي يستخدم في الحفر، وزناويل الخوص، ويصحبونها، ولم يمض وقت طويل حتى تجمعت معها أكثر من مائة امرأة من القبيلة !! وطلبت مني المرأة أن أرشدهن إلى أرض المعركة، وما أن خرجنا من مرابض بني أسد وسط عويل النساء وبكائهن !! حتى تبعتنا أسراب من كلاب القبيلة !! فقد عودت نساء القبيلة الخروج إلى أرضهن للزراعة بحماية كلابهن من هجومات الذئاب والخنازير البرية والصعاليك ولصوص العبيد، الذين يخطفون النساء لبيعهن في أسواق النخاسة، فتدافع الكلاب عن كل واحدة منهن بشراسة، فيبتعد اللصوص خوفاً من تلك الكلاب، وما أن رأى الرجال خروج نسائهم وكلابهم، فتجروا وتبعوا الكلاب على وجل !! وكنا جميعاً في ريبة مما يحدث إذ كان الخوف مسيطراً على الجميع من أن تقع عيون جيش عمر بن سعد عليهم، فيعمل فيهم السيف، فلا يبقى نافع نار في القبيلة !!

كانت مسيرة حزن لا تنسى إلى أرض الطف تبكي كل من شاهدها، أو يحكى له عن ذكرها، وما حدث فيها، ولم أر في حياتي نساء مثكولات كما رأيت في نساء بني أسد !! وهن يعولن صارخات، يا لحزنك يا فاطمة الزهراء على ولدك

!!.. يا لحزنك يا أختينا!! .. قتلوا الحبيب ابن الحبيب وسبط الحبيب، وشرّدوا العيال!!.. نسال الله أن ينتقم من الظالمين شر انتقام!!

كانت دموعي تنهمل من دون أن استطيع السيطرة عليها، وما أن بلغنا أرض الطف حتى وجدنا الأجساد الممزقة بالسيوف منتشرة على أرض المعركة مجذوزة الرؤوس!! فقد اقتطعت الرؤوس وحملت على أسنة الرماح، لتطوف بها قبائل الكوفة في الحارات. كل قبيلة ممن ساهمت بالقتال أعطيت رأساً من رؤوس أصحاب الحسين وآل بيته، ليحمل على رمح في المقدمة مع من يرفع راية القبيلة!! وأكثر ما كان مؤلماً أن رأس الرضيع عبدالله بن الحسين بن علي بن أبي طالب كما عرفت فيما بعد والذي لم يكن عمره حين استشهد سوى بضعة شهور، قد حمل على رمح لقبيلة لم تحصل على حصة من الرؤوس الشهداء، فتمت ترضيتها برأس الرضيع، لترفعه على الرمح عند دخولها إلى كناسة الكوفة، وحاراتها. متباهية بنصرتها لجيش عبيد الله بن زياد!!

وأمام الأحداث الشريفة وقعنا في حيرة إذ كان من الصعب علينا معرفة الأجساد التي قطعها السيوف وداستها حوافر الخيل لمن تعود!! ومن هم أصحابها قيد الحياة، وقد أرشدت الدفانين إلى جسد سيدي الهفاهف الذي كان جسده وحده في مكان بعيد عن مصارع الهاشميين، وأخذت تلاحاً وفأساً وحفرت للهفاهف لحداً، وفي هذه الأثناء وصل معظم رجال بني أسد إلى أرض المعركة، لكنهم وقفوا حائرين أيضاً لا يعرفون لمن يعود كل جسد من هذه الأجساد المهشمة والمقطوعة الرؤوس!! ولكن لم يطل الأمر فقد وفد صوبنا فارس قادم من نواحي الكوفة!! وما أن وصل قريباً منا وعرف بنفسه، فإذا هو علي زين العابدين نجل الحسين، الذي نجى من القتل بسبب مرضه وعدم قدرته على القتال وقتها وهو المتبقي من ذرية الحسين الذكور!! فأخذ يرشد بني أسد إلى جسد كل واحد من الشهداء، وساعدناه في حمل جسد الحسين بن علي بن أبي طالب على حمالة صنعناها من الخوص وأعواد التلاع إذ كان الجسد ممزقاً وصعب حمله، من دون أن تسقط أجزاء الجسد الشريف التي قطعها السيوف، إلى أجزاء صغيرة!! وما أن ساعدنا نجل الحسين في حمل الجثمان وأنزلناه إلى روضته، حتى طلب منا نجل الحسين أن نتركه مع جسد أبيه!! ولم أر في حياتي رجلاً صابراً، محتسباً، مثكولاً في كل أهله، كزين العابدين!!

بقي مع الجسد الطاهر يحكي معه بكلام لا نسمعه، وحتى إذا سمعناه فلا نفهمه. فغادرناه وأنشغلنا عنه ببقية أجساد شهداء معركة الطف، وقد دلنا زين

العابدين إلى شخصية كل جدث ولمن تعود قيد حياتها. فكانت روضة تنشأ وسط الصحراء يتعاون على إعدادها الرجال والنساء من بني أسد، والجميع يضحون بالبكاء كلما قصدوا جسداً لمواراته التراب في روضته، وما أن أكتمل دفن الشهداء أخذنا نردد دعاء إلى الله أن يجعل هؤلاء الشهداء في عليين وذرفنا الدموع الغزيرة !!

بعد أن أكملنا واجب الدفن للشهداء والترحم عليهم، سلمت على نجل الحسين، وهو آخر من تبقى من ولده وحاولت أن أطيب خاطره بكلمات إلا أنه لم يكن ينصت لما أقول !! فقد كان سابحاً في ملكوت الله، ولم ينقشع عن عينيه حزن فقدانه معظم أهله، ولم يكن وجهه يشي بشيء، وكان لقسماته صلابة لم أر مثيلاً لها في وجه بشر، وودعنا ومضى على جواده في ظلام الليل إلى عياله المسبيين في الكوفة.

وهمزت جوادي عائداً إلى الأخماس. كان الظلام يسربل كل شيء من حولي، فقد غاب القمر واختفت النجوم، وكنت متوجساً من السقوط في حفرة أو في مخاضة مستتقع، أثناء مسيري، وكان الحزن والتعب ورهبة الموت والخوف من المجهول، كل ذلك يجعلني أغد المسير مبتعداً عن هذه الأرض السوداء، التي قتل فيها أظهر خلق الله وأكثرهم علماً وفقهاً وعفةً وورعاً وكرماً، ولكن إلى أين المسير في كل هذا الظلام الدامس الذي يبدو بلا نهاية ؟ !!

سيرة المخطوطة

1437 هجرية - 2016 ميلادية

14 أيلول - 2016 ميلادية 13 ذو الحجة 1437 هجرية ..

تعود المخطوطة إلى سنة 38 هجرية/ 657 ميلادية - أرخت الأحداث، وما جرى للهفاهف الراسبي وعائلته في العراق والشام وموطنه الأصلي في أرض الأحماس - التسمية القديمة لمدينة البصرة - في منتصف القرن الهجري الأول.

البدء بإعادة ترقيم وتصويب الملحمة التاريخية "وَقَائِعُ الدَّهْرِ فِي تَارِيخِ العُرْبَانِ المُنَافِقِينَ" للهفاهف بن المهند الراسبي الملقب بسفير البصرة، صاحب السيرة العطرة الذي عاش في القرن الأول الهجري، بين سنتي (10- 61 هجرية) 632 - 683 ميلادية.

قراءة " البرجماتات " - مخطوطات - الأجداد هي عودة بالزمن إلى الوراء. وهذا ليس بالأمر الجديد أو إنه لم يشغل الناس في الوقت الحاضر والماضي بل كان حتماً داعب أذهان الكثيرين من بني البشر، فالعودة إلى زمن مضى بأحداثه ووقائعه، مدعاة لأن يبذل الكثيرون من أجل تحقيق هذا الحلم ما لديهم من غال، وما صعب عليهم بذله من جهد ومهجة. وقد تحققت للبعض من الناس، فرأوا ما لم يره غيرهم. وعاشوا لحظات الزمن القديم بما وصلهم من مخطوطات أكل أطرافها السوس، وعفن السنوات. فقصّت عليهم كل ما جرى في ذلك الزمن من فجاج وأفراح. ووجدوا فيها الكثير من القصص والحكايات عن أولياء ودرأويش، وأصحاب كرامات، طووا الزمن إلى يومنا الحالي، وعاشوا الماضي والحاضر بعد أن كانوا يعيشون حاضرهم بكل مخاطره وعذاباته. هذه المقدمة أسوقها لكي أقصّ ما حدث فعلاً من انتقال شخصي المتواضع من زمنه الحاضر إلى زمن آخر موغل في القدم. لأطلع على ما دار على شخصية من البصرة عاشت في القرن الأول الهجري، لتكون شخصية رئيسية في الرواية التي بين أيديكم، وهي سيرة حقيقية وأؤكد أنها سيرة لناس عاشوا وتركوا تفصيلات ما عاشوه في طواميرهم المبتوثة في البرجماتات القديمة التي حالفتني الحظ بشراء أحدها بقليل من الدولارات من فتى نحيل يبدو الأصفرار على وجهه، وحين تحققت منه من أين حصل على هذه المخطوطة القديمة؟! فأجابني أنه بقية أرث قديم لعائلته، إذ كادت عائلته أن تتخلص من المخطوط مع الكراكيب القديمة التي تملأ دار جده في أبي الخصيب جنوبي البصرة، ولكن الفتى كان

أكثر المعية وذكاء، وعرف أن للمخطوطة القديمة ثمناً يمكن أن يحصل عليه من بيعها لمغفل مثلي، ممن عاشوا أغلب أعمارهم خارج العراق، وعادوا إلى وطنهم كسائحين يبحثون عن ذكريات شبابهم المأساوية التي عاشوها قبل عدة عقود في البصرة.

وبعد أن تحققت من المخطوطة بواسطة صديق متخصص بالآثار والمخطوطات القديمة، فقطع بين شكي ويقيني بأن هذه التي بين أيدينا هي سيرة حقيقية بشخصياتها ووقائعها، وأحداثها!!
وقد ضمت أحداثاً تاريخية حقيقية في غاية الأهمية والخطورة تسلسلت أحداثها حتى أوصلتنا إلى الأحوال التي نعيشها اليوم ونقبع شئنا أو أبينا تحت تأثير نتائجها الكارثية، وقد تم تثبيت الكثير مما ورد فيها من أحداث وأقوال في معظم كتب السيرة والتراث ووقائع الماضي، كتاريخ لا سبيل لنكرانه أو التهرب من تبعات نتائجه.

تتبع أحداث السيرة التي بين يدي أيضاً بعد قراءتي للبرجمان - المخطوط الذي حصلت عليه من الفتى البصري النحيل، وواصلت قراءتي التاريخية لمعرفة ما ورد من أخبار مذكورة في البرجمان، ووردت متفرقة أيضاً ومبثوثة هنا وهناك وفي هوامش المخطوطات وفي كتب ومقالات حديثة ومصادر أخرى موثقة وصلتنا في أيامنا الحالية ومن هذه المصادر، التي وجدت فيها بعض ما ورد في المخطوطة، كتاريخ الرسل والملوك للطبري، الطبقات الكبرى لأبن سعد، أسد الغابة في معرفة الصحابة لأبن الأثير، والمصاحف للسجستاني، تاريخ القرآن لعبد الصبور شاهين، سير أعلام النبلاء للذهبي، الكامل في التاريخ لأبن الأثير، البداية والنهاية لأبن كثير، النشر في القراءات العشر لأبن الجزري، قبائل البصرة في القرن الأول الهجري لعبدالحكيم غنتاب، فتوح الشام الجزء الثاني يوكبيديا، موقعة الجمل وموقعة صفين لعثمان بن محمد الخميس، المراجعات الأمام عبدالحسين شرف الدين، الإمام الحسين سيرة ومقتل لمحمد هادي، والحسين في مواجهة الضلال الأموي للسيد سامي البدري، أنساب الأشراف للبلاذري، نهج البلاغة- تفسير الشيخ محمد عبدة، وعبقرية الإمام علي- عباس محمود العقاد، والإمام علي صوت العدالة الإنسانية - جورج جرداق، تأريخ السيرة الذاتية وإشكالية الحديث عن الذات لجودت هوشيار، وغيرها من المراجع.

وللتتويه فقد ذكر الهفاهف بن مهند الراسبي صاحب هذه السيرة في مخطوطة من تأليف الفضل بن الزبير بن عمرو بن درهم الأسي الكوفي، مما يؤكد أن صاحب السيرة شخصية حقيقية عاشت في القرن الهجري الأول، وتركت ما عاشته من أحداث على طوامير "أوراق" متفرقة جمعها برجمان واحد استقيت منه أحداث هذه الرواية.

وتتبع جغرافياً في سنتي 2016 و2017 بزيارتي الميدانية للعراق ولمدينة البصرة - مسقط رأسي - بعد غربة ثلاثة وعشرين عاماً في خارج العراق مبتدئاً سعيي من منطقة الزبير، وحتى منطقة صفوان، وجبل سلام على تخوم الصحراء التي تصل الجزيرة العربية، متتبعاً هجرة قبيلة الهفاهف الراسبي، ومرورها من هناك، وحتى سكنها الأول بمدينة - الأبله - الاسم القديم لمدينة البصرة الحالية، قبل أربعة عشر قرناً.

لم يدخل فيما أعدت ترقيمه وتصويبه غير الحقيقة من بدايته حتى نهايته، إلا ما يتطلبه ترميم المشاهد النصية، ووضع اللبانات المفقودة والتفسيرات لبعض الكلمات والمصطلحات المستخدمة في القرن الهجري الأول بسبب اختلاف الفهم لبعض مفردات اللغة العربية أو الفارسية أو التركية أو السريانية، التي كتب بها المخطوط، فهو موثق ببرجمان يعود تاريخه إلى مئتي سنة ماضية احتفظت به عائلة الفتى البصري أباً عن جد حتى وصل الفتى إليه بطريق المصادفة، وهو يفتش في كراكيب قديمة في دار أسرته على نهر البصرة، وعرفت منه، وهو يطأ رأسه خجلاً غير عارف بالقيمة التاريخية للبيت الذي تملكه أسرته البصرية العريقة، فقد كان من المزمع تحويل بيت جده إلى بيت تراثي بعد أن مضى على بنائه أكثر من ثلاثة قرون، مثلما أخبرتهم لجنة من المحافظة، ووضحوا لهم سبب الاختيار يعود إلى دراسة تاريخية أعدّها، قسم التاريخ في كلية الآداب بجامعة البصرة عن المعالم التاريخية والبيوت التراثية لمدينة البصرة وبيت جدهم أحد هذه البيوت المهمة في هذا المضمار.

لكنني بعد الذي قرأته في البرجمان تأكدت أن من أرشدني لأعثر عليه، هو روح ذلك الرجل الصالح، الذي وردت سيرته في المخطوطة، الذي عاصر كل ما حدث، وما جرى على من ورد ذكرهم في سيرته من صحابة وأولياء ورجال صالحين ومنافقين وأهل دنيا.

كان الهفاهف بن مهند الراسبي فخر قبيلة الأعامشة، وأبن سيدهم في منتصف القرن الهجري الأول.

لم أكن اعبأ في البداية به بعد أن حصلت على السيرة، فهو تركة قديمة ورثها أبوه، وأبوه ورثها عن جدّه، وهكذا توالى الترك، والحفظ حتى نهاية القرن الهجري الثالث.

ووردت ملاحظة في أحد الهوامش في السيرة تشير إلى أن أحد أجداده اعاد تدوينه في ذلك القرن، وأضاف إليه، وهكذا كل منتي سنة يعيد أحد الأجداد من النابهين، ممن عاشوا في "الأبلة" أو ما سميت بعد ذلك "البصرة" وموقعها اليوم مدينة العشار الحالية، على نهر العشار، الذي حوله أحفادهم اليوم، للأسف إلى مجرى للمياه العادمة، وأمر يومنا ليس هو همّي بقدر همّي في إظهار ما اكتنزه أجداد هذا الفتى البصري النحيل من إرث ثمين: تاريخ مدينة "الأبلة" ونهرها العظيم، نهر العشار بفرعيه الحاليين: نهر الرباط، ونهر البصرة القديمة، الذي أقيمت شناسيل البصرة على ضفتيه، وهي قصور وجهاء البصرة، وأغنيائها، وأهلها من الذين رسموا تاريخها القديم والحديث قبل قرون كثيرة. وما جرى عليهم فيما بعد في ترحالهم بين الأمصار والثغور.

كان طريق أهل الأبلة للعالم من خلال نهر العشار، الذي يأخذ ماءه من شط العرب، ويصب في البحر (الخليج العربي)، وكانت السفن تأتي من الهند، وتذهب إليها محملة بالغلل، قبل أن تنقلب الصورة في أيامنا الحالية، فيصب الخليج في النهر، ويحول ماءه العذب إلى ماء مالح أجاج قتل الزرع والضرع والإنسان !!

تولى الأجداد "البرجمان" بعنايتهم، فاعادوا كتابته وإرفاق ما أضافوه إلى "البرجمان" الأصلي، وآخر "برجمان" الذي وصلني يعود تاريخه، إلى منتي عام تقريبا، ولم أفك خطه القديم إلا بصعوبة، ولم أكن أفهم بعض كلماته، فكيف لو بقي "برجمان" القرن الهجري الأول الذي كان بلا نقاط ولا إشارات قطع ولا فوارز، ولا إشارات طباعية حديثة، ولم يخط خطوطها عهد بعد عهد؟! ولما تتعرض له البرجماتات القديمة عادة التي تصنع من جلد الغزال لتسهيل عمليات الشطب والتصحيح والمحو عليها من رطوبة وحرارة، فتغير ملامح الكتابات عليها. وكانت كل صحيفة منه، محبرة، كسبيكة، واحدة كثيرة الخطوط في صفحات عملت السنوات في ورقها ندوباً وخروفاً، وأضاف الأجداد إلى حواشيتها توضيحات وشروحات كثيرة تحتاج هي أيضاً بدورها شروحا وتوضيحات لصعوبة نطقها وغموض معانيها !!

وقد اهتمت بهذا الموضوع لما حدث للفتى وعائلته في الثلاثين سنة الماضية من ترحال، ومكابدات بين الدول والمدن والمداشر في هذا البلد أو ذاك، فقد دار الزمن دورته ليبتليهم بما ابتلى به أجدادنا الأوائل من معاناة سلاطينهم وحكوماتهم الجائرة، فلم يجدوا وسيلة للحفاظ على حياتهم والإبقاء على ما أمنوا به من صحيح الفكر والعقيدة، فهم لا تغيرهم شدة ولا يعبت بهم إغراء المال والمناصب ومتاع الدنيا .

ولقوا ما لقوا من أهلهم وقبائلهم ودولهم من صنوف العزوف، والكره والحسد، لما حباهم الله تعالى من صفات الخلق الكريم والأمانة والنبيل والمواهب، والإيمان بالقدر خيره وشره، وتوكلهم على الله، وارتباطهم المتين بالفكر الخلاق المستقل، وفهمهم للحياة على حقيقتها، كمرحلة قصيرة لإثبات حسن الذات لله تعالى، وترك سيرة طيبة للأحفاد ولمن يأتي من البشر على هذه الأرض بعدهم !!

أن أعمال الخيرين في العادة لا تجد بيئة صالحة، فتسبب لأصحابها ضروباً من العنت والاضطهاد والنفي والظلم الكثير الكثير، قبل أن يذكرهم التاريخ بأحدى إيماءاته بكثير من التوقير والاحترام، وربما يصل كل ذلك في بعض الأحيان لدى بعض الناس إلى نوع من التقديس لهم، خصوصاً إذا كانت تضحياتهم كبيرة في سبيل الحق والإيمان بالله والدفاع عن المظلومين من بني البشر !! فتقام لهم الجوامع والزوايا والتكايا والحسينيات والأضرحة والمعازل ونواويس الترهيب.

ولا عجب في اهتمام الأجداد ببعث الماضي الخالد لمن سبقهم من سلفهم على شكل سير أو نصوص معرفية بحياتهم، كتواريخ الأعيان والمقدمين وأصحاب الخطوة وأهل البركة والشفعاء في مجتمعاتهم تُعرف بتواريخ حياتهم، وما جرى عليهم من صنوف الدهر وملماته.

وليس العرب وحدهم من فعل ذلك سواء في زمنهم القديم أو الحديث، وأذكر على سبيل المثال ما جاء ذكره في "برجمان الهفهاف بن مهند الراسبي" ذاته، الذي تحت يدي، والذي يعود تاريخه إلى القرن الهجري الأول. أن صاحبه المهند الراسبي كان قد قرأ بالفارسية، سيرة كتبها الأمبراطور الروماني السادس عشر ماركوس اوريليوس، ويعود تاريخها إلى السبعينات من القرن الثاني الميلادي. قبل ميلاد الرسول الكريم بأكثر من 400 سنة كان عنوانها " بيني وبين نفسي"، كتب فيها الأمبراطور عن نفسه وقناعاته الدينية وتأملاته

في الحكم والحياة، وما أسعده وأشقاه في حياته، كما أن الراسبي المذكور ذكر، أنه قرأ أيضاً سيرة كتبها الأسقف أوريلْيوس أوغسطين، الذي عاش قبل الإسلام بمئتي سنة، وكان عنوانها "اعترافات" ذكر فيها الأسقف أوغسطين ما عاشه في طفولته وشبابه. ما أحبه وكرهه في تلك الأيام، وما قاله معلموه في مدرسة اللاهوت، حول المسيحية والحياة، وخلق الكون، وذكر فيها نزواته ومشاجراته مع أترابه، ومجادلاته مع معلميه. وقد عاش الأسقف المذكور بين سنتي (354 - 430)م ولكن سيرته طمست في العصور الوسطى بسبب التطرف الديني في تلك الفترة المظلمة من تاريخ أوربا، وجاء ذكر سيرته كما أسلفت في يوميات الراسبي الذي عاش في القرن الهجري الأول !!

وأضيف هنا أن هناك العديد من السير التاريخية الموثقة، تالية لهاتين السيرتين، كسيرة الفيلسوف الفرنسي بيتر ابيلار (1079 - 1142)م بعنوان "تاريخ بؤسي" التي روى فيها تفاصيل قصة حبه الخالد لتلميذته الجميلة، ايلواز، وسيرة بكتابين مستقلين للشاعر الإيطالي فرانثيسكو بترارك (1304 - 1374)م عنوانهما "سري الخاص" و"مشاهير الرجال". ولن ننسى أيضاً سيرة النحات الإيطالي الشهير بنفينوتو تشيليني، التي صدرت في العام 1728م واكتسبت شهرة كبيرة لما فيها من مغامراته، وما عاشه في خدمة ملوك فرنسا، وعشقه للقاتنات الباريسيات، وأيام سجنه، والاعترافات لجان جاك روسو، الشهير، الذي صدر في سنة 1788م، أما في سير العرب المعاصرة، فقد كتب طه حسين مثيلاً لها في أيامه، وتوفيق الحكيم في "عصفور من الشرق" و"أنا" سيرة عباس محمود العقاد، و"حياتي" لأحمد أمين و"تربية سلامة موسى" لسلامة موسى و"أوراق العمر" للويس عوض، وماذا علمتني الحياة لجلال أمين.

فلا عجب من اتخاذ مخطوطة كُتبت في القرن الهجري الأول، كنص روائيٍ حدثيٍّ، موازٍ لشخصياتٍ عاشت وسجلت ما عاشته، وضمنته من رسائل مشفرة صالحة لزماننا الحالي والعقود القادمة، لإنارة حياة أحفادهم يعيشون في يومنا الحالي وسيأتون في المستقبل البعيد، وسيكابدون أيضاً ما كابدته الأباء والأجداد قبل أكثر من ألف وثلثمائة سنة، وتفانوا ليرسموا لغيرهم من الأجيال القادمة معالم الطريق عبر رسم الكلمة الخالدة !!

تمت



فيصل عبدالحسن

كاتب وصحافي عراقي ولد في العراق - البصرة 1953

بدأ يكتب قصصه القصيرة وهو لا يزال طالباً في الإعدادية، وقد بدأت حياته العملية في فترة مبكرة مما أغنى كتاباته بلوحات إنسانية وواقعية مما يعيشه مواطنوه من مختلف الطبقات وفي فترة مبكرة كتب أولى قصصه القصيرة ونشرها في مجلة ألف باء العراقية في أوئل السبعينات، وكان منبر ألف باء الثقافي من المنابر الثقافية الراقية في العراق إذ كان ينشر فيه قصاصو العراق وكتابه المهمون، وكانت قصص الكاتب الشاب المنشورة تحكي عن مشاهداته وما يقع له من حوادث في مدينة البصرة..

فازت قصته "الطير" بالجائزة الأولى بمسابقة ثانويات العراق العام 1973 وكان وقتها في السنة النهائية من الدراسة الثانوية.

ونشرت قصته الفائزة العام 1973 في مجلة ألف باء وهو لا يزال طالباً في الثانوية.

شجعه ذلك على مواصلة الكتابة في القصة القصيرة والطويلة في السنوات التالية.

أكمل دراسته الجامعية في جامعة البصرة وتخرج من كلية الهندسة في العام 1978 بتفوق، وخلال سنواته دراسته في كلية الهندسة لم يتوقف عن كتابة قصصه القصيرة والطويلة، فنشر روايته القصيرة الأولى "قارب الغبش" في مجلة الطليعة الأدبية ببغداد 1977.

ونشر بعد ذلك:

المجموعات القصصية :

العروس - قصص - 1986، دار الشؤون الثقافية/ بغداد

ربيع كاذب - قصص - 1987، دار الشؤون الثقافية/ بغداد

جنود - قصص - 1988، دار الشؤون الثقافية / بغداد

رواية قصيرة "سنام الصحراء" 1983 نشرت في مجلة الأقلام العراقية 1983

رواية قصيرة "فردوس مغلق" 1984 نشرت في مجلة الطليعة الأدبية 1984

رواية "الليل والنهار" 1985، دار الشؤون الثقافية / بغداد - الرواية الفائزة بالجائزة التقديرية للدولة.

رواية "أقصى الجنوب" 1989، دار الشؤون الثقافية / بغداد - الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في

مسابقة الرواية لوزارة الثقافة والإعلام العراقية.

رواية "عراقيون أجناب" 1994 / عن دار الأحمدي للطباعة والنشر والتوزيع - الدار البيضاء

قصص " أعمامي اللصوص" 2002 / وكالة الصحافة العربية - القاهرة

رواية "سنوات كازابلانكا" سنة 2011 / طبعة إلكترونية عن دار أي كتب - لندن

رواية "تحيا الحياة" 2014 / دار مومنت - لندن

قصص "بستان العاشقين" - قصص - 2016 / دار الشؤون الثقافية - بغداد

يوميات " أوكسجين للموتى " 2016 / دار الشؤون الثقافية - بغداد

ونشر قصصه القصيرة ومقالاته الثقافية في مجلات عربية كالآداب البيروتية، والموقف الأدبي السورية، والثقافة العربية الليبية، ومجلات خليجية ثقافية، كمجلة البيان الكويتية.

غادر العراق 1994 وعاش في دول عربية لفترات قصيرة، كالأردن ومصر وتونس، وعمل بعد ذلك في ليبيا كأستاذ في المعهد العالي للمهن الشاملة في جنوب ليبيا منذ 1995 ولغاية 1997 وانتقل بعدها إلى المملكة المغربية، وخلال سنوات إقامته بالمغرب نشر العديد من الأعمال الإبداعية.

. نشر الكاتب عشرات القصص ومئات المقالات والبحوث في الآداب والفنون والفكر في الصحف والمجلات العراقية والعربية.

. قصصه تدرس في كلية الآداب جامعة قار يونس الليبية.

. ترجمت قصصه ومقالاته إلى الانجليزية والروسية والفرنسية .

. صارت روايته الليل والنهار المنشورة عام 1985 مبحثاً لرسالة الدكتوراه في الآداب في جامعة المستنصرية العراقية عام 1987.

. صارت روايته عراقيون أجانب الصادرة عام 1999 مبحثاً لرسالة دكتوراه في الآداب جامعة المستنصرية العراقية عام 2004 .

* أكمل عدة دورات في الاعلام والصحافة ووسائل الطباعة والمنشورات.. في البصرة وبغداد 1980-1984

* عضو اتحاد الأدباء العراقي منذ عام 1984

* عضو نقابة الصحفيين العراقيين منذ عام 1987

* عمل مراسلاً ثقافياً لجريدة الزمان الدولية ولمجلة الزمان - مقرها في بريطانيا للفترة: 1997-2014

* وعمل مراسلاً ثقافياً لجريدة العرب الدولية 2015 إلى 2020.

* عمل مراسلاً ثقافياً للعديد من الجرائد العراقية كالأهالي الأسبوعية والمنارة النصف أسبوعية ومجلة

السينما، وجريدة الصباح، وجريدة العدالة، خلال الفترة: 2005-2011

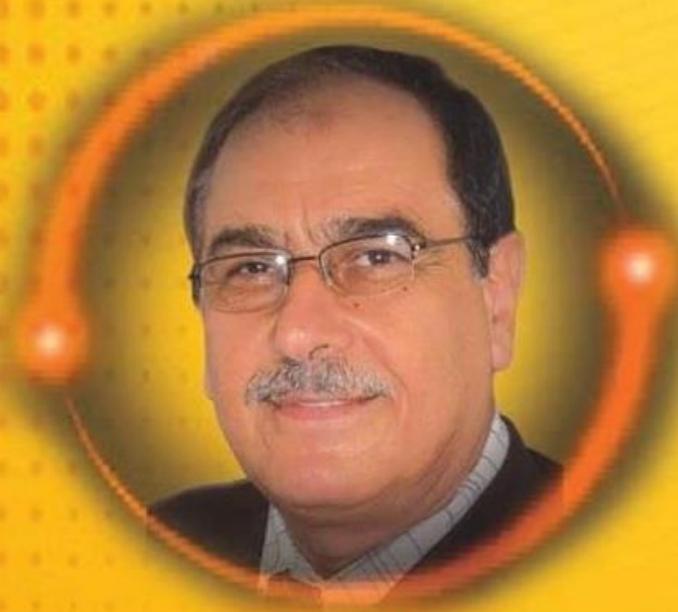
* الكاتب العام لجمعية الرافدين العراقية في المغرب خلال الفترة: 2005-2011

*رئيس فخري للعديد من النوادي الثقافية في المغرب منها منتدى 2100 في الدار البيضاء منذ عام 1998.

* إيميل الكاتب:

faisal53hasan@gmail.com

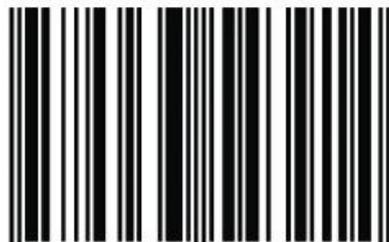
الهاتف: 00212667325931



رواية "الرحلة العجائبية" تحكي ما نعيشه حالياً من أحداث وفتن في وطننا العربي من خلال سيرة بطل يبحث عن العدل والكرامة له ولمجتمعه، مفارقاتها مستقاة من أحداث تاريخية حقيقية حكمت عن الحب والشجاعة والغدر والنفاق الاجتماعي والتضحية من أجل المبادئ من بدايتها حتى نهايتها المأساوية. سيعيش القارئ أحداثها العجائبية، وما دار في العراق والشام في زمن الأمويين من حوادث خلال تلك الحقبة الضاحجة بالمؤامرات والملاهي والفتن والمكابدات، والأسفار من خلال شخصية الهفهاف بن مهند الراسبي المعروف تاريخياً بالشهيد الأخير في معركة الطف التي حدثت على أرض كربلاء سنة 61 هجرية.



ISBN 978-9933-543-91-4



9 789933 543914